الذات المقاوِمة في أَدب الاغتِراب في الرِوايَة الفِلسطينية الحديثة عند سوزان أبو الهوى، وفي نماذج مُختارة، دراسة تحليلية فنيّة

إعداد

بُشرى بشير سيد بشير أحمد

الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا

فبراير 2026م

الذات المقاوِمة في أَدب الاغتِراب في الرِوايَة الفِلسطينية الحديثة عند سوزان أبو الهوى، وفي نماذج مُختارة، دراسة تحليلية فنيّة

إعداد

بُشرى بشير سيد بشير أحمد

بحث مُتطلب مُقدم لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الأدبية العربية

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية عبد الحميد أبو سليمان لمعارف الوحي والعلوم الإنسانية

الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا

فبراير 2026م

ملخص البحث

شكلت السردية الفلسطينية المقاومة الحديثة بمراحلها المختلفة رافدا أساسيا مهما لمجال الأدب العربي، كان دور الرواية الفلسطينية المقاومة فيه جزءا لا يتجزأ، أعادت به طرح القضية الفلسطينية إلى الواجهة ومنحتها حقها في الظهور، عدَّت في الوقت ذاته توثيقا وتأريخا لأهم الأحداث التاريخية والسياسية التي مرت بها، إلى جانب ما تحمله من تخييل يتسع له الجانب السردي في الكتابة، قدمت صورا وافية لمراحل النفوذ العثماني والانتداب البريطاني وترسيخهما لقدوم الاحتلال الإسرائيلي إلى أرض فلسطين، ورصدت الحياة الفلسطينية للمجتمع والأفراد في ظل هذه الأزمنة، وما بعدها، وتسعى الدراسة للتعمق في أحد أهم جوانب السرد الفلسطيني وهي الذات المقاومة، صورها، البيئة التي شكلت نواتها المقاومة، وأبرز ملامحها، بعبورها لمجموعة من المراحل المفصلية في التاريخ الفلسطيني، وانتهاءا بنماذج مختارة للسردية الفلسطينية الحديثة، والتي شكلت كذلك سردا اغترابيا تَبعاً لأحوال كُتَّابها الذين غُربوا قسراً، سواء إلى المنفى أو داخل الوطن، بدراسة وصفية تحليلية، عنَت بالنتاج السردي للكاتبة الفلسطينية سوزان أبوالهوى ودراسة أعمالها موضوعيا وفنيا. تنقسم الدراسة إلى ستة مباحث تتضمن مقدمة تعنى بمنهجية وهيكلة أسئلة حول الدراسة، وتعريفا بأهم مصطلحات الدراسة، صورة الذات المقاومة في أحداث ما قبل النكبة الفلسطينية بدراسة نموذجين سرديين يختصان بالمرحلة التاريخية المحددة، صورة الذات الفلسطينية في أحداث ما بعد النكبة بدراسة ثلاثة نماذج روائية، وتشكل صورة الذات المقاومة عند سوزان أبو الهوى بدراسة تضم أعمالها السردية الثلاثة الأولى، ودراستها دراسة فنية، خلصت الدراسة إلى مجموعة من النتائج من أهمها: أن الذات الفلسطينية المقاوِمة في الرواية الفلسطينية الحديثة تشكلت بحضور وعي سرديّ واجه عملية الإقتلاع والتغريب، باستحضار الذاكرة الفردية والجماعية، وتحويل المعاناة إلى خطابٍ مُقاوم. وأظهرت النماذج المدروسة لأحداث ما قبل النكبة وما بعد النكسة تنوعا في تمثلات المقاومة ما بين الفعل الثوريّ المباشر، والثبات الثقافي، وإعادة تعريف الهويَّة في مواجهة الآخر. كما كشفت دراسة أعمال سوزان أبوالهوى عن مركزية البُنية الفنية في ترسيخ خطاب مقاوم عابر للحدود، حيث أسهم توظيف الزمان والمكان والشخصيات والحبكة السردية في إعادة بناء السردية الفلسطينية بوَصفها فعل بقاء ومُواجهة.وأكّدت الدراسة على أن أدب الإغتراب الفلسطيني لم يكتفِ بتسجيل الفقد، بل أعاد إنتاج الذات بوصفها كيانا مُقاوما قادرا على الإستمرار والتجدد.

ABSTRACT

The modern Palestinian resistance narrative, through its various stages, has been a fundamental and essential contributor to the field of Arabic literature. The role of the Palestinian resistance novel has been an integral part of this, bringing the Palestinian cause back to the spotlight and granting it the visibility it deserves. At the same time, it has served as documentation and recording of the most significant historical and political events it has witnessed, alongside the imaginative element allowed by the narrative aspect of writing. The Narratives have provided comprehensive depictions of the phases of Ottoman influence, and British mandate, and their role in establishing the Zionist occupation in Palestine. They have also captured the life of Palestinian society and individuals during these periods and beyond. This study aims to delve into one of the most important aspects of the Palestinian narrative, which is the resistant self, its images, and the environment that formed its core and its features as it passed through several pivotal stages in the Palestinian history. This is examined through selected examples of modern Palestinian narrative that also represents a form of exile literature, reflecting the circumstances of their authors who were forcibly displaced, either to exile or within their homeland. The study follows a descriptive-analytical approach to the novels of Palestinian writer: Susan Abulhawa, examining her narratives thematically and artistically. The study is divided into six chapters, including an introduction that addresses the methodology, structure, and questions of the study, and defines its key terms. It then analyzes the image of the resistant self in the events leading up to the Nakba by examining two narrative models related to that historical period. It further explores the image of the Palestinian self in the events after Nakba through the analysis of three selected Narratives. Additionally, it studies the image of the resistant self in Susan Abulhawa's first three narrative works from an artistic perspective. The study concludes several findings related to its subject matter.

APPROVAL PAGE

The thesis of Bushra Bashir Sayid Bashir Ahmed has been approved by the following:

Rahmah Binti Ahmad H.Osman
Main Supervisor

Asem Shehadeh Ali
Co- Supervisor

Daud Abdul Quadir Elega
External Examiner

Ahmad Shehu Abdussalam
External Examiner

Solehah Yaacob
Internal Examiner

Ismail Hussein Amzat
Chairperson

DECLARATION

I hereby declare that this thesis is the result of my own investigations, except where otherwise stated. I also declared that it has not previously or currently submitted as a whole for any other degrees at IIUM or other institutions.

Bushra Bashir Sayid Bashir Ahmed

Signature: Bushra2026 Date: 5/2/2026

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

إقرار بحقوق الطبع وإثبات مشروعية استخدام الأبحاث غير المنشورة

حقوق الطبع 2026م محفوظة لـ: بُشرى بشير سيد بشير أحمد

الذات المُقاوِمة في أَدب الاغتِراب في الرِوايَة الفِلسطينية الحديثة عند سوزان أبو الهوى، وفي نماذج مُختارة، دراسة تحليلية فنيّة

لا يجوز إعادة إنتاج أو استخدام هذا البحث غير المنشور في أي شكل وبأي صورة (آلية كانت أو إلكترونية أو غيرها) بما في ذلك الاستنساخ أو التسجيل، من دون إذن مكتوب من الباحث إلا في الحالات الآتية:

1- يمكن للآخرين اقتباس أية مادة من هذا البحث غير المنشور في كتابتهم بشرط الاعتراف بفضل صاحب النص المقتبس وتوثيق النص بصورة مناسبة.
2- يكون للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ومكتبتها حق الاستنساخ (بشكل الطبع أو بصورة آلية) لأغراض مؤسساتية وتعليمية، ولكن ليس لأغراض البيع العام.
3- يكون لمكتبة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا حق استخراج نسخ من هذا البحث غير المنشور إذا طلبتها مكتبات الجامعات ومراكز البحوث الأخرى.

أكد هذا الإقرار: بُشرى بشير سيد بشير أحمد

التوقيع: بُشرى2026 التاريخ: 2026/2/5

إلى معركة "طوفان الأقصى"

إلى شُهداء الفكرة المقاوِمة وأكرم قاداتها في تاريخنا الحاضر، إلى أرواحهم الخالدة مَنارةً على طريق الجهاد،

إليك أبا خالد محمد الضيف وأبا إبراهيم يحيى السنوار..

إلى المقاومة الفلسطينية الباسلة، الصامدة، الحُرّة

إلى كتائب عِزّ أُمتنا: كتائب الشهيد عزالدين القسّام، إلى سرايا القدس في غزة الشامخة المهيبة رغم عُنف

الإبادة والمجازر، وقسوة حِصار الاحتلال

إلى ضفة العيّاش وأبطالها: أسود نابلس، أحرار جنين وطولكرم

إليهم في كل أراضي فلسطين المحتلة..

إلى أسرانا المعتقلين في ظلمة سُجون الاحتلال

إلى المرأة الفلسطينية المقاومة، وأمهات الشهداء..

إلى المحاربين من أجل حريّة الإنسان، وخلاصه من كل أشكال العُنف والقهر والظلم

وحقّه في أن يحيا حياة كريمة هانئة في الوطن الذي أحب..

إلى أرواح الشهداء الأحرار..

إلى فلسطين: الواحدة، الكاملة، الحُرَّة.

إلى جنود الله الصادقين المجاهدين في أرضه في كل بقاع العالم..

إلى كل مضطهد في أرضه..

وكلّ مغترب في المنفى..

الشكر والتقدير

الحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. فالشكر لله أولا؛ جَابِرِ الكسرات، مُقلّ العَثرات، لله الذي اعتنى بي وأتمّ عليّ في كل نعمة جميل لطفه وكرمه؛ أما وقد أكرمني الله بإتمام هذا العمل، فإني أتقدم بالشكر وجزيل العرفان..

إلى أول مُعَلِّمين نطقت بين يديهما أول أحرفي ونهلت في أكناف رعايتهما حب العلم وزَادِه، إلى: أبي وأمي.

إلى المقاومة الفلسطينية الحرة، ورجالها الصادقين الثابتين في ميادين القتال، إلى قادتها، وكتّابها، وأدبائها الذين قربوا إلينا عالم فلسطين الحبيبة الذي أُبعد عنا كما أُبعدنا عنه..

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى مشرفيّ الفاضلين: الأستاذة الدكتورة رحمة بنت أحمد الحاج عثمان، والأستاذ الدكتور عاصم شحادة علي، على ما منحوني إيّاه من وقت واهتمام، ونصح وتوجيه وإرشاد لإتمام هذا العمل وإخراجه بصورته النهائية.

كما لا أنسى الشكر الجزيل لأساتذتي الفضلاء بجامعة نزوى: الأستاذ الدكتور سعيد الزبيدي، والدكتور محمد الغزّي والدكتور صلاح الدين بوجاه -رحمه الله-، ومشائخي الكرام بكلية العلوم الشرعية: الشيخ محمد الزيني، والشيخ أشرف النعماني على كرمهما واهتمامهم الدائم بعملي.

والشكر موصول إلى رفاق الدرب الصادقين، الذين ظلوا بالقرب، وآمنوا أن هذا العمل سيرى النور، إلى الأساتذة الأصدقاء: اتسلوم العمري وريّا الرواحي..

وأخيرا إلى كلّ قلب كريم ويدٍ سخيّة ساهمت ولو بتخفيف همّ في طريق إنجاز هذا العمل.

فهرس محتويات البحث

ملخص البحث ..... ب
ملخص البحث بالإنجليزية ..... ج
صفحة القبول ..... د
صفحة التصريح ..... هـ
صفحة الإقرار ..... و
الإهداء ..... ز
الشكر والتقدير ..... ح
فهرس محتويات البحث ..... ط

الفصل الأول: خطة البحث وهيكله العام 1
مقدمة 1
مشكلة البحث 5
أسئلة الدراسة 6
أهداف البحث 7
أهمية البحث 7
حدود البحث 8
منهج البحث 8
الدراسات السابقة 9

الفصل الثاني: مصطلحات ومفاهيم 40
المبحث الأول: الذات في اللغة والاصطلاح 40
المبحث الثاني: المقاومة في اللغة والاصطلاح 51

المبحث الثالث: الاغتراب في اللغة والاصطلاح 59

الفصل الثالث: صورة الذات المقاومة في أحداث ما قبل النكبة في الرواية الفلسطينية الحديثة (نماذج مختارة) 70

المبحث الأول: الثورة الفلسطينية الكُبرى وأحداث ما قبل النكبة (زمن الخيول البيضاء) 71

المبحث الثاني: الاقتلاع القسري: درب النزوح والشتات (أنين القصب) 91

الفصل الرابع: صورة الذات المقاومة في أحداث ما بعد النكسة في الرواية الفلسطينية الحديثة (نماذج مختارة) 105

المبحث الأول: ثبات الذات الفلسطينية المقاومة (الشوك والقرنفل) 106

المبحث الثاني: الذات المقاومة وصورة الآخر (الصبَّار) 128

المبحث الثالث: الاغتراب والشتات (رأيت رام الله) 140

الفصل الخامس: الذات المُقاومة والاغتراب في أعمال سوزان أبو الهوى 163

المبحث الأول: سوزان أبو الهوى، حياتها وإسهاماتها في الأدب الفلسطيني 163

المبحث الثاني: الذات المقاومة والاغتراب في رواية "بينما ينام العالم" 166

المبحث الثالث: الذات المقاومة والاغتراب في رواية "الأزرق بين السماء والماء" 190

المبحث الرابع: الذات المُقاومة والاغتراب في رواية "ضد عالم بلا حب": 204

الفصل السادس: البُنية الفنية في أعمال سوزان أبو الهوى 225

المبحث الأول: المعطيات التاريخية ودورها في رسم الأحداث 226

المبحث الثاني: الزمان والمكان 236

المبحث الثالث: الشخصيات 261

المبحث الرابع: الحبكة الفنية 274

المبحث الخامس: الرؤية السردية 280

الخاتمة **294**
النتائج: 295

قائمة المصادر والمراجع **299**
أولا: الكتب 299
ثانيا: أطروحات الدكتوراه..... 307
ثالثا: رسائل الماجستير 307
رابعا: المقالات العلمية والمراجع الإلكترونية 309
خامسا: المراجع الأجنبية 314

الفصل الأول
خطة البحث وهيكله العام

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

تعد نكبة 1948م وما تبعها من أحداث أليمة، خاصةً نكسة 1967م، التي أَلَمَّت بالشعب الفلسطيني بشكل خاص والشعوب العربية بشكل عام، من أشد الصدمات التي أثرت على الواقع العربي الثقافي والأدبي في العصر الحديث؛ حيث استفاق الجميع من غفلته على واقع مرير، بدأ فيه العدو الصهيوني العمل على استلاب الأرض الفلسطينية، لتتفاقم الأزمة بعدها وتصل إلى تهجير أبناء الشعب الفلسطيني، ونهب ما تبقى من أراضيهم عنوةً، فكانت سنة 1948م كارثة كاملةً بالنسبة للوجدان العربي، شكلت هزيمةً واضحة وسحقاً للمشاعر الثورية التي كانت تملأ قلبه[1].

من هذا الوضع الإنساني المشحون وولادة الغربة الفلسطينية والنفي، تولدت مشاعر الاغتراب والاحساس بالضياع والهزيمة والتشرد لدى الإنسان الفلسطيني والعربي، والتي أثَّرت بدورها على المبدع، فتلونت قريحته الإبداعية بسمات وخصائص جديدة، لعل أبرزها تلك التي تمثلت في المشاعر الثورية الغاضبة، الأمر الذي امتد حتى غدت هناك حركة مُقاوِمة على الصعيد الثقافي، تواكب في قوتها المقاومة المسلحة، فجاءت الرواية والآداب الأخرى لتناقش هذا الوضع المأساوي، وتقف أمام حالة الاغتراب، والنفي التي تعرض لها الغالبية الكبرى من أبناء الوطن المحتل، فظهر ذلك مبكراً في الكتابات الأدبية ل"غسان كنفاني"، حيث اكتسبت نزعة المقاومة أهميتها، وتأثيرها في مجال الأدب عامة؛ نظراً لأن "الأدب كأدب هو في ذاته نشاط إنساني يقاوم عوامل الضعف والخور التي قد تلمّ بالنفس البشرية في لحظات الانكسار"[2]، "فأدب المُقاومة لا يقتصر على ما يسمى بالأدب الشعبي، ولا يقتصر على ما يُسمّى بالأدب الوطني، لأن المُقاومة أرحب من أن تنحصر في هذه الدائرة المغلقة أو تلك،

---

[1] انظر: رجاء النقاش، **محمود درويش: شاعر الأرض المحتلة**، (القاهرة: دار الهلال، ط2، 1971م)، ص72.

[2] انظر: غالي شكري، **أدب المقاومة**، (القاهرة: دار المعارف، 1970م)، ص7.

وإذا أضفنا أن الأدب في ذاته بدأ تاريخه نشاطا مُقاوِماً تأكد لنا أن دور الأدب في الحياة أكبر من أن ينكره أحد، وتأكد لنا أن هذا الدور هو توليد الصراع في نفس الإنسان إذا خلت منه، وتجديد حسّ المُقاومة إذا كان هذا الحس قد خبا مع الأيام"[3].

إن مَن يدقق النظر يجد أن الرواية في العصر الحديث قد ألَمَّت بموضوع الشتات الفلسطيني بشكل كبير، نظراً لما يتاح للرواية من مساحة في الحكي ووصف للشخصيات والأحداث، في حين أن الشعر– وإن جاهد في ذلك المضمار–يبقى ملزما ببناء وإطار خاص لا يخرج عنه إلا لحدٍ ثابت ومعين، كما قدمت الروايةُ الشخصية بوصفها شكلاً ونموذجاً للمقاومة، وتعددت بمرور الوقت الشخصيات، وفقاً لرؤية المبدع من ناحية وتغيرات الواقع من ناحية أخرى، فلم تعد هناك صورة نمطية واحدة للذات المقاومة، بل تعددت الصور التي حملت عبء القضية الفلسطينية، وعبّرت عن حالة الضياع، والتشرد التي يعايشها أبناء الوطن المحتل.

مما سبق جاءت فكرة هذه الدراسة: "الذَّات المُقاوِمَة في أَدب الاغتِراب في الرواية الفلسطينية الحديثة عند سوزان أبو الهوى"، ومن أسباب اختيار الباحثة لهذه الدراسة أنها تُعنَى بدراسة التحولات التي طرأت على الذات الفلسطينية المُقاوِمة في ظل عوامل الاغتراب وما أسهم في تقوية حسّ المقاومة لديها، وذلك من خلال أدب الاغتراب الفلسطيني الحديث، وبشكل خاص في ميدان الرواية، مع الأخذ في الاعتبار بأن الأدب الفلسطيني الحديث عبّر غالبه عن الاغتراب، إذ نشأ في وجود الاحتلال وتحت بصره، وعبّر في الوقت ذاته عن شعب مطارد ومستلب الأرض، إضافة إلى ما تعرض له المبدع ذاته من ألوان الاغتراب الذاتي والجسدي، ما بين السجن والطرد والنفي.

فتظهر آثار الاغتراب على أرض أخرى حيث هُجِّر أغلب الأدباء إلى خارج أرضهم وحُكِم عليهم بالبقاء في الخارج؛ فنتج عن ذلك أن طغت على أعمال الأدباء مشاعر الشوق والحنين لوطنهم، فبثّوا لوعتهم وتغنّوا بأيامه الخوالي، حباً في العودة واستمرارا في مقاومة العدو الذي تسبب بنفيهم، وحنيناً إلى الذكريات الأولى هناك، فظهر التعلق الشديد للفلسطيني

[3] غالي شكري، **أدب المُقاومة**، ص16.

بوطنه وممتلكاته، وتمسك بقضيته ودافع عنها في أدبه، ليظهر ما يمكن تسميته بسرد المنفى، فأظهرت المنجزات الروائية الفلسطينية مزيداً من الجوانب السياسية خاصة عند مبدعي المنفى والاغتراب، الذين حملوا قضيتهم معهم وعبّر إبداعهم عن كنهها؛ فظهر لنا غسان كنفاني، وقد هاجر إلى دمشق وبيروت التي اغتيل فيها، كذلك جبرا إبراهيم جبرا في العراق، وسحر خليفة، وعزمي بشارة، وفدوى فؤاد وغيرهم، حيث لعب سرد المنفى الدور الأكبر في التعبير عن الذات المقاومة وتعضيدها، وفكرة التحريض والتثوير دعما للقضية ودفاعا عنها، ودفاعا عن فكرة الوطن الفلسطيني والانتماء[4].

انطلاقا من هذه الإشارات يظل معنى المقاومة في العمل الروائي الفلسطيني عملا ملازما –تقريبا– لكل روائي، ويقوم التشكيل الروائي –في مجمله– عن كشف ملامح المنفى والتغريب، ومن ثم تكوين ما يسمى –إن جاز ذلك– بالرواية المُقاوِمة، التي استجابت لرغبات الفلسطينيين وكشفت عن محنتهم، وأسست ما يسمى بأدب النكبة أو الشتات، أو أدب العودة، أو المنفى.

تتسم أعمالُ المقاومة بنوع خاص من المشاعر الذاتية، إذ إنها أعمال جاءت نتيجة مأساة حقيقية، وخرجت وسط عواصف شديدة، ومن ثم لمست مشاعر القراء؛ حيث أنها خرجت من الواقع واتّجهت إليه في آن معاً. ومن تلك الأعمال المليئة بالاغتراب الذاتي، والتي تشي بحجم الفاجعة وتصفها بدقة، أعمال الكاتبة "سوزان أبو الهوى"، والتي ظهرت في روايتيها: الأولى"بينما ينام العالم". وهو عمل تُرجم عن اللغة الانجليزية.

---

[4] انظر: السيد نجم، **سرد المنفى في الرواية الفلسطينية، فدوى فؤاد نموذجا: قراءة في رواية غواية الحرب**، موقع نقطة وأول السطر ثقافي سياسي فكري، موقع إلكتروني: https://noqta.info/page-118216-ar.html، تاريخ الدخول: 2019/7/24م.

كُتبت رواية "**بينما ينام العالم**" باللغة الإنجليزية وصدرت في الولايات المتحدة الأمريكية عام 2010م تحت عنوان: "Mornings in Jenin"، وترجمت إلى اللغة العربية عام 2012م من قِبل سامية شنان تميمي، وصدرت عن دار بلومزبري- مؤسسة قطر للنشر[5].

يقوم العمل الروائي بوصف لتاريخ معاناة عائلة فلسطينية عبر أجيال مختلفة في مخيم جنين للاجئين، مرتبطا بتطورات أحداث الصراع في الشرق الأوسط. وتناولت في متنها السردي حكاية أربعة أجيال من عائلة فلسطينية هي "عائلة أبو الهيجا" والتي تقطن قرية فلسطينية هي "عين حوض"، وتقع شرق حيفا، ويمتد زمنها من عام 1941م لينتهي في عام 2002م بمجزرة جنين، مروراً بأحداث النكبة عام 1948م، والنكسة عام 1967م، كذلك تشير الأحداث إلى منظمة التحرير الفلسطينية، وصور الانتفاضة داخل الأراضي المحتلة. فضلا عن سردية اللغة التي تظهر شعريتها من مأساة السرد، وحبكتها الفنية التي تكشف قدرة المبدعة على الصياغة الفنية التي توقظ ضمير المتلقي وتحرك كيانه ووجدانه، وتعدّ الرواية واحدة من المنجزات الإبداعية الفلسطينية التي تكشف -بشكل واقعي- التغريب الفلسطيني وصور المقاومة من ناحية، ومن ناحية أخرى تستشرف الآمال، كما تصدرت هذه الرواية قائمة الكتب الأكثر مبيعاً عالمياً، ونالت الكثير من الإشادة لصدقها ووصفها الحقيقي للوضع الفلسطيني، وانتُقِدَت لكونها متحيزة لجانب واحد ضد الاستعمار الصهيوني[6].

أمّا روايتها الثانية: "**الأزرق بين السماء والماء**"، ترجمة: محمد عصفور، الصادرة عن دار جامعة حمد بن خليفة للنشر[7]، تتناول أيضاً ملحمة عائلية، ولكن مسرح الأحداث هذه المرة هو "مُخيم النصيرات" للاجئين الفلسطينيين في غزة، حيث تتركز الأحداث حول عائلة بركة التي اضطرت مع عائلات أخرى للهروب من قرية بيت دراس في عام 1948م. تبدأ

---

[5] سمير حاج، **"بينما ينام العالم" لسوزان أبو الهوى: رواية المنفى الفلسطينيّ في عيون جيل ما بعد النكبة**، موقع القدس العربي، مقال نشر بتاريخ 21 ابريل 2017م، موقع القدس العربي، موقع إلكتروني: https://www.alquds.co.uk/بينما-ينام-العالم-لسوزان-أبو-الهوى، تاريخ الدخول: 2019/7/24م.

[6] بلال رمضان، **"بينما ينام العالم" رواية تتبع رحلة أربعة أجيال فلسطينية**، موقع صفحة اليوم السابع، بلال رمضان، الأحد 19 أغسطس 2012: https://www.youm7.com/story/2012/8/19/بينما-ينام-العالم-رواية-تتبع-رحلة-أربعة-أجيال-فلسطينية/761102 تاريخ الدخول: 2019/7/5م.

[7] موقع إلكتروني: https://www.goodreads.com/da/book/show/40036740، تاريخ الدخول 2019/7/24م.

الرواية بوصف العالم المثالي أثناء الانتداب البريطاني، عندما كان جيل الأجداد في عمر الشباب. وبعدها تتناول الرواية تاريخ المعاناة لهذه العائلة، وهكذا تبقى رواية "الأزرق بين السماء والماء" مثيرة مدهشة، تكشف معاناة الفلسطيني وأسرته، وتظل مشحونة بتقلبات الحياة وتشتعل لغتها بنيران المداهمة والاحتلال في إحساس مفعم وحبكة فنية آسرة.

عاشت سوزان أبو الهوى أغلب حياتها في الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أنها لم تنسَ يوما أصولها الممتدة لموطنها فلسطين، وتجسدت لديها مشاعر فياضة تشي بحب هذا الوطن والإحساس بفقده والشوق إليه، كل ذلك أسهم في خروج عملها عن تجربة حقيقية مليئة بالاغتراب والطرد والحنين إلى الوطن المستلب، ليظهر هذا جلياً في روايتيها، لذلك ارتأت الباحثة أن تكون الروايتان مصدراً لهذه الدراسة، نظراً لما تتميزان به من حبكة فنية، وأسلوب فني متميز، وما تجسدانه من مشاعر اللوعة والاغتراب، إضافة إلى بروز الذات المقاومة، وما صاحبها من تشكلات عدة.

مشكلة البحث

شكّلت القضية الفلسطينية منذ النكبة وما تلاها من أحداث حرب النكسة والاغتراب طويل الأمد في المنفى، بؤرة مركزية في السرد الالروائي الفلسطيني، فلم تقتصر الكتابة الروائية على توثيق الحدث التاريخي، بل تجاوزته إلى مُساءلة أثره العميق في تشكّل الذات الفلسطينية وتشبثها بالعمل المقاوم كحل أول وأخير لتحقيق حلم العودة واسترداد الوطن، ولاسيما في سياق الاغتراب القسري وفُقدان المكان.

وانطلاقا من ذلك تبرز إشكالية هذه الدراسة في الكشف عن كيفية تمثل الذات المقاومة في أدب الاغتراب في الرواية الفلسطينية الحديثة، ورصد تحولاتها النفسية والسردية عبر مراحل التاريخ المختلفة التي عبرتها من أحداث ما قبل النكبة، ومرورا بمرحلة التهجير والنزوح وتداعياته، وصولا إلى ما بعد النكسة والمنفى الممتد في الداخل والخارج.

وتسعى الدراسة إلى مُسائلة الكيفية التي يتداخل فيها الاغتراب بوصفه تجربة وجودية ونفسية مع فعل المقاومة، لا باعتبارهم مفهومين متقابلين، بل باعتبار حالة الاغتراب أحيانا شرطالإعادة تشكّل الذات المقاومة في النص السردي.

وتركز الدراسة، على عدد من الأعمال السردية لعدد من الكُتاب المغتربين، وعلى نحو خاص، على الأعمال السردية للكاتبة سوزان أبوالهوى، بوصفها نموذجا لتمثيل الذات الفلسطينية في المنفى، حيث تتجلى المقاومة عبر الذاكرة، ومن خلال السرد، واستعادة التاريخ، وبناء الهويَّة، ضمن بُنية فنية تتكئ على مُعطيات تاريخية وسردية أسهمت في رسم الزمان والمكان، وتشكيل الشخصيات، وبناء الحبكة، وتحديد الرؤية السردية.

ومنها تتحدد إشكالية البحث في السؤال المركزي الآتي: كيف تشكلت صورة الذات المقاومة في أدب الاغتراب في الرواية الفلسطينية الحديثة؟ وما الآليات السردية والفنية التي أسهمت في تمثيلها من خلال النماذج المختارة للرواة الفلسطينيين المغتربين سواءا في الداخل الفلسطيني أم في دول الشتات، لا سيما في أعمال الكاتبة سوزان أبوالهوى؟

أسئلة الدراسة

يحاول البحث الإجابة عن مجموعة من التساؤلات، وهي:

1. ما مفهوم المقاومة والاغتراب والذّات في الرواية الفلسطينية الحديثة؟
2. كيف تجلت صورة الذات المقاومة في أحداث ما قبل النكبة وما بعدها في الرواية الفلسطينية الحديثة؟
3. ما هي ملامح التحول في صورة الذات الفلسطينية المقاومة بعد حرب النكسة وفي ظل الاغتراب في الرواية الفلسطينية الحديثة؟
4. كيف أسهمت تجربة الاغتراب في إعادة تشكيل مفهوم المقاومة داخل النص الروائي؟
5. ما هي صورة الآخر في الرواية الفلسطينية الحديثة؟ وما علاقتها بتشكل الذات المقاومة؟
6. كيف وظفت سوزان أبوالهوى المعطيات التاريخية والذاكرة في بناء ذات فلسطينية مُقاومة داخل المنفى؟
7. ما أهم الخصائصالفنية والسردية التي أسهمت في إبراز هذه الذات في أعمال الكاتبة الروائية؟

أهداف البحث

تسعى الدراسة لتحقيق جملة من الأهداف، ويمكن إجمالها وتلخيصها فيما يأتي:

1. توضيح وشرح مفهوم المقاومة والاغتراب والذّات في الرواية الفلسطينية الحديثة.
2. إبراز ملامح الذات المقاومة في الرواية الفلسطينية الحديثة ضمن سياق الاغتراب.
3. تتبع تحوّلات صورة الذات الفلسطينية عبر المراحل التاريخية المختلفةقبل النكبة وبعدها.
4. بيان تشكلات الذات المقاومة، في نماذج مُختارة، وعند سوزان أبو الهوى من خلال أعمالها السرديَّة: "بينما ينام العالم"، و"الأزرق بين السماء والماء" و"ضد عالم بلا حُب".
5. الوقوف على الخصائص الفنيَّة والسردية التي أسهمت في إبراز صورة الذات المقاومة لا سيما في أعمال سوزان أبو الهوى من خلال أعمالها: "بينما ينام العالم"، و"الأزرق بين السماء والماء" و"ضد عالم بلا حُب".
6. إبراز أهمية السرد الفلسطيني الروائي الحديث في حفظ الذاكرة الفلسطينية الجماعية ومقاومة التهويد والتهميش.

أهمية البحث

تبرز أهمية البحث في النقاط الآتية:

1. كشف العوامل التي أسهمت في تكوين الذات المُقاوِمة في أدب الاغتراب في الرواية الفلسطينية الحديثة.
2. تتناول الدراسة زاوية جديدة تتعلق بالذات المقاومة في الرواية الفلسطينية، بدلاً من تناول أدب المقاومة بشكل عام، نظراً لكونه موضوعاً شائعاً قد دُرس من قبل.
3. محاولة رصد الذات المقاومة بشكل أدق، وذلك من خلال الربط بين الإبداع الفني والظاهرة الاجتماعية التي كانت سبباً في بروز هذا الإبداع.

4. وقوفه تحليليا أمام عدة نماذج لأدباء مغتربين، والأعمال السرديَّة للكاتبة سوزان أبو الهوى، كنماذج من الأدب الفلسطيني الحديث، والتي لا تزال بحاجة إلى دراسة معمقة تكشف ما بها من دلالات وآثار فنية تجلت من خلال الكشف عن مواطن الذات المقاومة.
5. محاولة الربط بين تأثير الاغتراب والشتات والمنفى في الداخل الفلسطيني المحتل وفي الشتات، على المبدع وإبداعه، والذي يخرج مدفوعاً بتلك المشاعر القوية والمليئة بالغربة والإحساس بالضياع والتشتت.

حدود البحث

تأتي حدود الدراسة ضمن إطار موضوعي وزماني ونصيّ، إذ تقتصر على دراسة تمثلات الذات المقاومة في أدب الاغتراب في الرواية الفلسطينية الحديثة من خلال نماذج سردية مُختارة، تمثل مراحلا تاريخية مفصلية في التجربة الفلسطينية، بدءا من أحداث ما قبل النكبة ومرورا بمرحلة التهجير القسري والنزوح، وصولا إلى مرحلة ما بعد النكسة والمنفى.
كما تقف الدراسة نصيا على عدد من الأعمال الروائية المحددة لكل مرحلة، دون التوسع في مجمل الإنتاج الروائي الفلسطيني، وذلك بهدف تحقيق عُمق التحليل السردي والفني، مع الإفادة من الأبعاد التاريخية والنفسية في حدود ما يخدم التحليل السردي، دون الخوض في التفصيلات السياسية أو التاريخية الخارجة عن نطاق البحث، مع التركيز على أثر المنفى والاغتراب في تشكيل الذات.

منهج البحث

اعتمدت هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الفني، لما يتيحهمن إمكانات في مُقاربة النصوص الروائية مقاربة علمية تقوم على وصف الظواهر السردية وتحليلها في ضوء سياقاتها الفنية والدلالية ، ويُسهم هذا المنهج في الكشف عن تمثلات الذات المقاومة داخل أدب الاغتراب، من خلال تتبع البنية السردية للنصوص، وتحليل الشخصيات، والزمان والمكان، والرؤية السردية، بما يسمح بفهم أعمق للتحولات النفسية والفكرية التي تمر بها

الذات الفلسطينية داخل المتن الروائي، كما يتيح المنهج المعتمد الربط بين النص الروائي وسياقه التاريخي والإنساني دون الوقوع في التفسير الخارجي، أو الخطاب التوثيقي، مُحافظا على مركزية النص بوصفه مادة التحليل الأساسية ، ومبرزا الدور الفني للسرد في تمثيل المقاومة والاغتراب بوصفهما تجربتين متداخلتين في العمل الأدبي.

فمن أجل التوصل إلى النتائج المطلوبة اعتمدت الباحثة المناهج الآتية:

1. **المنهج الوصفي**: يتعلق بوصف أحداث العمل الروائي، وأحداثها وشخصياتها وجوانبها الفنية.
2. **المنهج التحليلي**: حيث تقوم الباحثة بتتبع النصوص الروائية الدالة على ثبات الحركة الفلسطينية في الذات المقاوِمة في جانب الاغتراب في العملين الروائيين.
3. **المنهج الفني**: تقوم الباحثة بتتبع الظواهر الفنّية البارزة في العملين الروائيين كالحبكة الفنية، والزمان والمكان، والحوار والسرد التلقائي، والشخصيات، لأحداث التاريخية بهدف التوصل إلى نتائج البحث.

ومن ثم فإن هذا المنهج يُعد مناسبا لطبيعة الدراسة؛ فهو يجمع بين الوصف الدقيق للنصوص وتحليلها الفني، بما يتيح مقاربة أدب الاغتراب من منظور نقدي يوازن بين البعد الجمالي والبعد الدلالي،دون إغفال لخصوصية التجربة الفلسطينية، وربط تشكلات الذات المقاومة في أدب الاغتراب الفلسطيني، بالتغيرات الاجتماعية الناشئة بتعاقب الأحداث التاريخية، وما أكسبته تلك التغييرات من تحولات في الظاهرة الأدبية وما نتج عن ذلك من ظواهر جديدة في (فن السرد الروائي) عامة، وعند سوزان أبو الهوى خاصة.

الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات السابقة التي تشكل مراجع مهمة تعود إليها الباحثة حول أدب المقاومة الفلسطينية، وأدب الاغتراب، والرواية الفلسطينية الحديثة ومناهجها المختلفة، ولعل أهم هذه الدراسات:

تطور الرواية العربية في فلسطين 1948–2009م[8] للباحثة جهينة عمر الخطيب

تتناول الدراسة بالتحليل حركة الرواية في فلسطين بعد عام 1948م، على نحو يجمع بين التتبع التاريخي الدقيق والتحليل النقدي، كما تجمع بين استعراض هذه النصوص الروائية وقراءتها على نحو منهجيّ، تتبع ما ينطوي عليها من مظاهر كثيرة تتصل بالهوية والصراع على سرديتين في قراءة جادة للنصوص التي تسد فراغا في المكتبة العربية، وتعد دراسة تأسيسية تضع القواعد لدراسات نقدية قادمة كما يشير إلى ذلك الدكتور خليل الشيخ أستاذ الأدب المقارن، ورئيس قسم جامعة اليرموك في الأردن.[9] هذه الدراسة على اتساعها وعمق التحليل للرواية الفلسطينية فيها، إلا أنها لم تتبع أثر المقاومة الفلسطينية الأدبية في أدب الاغتراب، ولم تتناول كذلك بالدراسة أياً من أعمال سوزان أبو الهوى.

الذات المروية على لسان الأنا، دراسة في نماذج من الرواية العربية[10]، للباحثة منال عبد العزيز العيسى.

تسعى الدراسة إلى البحث في صور الذات المروية على لسان الأنا، من خلال نماذج مختارة من الرواية العربية، الذات التي تبرز من خلال الأعمال الأدبية بهدف التعرف عليها من حيث أنها ذات، ومن حيث وظيفتها، وهي لا لكونها تحيل إلى رواية السير ذاتية أو إلى سيرة ذاتية، توصلت من خلالها الباحثة من خلالها لبروز ملامح خاصة بالرواية العربية فيما يمكن أن يُسمى برواية الذات، سواء على مستوى الثيمة الأنوية، أم على مستوى التشكيل الفني الناطق بالأنوية في تفاصيله، إلى جانب أن الروايات التي برزت فيها الذات كثيمة شهدت حركة تصاعدية من حيث الكم في الفترة الزمنية المتأخرة، فهي في تصاعد من الندرة إلى

---

[8] انظر: جهينة عمر الخطيب، **تطور الرواية العربية في فلسطين 1948–2009م**، رسالة دكتوراه، من الموقع الإلكتروني: https://www.researchgate.net/publication/327477459 تاريخ التصفح الأخير: 2019/7/5م.

[9] انظر: المرجع نفسه، مقدمة الدراسة، ص9.

[10] منال عبدالعزيز العيسى، **الذات المروية على لسان الأنا دراسة في نماذج من الرواية العربية**، (أطروحة دكتوراه، جامعة الملك سعود، كلية الدراسات العليا، قسم اللغة العربية، 2020م).

الكثرة مما يجعلها ترقى إلى مجال الاهتمام بدراستها والوقوف على تنوع ملامحها كما تبدت في نماذج من الرواية العربية.

اختصت الدراسة السابقة بتتبع ملامح الذات المروية بصيغة الأنا، وتختلف الدراسة الحالية عنها في تتبع صور الذات الفلسطينية المقاومة من خلال نتاج أدب الاغتراب الفلسطيني الحديث في الأعمال الروائية للكاتبة سوزان أبوالهوى ونماذج معينة، في اعتمدت الباحثة على نماذج متنوعة من الرواية التي تغطي معظم البلاد العربية، وقد أفادت الدراسة الحالية في العودة إلى التنوع اللغوي والإصطلاحي لمصطلح الذات وبعض المصادر المشار إليها من خلال الدراسة، ومظاهر علاقتها بالزمان والمكان وبعض من تجليات الذات الثورية والوطنية.

Representations of Home from the Setting of Exile Novels by Arab Migrant Writers [11]

تمثلات صورة الوطن من موضع المنفى، دراسة في أعمال روائية لمجموعة من الكُتَّاب العرب المُهاجرين.

تسعى الدراسة للتعرف عن قرب على معنى الوطن من خلال المصطلحات المقدمة أدبيا ومجازيا ضمن روايات لكُتَّاب مُغتربين من أصول عربية، والتعرف على مفهوم الوطن، الذي يحتمل عدة مراجع: شكلية معمارية، أو ثقافية حضارية، أو أسماء مدن أو معانٍ للانتماء حيث يتخذ معنى الوطن لهؤلاء الكُتَّاب شكلا يطابق نتيجة التفاعل بين الماضي والحاضر مع حضور الذاكرة بشكل فعَّال، وتداخلها مع الخبرات الشخصية والوطنية. تناقش الدراسة مجموعة من الأعمال الروائية لكُتَّاب أُجبروا على ترك أوطانهم، الأوطان التي لم يعد بالإمكان الإشارة إليها من خلال مفهوم واحد أو صورة واحدة ثابتة. وتتحذ الدراسة موضعا ضمن الإطار النظري لكتابات ما بعد الاستعمار، ومن موقع الاغتراب عن مركزية الوطن كمرجع للهوية، تكشف الدراسة عن مجموعة متنوعة من الأمثلة التوضيحية عن الصور الخيالية المرسومة للوطن، وصور التجربة الوطنية في الروايات، تسلط الدراسة الضوء أيضا على

[11] NAGUIB, Assmaa Mohamed. Representations of 'Home' from the Setting of 'Exile': Novels by Arab Migrant Writers. 2011. https://ore.exeter.ac.uk/repository/handle/10036/3839

الرابط الذي لا ينفصل بين التجربة الشخصية والخبرة السياسية، ومن خلالها لا يمكن عزل الموقف الفكري عن قضايا الوطن والقومية.

الفصل الثاني من الدراسة يتضمن دراسة للعمل الروائي "صباحات في جنين" للكاتبة سوزان أبو الهوى، ومصطلح الوطن وإسقاطاته التاريخية والجغرافية من خلال التجربة الشخصية والسياسية للكاتبة على شخصية آمال، الطريق المرسوم للعودة، ودراسة لأوضاع اللاجئين ومعاناتهم بين الواقع والمرسوم.

كان من أهم ما توصلت إليه الدراسة أنه على الرغم من اختلاف منظور الوطن يختلف من كاتب لآخر، وقد لا يرتبط بالوجود في المكان بالنسبة للكاتب الفلسطيني المغترب، إلا أن النصوص الأدبية أسهمت في البحث عن مفهوم الوطن والوصول إليه من خلال الذكريات المحمولة والمتوارثة عن أحداث النكبة الفلسطينية وما بعدها، والتي خلقت الذاكرة الجمعية الأولى لتجربة الاقتلاع والتهجير وشعر الفلسطيني في الخارج والداخل بالانتماء من خلالها، كما يتضح للباحثة أن العديد من الروائيين الفلسطينيين تبنَّوا مهمة التدوين لحفظ التاريخ والذاكرة الجمعي والقصص الحقيقية عن الماضي من التزوير والنسيان، مع ذلك فإن النصوص التي تطرحها الدراسة ليست نصوصا قومية بالكامل؛ بل هي أعمال تجاوزت حدود وطنها وأصرَّت على تدوين وإعادة طرح التحديات، والعدوان الذي يتعرض له الفلسطينيون مع الاحتلال بشكل متواصل وآثاره من خلال أعمالهم، كما توصلت الباحثة إلى أن إعادة إحياء الذاكرة من خلال عمليات القصّ والرواية المستمرة وتواصل النتاج الأدبي يعمل بشكل مضاد لعمليات التزوير التاريخي ومواجهة المحو والاندثار كما يشكل عدم معرفة الأحداث التاريخية وتواريه عن الأجيال القادمة تهديدا لهذا التاريخ وللذاكرة الفلسطينية الجمعية وماضيها. كان من ضمن نتائج عمليات التهجير القسري والاقتلاع الوصول إلى أدب عالمي يختص بالقضية الفلسطينية وتاريخها وثقافتها مخاطبا الغرب بلغتهم، متمثلا في أعمال روائية لكتاب أمريكيين من أصول فلسطينية كسوزان أبو الهوى ورندا جرار، والتي أضافت إلى النتاج العربي الأمريكي روايات أساسية حول التاريخ الفلسطيني ورحلة البحث عن الوطن في الشتات.

تختص الدراسة السابقة بدراسة صورة الوطن وتعريفاته المتباينة في النتاج السردي لمختلف الكُتَّاب الفلسطينيين من موقع المنفى، ودورهم في الوصول إلى مفهوم للوطن والإسهام في حفظ الذاكرة التاريخية والهويَّة الثقافية، فيما تركز الدراسة الحالية على دراسة صور الذات المقاومة، مُتقاربة معها في دراسة بُعد الاغتراب وأعمال كتَّاب فلسطينيين مغتربين منهم سوزان أبو الهوى وتتوسع الدراسة في دراسة أعمالها الروائية الثلاثة الأولى في ما اقتصرت الدراسة بدراسة العمل الأول للكتابة "صباحات في جنين".

البطل في الرواية الفلسطينية في فلسطين من عام 1993– 2002[12]، للباحث أحمد محمد سليمان بشارات

تأتي الدراسة بهدف تقديم تصور وافٍ عن صورة البطل في الرواية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، والأرض المحتلة عام 1948م، وذلك في المرحلة الممتدة من عام 1993م إلى عام 2002م. وهي المرحلة التي شكّلت منعطفا ظاهراً في حياة الفلسطينيين بوصفها مرحلة سلام، وتمضي الدراسة في منهجيتها على أساس الإفادة من دراسات مشابهة قدمت في هذا الباب، والاعتماد على دراسات مؤسسة في باب الرواية العالمية والعربية، وتحديدا في جانب شخصية البطل منها على وجه الخصوص، ورصد النصوص الروائية الصادرة في فلسطين في المدة التي اتخذتها الدراسة مجالا للبحث، والبحث عن القواسم المشتركة التي تتقاطع عندها معظم نماذج البطولة المقدمة في تلك الروايات، دون اعتماد النضج الفني أساسا في ذلك الاختيار، وكان المنهج الوصفي هو المعتمد في وصف نماذج البطولة في الروايات المختارة. تختلف الدراسة عن الدراسة التي ستتناولها الباحثة فهي تركز بشكل أساسي على صورة البطل الفلسطيني في الرواية، بينما التركيز في الدراسة الحالية يكون منصبا على المقاومة الفلسطينية بوصفها ظاهرة أدبية، وفي مرحلة ما بعد النكبة، وكيف أثرت في أدب الاغتراب، كما تختلف عنها من حيث المنهج التحليلي المتبع. فالدراسة الحالية تعتمد على المنهج الفني والتحليلي في البحث، فضلا عن عدم تطرق الدراسة السابقة لأعمال سوزان أبو الهوى.

---

[12] انظر: أحمد محمد سليمان بشارات، **البطل في الرواية الفلسطينية من عام 1993–2002م**، (رسالة ماجستير غير منشورة، نابلس: جامعة النجاح الوطنية، 2005م).

المقاومة والإرهاب: رؤية تاريخية للحالة الفلسطينية[13]للباحثة: قوس سليمان

تسعى الدراسة إلى البحث فيما إذا كان هناك ثمة تغيرات على قانون: "شرعية كفاح الشعوب في سبيل الاستقلال والسلامة الإقليمية والوحدة الوطنية والتحرر من السيطرة الاستعمارية والأجنبية، ومن التحكم الأجنبي بكل ما تملك هذه الشعوب من وسائل بما في ذلك الكفاح المسلح، وإن كانت هناك تغيرات، فما مدى تأثيرها على حق المقاومة؟، وهل التطورات التاريخية التي مرت بها مسيرة الثورة الفلسطينية، هي التي قادت المقاومة الفلسطينية للتفكير في تعبيد طريق للتفاوض السلمي؟، وتختلف دراسة الكاتب عن دراسة الباحثة في عدم تطرقها لأحداث الاغتراب الفلسطيني، أو دور المقاومة الفلسطينية الأدبية بمختلف أنواعها أو أعمال كبار الأدباء الفلسطينيين، واللاحقين منهم بما فيهم الكاتبة سوزان أبو الهوى.

The Struggle for Identity in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin[14], By: Silem, Nachida, and Naima Hafsa

الصراع من أجل الهويَّة في رواية صباحات في جنين للكاتبة سوزان أبو الهوى، للباحثين: سليم، نشيدة، ونعيمة حفصة.

تهدف الدراسة للتعرف على دور الصدمة والاقتلاع في تجسيد الهويَّة الذاتية والوطنية لدى أبرز الشخصيات في رواية "صباحات في جنين"، ويسعى الباحث من خلال ذلك للتعرف إلى أي حد نجحت الرواية في وصف وتقديم الثقافة والهويَّة الفلسطينية؛ لتحديد ذلك يعتمد الباحث على نظريات من التحليل النفسي ودراسات ما بعد الاستعمار؛ بهدف الوصول إلى تحليل دقيق للحالة النفسية لشخصيات العمل، وتسليط الضوء على اثنين من أهم خلفيات العمل: الصدمة والشتات، واختبار علاقة هذه المفاهيم بمعنى الهويَّة. يطبق الباحث النظريات على أهم الشخصيات في العمل، كما يسعى لتسليط الضوء على أهم

---

[13] انظر: قوس سليمان: **المقاومة، الارهاب، رؤية تاريخية للحياة الفلسطينية**، (رسالة ماجستير، فلسطين: جامعة بيرزيت، 2006م).

[14] Silem, Nachida, and Naima Hafsa. "The Struggle for identity in susan abulhawa's morning in Jenin (2010)." (2017). http://bib.univ-oeb.dz:8080/jspui/bitstream/123456789/3765/1/The%20Struggle%20for%20Identity%20in%20Susan%20Abulhawa%E2%80%99s%20Mornings%20in.pdf

نتاجات الأدب الفلسطيني في أميركا، لفهم معنى الهويَّة من منظور حداثي، حيث تمثل الصدمة والشتات مفتاحا لعدة مفاهيم تشكل معنى الهويَّة الفلسطينية في المنفى، كما تمثل رواية "صباحات في جنين" محاولة لإثبات الهويَّة الفلسطينية في ظل المعاناة والاندثار في الشتات.

يتوصل الباحث إلى عدة نتائج من أهمها: نجحت سوزان أبو الهوى في نقل الصورة الحقيقية للمعاناة والصدمات التي توالت على شعبها، والعديد من التفاصيل مجتمعة أسهمت في تجميع الهويَّة المتشظية للمجتمع الفلسطيني، ودراسة أهم أسبابها: كصدمات الحرب، والاقتلاع التي أثرت بشكل جذري على بنية الهويَّة الشخصية والوطنية للفلسطيني، ولم تكن أقل منها الصدمات التي حملته بعيدا عن قدرة التمسك بالهويَّة في وضع عدم الاستقرار في المنفى، رغم ذلك فقد أكسبت المجتمعات الفلسطينية قوة في العثور على حس الانتماء والاعتزاز به لإعادة ربط الصلة ببعضهم ومع وطنهم الأم فلسطين.

تختص الدراسة السابقة بتتبع حالة الصراع من أجل الهويَّة في أعقاب الصدمة الجمعية والشتات، الصراع الذي يأتي كنتيجة لمواجهة حالة الصدمة والشتات، ودخول الذات في حالة من الاغتراب في محاولتها العثور على الانتماء لجذورها ومحيط الوطن السابق، وخلقت رد فعل من الإصرار على التمسك والإثبات والتعريف بتلك الهويَّة وتاريخها وثقافتها، نتج عنها الأدب الفسطيني المقاوم بمواجهته لتلك التحديات والتهديد المستمر للبقاء، وهو ما تبحث فيه الدراسة الحالية بدراسة عن قرب لملامح الذات المقاومة وصور تشكلها في المختلف من الأعمال السردية في أدب الاغتراب متوسعة بالاطلاع على نماذج سردية أخرى للكاتبة سوزان أبو الهوى.

Plotting the Palestinian Nakba: Family and Identity Displacement in Abulhawa's Mornings in Jenin[15], By: Benattia, Nassima, and Samah Boumakhlouf.

تجسيد النكبة الفلسطينية: تشتيت العائلة والهويَّة في رواية صباحات في جنين لسوزان أبو الهوى، للباحثات: بناتيا، نسيمة، وسماح بومخلوف.

[15] Benattia, Nassima, and Samah Boumakhlouf. *Plotting the Palestinian Nakba: Family and Identity Displacement in Abulhawa's Mornings in Jenin*. Diss. 2020.

تسعى الباحثتان من خلال الدراسة للتعرف على العلاقة بين صدمة ما بعد الحرب والهويَّة الفلسطينية في رواية "صباحات في جنين"، وكيف أثرت آلام المأساة والاقتلاع على النفس البشرية وأسهمت في تشظي هويَّتها، والتعرف على الجهود التي بذلتها الشخصيات الرئيسية في محاولتها لتجاوز صدمات الحرب والفقد في المنفى وأهم الصراعات التي واجهتها في الحفاظ على الهويَّة الفردية والجمعية، من خلال نظريات أدبية ترتبط بالتحليل النفسي، ودراسات ما بعد الاستعمار والشتات، وتبحث الدراسة أسلوبيا وموضوعيا آثار تلك الصدمات، والمشاكل الناتجة عنها وأثرها على بناء العائلة، وكيف عملت الكاتبة على توظيف العديد من التقنيات كالحوار، والصمت، الاتصال بالذاكرة التاريخية، والمقاومة.

اعتمدت الباحثتان رواية "صباحات في جنين" للدراسة أيضا بهدف حماية الذاكرة الفلسطينية عن الغياب، وإدانة جرائم الاحتلال الإسرائيلي واستعلائه على الشعوب التي عمل على احتلال أرضها وتدمير وجودها.

توصلت الباحثتان إلى أنه مع إطلاق مصطلح الشتات على فلسطينيي الداخل كما أُطلق على فلسطينيي الخارج، إلا أن فلسطينيي الشتات في الخارج تعرضوا في العديد من الأحيان لآلام نفسية أشد قساوة من حياة الداخل، وامتدت آثارها على مختلف الأصعدة الشخصية الاجتماعية والثقافية وحملتها الأجيال اللاحقة. تؤكد الباحثتان أن رواية "صباحات في جنين" أعادت تقديم الحقائق التاريخية وترتيب أحداثها، وأعطت الصدارة لصوت المقاومة الفلسطينية أمام رواية المحتل المليئة بالمغالطات والتزوير، وقد مثلت مدينة جنين ومخيماتها رمزا للمقاومة والصمود بخروجها المتكرر من حطام القتل والفقد والتصدي لعدوان الاحتلال، وأعادت بث الأمل لحق العودة، وأسهمت في حفظ الذاكرة التاريخية الجمعية، كما تجد الباحثتان أن التهديد بفقدان الهويَّة في الداخل والخارج يتجسد من خلال شخصية آمال التي تنشأ في المخيم وتنتقل إلى دار الأيتام مع فقدان والديها ورحيل أخيها يوسف، الفقدان المتكرر الذي يلاحق آمال في حياة الابتعاث، وحتى تصفية عائلتها في مجزرة صبرا وشاتيلا، تفصلها في الشتات عن هويَّتها الفلسطينية إلا أن الصدمة الجمعية تسهم في إبقاء الذاكرة في اتصال مع الهويَّة في المخيم والمنفى، كما ظلت ذاكرة آمال حتى العودة إلى جنين.

توصلت الباحثتان كذلك إلى أن سوزان أبو الهوى عملت على إعادة إحياء الذاكرة التاريخية للمكان والزمان الفلسطيني، وشاركت بحفظ ذاكرة العديد من القُرى والمدن وأهم الأحداث التي مرت بها، مستعينة بالعديد من النصوص المقتبسة لكُتَّاب وصحفيين لتبرهن على حقيقة الكارثة التي وقعت بسقوط فلسطين من يد العرب إلى سلطة اليهود، كما تؤكد كتاباتها على أهمية حضور القصة في حفظ التاريخ والحقيقة، والذي يظهر عن طريق العديد من الشخصيات في العمل، كحسن والحاج سالم رواي القصص لأطفال المخيم.

هدفت الدراسة السابقة لتتبع آثار الصدمة والشتات في مرحلة ما بعد النكبة الفلسطينية، وكيف أسهمت تلك الآثار في تهديد الهويَّة الفلسطينية من خلال رواية "صباحات في جنين"، ويظهر أن المنهج المتبع في الدراسة هو منهج التحليل الوصفي على الرغم من عدم تحديده، وهو موافق لمنهج الدراسة الحالية، ومقاربٌ لها في دراسة العمل "صباحات في جنين" كجزء من أدب الاغتراب، مع توسع الدراسة الحالية في دراسة نماذج أخرى لسوزان أبوالهوى وكُتَّاب آخرين، مركزة على تتبع ملالمح وصور الذات الفلسطينية المقاومة.

Cultural Trauma and the formation of Palestinian National Identity In Palestinian-American Writings[16], By: Maeed Almarhabi.

الصدمة الثقافية وتشكل الهويَّة الفلسطينية الوطنية في كتابات فلسطينية–أمريكية، لمعيد المرحبي.

يسعى الباحث للتعمق في معرفة طبيعة العلاقة القائمة بين فلسطينيي الشتات ووطنهم فلسطين، وعلى وجه الخصوص العوامل التي أسهمت في نمو حس الانتماء وبقاءه وسط مجتمعاتهم في الشتات على الرغم من غياب دور السياسة الفلسطينية في الحفاظ على توجهات شعبها في الخارج، كما يسعى للتعرف على الدور الذي لعبته الرواية الفلسطينية في دعم الصلة والحفاظ على الانتساب لفلسطينيي الشتات بوطنهم الأم، وكيف أصبحت أداة هامة في صياغة هويَّتهم خارج الحدود الجغرافية والتاريخية لفلسطين المحتلة كما أعانتهم على الحفاظ على هويَّتهم الوطنية للأجيال اللاحقة، حيث يرى الباحث أن كتابة الشتات

[16] Almarhabi, Maeed. *Cultural Trauma and the Formation of Palestinian National Identity in Palestinian-American Writing*. (Diss. Kent State University, 2020).

الفلسطيني ومن ضمنها كتابات فلسطينيّ أميركا قد وجدت مؤخرا طريقها إلى الرواية الفلسطينية الوطنية، ويرى الباحث أن التوسع وانتشار هذا النوع من الرواية قد أعان على ترسيخ أحداث النكبة الفلسطينية كأهم حدث صادم في التصور الجمعي لأجيال ما بعد النكبة.

يركز الباحث على اثنين من الروايات الفلسطينية الوطنية –من كتابات فلسطينيّي أميركا– ودورهم في الحفاظ على الهويَّة الوطنية الفلسطينية، العمل الأول "صباحات في جنين" للكاتبة سوزان أبو الهوى، يجد الباحث من خلاله أهمية الالتزام بحق العودة، والرواية الثانية "خارطة المنزل" لرندا جرار، حيث يجد الباحث معالم المقاومة بارزة بوضوح، فيما يجد العلاقة بين الذاكرة وبناء الهويَّة الفلسطينية عن طريق بناء سرد وطني بارزة في رواية شاو دلال "مبعثر كالبذور".

كما عملت فكرة السرد عن حق العودة في استمرار ربط فلسطينيي الشتات بفكرة العودة رغم الصعوبات التي تقف عائقة أمامهم، وتحديهم للقوانين الدولية التي أقصت حقهم وآرائهم في العودة. وتكمن أهمية ذلك فيما يشير إليه الباحث من خلال مقولة ل"آيرس سيجر" بأن التخلي عن رواية حق العودة هو ما تعنيه الخسارة الحقيقية، خسارة الوعي، والأمان، والاستسلام للوهم المثالي، واستبداله بواقع الوجود غير المستقر، والقلق بشأن مستقبل غير مؤكد، وهو ما تقاومه الرواية الفلسطينية كذلك باستمرار طرح مواضيع التهجير والنفي والاقتلاع، لتعزز كذلك من تعلق فلسطينيي الأراضي المحتلة في الداخل بمطالبة العودة إلى قراهم ومدنهم الأولى.

من ذلك يتضح للباحث أهمية دراسة الكتابات الفلسطينية الأميركية على غرار كتابات الشتات في الأراضي الأخرى لإبراز الرواية الوطنية الفلسطينية، والنهوض بها كركيزة أساسية في الحفاظ على الهويَّة الوطنية في الشتات.

يُسقط الباحث نظرية الصدمة الثقافية لجيفري آلكسندر على دراسته، والتي تنص على أنها تُلحظ عندما يشعر أعضاء مجتمع ما أنه تم تعريضهم لحادث مروِّع ترك آثارا لا يمكن محوها عن وعي هذه الجماعة، لا تغادر ذاكرتهم، وتغيِّر من هويَّاتهم المستقبلية بطرق مؤكدة غير قابلة للتعافي، وفقا لذلك تُقدَّم أحداث الفاجعة الكبرى بشكل استطرادي حتى

يتم الإدراك إجتماعيا أنها شكلت تهديدا للهويَّة الجمعية، وتتطلب إجراءات معينة لإعادة الحفاظ عليها من أي تهديد مماثل في المستقبل، وكما يرى الباحث فإن الممارسات الخطابية الأدبية المنتجة إجتماعيا بشكل منهجي تتضمن الشعراء والكُتَّاب والمفكرين وغيرهم، تهدف لمواجه مثل تلك التهديدات، والاستمرار بتكوين وعي عن خطورتها، وعن القوى الداعمة لها وعملاءها، وتحديد أسبابها، ونتائجها.

الكتاب الفلسطنيون الأمريكيون الذين يشكلون جزءا هاما في حمل المسؤولية الوطنية، فحملوا على عاتقهم أمانة إيصال صوت الحقيقة عن طريق هذه الأعمال الوطنية، والعديد من القضايا الوطنية كحق العودة والمقاومة والاقتلاع إلى أبناء شعبهم، إضافة إلى ما تمثله من فرصة لإعادة كتابة تاريخ النكبة الفلسطينية وتوثيق أحداثها وتصحيح العديد من المفاهيم الخاطئة. يتوصل الباحث إلى أن الروايات الفلسطنية الوطنية غالبا ما تتضمن بُعد المقاومة الذي نجح في الحفاظ على الهويَّة والثقافة والذاكرة الفلسطينية، ومعها الأبعاد الثقافية الأخرى كالتعريف بالنباتات الأصيلة، والملابس التقليدية، والطعام ونقله إلى الأجيال التي نشأت بعيدا عن ثقافتها وموطنها الأصلي، ويجد الباحث أن أهم أولئك الكتاب أمثال إدوارد سعيد، ونعومي ناي، وليزا ماجاج، رندا جرار، وسوزان أبو الهوى قدموا أهم تلك الكتابات في تأمل وتبنِّي الروايات الوطنية الفلسطينية، وعكست ارتباطا قويا مع المقاومة، وإيقاظ الأمل لدى الفلسطينيين اللاجئين بتعجيل عودة جماعية لوطنهم الأم فلسطين.

كما يجد الباحث أن كتابات سوزان أبو الهوى تأتي ممثلة لتلك الغايات: حق العودة، والمقاومة، والحفاظ على الهويَّة الوطنية في أرض الشتات، وما يواجه هذه الهويَّة من مشكلات وتحديات في استمراريتها لدى الفرد الفلسطيني في المنفى، وفي حفاظه على الاتصال بالوطن، وما يلاحقه من شعور بالاقتلاع وعدم التجذر في أرض الآباء الذي يواجه أبناء فلسطينيي في الشتات، وما يواجهه العديد منهم باستمرار من تهديد البقاء من قبل الاحتلال.

ويتضح للباحث أن قلق المنفى يبرز واضحا من خلال العمل لدى الشخصيات التي تعرضت للتهجير القسري، والاقتلاع، أو اضطرت إلى المغادرة، والفرار، واستحال عليها الرجوع.

كما يتوصل إلى أن العديد من الكتاب الفلسطينيين الأميركيين يغلب عليهم عدم الانحياز إلى السلطة الذكورية من خلال أعمالهم الأدبية الروائية، فلا يخشون من إعطاء شخصية المرأة دورها البطلولي كشخصية تعتمد على ذاتها وتتحدى عقبات المجتمع والاحتلال في اختيارها الذاتي لدرب المقاومة، واسترجاع حق العودة الذي شغلها دائما كما شغل الرجال، في حين تنظر القراءات المنحازة إلى السلطة الذكورية إليها كإشكالية تواجه الكتابة الأدبية، كما أعطت سوزان أبو الهوى الصدراة في كتاباتها، ووظفت دور البطولة في سرد قصص نساء اخترن درب المقاومة بأنفسهن وكان حضورهن مستمرا في ساحاته، فسمحت بإعطاء المرأة حقها وصوتها في الظهور وكسر الصورة النمطية المعتادة التي قيدتها في أدوار امرأة مُستضعفة، أو في إطار التفاني وخدمة العائلة.

تتقارب دراسة الباحث مع الدراسة الحالية في دراستها لنتاج أدب الاغتراب في الشتات، إلا أنه يركز على الكُتَّاب المغتربين في أميركا، ونموذج واحد للكاتبة سوزان أبوالهوى في روايتها "صباحات في جنين" التي عملت من خلالها على مبدأ تأكيد الهوية الفلسطينية وضرورة استمرار العمل المقاوم في حين تركز الدراسة الحالية على تتبع صورة الذات المقاومة ومراحل تشكلها، متسعة على نماذج سردية أخرى للكاتبة، وكُتَّاب آخرين.

Someone stole my story: Home and Trauma in Two Palestinian Novels[17], By: Andresen, Helle Marie.

أحدٌ ما سرق قصّتي: الوطن والصدمة في روايتين فلسطينيتين، للباحثين، آندرسون،وهيلي ماري.

تسعى الدراسة لتتبع صورة الوطن والصدمة من خلال مقارنة للعملين الروائيين "صباحات في جنين" لسوزان أبو الهوى، و"بيوت الملح" لهالة عليان. كلا العملين يتتبع حياة عائلة فلسطينية مكونة من أربعة أجيال، ويصور حقيقة الصراع وصعوبة العثور على معنى للانتماء خارج الوطن. تركز الدراسة على التجارب الفردية للشخصيات التي مرت برحلة الاقتلاع ومحاولتها البحث عن معنى للوطن، والطرق التي أعاقت بها الذكريات الصادمة تلك الشخصيات عن قدرة إيجاد الانتماء في المنفى وأرض الشتات. كما تسعى الباحثة

[17]Andresen, Helle Marie. *'Someone stole my story': home and trauma in two Palestinian novels*. (MS thesis. University of Agder, 2018). https://uia.brage.unit.no/uia-xmlui/bitstream/handle/11250/2562924/Andresen%2C%20Helle%20Marie.pdf?sequence=1

لاستكشاف كيفية عمل الكتابة الروائية على تشكيل معانٍ لمحاولة تجاوز الصدمة، وكعنصر هام في استعادة الشعور بالذات الغير المستقرة والملاحقَة بالصدمات، وفي حفاظها على الهويَّة الفردية والجمعية. تركز الباحثة على مقارنة العملين من خلال دراسة نظريات حول مصطلحات ثلاثة لتحديد أفضل لمعنى الانتماء: الوطن، والصدمة وأهمية السرد.

توصلت الباحثة ختاما إلى عدة نتائج، كان أهمها: أن معنى الوطن برز حاضرا في روايتيّ "صباحات في جنين" و"بيوت الملح" كطيفٍ هش ومؤقت بتعاقب الأجيال، بعد تعرض كلتا العائلتين في الأعمال للطرد والإجبار على مُغادرة أوطانها، في تلك الحياة القسرية استحال إيجاد معنى الانتماء، أو في أي مكان آخر.

وعلى الرغم من أن العديد من الشخصيات وجدت معنى مقاربا للانتماء في رفقة العائلة والأصدقاء، والمواساة في الكلمات وكتابة الشعر، إلا أن خبرات الحرب الصادمة والاقتلاع والغزو ظلت قائمة بمثابة حاجز يعيقها عن قدرة العثور على معنى حقيقي للوطن، كما تجد الباحثة من خلال شخصية آمال بانتقالها إلى الولايات المتحدة ومحاولة كبت خلفيتها الفلسطينية والبقاء خلف لقب إيمي، إلا أن ذكرى العائلة والأحداث السياسية المتلاحقة في فلسطين أبقتها مقيدة بالعودة والماضي، حتى مشاركته مع ابنتها، وتحقق فعل العودة إلى فلسطين، لتؤكد من خلال صوت الكاتبة على أهمية الحفاظ على التاريخ والرواية الفلسطينية، وبالأخص في المنفى، والعمل على دحض مزاعم الرواية الإسرائيلية حول التاريخ الفلسطيني ونسبة عاداته وآثاره، منها تعود الباحثة إلى مقولة تخص الكاتبة سوزان أبو الهوى: سرق أحد ما قصتي وأعاد كتابة الحقائق في كذبة، وتعمد في روايتها "صباحات في جنين" لذكر معالم هذا الكذب والتزوير في العديد من المواضع كما تشير الباحثة، نصوص ينسب فيها اليهود برتقال مدينة يافا لجهودهم وتاريخهم، والعديد من المأكولات الشعبية لإبداعهم الخاص، في حين أنها بُنيت على الجثث والدماء الفلسطينية.

كما توصلت الباحثة إلى أنه مع اختلاف طرق تقديم العملين لأهمية الوطن في وجود معنى للإنتماء، إلا أن التشابه يتضح في العديد من الجوانب: من تعاقب الأجيال، وأحداث النكبة الفلسطينية، ونكسة حرب الأيام الستة، ومرور الأحداث بمنطقة الشرق الأوسط وأميركا.

وتجد الباحثة أن العملين يشكلان مزيجا معقدا ومختلفا في تصوير الأوضاع والأحوال لفلسطيني الداخل والخارج، فتقدم سوزان أبو الهوى وهالة عليان منظورا هاما حول حياة اللجوء للفسطيني، وتقنياً تعمل سوزان أبو الهوى على تطوير نموذج حداثي، بإعمال التقديم والتأخير الزماني، وتعدد الأصوات الساردة ووجهات النظر، كما تجد الباحثة رواية "صباحات في جنين" واضحة في تصوير الأحداث الصادمة وآثارها الممتدة وتركز الكاتبة من خلالها على أماكن ومواطن محددة للانتماء، مقارنة برواية "بيوت الملح" التي تتعدد فيها المنازل ومواطن التي تسكنها الشخصيات، كما تشير الباحثة إلى أهمية الكتابات التي تقدمها الكاتبتان سوزان أبو الهوى وهالة عليان، عن الخبرات وتجارب الحياة الفلسطينية للعالم عن قرب وتواصلان سرد المخاطر التي لا تزال تهدد المجتمع والأراض الفلسطينية، التجارب التي ترى الباحثة أن العديد من الشعوب أصبحت تشاركها اليوم، بفعل الحروب التي أوجدت ضحايا مماثلة في العراق وسوريا، حيث تتواصل أعداد اللاجئين والمهجرين من أوطانهم في التنامي والارتفاع، ما يوجد أزمات إضافية بتباين نسب السكان في دول مقارنة بأخرى، وما يحاول الساسة في العديد من الدول خلال الأعوام الأخيرة على بثه من تشجيع على الخوف من حضور الآخر، وتؤكد الباحثة أخيرا على أن التمثيل القصصي للواقع وصراعاته، والصعوبات التي تواجه حياة اللجوء واللاجئين تساعد على خلق تصور مقرب لأوضاعهم، تمكن العمل الروائي بمساحاته الواسعة من إعطاء آلام المهمَّشين والضعفاء والمقتلعين من أوطانهم أصواتا تحتاج بكل بؤس أن يتم سماعها.

تتقارب الدراسة الحالية مع السابقة في دراسة عمل "صباحات في جنين" وآثار الاغتراب الناتجة عن صدمة الاقتلاع والانفصال عن الوطن، إلا أن الدراسة الحالية تركز على ملامح الذات المقاومة في محاولتها النهوض بفعل التحرر والعمل المقاوم في أدب الاغتراب متسعة على نماذج مُتعددة، وتختلف عنها في تركيز الدراسة السابقة على دراسة مقارنة لعملين روائيين، في حين تعمل الدراسة الحالية على التحليل لنماذج متعددة.

إشكالية التراجيديا الإنسانية في روايتي "قصة عن الحب والظلام" لعاموس عوز و"بينما ينام العالم لسوزان أبو الهوى، دراسة مقارنة[18].

تهدف الدراسة للتعرف على إشكالية التراجيديا الإنسانية –المأساة–الناتجية عن النزاع الفلسطيني الإسرائيلي، من خلال مقارنة الباحثة للعملين الروائيين، وذلك للتعرف على دور التراجيديا في العملين ومدى تحقيق كل من العملين لشرط الرواية الإنسانية، والاطلاع على حقيقة الواقع المعاش للمجتمعين العربي والاسرائيلي من خلال تصوير الأديبين ذلك، إلى جانب تتبعها للقضية السياسية، وهل قدمت الأعمال حلا للصراع يشتمل على أبعاد إنسانية، وكيف ارتبطت تلك القضايا بتجربة الأديبين الشخصية.

أهم ما توصلت إليه الباحثة تمثل في نجاح سوزان أبوالهوى في تقديم تراجيديا إنسانية بمفهومها الصحيح، وتقديمها لرؤية واضحة للفكر اليهودي المعتدل والمزاعم الصهيونية التي بُنيت عليه، كما عملت على ربط الشخصيات بأسماء يهودية أدت دورا كبيرا في التاريخ اليهودي، وأحداث ذات أهمية تاريخية في التاريخ اليهودي، وما يقع لتلك الشخصيات من عُنصرية صهيونية، فيما لم تقدم رواية عاموس التراجيديا الإنسانية بمفهومها الصحيح، وإنما عبر عن مأساة شعبه، فلم تخترق غلاف القومي الضيق.

تتبعت الدراسة السابقة مفهوم التراجيديا الإنسانية من خلال العمل الروائي "صباحات في جنين"، مقارنة العمل برواية "قصة عن الحب والظلام"، متتبعة المنهج الوصفي التحليلي، استفادت الدراسة الحالية من الدراسة السابقة في عدة نقاط أشارت إليها الباحثة من خلال الفكر اليهودي والدراسات المستندة عليه، كما توافقت معها في العديد من المآسي التي تعرضت لها الشخصيات في العمل، اقتصرت الدراسة السابقة على دراسة عمل واحد للكتابة إلى جانب عدم تطرقها للجانب الفني الذي تركز عليه الدراسة الحالية.

Unreconciled Strivings of Exilic Consciousness: Critical Praxis of Resistance in Susan Abulhawas's Mornings in Jenin[19], By: Ayman Abu-Shomar

---

[18] وداد عبدالفتاح علي خليفة، "إشكالية التراجيديا الإنسانية في روايتيّ: "قصة عن الحب والظلام" لعاموس عوز و"بينما ينام العالم "لسوزان أبوالهوى" دراسة مقارنة"، جامعة الأزهر: **مجلة قطاع للدراسات الإنسانية**، العدد1، المجلد24، (2019م). https://jsh.journals.ekb.eg/article_67217.html

[19]Abu-Shomar, Ayman. "Unreconciled Strivings of 'Exilic Consciousness': Critical Praxis of Resistance in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin." *Journal of Holy Land and Palestine Studies* 18.1

النضال المستمر لصوت الضمير الواعي في المنفى، دراسة نقدية للمقاومة في رواية "صباحات في جنين" للكاتبة سوزان أبو الهوى، للكاتب: أيمن أبو شومر.

يسعى الباحث من خلال الدراسة لمناقشة كيفية تطوير سوزان أبو الهوى للخلفيات، واهتمامها بالمعاني، والصور المجازية، والجماليات في روايتها "صباحات في جنين" في تتابع وتناغم للأحداث، مع معالجتها لموضوع الشتات الفلسطيني وحضور صوت المنفى، وهو ما يشكل نموذجا حداثيا لتطبيق النقد عمليا، كما يتتبع الباحث في دراسته التقاطع بين ضمير المنفى ومحاول بناء الهويَّة في سياق أدب المقاومة، ويرى أن هذه التداخلات أظهرت قدرة الكاتبة على تصوير أماكن الخارج والداخل، والتنقل بين مختلف مواضيع الصراع؛ لتنتج نموذجا يبرز صوت المنفى، وتحدياته مقارنة بالتحديات الأخرى، ويسهم في تطوير ممارسات نقدية أخرى، ضمن سياق الصراع العربي الإسرائيلي.

يسعى الباحث لدراسة رواية "صباحات في جنين" وصور التحديات والنزاعات التي يواجهها الفلسطينيون من قِبل الاحتلال، وصور مقاومتهم، والاستراتيجيات التي اتبعتها سوزان أبو الهوى في محاولة فهم الآخر.

يناقش الباحث كيف أن هويَّة الشتات لدى سوزان أبو الهوى تنمو لتتسق مع صوت الضمير في المنفى والذي يسمح بمواصلة المقاومة واستعادة صوت فلسطينيي الخارج، وكيف عملت سوزان أبو الهوى من خلال شخصية آمال على إعادة معالجة موضوع المقاومة من منظور سياسي مطلق إلى نقد ذاتي، وتجرد صيغة النزاع الثنائي من التعارض، مع ابقاء الوعي حول النزاع القائم حاضرا، نظريا تهدف الدراسة الى قراءة تأملية تنتج فاعلية لنظرية ما بعد الاستعمار، وتبحث الدرسة في ثلاثة متغيرات نظرية "وعي المنفى" التي أشار إليها عن إدوارد سعيدوعلاقته بالإنسانية، التي تفترض أن أصحاب الشتات في الغرب يمتلكون قدرة الوعي حول الخارج والداخل، وقُدرة تَبنِّي وفهم وجهات نظر الغربية، وتجاوز الانقسام الحاد بين الذات والاخر في علاقة الاحتلال التي غالبا ما تطغى على هذه العلاقة، وهو ما يخلق

(2019): 101-120. https://www.researchgate.net/profile/Ayman-Abu-Shomar/publication/332794075_Unreconciled_Strivings_of_'Exilic_Consciousness'_Critical_Praxis_of_Resistance_in_Susan_Abulhawa's_Mornings_in_Jenin/links/5e23b9aa299bf1e1fabd44a6/Unreconciled-Strivings-of-Exilic-Consciousness-Critical-Praxis-of-Resistance-in-Susan-Abulhawas-Mornings-in-Jenin.pdf?_sg%5B0%5D=started_experiment_milestone&origin=journalDetail

الجدوى من حالة المنفى، مع ما تخلفه من أزمة لدى الذات فتنشئ نتاجا إبداعيا مَعنيا بالوطن، وفي الوقت ذاته مستقلا بوجهة النظر عنه، وهو ما يرى الباحث أنه يبرز مع شخصية الكاتبة سوزان أبو الهوى وانخراطها في الكتابة السياسية، والكتابة المتواصلة عن المقاومة ودورها، إلى جانب التعمق في أبعاد الصراع وأطرافه.

وكما يرى الباحث أن بإمكان المنفى أن يكون منتجا إلا أنه لا يُخبر دون مأساة ذاتية ويظهر ذلك في: الاتزان وعدمه، كما ما يظهر مع شخصية آمال من أول ظهور لها وحتى آخره، مع مرور الذكريات الصادمة ومحاولة إعادة بناء الوعي في أميركا، فخبرة الاغتراب تستدعي حضور ذكريات، ومراحل المرور بها، وهي أشبه ما تكون -بنصف حياة- وما يوازي الحضور الجزئي في الوطن في ظل وجود الاحتلال، إنها محاولة لاستعادة تلك الحياة المجزئة، الغير مكتملة، المليئة بالاختلاف والتحول، والصراع الذاتي الذي يلاحق آمال مع هويّة المنفى في الاغتراب والعلاقات الغير مستقرة، إلى أن يظهر الأثر مع استيعاب الحقيقة واكتساب قيمة المعرفة، والبحث عن العدالة باستمرار المقاومة.

يتوصل الباحث إلى خلاصة مفادها:

أعادت رواية "صباحات في جنين" اكتشاف معان الوطن والمنفى والمقاومة والعدالة، بتقديم صوت إنساني ينادي بالعدالة للأفراد الذين لاحقتهم صدمات الحرب والفقد والاقتلاع، وهو ما تسعى سوزان أبو الهوى إلى الاجتهاد في تقديمه حين يعكس الخط الفاصل بين المقاومة الشرعية والإرهاب معنى ضبابيا، والمواضيع المقدمة حول معنى الإرهاب مشتتة عن المعنى الحقيقي للمصطلحين.

سعت الكاتبة من خلال الحقائق المفصلة منطقيا إلى تعطيل ذريعة الخلاف المطروح حول الفكرة العامة الرافضة للمقاومة الشرعية، بتسخير صوت المنفى الواعي والنقد التطبيقي لدى شخصية آمال، فتعمل على تقديم صوت المقاومة في الشتات مع إبقاء الجانب الإنساني بارزا، وقدرتها الإبداعية في التفريق بين الطرفين ومكونات هويَّتهم —السياسية والإنسانية- من خلال الشخصيات، وتقديم الخبرة الصادمة لكلا طرفيّ النزاع، كما تقدم موضوع الحرية والمقاومة في سياقات تعمل جنبا إلى جنب في وعي ناقد لتقويض منطق القوى السياسية،

لتجاوز حدود التي يفرضها عدوان الاحتلال، لتعمل على تقديم نموذج للأدب المقاوم يحتمل النقد الذاتي والجانب الإنساني.

Strangers in My Home, the Quest for Identity in Mornings in Jenin[20], By: Al-Ma'amari, Abdulrahman, Noraini Md Yusof, and Ravichandran Vengadasamy.

الغرباء في وطني، البحث عن الهويَّة، دراسة في رواية صباحات في جنين، لمجموعة من الباحثين: عبدالرحمان المعمري، نورعيني م.د يوسف، ورافيشاندران.

يسعى الباحث من خلال الدراسة لتطبيق نظريتيّ "جون هيدر" الخاصة بالهويَّة الوطنية، ونظرية "جون لوك" الخاصة بالذاكرة والهويَّة الشخصية، على العمل الروائي "صباحات في جنين" للكاتبة سوزان أبو الهوى؛ للتعرف على مدى أهمية الذاكرة والتذكر في عملية بناء وتشكيل الهويَّة الشخصية والوطنية، وباعتماده للمنهج التحليلي في دراسته يقوم الباحث بدارسة بُعدين لمفهوم الهويَّة: الهويَّة الشخصية، والهويَّة الوطنية.

نظرية "جون لوك" الخاصة بالذاكرة والهويَّة الشخصية تؤكد على أن الذاكرة تعمل بمثابة مفتاح للأفكار المرتبطة بالأشخاص وهويَّاتهم، ومع مرور الزمان تنشأ علاقة مباشرة ووثيقة مع هذه الذاكرة، لتشكل عنصرا أساسيا في بناء الهويَّة، وتصبح الذاكرة والهويَّة مترابطان بالماضي وبالأحداث التاريخية وتكمل بعضها في البناء.

ومن خلال نظرية "جون هيدر" حول الهويَّة الوطنية، والتي تنص على أن الحضارة تبنى على أسس من الثقافة واللغة، والعادات والتقاليد اليومية، ومعتقدات الناس وقصصهم التي يضعون فيها من حياتهم الحقيقية وما يصورون من خلالها أعمالهم الإبداعية.

وبالعودة إلى رواية "صباحات في جنين" يشير الباحث إلى ذاكرة الحياة الفلسطينية المبنية على تسلسل أحداث الماضي، وشخصيات أساسية مدفوعة بحب الوطن، والمتمثلة في شخصية ذاكرة آمال وعائلتها، أصدقائها، وزوجها الحاملين للولاء الوطني ذاته، ولمبدأ استعادة الوطن وحق العودة الذي يتمسكون به ويصبح محورا لحياتهم، وممثلا لهويَّاتهم المقاومة والمضحية من أجل الوطن، كما تفعل العديد من الأحداث ومنها الأحداث البارزة للانتفاضة التي

[20] Al-Ma'amari, Abdulrahman, Noraini Md Yusof, and Ravichandran Vengadasamy. "Strangers in my home the quest for identity in Mornings in Jenin." *Procedia-Social and Behavioral Sciences* 118 (2014): 29-36. https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S1877042814015341

أصبحت جزءا من الهويَّة الجمعية للشعب الفلسطيني، الأحداث التي حوَّلت صُورهم من ضحايا إلى مقاومين أبطال.

توصل الباحث إلى عدة نتائج، أهمها: تمثل رواية "صباحات في جنين" رواية للذاكرة الفلسطينية، وتبرز معالم الهويَّة الوطنية من خلال وجهة نظر الكاتبة ورؤيتها النابعة من تجربتها الشخصية، وتصويرها للهويَّة الشخصية التي حوَّلت المعاناة الفردية والمأساة الشعبية إلى بطولات وانتصارات تمثل الهويَّة الوطنية، كما توصل الباحث إلى أن الذاكرة تشكل البُنية الأساسية للهويَّة الشخصية، بينما تتعدد العناصر المشكلة للهويَّة الوطنية كاللغة والعادات والتقاليد والأعراف الممثلة للشعوب.

تتقارب الدراسة السابقة مع الدراس الحالية في التطرق للتهديد الذي يلاحق الهويَّة الفلسطينية، في المنفى وأراض الاغتراب، إلا أن المقاومة المستمرة من قبل الذات الفلسطينية المضطهدة هي ما يكفل مواجهة هذا التحدي والتحرر منه وهو ما تركز عليه الدراسة الحالية، وهو ما يشكل تهديدا واحدا أمام مجموعة التحديات الأخرى التي تواجهها الذات الفلسطينية أمام عدوها المحتل، إلى جانب مقاومتها لحالة الصدمة الناتجة عن النفي والشتات والاغتراب، تكتفي الدراسة السابقة بدراسة نموذج واحد للكاتبة في حين تتوسع الدراسة الحالية على نماذج أخرى للكاتبة ونماذج أخرى ضمن أدب الاغتراب.

Trauma and Resistance in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin[21], By: Iman Raslan.

الصدمة والمقاومة في رواية "صباحات في جنين" لسوزان أبو الهوى، للباحثة إيمان رسلان.

تهدف الداسة للبحث في مفهوم الصدمة والمقاومة وأهم ملامحها في رواية صباحات في جنين للكاتبة سوزان أبو الهوى من خلال نظرية "كيثي كروث" –نظرية الصدمة في الأدب– ونظرية "رونالد غرانوفسكي" الحديثة حول نظرية الصدمة التي يعرف من خلالها تجربة الصدمة بكونها التجربة التي تلحق الضرر بالنظام الانساني وقدرته على البقاء في اتصال

[21] Raslan, Iman. "Trauma and resistance in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin." *International Journal of Arabic-English Studies* 17.1 (2017): 183-202. https://www.researchgate.net/profile/Iman-Raslan-3/publication/366157733_Trauma_and_Resistance_in_Susan_Abulhawa's_Mornings_in_Jenin/links/639375eae42faa7e75ad0255/Trauma-and-Resistance-in-Susan-Abulhawas-Mornings-in-Jenin.pdf

متوازن مع الواقع، وأن رواية الصدمة هي التي تلك التي تتعامل مع كارثة تاريخية جمعية والتي تترك آثارا بالغة يمكن تصويرها من خلال مأساة الأفراد.

تسعى الدراسة كذلك لتسليط الضوء على عملية التعافي والقدرة على التعايش في مرحلة ما بعد الصدمة بالترابط مع الذاكرة وسردها. رواية الصدمة تعمل كشهادة على ظلم وجور سياسة الاحتلال الاسرائيلية في فلسطين المحتلة، وتسعى الدراسة إلى إثبات أن رواية "صباحات في جنين" تشكل مثالا على رواية الصدمة وتحمل جميع معالمها، وتختبر مستويات مختلفة من الصدمة النفسية وردات الفعل الناتجة عنها، كالتشظي والتوحد الذي يرافق الشخصيات الرئيسية في العمل.

توصلت الباحثة ختاما إلى عدة نتائج كان من أهمها: أن رواية "صباحات في جنين" تشكل مرجعا هاما في تمثيل رواية الصدمة، تعاملت من خلالها الكاتبة مع الصدمة كتجربة جمعية قاسى آثارها الشعب الفلسطيني، كما خلقت من تجربتها الخاصة عالما يعيد إحياء ذاكرة تاريخية تتعرض للإهمال، ويصور حجم المعاناة الواقعة إبان النكبة الفلسطينية، ويظهر من خلال العمل الروائي وعي الكاتبة بتعدد جوانب الصدمة وأثرها البالغ على الفرد، كما أعطت أصواتا لقصص ضحايا تعرضوا للتنكيل والتهميش، وتوصلت الباحثة إلى أن الكاتبة قد نجحت في التعامل مع الصدمة الثقافية الذاتية، وصدمة أبناء شعبها باستخدام ذاكرة السرد، لتمر بعملية التعافي وتجاوز الصدمة بالتعامل مع مفهوميّ: المرور عبر، والتعامل مع، وهي توضيحات تقدمها الدراسة، فالتعامل مع يشير إلى الفئات التي تضررت بشكل كامل، في حين أن –المرور عبر– يحمل تجارب آلامهم الشخصية، وتبين كيفية تمكنهم من النجاة من الذكريات المدمِّرة بتحويل ذاكرة الصدمة، إلى ذاكرة السرد.

The Burden of the Past: Memories, Resistance and Existence in Susan Abulhawa's "Mornings in Jenin" and Hala Alyan's "Salt Houses"[22], By: Wael Salam.

أعباء ذاكرة الماضي: الذكريات، المقاومة ومحاولة البقاء في رواية "صباحات في جنين" لسوزان أبو الهوى، و"بيوت الملح" لهالة عليان. للباحث: وائل سلام.

[22] Salam, Wael. "The Burden of the Past: Memories, Resistance and Existence in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin and Hala Alyan's Salt Houses." *Interventions* 24.1 (2022): 31-48.

تسعى الدراسة للبحث في شعرية الذاكرة وطُرق تقديمها في روايتيّ "صباحات في جنين" لسوزان أبو الهوى و"بيوت الملح" لهالة عليان، حيث تتضمن الروايتين نصوصا تشير إلى أهمية تدوين الذاكرة الفردية والجميعة كجزء من المقاومة الخالية من العُنف في مواجهة الرواية الصهيونية، وكإثبات مستمر للهويَّة الفلسطينية، ويرى الباحث أن صور الذكريات في الأدب الفلسطيني تتميز في العديد من الأحيان بحالات من التشابه والتكرار، إلا أن العودة إليها ضرورة ملزمة، مع تجاوز ما خلف مشاعر النفس البشرية أثناء عملية الاسترجاع والتذكر، وقراءة ما خلف السطور في إطار نظرية الصدمة التي تؤكد ضرورتها، وتوجه أبحاث الأدب الفلسطيني باتجاه أحداث عالمية أخرى تشابهها.

ويشير الباحث إلى أن رواية قصص الذاكرة الفلسطينية الجمعية تشظَّت عن روايات فردية، مرت بذات الأحداث، لكن بتعقيد يختلف في كل قصة لتجمع وثيقة مسجلة عن امتلاك الحق في الوطن، وفي الوقت ذاته قصة الفقدان والتشريد، هذه القصص تشكل البنية الاجتماعية للشعب الفلسطيني، ويظهر ذلك من خلال رواية "صباحات في جنين" وشخصية آمال، باتصالها بذاكرة الماضي لقرية عين حوض، يرى الباحث أن تلك الذكريات تشكل نظام دفاع تقوم به الشخصية لحماية وصون الذاكرة الجمعية لشعبها من الاندثار وتُبقي حق العودة قائما، ليتجلى مع عودة أمال برفقة ابنتها سارة إلى مخيم جنين بعد مرور 30 عاما، وتعريفها بخلفيتها وجذورها الممتدة في فلسطين، ومع أن تلك الذكريات هي خاصة بالشخصية وعائلتها إلا أن ماضيها تشكل من وجود جمعي، فالذكريات هي آخر ماتبقى لإعادة المعرفة ووصل الانتماء باللأجيال اللاحقة.

توصل الباحث في الختام إلى عدة نتائج، منها: أعادت لكاتبتان سوزان أبو الهوى وهالة عليان توجيه الصدمة من خلال أعمالهن لتقريب صور المعاناة الفلسطينية عن الصدمات الناتجة عن فداحة أحداث النكبة والمجازر والمآسي التي تتابعت في إثرها، من خلال قصص تعكس الذكرى الفلسطينية الجمعية لعملية الاقتلاع والتشريد، تتسلسل فيها الذكريات ويتأكد من خلالها حق العودة، كما يتوصل الباحث إلى أن أعمال الكاتبتين تندرج ضمن أعمال المقاومة الأدبية، ضد سياسة الإقصاء والإلغاء والتزوير للأحداث التي تتعمدها الرواية الصهيونية، وحفظا للتاريخ من النسيان، ويرى الباحث أنه في حين تُبنى نظرية الصدمة في

العديد من الأحيان على حالات من الضعف وعدم القدرة على التجاوز الذي تمر به الحالة البشرية المصابة بالصدمة وألم الذكرى، فإن استرجاع الذاكرة قد يأتي من باب القوة والمقاومة، معها تُصبح الذاكرة الفردية ذات أهمية اجتماعية وتاريخية وسياسية.

يتوصل الباحث كذلك إلى أن دراسة هذه الأحداث والقصص الواقعية في الأدب الفلسطيني تؤكد على صحة النظرية وصحة أبحاثها، متجاوزة الأمثلة والأطروحات الغربية عنها، كما تسهم مضامين أدب الصدمات على تجاوز حدود الحضارات والفروقات بين الإنسان؛ لتصل إلى فهم أعمق وأدق لمعاناته.

A post-colonial study of Dislocation in Susan Abulhawa's "The Blue between Sky and Water"[23], By: Kanwal Shehzadi.

دراسة في مرحلة ما بعد الاستعمار، والإقتلاع عن المكان في رواية الأزرق بين السماء والماء لسوزان أبو الهوى، للباحث كنوال شهزادي.

تسعى الدراسة للبحث عن مفهوم الإقتلاع عن المكان المندرج ضمن دراسات أحداث ما بعد النكبة الفلسطينية وأحداث نكسة عام 67م. باتباع المنهج النوعي في الدراسة، تقوم الباحثة ومن خلال رواية الأزرق بين السماء والماء بدراسة الوضع الاجتماعي السياسي للفلسطينين في المناطق التي استولت عليها القوات الصهيونية الإسرائيلية وحوَّلت أوضاعهم إلى الأسوء بعد طردهم من مدنهم، وتشديدها القيود المفروضة عليهم في مدن الضفة، وقطاع غزة، وعلى الفلسطينيين المبعدين إلى الحدود والمخيمات، وكيف أسهمت عملية الإقتلاع تلك في تدمير الحياة السكنية للمجتمع والعائلات الفلسطينية وتشريدها في باقي أنحاء العالم، مؤكدا على أن رواية الأزرق بين الماء والسماء تمثل رواية أدبية حقيقية، وسردا مقاوما ومُضادا للإنكار التاريخي الذي تتبعه الرواية الإسرائيلية، ومحاولاتها المستمرة لإلغاء قصص السكان الأصليين وقصص الشتات الذي لحق بالمجتمع الفلسطيني، وتزوير الأدلَّة والحقائق حول المرحلة الزمانية لأحداث النكبة وما بعدها.

توصلت الباحثة إلى أن مصطلحات ما بعد الاستعمار مثل الإقتلاع أعانت على فهم العديد من الفوارق الدقيقة للنزاع بين الفلسطينيين والإسرائيليين المقدم من خلال الأدب

[23] Shehzadi, Kanwal, et al. "A Post-Colonial Study Of Dislocation In Susan Abulhawa's,'The Blue Between Sky And Water'." *PalArch's Journal of Archaeology of Egypt/Egyptology* 18.08 (2021): 5142-5149. https://archives.palarch.nl/index.php/jae/article/view/10402

الفلسطيني الانجليزي، لقد تم توثيق لحظات الانفصال والاقتلاع عن الوطن بدقة من خلال النموذج المختار للدراسة، وجاء تطبيق النظرية منسجما مع نصوصه التي أعطت القارئ لمحة أقرب عن النزعة الاستعمارية الصهيونية التي يصرح بها بعيدا عن آثارها وحقائقها، يكشف منظور الرواية عن سياسة الإقتلاع الجغرافي التي لجأ إليها المستعمر اليهودي ومحاولة قلبه للحقائق والموازين لإظهاره كضحية أمام العالم. إعادة تحوير القضية لصالح المستعمر هي نقطة أولتها سوزان أبو الهوى أهمية من خلال أعمالها، شرعت من خلالها بإلقاء الضوء على ما يفسر حقيقة عملية الاقتلاع الحاضرة مع الاستعمار، كرست سوزان أبو الهوى مفهوم الوطن من خلال نظرة السكان الأصليين وكفرد طابقَ الأحداث ومرور الوقائع. الأزرق بين السماء والماء نص يجسد قصة أربعة أجيال متلاحقة وتسقط سوزان دورها السردي عن حياتها وكإبنة للشتات الفلسطيني.

دراسة مفهوم الاقتلاع يأتي مقاربا لما تتطرق إليه الدراسة الحالية كنتيجة حتمية: الاغتراب الذي يصحب هذه العملية، وهو ما عزز من حضور مصطلحات الشتات والاغتراب في الأدب الفلسطيني، وما تركز عليه الدراسة الحالية، كما يأتي مصطلح المقاومة في مواجهة هذا الاقتلاع الممنهج وملاحقته سواء بالمواجهة المسلحة، أو المواجهة الثقافية والأدبية لعمليات السرد والبيانات المضللة من قبل الرواية الصهيونية، ومل تمثله من إعادة لحضور وتوثيق للتاريخ والهويَّة الفلسطينية، وتختص الدراسة السابقة بدراسة نموذج لمرحلة ما بعد الاستعمار، في دراسة نوعية، في حين تعتم الدراسة الحالية المنهج الوصفي التحليلي.

Cultural Trauma in the Blue between Sky and Water[24], By: Wardah Naveed.

الصدمة الثقافية في رواية الأزرق بين السماء والماء، للباحثة وردة نافيد.

تسعى الدراسة لتتبع آثار الصدمة الثقافية الواقعة على حياة الفلسطينيين من خلال أحوال الحرب التي يصورها العمل الروائي الأزرق بين السماء والماء للكاتبة سوزان أبو الهوى، ومن خلال نظرية الصدمة الثقافية للمفكر والطبيب النفسي جفري آلكساندر، تشير الباحثة

[24] Naveed, Wardah, et al. "Cultural Trauma In The Blue Between Sky And Water." *Webology (ISSN: 1735-188X)* 18.3 (2021). https://www.researchgate.net/profile/Farhan-Ali-28/publication/358355859_Cultural_Trauma_In_The_Blue_Between_Sky_And_Water/links/61fd5c9011a1090a79d16599/Cultural-Trauma-In-The-Blue-Between-Sky-And-Water.pdf

إلى أن الصدمات التي تمر بها المجتمعات في أيام الحرب تتضاعف حال وضع أفرادها تحت دائرة من الفحص الدقيق وإطلاق الأحكام الغير منصفة تجاههم أو تجاه الأوضاعهم القاسية والعنف الذي يمرون به أو أن يتم تجاهلهم، وهو ما يسهم في مضاعفة الصدمة الفردية والصدمة الثقافية الجماعية، فلطالما ألقت الحرب الإسرائيلية الاستعمارية ببالغ ضررها على العقل البشري، وخلقت أنواعا متعددة من الاضطرابات والقلق الدائم والاكتئاب، ومن خلال رواية الأزرق بين السماء والماء تبرز تفاصيل هذه الصدمة الثقافية وبداية تشكلها.

حيث يتعرض سكان قرية بيت دراس الفلسطينية لأشد أنواع الصدمات المدمرة للنفس البشرية مع أحداث التهجير القسري، وما يظهر مع الجيل الثالث والرابع من فقدان الاستقرار والانتماء لجذور الوطن، ويصبحون امتدادا للاغتراب المتلاحق وفقدان الهوية؛ منها تسعى الباحثة لتسليط الضوء على الصدمة الثقافية في مجتمع ما بعد النكبة الفلسطينية، حيث تواصلت محاولات تدمير الهويَّة والذاكرة الجمعية، بعنصرية موجَّهة لدِينهم، وعِرقهم ليتم تدميرها بشكل مدروس وخطة مُنهجة من قبل الاحتلال الصهيوني الذي يُحدد أنها غير مقبولة، آثار تلك الصدمات تنتقل من الأفراد لتشمل المجتمع وثقافته، وتتأثر بفُقدان الدعم والتواصل من قبل المجتمعات المقاربة لها، فتُداخلها الشكوك حول الترابط الحقيقي للمجتمعات، التي تفترض حصولها على الدعم والحماية من قبله.

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج، أهمها: أن التشعب في هَويَّات جديدة إضافة إلى الصدمات النفسية شكل صدعا في معالم الهوية الأساسية لأبناء المنفى، كما حدث مع نور وممدوح مع انتقالهم إلى ثقافة المجتمع الأمريكي، فيفتقد ممدوح تاريخه وثقافته وعاداته التي تشكل هويته الفلسطينية، كما تجد نور مع ذاتها المنبوذة لخَلفِيَّتها الدينية، واختلاف أساليب الحياة التي تُبقيها في دائرة اللاإنتماء.

وتؤكد الباحثة على أن الصدمات الناتجة عن عمليات القتل المباشر، وأعداد المجازر الهائلة المسخرة من أجل الإبادة الجماعية والتطهير العرقي لا تزال قائمة بمرور الأعوام، وهو ما يشكل تهديدا للوجود الفلسطيني الذي يسعى العالم لتناسي مُعاناته ويستمر بتجاهلها، معها تتواصل الصدمات النفسية ومحاولات التدمير الثقافي، وأزمات الهويَّة، والشتات لتبتلع حياة الفلسطينيين دون حل واضح.

Trauma Survival and the use of Scriptotherapy as a Medium of Healing in Susan Abulhawa's the Blue between Sky and Water And Sapphire's Precious[25], By: OSAMNIA, Soumia, and Yasmina DJAFRI.

النجاة من الصدمة باستعمال الكتابة النصية طريقاً للاستشفاء، دراسة في رواية الأزرق بين السماء والماء لسوزان أبو الهوى وروايـة الغالية لسفير، لمجموعة من الباحثين: عثمانية، سمية، وياسمينا دي جفري.

تسعى الدراسة لمناقشة موضوع النجاة من الصدمة عن طريق كتابة النصوص، كنوع من الاستشفاء الذاتي من خلال الأعمال الروائية: الأزرق بين السماء والماء للكاتبة سوزان أبو الهوى والغالية لسفير، وتسليط الضوء على استراتيجيات معينة تتخذها الكتابة النصية العلاجية وكيف وظفتها الكاتبات في أعمالهن، وكيف تجاوزت الشخصيات النسائية في الأعمال صدماتهن عن طريق الكتابة.

توصلت الباحثة إلى عدة نتائج أهمها: أن التعافي بالكتابة تم إعماله مع العديد من الحالات، للتخفيف من معاناة العديد من الأفراد الذين تعرضوا لصدمات واضطرابات نفسية، والتعافي من تلك التجارب، وقد أعانت طريقة التعافي بالكتابة على انفتاحهم في التعبير عن مشاعرهم وآرائهم والتأقلم مع أوضاع حياتهم الصعبة، كما أشارت الباحثة إلى استفادة العديد من الأفراد من أعمار ومستويات اجتماعية مختلفة من التواصل والتعبير الكتابي، وقد ثبت سايكولوجيا وإكلينيكيا أن العديد من الحالات التي تعرضت للصدمات، بعد تعبيرها والكتابة عن تجاربها الخاصة التي شكلت صدمات وأضرارا جسدية وأذى عقليا، تمكنت من استعادة جزء من حريتها وحيويتها الذهنية والنفسية، وأعانتها على يكوين وعي عن مشاعرها بوضوح، كما اتضح لدى الباحثة أن الكتابة الأدبية بتقنياتها المتعددة أظهرت فعاليَّة في التحرر من مشاعر الألم الحاد.

التعافي من الصدمة عن طريق الكتابة يظهر من خلال رواية "الأزرق بين السماء والماء" لسوزان أبو الهوى، ويظهر مع شخصية نور في عمر مبكر، والتي تحظى بالدعم والتشجيع من جدها ممدوح على الكتابة والاحتفاظ بمذكرات يومية عن أيامهما معا في

[25] OSAMNIA, Soumia, and Yasmina DJAFRI. "Trauma Survival and the Use of Scriptotherapy as a Medium of Healing in Susan Abulhawa the Blue between Sky and Water (2015) And Sapphire's Precious (1996)." *ALTRALANG Journal* 2.02 (2020): 241-260. https://www.univ-oran2.dz/revuealtralang/index.php/altralang/article/download/87/78

أميركا، المذكرة التي تعمل كمصدر أمان وسرور لشخصية نور، تواصل معها الكتابة حتى وفاة جدها، ومع عودتها للانتقال إلى حياة والدتها وتعرضها للإساءة الجسدية واللفظية، وانتقالها بين العديد من دور الأيتام تجد نور سلواها في الكتابة والتعليم، وتسخير عملها لإغاثة المجتمع الفلسطيني.

أدب المقاومة الفلسطينية وقضاياه بين محمود درويش وأيمن العتوم، دراسة تحليلية موازنة[26]، لآيدا حياتي.

ركزت الدراسة على المقاومة الفلسطينية من منظور شعري وسردي، مع إبراز الأبعاد الوطنية والوجدانية للذات الجمعية في مواجهة الاحتلال، وقدمت قراءة موازنة بين الشعر والسرد لتسليط الضوء على المقاومة الثقافية والوجدانية، مع تركيزها على أساليب التعبير الفني والصمود. تجمع الدراسة بين تحليل الشعر والسرد لتعميق فهم المقاومة الثقافية، فيما تركز الدراسة الحالية على التحليل السردي للرواية الفلسطينية مع تتبع تتطور حالة الذات المقاومة عبر مراحل تاريخية محددة، وتتفق الدراستين في تفصيل دور البُنية الفنية في نقل تجربة المقاومة.

الثقافة والمقاومة[27]، لإدوارد سعيد.

كتاب يتضمن مجموعة من الحوارات التي أجراها ديفيد بارساميان مع إدوارد سعيد، وتشكل المقابلات التي يتضمنها الكتاب امتدادا لخطاب إدوارد سعيد في كتاباته وأحاديثه ومحاضراته التي ألقاها في أمكنة وأزمنة مختلفة، خطاب يتناول قضايا مهمة في الحياة الفكرية والسياسية لدولة فلسطين والدول الأخرى، وتأتي الحوارات خلال المدة من 1999 – 2003م، أي خلال المدة التي كان فيها إيدوارد سعيد مريضا، وهي المدة التي سبقت وفاته إضافة إلى الغليان الذي ساد المنطقة حيث العدوان الإسرائيلي المتواصل على الفلسطينيين وتصعيده، والوضع المتدهور في العراق جراء الاحتلال الأميركي. تفيد الدراسة الباحثة في توثيق بعض الأحداث التاريخية في المرحلة المتأخرة من تاريخ القضية الفلسطينية، إلا أنها تفتقر

---

[26] آيدا حياتي محمد سندي، **أدب المقاومة الفلسطينية وقضاياه بين محمود درويش وأيمن العتوم: دراسة تحليلية موازنة**، أطروحة دكتوراه، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، 2024م.

[27] انظر: إدوارد سعيد: **الثقافة والمقاومة**، حوار: ديفيد بارساميان، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، (بيروت: دار الآداب، ط1، 2007م).

إلى الحديث عن أحداث الغربة الأليمة التي عايشها الفلسطينيون إثر مراحل النكبة، وما تركته من أثر واضح في تكوين أدب الاغتراب، إضافة إلى عدم تطرقها إلى نشأة حركة المقاومة الفكرية الأدبية أو دورها في استمرار حركة المقاومة في أرض الواقع، مع ثراء هذا العمل الأدبي النقدي إلا أنه لم يتناول موضوع الاغتراب ودور المقاومة في إبراز قضيته، إضافة إلى عدم تطرقه لأعمال سوزان أبو الهوى، وهو ما ستقوم هذه الدراسة بتغطية هذا الجانب.

تحليل النص السردي، تقنيات ومفاهيم[28] ، لمحمد بو عزة.

يأتي هذا الكتاب وسط العديد من المراجع النظرية في الساحة النقدية، والتي عجّت بالمراجع والكتب حول تقنيات السرد، وتحليل الخطاب الروائي وبنية الشكل الروائي، بهدف تلبية حاجة القارئ إلى مرجع عملي في تحليل النص السردي، ليكون بمثابة دليل يستجيب لشروط تحليل النص السردي، وفي الوقت نفسه يقدم له معرفة منهجية وظيفية بأهم المفاهيم والتقنيات الأساسية في تحليل النص السردي. تستعين الباحثة في هذه الدراسة بالتعرف عن قرب على طرق عملية تساعدها في تكوين خلفية في تحليل النصوص النثرية والاطلاع على كيفية تحليل النصوص الأدبية بأمثلة تطبيقية، وتختلف عنها في التركيز على نوعين من أنواع التحليل الأدبي للنص الروائي، كما لا تتعرض لأعمال الكاتبة الفلسطينية سوزان أبو الهوى.

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1984-1966م[29] للأديب غسان كنفاني.

في هذه الدراسة يقوم غسان كنفاني بتأريخ لأدب المقاومة في فلسطين المحتلة، كما يقوم بتعقب النتاج الأدبي العربي وتطوره في الداخل، ورغم اعترافه بافتقاد بحثه للمنهج الأكاديمي إلا أنه قام بتدوينه نظرا لأهميته للقارئ الفلسطيني والباحث العربي. تتضمن الدراسة ثلاثة فصول أولها عن أدب المقاومة بعد أحداث النكبة، والثاني حول الأدب الصهيوني وشخصية البطل العربي فيه مقابل الشخصية الصهيونية في أدب المقاومة، ويختتم الدراسة

---

[28] انظر: محمد بو عزة: **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، (بيروت: دار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2010م).

[29] انظر: غسان كنفاني، **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة عام 1948 -1966م**، (بيروت: دار منشورات الرمال، مؤسسة غسان كنفاني الثقافية، ط1، عام 2015م).

بعدها بنماذج من شعر المقاومة العربي.تختلف الدراسة السابقة مع دراسة الباحثة في كونها لا تتضمن أحداث تاريخية وأدبية مفصلة للفترة التي تلت عام 1966م، والتي لولا وفاة الأديب غسان كنفاني، لأثرى المكتبة العربية والفلسطينية بالعديد من الأعمال المختلفة بعدها، ودَوَّن أهم المراحل التي مرّ بها التاريخ الفلسطيني وما أبدع به العديد من الأدباء الحداثيين وأعمالهم حتى عصرنا الحالي.

المقاومة بالكتابة،[30] **لجابر عصفور**. وهو أحدث أعماله، والثاني له بعد مؤلفه "الرواية والقمع"، يرصد من خلاله أشكال القمع الاجتماعي سواء كان القمع سياسيا، أم دينيا، أم اجتماعيا التي تواجهه الأدب العربي المعاصر، ويتتبع الدور الفاعل للكتابة في مقاومة كل أشكال القمع التي تفرضها كل سلطة استبدادية باسم الدين أو السياسة أو المجتمع من خلال تناول عدة روايات معاصرة، ومن مبدأ أن الإبداع لا يقوم بمواجهة الإرهاب والتسلط وحده، وإنما هذا الدور يلازمه النقد الأدبي الذي يسهم في مقاومة الفساد بتحليل روايات المقاومة، ويشير إلى قناعة التوصل إليها؛ بحيث أنّ الرواية العربية نشأت لتقاوم كل أشكال القمع، وهي قناعة نتج عنها اهتمامات بحثية لديه، أظهرتها الدراسة التي نشرها عن بلاغة المقموعين عام 1992م، وصولا إلى اختياره لموضوع القمع في الرواية العربية لتدريسه في جامعة هارفرد عندما دعته ليكون أستاذا زائرا في دراسات الشرق الأوسط عام 2001م. والباحثة سوف تستفيد من الحقائق المنشورة في الكتاب. ووجه الاختلاف أن دراستها تركز في تشكلات الذات المقاومة في أدب الاغتراب لدى الكاتبة الفلسطينية سوزان أبو الهوى.

Post-Millennial Palestine: Literature, Memory, Resistance[31], By: Rachel Gregory Fox, and Ahmad Qabaha.

فلسطين في ما بعد الألفية: الأدب، الذاكرة والمقاومة، للكاتبين: ريتشل غريغوري فوكس، وأحمد قباحة.

[30] انظر: جابر عصفور، **المقاومة بالكتابة**، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015م)

[31] Fox, Rachel Gregory, and Ahmad Qabaha, eds. *Post-Millennial Palestine: Literature, Memory, Resistance*. (Oxford University Press, 2021).

يتضمن الكتاب مجموعة من المقالات العلمية التي تهدف للمساهمة في المناقشات النقدية المطروحة عن عدة مواضيع تدور حول معنى الذاكرة والمقاومة ضمن دراسات المقاومة الفلسطينية والدراسات المختصة بحرية تقرير المصير.

تقدم مجموعة المقالات إسهاما مميزا في مجال أبحاث الدراسات الفلسطينية بوضع مقترحات وأفكار جديدة ونماذج نقدية تختص بأهمية تدوين الذاكرة، والمقاومة في النتاجات الأدبية في مرحلة ما بعد الألفية، وتناقش الدراسات أهمية حضور الكُتَّاب الفلسطينيين الحداثيين وكتَّاب الأجيال المعاصرة بنتاجاتهم وسط الدراسات الاجتماعية والسياسية، وتقديمهم لتصورات دقيقة للأزمات التي تواصلت بالمرور إلى أجيالهم، وظلت تلقي آثارها على حياتهم، كما يبقى الصوت الساكن للذاكرة حاضرا، والأبرز في نصوص ما بعد الاحتلال كعنصر أساسي ومكمل للتحدي المتواصل في مواجهة الاحتلال وحق تقرير المصير.

من خلال مقدمة الكتاب يرى الباحثان: أحمد قباحة وريتشل غريغوري فوكس أن العديد من نصوص ما بعد الألفية تعمل بمثابة استنطاق للذاكرة وتبدو أقرب إلى وثائق وآثار تختص الحضارة الفلسطينية، وتركز العديد من نصوصها على أهمية دور المقاومة الفاعلة والرافضة للاستسلام، وأهمية دور التضامن الشعبي في مقاومة محاولات المحو الجسدي والتاريخي والتدمير الممنهج، وكرموز حاضرة قد تولد أثرا ما، وأهمية استثمارها في عملية التعليم المتواصل ضد السياسيات الصهيونية كالتضليل والتزييف المعلوماتي، وتأكيدا على أهميتها في توثيق الذاكرة الفردية والجمعية، لتمثل كذلك شكلا من أشكال المقاومة القومية، وطريقة لاستعادة المسروق من التراث وضد النسخ الرسمية المزورة عن التاريخ، وطموح لمستقبل قابل للتحصيل.

تتطرح الدراسة أيضا أهمية مناقشة دور الذاكرة في نصوص ما بعد الألفية، خاصة حينما يكون كُتَّاب هذه النصوص المعاصرة هم أبناء الجيل الثاني والثالث من الناجين من النكبة، والأقرب صِلة إلى الصدمات الفردية والجمعية والثقافية لشعبهم، وخبرات الماضي المنقولة إليهم بعمق وتأثير أكبر عن طريق أسرهم الضحايا المباشرين للنكبة، فنشأت ذاكرة خاصة بهم، لازمتهم ككتاب فلسطينيين حداثيين بشكل مباشر أو غير مباشر تجاه تاريخهم الوطني الاجتماعي والسياسي، ويبرهن مصطلح post memory –ما بعد الذكرى– على بقاء تاريخ النكبة حاضرا متداخلا حتى الحاضر في حياة الفلسطينيين، ومن خلاله تؤكد الدراسة

على ضرورة أن يلتزم الكُتَّاب الفلسطينيون بالتعريف بتاريخهم وحضارتهم، والحضور المتواصل بتجاربهم الخاصة والمآسي التي لازالت تحاصر واقعهم في الداخل والخارج، ولازالوا بفعلها عالقين بأحداث النكبة بشكل متواصل، فالتواجد في الحاضر بالتقديم ولو بالقليل هو أمر ضروري يشبه حراسة الماضي من المحو والتغيير، والبحث بالتعمق في المشاعر الفردية والخبرات التي مر بها الشعب الفلسطيني قد تعود لتلهم جموعا أكبر لطرح مواضيع ذات صلة بمواضيع سياسية أخرى ومنح شعوب العالم حرية تقرير المصير.

ضمن مجموعة الدراسات التي يناقشها الكتاب، والمقاربة للدراسة الحالية: دراسة "ريتشل غريغوري فوكس":

Palestinian Woman's Identity Shift from Implicit-Being to Explicit-Becoming: A Review of Susan Abulhawa's Against the Loveless World[32], By: Bibi, Khadija, Abdul Rashid, and Unaiza Khudai.

هويَّة المرأة الفلسطينية، التَحوُّل في من كونها ضمنية إلى صريحة: دراسة في رواية "ضد عالم بلا حُب" لسوزان أبو الهوى، لمجموعة من الباحثين..

تسعى الباحثة لتتبع مفهوم الهويَّة للمرأة الفلسطينية من خلال رواية "ضد عالم بلا حُب"، عن طريق مفهوم شيفتون لهويَّة المرأة، في ضوء نظرية ستيوارت هول للتمثيل، وباعتماد معتمدة المنهج النوعي للدراسة، تسعى الباحثة لاستكشاف منظور تحوُّل هويَّة المرأة الفلسطينية من الوجود الضِمني إلى الصيرورة الصريحة من خلال العمل، مشيرة إلى أن الفلسطينيين الذين تم نفيهم قسريا إلى المخيمات ودول الجوار وجدوا معاناة أخرى في الاندماج والاعتراف بهويَّاتهم الفلسطينية أثناء العيش في المنفى، وهو ما واجهته المرأة الفلسطينية بشكل أخص، فعملت تلك المجتمعات إلى تطوير روابط قوية بين اللاجئين وحمل المشاعر المعادية القوية لإسرائيل، وقد توصلت الباحثة إلى أن شخصية بطلة الرواية نهر تبدأ في الانكشاف في اتجاهات غير متوقعة وهي تقاتل من أجل الانتماء والحب وسط عالم العنصرية والحرمان، وقدوم الغزو العراقي إلى الكويت، لتثبت الشجاعة التي تتملكها المرأة في تحديها النسوي، واسترداد الكرامة الفردية والمجتمعية وسط عالم يخلو من الحُب، كما تجد

[32] Bibi, Khadija, Abdul Rashid, and Unaiza Khudai. "Palestinian Woman's Identity Shift from Implicit-Being to Explicit-Becoming: A Review of Susan Abulhawa's Against the Loveless World." *sjesr* 5.3 (2022): 90-98. https://ojs.sjesr.org.pk/index.php/ojs/article/view/857

الباحثة أن تحديد الهويَّة هي عملية ذات أهمية وقيمة كبيرة لدى الفرد، وعندما يتم الحديث عن النساء في وضع غير مُلائم، فإن المرأة الفلسطينية تمثل صورة حقيقية للتهميش المزدوج، لكونها امرأة وكونها فلسطينية كذلك. توصلت الباحثة أيضا إلى أن شخصية نهر في طريق محاولتها لإثبات هويَّتها وتحرير وطنها، وصلت إلى هويَّتها الخاصة، وحققت الانضمام إلى ركب المقاومة والتحرير في وطنها.

سعي نهر لإثبات هويَّتها وانخراطها في العمل المقاوم والنضال الوطني في فلسطيني هو الجانب الذي تتفق فيه الدراسة السابقة مع الدراسة الحالية، إلى جانب توسع الدراسة الحالية في تتبع آثار ملمح الاغتراب، وتناول نماذج أخرى للكاتبة بالدراسة.

ختاما فقد ركزت الدراسات السابقة على أبعاد مختلفة ومهمة؛ ولعل أقرب تلك الدراسات لهذه الدراسة تلك التي جاء موضوعها في الرواية الفلسطينية الحديثة أو المعاصرة إذ يتقاطع موضوعها مع عنوان هذه الدراسة في أن كلا منها يجعل الرواية الفلسطينية المعاصرة قِبلَة يركز عليها البحث، غير أن هذه الدراسة تختلف عنها في أنها تضيف بعداً آخر يتمثل في محاولة فهم العوامل والأسباب التي أسهمت في تكوين الذات المقاومة داخل أدب الاغتراب الفلسطيني، وكيف أعطتها بعدا آخر، ولدى واحدة من الكاتبات المعاصرات، وهي سوزان أبو الهوى مما يعطي البحث أفقاً جديداً، يختلف به عما سبقه من أبحاث، وهذا هو مكمن الاختلاف، والإضافة الجديدة التي يمكن التوصل إليها.

الفصل الثاني

مصطلحات ومفاهيم

يستعرض الفصل الآتي المصطلحات الأساسية التي تقوم عليها الدراسة، والدلالات التي عنيت بها، وينظر في التوسع الاصطلاحي لهذه المصطلحات، وكيف أكسبها احتمالها لعدة أوجه غنى وثراء في الدلالة، فنتعرف من خلال هذا الفصل إلى ثلاثة مصطلحات أساسية، وهي:

1. مفهوم الذات في اللغة والاصطلاح
2. مفهوم المُقاومة في اللغة والأدب
3. مفهوم الاغتراب في اللغة والأدب

المبحث الأول: الذات في اللغة والاصطلاح

- **الذات في اللُّغة**

يأتي الخليل على ذكر لفظ "ذا" في معجمه "العين"، في باب حرف الذال، في قوله: "لم يهمزوا ولا يُريدون بها إذن، ولكنها مثل: تعلمتها لعَمْرُ اللهِ ذا قسما.

والأنثى في الأصل: ذاةٌ ولكنها كَثُرت على ألسنتهم فصار أكثرهم يقول (ذات) وهي ناقصة، وإتمامُها ذواة مثل نواة، فحذَفوا منها الواو، فإذا ثَنَّوا أَتَمّوها فقالوا: ذواتان كقولك: نَواتان، وإذا ثلّثوا رجعوا إلى ذات فقالوا: ذوات، ولو جَمَعوا على التمام لقالوا: ذَوَيات كنَوَيات.

وتصغيرها ذُوَيَّةٌ، وقد سمعنا في الشعر من يبني على حَذف الواو كقوله: ذاتا فلزم القياس، وبناؤه على ذات وذاتا".[1]

"وفي التنزيل العزيز: "فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ" قال أَبو العباس أَحمد بن يحيى: أَراد الحالة التي للبَيْن، وكذلك أَتَيْتُكَ ذاتَ العِشاء أَراد الساعة التي فيها العِشاء؛ وقال أَبو

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي، **كتاب العين**، تحقيق: هادي حسن حمودي، (صف الكمبيوتر والإخراج الفني والطباعة، د.ط، د.ت)، باب حرف الذال، ص267.

إسحق: معنى "ذاتَ بَيْنِكُمْ" حَقِيقَةَ وَصْلِكم".[2] وأَتَيْتُه ذاتَ الصَّبُوحِ وذاتَ الغَبُوقِ إذا أَتَيْته غُدْوة وعَشِيَّةً، وأَتَيْته ذا صباح وذا مساء، قال ثعلب عن ابن الأَعرابي: وأَتَيتهم ذاتَ الزُّمَيْنِ وذاتَ العُوَيْمِ، أَي مُذ ثلاثة أَزْمان أَعوام.[3]

"والأُنثى ذات، والتثنية ذَواتا، والجمع ذَوُون، والإضافة إِليها ذَوِّيُّ، ولا يجوز في ذات ذاتِيٌّ لأَن ياء النسب معاقِبة لهاء التأنيث. قال ابن جني، وروى أَحمد بن إِبراهيم أُستاذ ثعلب عن العرب هذا ذو زَيْدٍ، ومعناه هذا زيدُ، أَي هذا صاحب هذا الاسم الذي هو زيد".[4] "ويقال: جاء من ذِي نفسه ومن ذات نفسه أَي طَيِّعًا"[5]، ونقول: مررت برجل ذِي مالٍ، وبامرأَة ذات مالٍ، وبرجلين ذَوَيْ مالٍ، بفتح الواو، وبرجال ذَوِي مال، بالكسر، وبنسوة ذواتِ مال، ويا ذواتِ الجِمام، فتُكسر التاء في الجمع في موضع النصب، وتقول: رأَيت ذواتِ مالٍ لأَن أصلها هاء، ولكنها لما وصلت بما بعدها صارت تاء.[6]

ويعرفه الجرجاني في معجمه: "الذَّاتِي لِكُل شئ: ما يَخُصّه ويميِّزه عن جميع ما عداه، وقيل: ذات الشئ نفسه وعينه، وهو لا يخلوا عن العرض، والفرق بين الذَّات والشَّخص: أن الذات أعمُّ من الشَّخص؛ لأنَّ الذَّات تُطلَق على الجِسم وغيره، والشَّخص لا يطلق إلا على الجِسم".[7]

وحول ذلك يذكر العقَّاد: إن "كلمة الذات باللغة العربية لا تستلزم التشخيص في الحقيقة ولا في المجاز، ولا تقتضي نزاهتها عن التشخيص أنها معنى بغير كيان مستقل عن الوعي والصفات الواعية، فهي تدل على الجوهر الذي تضاف إليه الأوصاف وتدل على الكائن

---

[2] ابن منظور، **لسان العرب**، (القاهرة: دار الحديث، 1423هـ/2003م)، باب الذال، ج3، ص475.

[3] انظر: المصدر السابق، ص475.

[4] المصدر السابق، ص476.

[5] المصدر السابق، ص476.

[6] المصدر السابق، ص476.

[7] علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (816هـ-1413م)، **معجم التعريفات، قاموس لمصطلحات وتعريفات علم الفقه واللغة والفلسفة والمنطق والتصوف والنحو والصرف والعروض والبلاغة**، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، (القاهرة: دار الفضيلة، د.ط، د.ت)، باب الذال، ص93.

الذي يملك صفاته فهو "ذو" تلك الصفات، ولا تعارض صفة الوعي الإرادة والاستقلال بالكيان".[8]

- **الذات في الاصطلاح**

تعددت المفاهيم حول مصطلح الذات، كونه مصطلحا يحتمل الاتساع المتعدد في الدلالة، ويختلف تعريفه تبعا الدراسة المتعلق بها، واختلاف المجال التي تندرج في نطاقه، ولكن الاختلاف في النظر إلى الذات يظهر بشكل أكثر وضوحا في الممارسات النقدية المتنوعة للنص الأدبي، حيث ذهب كل اتجاه من الاتجاهات النقدية السائدة في مقاربة النص الأدبي المذهب الذي ناسبه،[9] وقد شهدت الدراسات الأدبية الحديثة في السنوات الأخيرة إقبالا ملحوظا على دراسة الذات وما يتعلق بها، وهو ما يظهر جليا في العديد من الأبحاث، وفي تنوع الاتجاهات التي اهتمت في نطاقها بالأعمال الأدبية سواء في النثر أو الشعر، وعلى الرغم من هذه الكثرة الكمّية للدراسات، إلا أن مفهوم الذات ظلّ ملتبسا، غامض المداخل لدراسته في الأدب، وبقي الخلط ظاهرا في هذه الدراسات بين الذات والشخصية، وبين الذات في الأدب والذات في الفلسفة، كما أن الدراسات النقدية العربية لم تتناول مفهوم الذات بدراسات مستقلة تُبرِزُ ملامحها وماهيتها ودلالتها في النصوص الأدبية، إلا أنها تطرقت إليه تطرقا جزئيا وبصفة عرضيّة،[10] ولعل ذلك الخلط يرجع إلى تنوع مفهوم الذات وصعوبة حصره، حيث تجاذبته العديد من العلوم والمعارف، كل منها ينظر إليه نظرة مؤطّرة بمنطلقاته الفكرية وإجراءاته الخاصة.[11]

جميع هذه العلوم والمعارف بحثت في الذات انطلاقا من وجهة نظرها الخاصة، والناظر في اهتمام تلك العلوم والمعارف بالذات يلاحظ ورودها غالبا في ثلاثة مواضع: (الفلسفة،

---

[8] عباس محمود العقاد، **الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**، (القاهرة: دار المعارف، ط9، د.ت)، ص59.

[9] انظر: منال العيسى، **الذات المروية على لسان الأنا دراسة في نماذج من الرواية العربية**، (رسالة ماجستير في اللغة العربية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2010م)، ص2.

[10] انظر: المصدر نفسه، ص6.

[11] انظر: المصدر نفسه، ص2.

والدراسات الأدبية، وعلم النفس)،[12] حيث تدخل في مشاركة كبيرة مع أغلب فروع العلوم الإنسانية وتتخذ في كل منها معنى مختلفا ورؤية جديدة،[13] في حين يرى آخرون أن الذات تعد من إحدى المباحث الفكرية الفلسفية، التي شغلت حيزا لا بأس به من المنظومة الفكرية الإنسانية.[14]

فالفلسفة في مفهومها العام لا تخرج عن كونها باحثة في القوانين العامة التي تحكم الوجود، والذات تعد جزءا من هذا الوجود، فكان لها الحظ في تناولها من الجانب الفلسفي باعتبارها جوهرا وعرضا متعدد الزوايا للنظر، كما اختلفت رؤى الفلاسفة للذات، فلم تكن وليدة الجدالات الفلسفية الراهنة وحسب، بل امتدت زمنيا إلى الحِقب الأولى للفكر الفلسفي الانساني المدوّن والمؤرخ له.[15]

في كتابه "الذات عينها كآخر"،[16] والذي يعد من أهم مؤلفات الفيلسوف الفرنسي بول ريكور*، واحتل موقعا مميزا بين جميع مؤلفاته، وتم نشره في العام 1990م، في مرحلة متقدمة من عمر المؤلف، أراده بحسب اعترافه بمثابة تتويج لجميع فلسفاته، وجردة كاملة لما كان قد صنّفه، يعود إلى مشكلة شغلت العديد من المفكرين وهي مشكلة "الذات"، والذات الفاعلة[17].

يقدم بول ريكور في صفحات هذا الكتاب تمييزا مهما يعد محورا لكتابه، وهو تمييز بين هوية ذاتية قابلة للتغير، ولكن في الوقت عينه تبقى محافظة على ذاتها رغم مرور الزمان،

---

[12] انظر: منال العيسى، **الذات المروية على لسان الأنا دراسة في نماذج من الرواية العربية**، ص10.

[13] انظر: المصدر نفسه، ص26.

[14] انظر: عبدالله أوغرب، **الذات والآخر الغربي في روايتي الغربة واليتيم لعبدالله العروي**، (رسالة ماجستير في اللغة العربية، جامعة أبوبكر بلقايد- تلمسان-، الجمهورية الجزائرية الديموقراطية، د.ت)، ص55.

[15] انظر: المصدر نفسه، ص62.

[16] بول ريكور، **الذات عينها كآخر**، ترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتي، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2005م).

* **بول ريكور**: (1913-2005)، فيلسوف فرنسي ذو شهرة واسعة، حصل على شهادة الأستاذية في فرنسا، عمل أستاذا في السوربون وعدة جامعات فرنسية وأوروبية، وعميدا لجامعة نانتر، علّم في عدة جامعات أمريكية منها جامعة شيكاغو. انظر: بول ريوكور، المصدر نفسه، ص722.

[17] انظر: المصدر نفسه، مقدمة المترجِم، ص49.

وبين هوية ثابتة لا تتغير، وليست هي الذات بما يسمى بالإنجليزية: the same، لكن التي تتميز عنها: the self. هذه الهوية التي تُسمى بالعربية العَين أو ما هو عَينُه أو العَينية، وهي أقرب إلى مفهوم الجوهر الذي لا يتغير بل يظل محافظا على ما هو عليه على الرغم من مرور الزمن، وهاتان الهويتان تنتميان إلى حالين مختلفين من الوجود، إذ أن الهوية الثانية تنتمي بالأحرى إلى عالم الأشياء التي هي بتصرفنا ويمكننا أن نستعملها كما نشاء، في حين أن الهوية الذاتية تنتمي إلى الوجود الذي لا يستطيع إلا أن يطرح الأسئلة حول وجوده[18]، مُشيرا إلى أن "الأنا الفاعلة لفلسفات الذات هي في الواقع بلا مكان، أي ليس لها مكان أكيد داخل الخطاب"[19]، كذلك فإن في أعمال الخطاب يسمى (الفاعل الحقيقي للعمل) ذلك الذي يمارس ويقوم بالعمل، وأفعال الخطاب هي نفسها أعمال، ولزوما فإن القائلين هم فاعلون ممارِسون؛ لذلك فإن السؤالين: من يتكلم؟ ومن يمارس ويقوم بالعمل؟ يبدوان متشابكين جدا، وللقارئ هنا دور يُسهم في مُجابهة بنّاءة بين الفلسفة التحليلية والتأويلية، وهذه الحلقات من التحليل هي التي تميز الأسلوب غير المباشر لمعرفة وتأويل الذات[20] كما أن "قول الذات لا يعني القول أنا، فالأنا تتموضع وتتثبت، أو أنها توضع، في حين أن الذات توجد ضمنا بشكل تفكري في عمليات تحليلها ويسبق العودة إلى الذات نفسها"[21]، وهل "يكون المعنى الأول للتصرف البشري أن تدل ذات فاعلة متكلمة على نفسها عن طريق التسمية الذاتية؟ أم يكون في قوة عمل الفاعل الحقيقي، أم يكون في تحمّل التبعة الأخلاقية للعمل؟ فكل جواب له أسبابه الصحيحة"[22].

إضافة إلى أن هناك ما يدعى إقرارا، والإقرار هو بشكل أساسي إقرار بالذات، إن هذه الثقة تكون بالتالي ثقة بالقدرة على القول، وبالقدرة على العمل، وبالقدرة على الاعتراف بالذات كشخصية في القصة، وأخيرا في القدرة على التحدي بـ: ها أنذا!، ففي

---

[18] انظر: بول ريكور، **الذات عينها كآخر**، ص50.

[19] المصدر السابق، ص92.

[20] انظر: المصدر السابق، ص94-95.

[21] المصدر السابق، ص 96.

[22] المصدر السابق، ص98-99.

هذه المرحلة يكون الإقرار بمثابة ما يسمى عادة بالضمير الأخلاقي، وإذا سلّمنا بأن إشكالية التصرف الإنساني تشكل وحدة تماثل تجتمع تحتها كل استقصاءاتنا وأبحاثنا، فإن الإقرار يمكن أن يُعرّف بأنه: التأكد من أن تكون الذات عينها تتصرف وتعمل وتتألم، مثل هذا التأكد يظل الملجأ الأخير ضد كل ريبة[23].

إن فهم الذات هو نتاج عملية تأويل، وتأويل الذات بدوره يجد في السرد واسطة بامتياز مفضلا إياها على بقية الإشارات والعلامات والرموز، حيث يقتبس السرد من التاريخ بقدر ما يقتبس من القصص الخيالية، جاعلا من تاريخ حياةٍ قصة خيالية، وإذا شئنا قصة تاريخية، شابكا أسلوب العمل الحقيقي التاريخي للسِّيَر بالأسلوب الروائي للسِّيَر الذاتية الخيالية، ومثل هذا الإدراك الحدسي لمشكلة الهوية السردية هو فهم واضح لما هو موضع الرهان في السؤال عينه عن الهوية حين نطبقها على الأشخاص أو الجماعات، ومسألة التقاطع والتشابك بين التاريخ والرواية الخيالية كانت تُبعِد بمعنى ما الانتباه عن الصعوبات الجمّة المتعلقة بمسألة الهوية[24].

في الفصل السادس من الكتاب، المعنون بـ: "الذات والهوية السردية"، يعرج بول ريكور لأسئلة واعتراضات أخرى، لا تقل أهمية عن سابقتها، من ذلك: "ما العلاقة بين المؤلف والراوي والشخصية؟ مع أن أدوارهم وخُطبهم مختلفة على الصعيد القصصي؟ وحين أشرح نفسي بتعابير قصة حياة، هل أكون عند ذلك هؤلاء الثلاثة، كما هو الحال في قصة سيرة ذاتية؟ سأكون الراوي والشخصية من دون شك، ولكن لحياة مختلفة عن حياة شخصيات القصة المتخيلة، لحياة لست أنا مؤلفها ولكني في أحسن الأحوال بحسب قول أرسطو أنا مؤلفها الثاني، أي شريك مؤلفها، ولكن حين نأخذ بعين الاعتبار هذا التحفظ ألا يقع أفهوم المؤلف في الالتباس حين نمرّ من الكتابة إلى الحياة؟"[25]، ويسترسل بول ريكور مع الأسئلة والاعتراضات السابقة بتقديم تفاصيل فلسفية معمقة تختص بدراسته، مقدما للقارئ

---

[23] أنظر: بول ريكور، **الذات عينها كآخر**، ص103.

[24] أنظر: المصدر السابق، حاشية الصفحة 251.

[25] أنظر: المصدر السابق، ص325.

شرحا يغطي أهم النقاط التي تعددت جوانبها للهوية والذات من جانب فلسفي تضمنتها مختلف فصول هذا الكتاب.

وهي بالمختصر، تساؤلات يمكننا اسقاط تأويلاتها على إحدى جوانب الدراسة الحالية، التي تظهر انعكاس آثار الأحداث الحياة الواقعية التي عايشتها الكاتبة سوزان أبو الهوى ضمنيا على الأحداث والشخصيات البارزة التي تناولتها مؤلفاتها الروائية، وهو ما ستتطرق إليه الفصول القادمة من الدراسة.

قد يعادل لفظ "الأنا" لفظ الذات، وهو لفظ قد ظهر على التبادل في تاريخ الفكر الفلسفي، فالأنا فلسفة ذاتية، إلا أن "الأنا" تحيل إلى الذات الميتافيزيقية الخالصة قبل أن تتجسد في الذات، وتتجلى في الثقافة والسياسة والأخلاق، وقد يطلق لفظ الأنا في مقابل لفظ الآخر، ويطلق لفظ الذات في مقابل الموضوع، مع ذلك يظل تعبير "الحوار مع الذات" أكثر سلامة في اللغة العربية من "الحوار مع الأنا"، فالذات تاريخية، وثقافية، وسياسية واجتماعية، وأخلاقية، في حين أن الأنا الخالص، لا يتجلى إلا في ذاته أي في "أناه".[26]

وتظهر الاشكالية في غلبة الحوار مع الآخر على الحوار مع الذات، مع أن الحوار مع الذات يسبق الحوار مع الآخر، ومعرفة النفس سابقة على معرفة الآخر، والتساهل في معرفة الذات يؤدي إلى التساهل في معرفة الآخر، بالتالي يعز الحوار ويحدث سوء التفاهم وهو ما تسبب في عدم نجاح الحوار مع الآخر إلى الآن، وفي الفلسفة يسبق قانون الهويَّة قانون الاختلاف، الأنا= الأنا، تسبق الأنا = الآخر، وتخارج الأنا عن ذاتها أي بتحول الأنا إلى الآخر يعد أحد مظاهر الاغتراب فيفقد ذاته كليا أو جزئيا في الآخر.[27]

ولعلّ مفهوم الذات أشبه ما يكون بقاعة بها مرايا مختلفة، منها مستوية ومنها مقعرة ومحدبة، أنّى التفت فيها المرء يرى نفسه على نحو يختلف مع المرايا الأخرى، ومن رؤية هذه الاختلافات تتكون صورة الذات، هذه الصورة التي يتحدد تواصلها مع العالم ومع أعماقها

---

[26] انظر: حسن حنفي، **الحوار مع الذات**، (بحث مقدم ضمن أوراق المؤتمر العلمي الثامن 28-30 تموز –يوليو- 2003م، تحرير ومراجعة: صالح أبو أصبع، عزالدين المناصرة، محمد عبيد الله، عمّان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، جامعة فيلاديلفيا، كلية العلوم والآداب)، ص38-39.

[27] انظر: المصدر السابق، ص38.

تبعا لوعي الإنسان بها فإذا كان حجم اختلافات هذه الصورة كبيرا فإن ذلك يترك صاحبها واقعا في أزمة هوية حقيقة، من هنا تكمن أهمية معرفة المرء لذاته ووعيه الدقيق بها؛ لتصبح ذاته وهويته جزء من العالم الانساني، وقادرة على التواصل مع هذا العالم لتصبح ذاتا فاعلة ومؤثرة في صنعه، فإذا كان الوعي بالذات مهما على مستوى الفرد، فإنه يكسب أهمية أكبر على مستوى الذات الجماعية، لاسيما عندما تكون هذه الذات في أزمة مثل التي تعانيها الذات العربية الحضارية اليوم، مما يدفعنا للسعي للتنقيب في أعماق الذات الجماعية المأزومة وإضاءتها أمام الوعي، وهي محاولة سامية، محفوفة بالمخاطر، تلك المحاولة التي يترك خلالها الإنسان سطح ذاته الوضّاءة ليسلك دربا ليس في مثل وعورته شئ.[28]

بذلك يستوجب بناء الذات إعدادها في صورة أصل وأصالة لهدف واضح، حتى يهب الجوهر الوجودي للذات تكاملها[29]، ومع تطورها وارتقائها تضع المثل العُليا وتحققها بجهودها،[30] وهذا التكامل يستتبع الاشتراك في القدر الشعبي الذي يستوجبه تكاملنا وإنسانيتنا، ويستوجب اعترافا بعدة أصول: أن يكون الإنسان صاحب دور أساسي في مسيرته التاريخية وفي تغيير نظامه الاجتماعي، إيمانا بوعيه وإرادته، واعتبارهما علّة في مسيرة التاريخ الجبرية والتطورات الاجتماعية، فلا يستطيع الإنسان أن يبقى مخلصا وصادقا في ثورة اجتماعية حتى النهاية، و وفيًّا لها، إلا إن كان ثوريا متناسقا معها من قبلها، لأن الثوريّ قبل كل شئ هو جوهر أعيدت صياغة ذاته، إنسان جعل ذاته التي بُنيت آيديولوجيا خليفة لذاته الموروثة عن التقاليد والغريزة، إنسان يستطيع أن يكون من صنع نفسه وشريكا في بناء ذاته، ولا خلاف على أن الإنسان وليد الطبيعة، ورييب تاريخه، ومجتمعه، وطبقته، وهو أيضا يخضع لظروف مولده وقواه الحياتية وملامحه، لكن الإنسان التكاملي الحيوي، الساعي نحو الحرية،

---

[28] انظر: هُدى أبوغنيمة، **الحوار مع الذات**، (بحث مقدم ضمن أوراق المؤتمر العلمي الثامن 28-30 تموز –يوليو- 2003م، تحرير ومراجعة: صالح أبو أصبع، عزالدين المناصرة، محمد عبيد الله، عمّان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، جامعة فيلاديلفيا، كلية العلوم والآداب)، ص311-312.

[29] انظر: علي شريعتي، **بناء الذات الثورية**، ترجمة: إبراهيم دسوقي شتا، مراجعة: حسين علي شعيب، (بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم، مجموعة الآثار الكاملة -12-، ط1، 1425هـ/2005م) ص16.

[30] انظر: سيّد عبدالماجد الغَوري، **ديوان محمد إقبال**، (بيروت: دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، 1428هـ/2007م)، ج1، ص64.

يسبق كل هذه العوامل الجبرية والعلمية والمادية، ويتغير من صورة المعلول إلى صورة العلّة بقدر نضج إرادته ووعيه الذاتي، مثل هذا الإنسان يستطيع أن يسيطر على المسار المادي والعلمي للتاريخ بقدر ما تعبأ إرادته.[31]

وكما يستطيع الإنسان بعمله العلمي أي الملازم للعلم والتجربة أن يغير الطبيعة، يستطيع أيضا أن يغير من نفسه بالعمل في حقل ذاته ليكون الإنسان الذي يريد، من هنا فإن بناء الذات واقع علمي عيني شأنه شأن بناء المجتمع، وبناء الطبيعة، ويزيد عليه بكونه رسالة إنسانية،[32] فالإنسان بالقوة ظاهرة سامية فوقانية، لكنه بالفعل ظاهرة مادية ترابية بيولوجية، وبالقوة يستطيع أن يرتفع إلى حدود العِلَّة المُستقلة عن القوانين المادية ويصل إلى مرحلة استثمار الجبر الطبيعي، والوراثة، والتاريخ، والمجتمع، ويكون مدبر الدنيا المادية، وصاحب السيادة على الوجود، وبها يقطع المسيرة العلمية من التراب إلى الله[33].

إن المفهوم الضمني لبناء الذات هو أن يتم هذا البناء من أجل الوصول إلى هدف ما، أو القيام بعمل ما، فما يعطي بناء الذات أهمية هو وضع هدف، وآيديولوجية ومثال[34]، يعبر عن إرادةٍ حُرَّة، تدافع عن الإنسان الذي لا ملجأ له، وتحميه بقوة القانون، وتدافع عنه أمام كل نظام جبار،[35] فيمتزج بأقدار المظلومين والمحرومين، ويحس بآلامهم ويكافح في مسيرة خلاصهم، ويغض الطَّرف عن مَفاسِد طبقته من أجل أن يَزُجَّ بنفسه في قدر الطبقات المحرومة من كل النعم الإلهية، وبهذا المجال يستطيع أن يقوم بتربية القيم الإلهية في ذاته، وأن يوجه همّته إلى بسط فطرته، وعظمته الداخلية ويقوم بتلقي انعكاس الإله فيها، في نفس الوقت الذي يمتزج فيه بأقدار الناس المظلومين المحرومين ويحس بآلامهم ويُكافح في مسيرة خلاصهم، إلى أن يصل إلى مرحلة الإيثار، ويكون قد ربَّى القيم الإنسانية في ذاته.[36]

---

[31] انظر: علي شريعتي، **بناء الذات الثورية**، ص17، 18، 19.

[32] انظر: المرجع نفسه، ص19.

[33] انظر: المرجع نفسه، ص20.

[34] انظر: المرجع نفسه، ص22-23.

[35] انظر: المرجع نفسه، ص30.

[36] انظر: المرجع نفسه، ص41.

أما الذات في العمل الأدبي، وهو الجانب الأقرب، والأخص بالدراسة الحالية، فلا تقتصر على مجرد بناء للعمل الأدبي، فهي إلى جانب ذلك "أنا" أو "ذات" يُمكن إدراكها والتعرف عليها من خلال أقوال الروائي في "فعل القول"، ومن خلال ظهورها الفني، صانعةً للسرد ومضطلعة به، ومنظمة له، وهذه الذات تتجاوز العمل الأدبي إلا أنها مع ذلك تظل مدخلا مهما من مداخل إدراكها والوقوع على ملامحها الفنية والموضوعاتية.[37]

"فالعمل الأدبي قبل أن يكون إنتاجا أو تعبيرا، هو بالنسبة إلى الذات المُبدعة وسيلة للكشف عن الذات، وهذه الوسيلة تقوم أساسا على الوعي بخصوصياتها، فاستبطان الذات لا يمكن أن يتم دون شعور واع يسبقها، لأن التعبير الإبداعي عنها يكون نتيجة حفر عميق في تلك الخصوصيات مع محاولة الربط بينها لبناء صورة واضحة، ولا يتم ذلك إلا إذا امتلكت الأنا تفاصيل ذاتها باعتبارها وحدة عينية خاصة، وتحديد تلك التفاصيل الموضوعاتية المبثوثة في ثنايا الخطاب الإبداعي بشكل واع هو ما يسمح للقارئ تحديد رؤية خاصة عنها، لا كما هي في الواقع الوجودي، بل كما يستشفها من الواقع النصي".[38]

والذات التي أثبتت حضورا نصيا بارزا تُستَمَدُّ من البُنية اللغوية للخطاب، وتعدُّ كفاءةً للمتلفظ أن يتنزّل في خطابه ذاتا، كما أنها في المرحلة الأولى هي الملفوظ النصي الذي يشير إليه المبدع صراحة أو تضمينا، ولا يمكن تحديده إلا وفق تلك الملفوظات الإشارية، إلا أنه يمكننا الانطلاق من الملفوظ النصي إلى الخارج والإحالة إليه من خلال ربط الواقع النصي بالواقع الحياتي لهذه الذات.[39]

وقد لا تأتي الذات في صورة واحدة ولا نجدها في شكل محدد؛ لأنها وإن كانت نصية، فإنها تشبه إلى حد بعيد الذات الواقعية لا في ملامحها بل في تطورها الدائم وتغيرها المستمر، لذلك فلا تكون متماثلة الوجوه بفعل الاختبارات الجديدة التي تغيرها في كل مرحلة، فحتى في كل لحظة من لحظات وجودها يجدُ الإنسان نفسه مستمرا في تغيير طريقة تفكيره في

---

[37] منال العيسى، **الذات المروية على لسان الأنا دراسة في نماذج من الرواية العربية**، ص4.

[38] حسين تروش، **تمفصلات الذات وعلاقتها بالآخر في خطاب محمود درويش الشعري**، (الأردن: مركز الكتاب الأكاديمي، ط1، 2018م)، ص34.

[39] انظر: المصدر نفسه، ص35.

ذاته، لذلك، فقد تظهر في أشكال نصية متعددة،[40] من هذه الرؤية انطلق النقد الموضوعاتي، معتبرا تحديد الذات في الخطابات الإبداعية موضوعا زئبقيا لا يمكن الإمساك به إلا من خلال تتبعها عبر المسار الإبداعي الكامل للمبدع، وعبر خطابه كلّه، فأين يوجد الكاتب حقا وفي أوفر حقيقته إذا لم يوجد في المجموع الملموس لكتبه؟ ففيه يتذوق ويبدع، وفيه يتوجب البحث عنه بادئ ذي بدء،[41] وهو ما يمكننا من إدراك وجدانه ومواقفه المختلفة ووراءها يكمن الجوهر الذي يشكل شخصية الكاتب.[42]

وقد أعادت نظرية الأدب انشغالها بتاريخ الأدب، وأولى النقد الأدبي اعتبارا للذات الكاتبة من خلال الاهتمام بطرق التعبير،[43] بعكس ما جاءت به النظريات المؤيدة لنفي الذات في المستوى الأدبي مما جعلها مناهج غير جامعة مانعة، جعلت من النص لغة للغياب، ضياء محروم من الأنا، الكلمة التي تمنحنا وجودا، ولكنه وجود خال من الوجود،[44] وبذلك وصفت بأنها نزعة مضادة للنزعة الانسانية[45]، ولا يمكن الاكتفاء بها في سبر أغوار النصّ الأدبي،[46] فهو نتاج لوعي متفرد تتقاسمه اعتباطيّة الذات الفردية وما تفرضه اللغة من نظم، فالنص هو المجال الذي تلتقي فيه الذات واللغة والوجود، حيث تعيد الذات تنزيل الوجود في اللغة وتعيد تنزيل اللغة في الوجود، وتنزل الذات في المستوى المركز من الخطاب،[47] "فكيف يمكن إخضاع الأدب لأحكام موضوعية تسمح بفك اللغز القائم منذ وجد الأدب؟ وكيف

---

[40] انظر: المصدر نفسه، ص35.

[41] انظر: حسين تروش، **تمفصلات الذات وعلاقتها بالآخر في خطاب محمود درويش الشعري**، ص36.

[42] انظر: آمال النخيلي، **الذات الرائية في شعر الزهد ديوان أبي العتاهية نموذجا**، (سورية: دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2011م) ص16-17.

[43] انظر: المصدر نفسه، ص17.

[44] انظر: المصدر نفسه، ص18.

[45] انظر: منال العيسى، **الذات المروية على لسان الأنا دراسة في نماذج من الرواية العربية**، ص22.

[46] انظر: آمال النخيلي، المصدر نفسه، ص17.

[47] انظر: المصدر نفسه، ص19.

يمكن أن نفسر تفسيرا علميا عمليّات تدور مجملها في أعماق الذات الإنسانية وفي أدق بؤرة من بؤرات إحساسها وروحها الفنية".[48]

في حين قد يرى بعض الباحثين أن الذات المبدعة هي الأهم من الذات المؤلفة، فالأولى هي الذات الحاضرة في التجربة الأدبية كموضوع وهي أيضا الذات الفاعلة، لذلك يمكن إخضاعها للنظر والتحليل على الجانبين الموضوعي والفني، كما أن الذات المبدعة مع دخولها في تجربة مباشرة مع إمكانات وجودها إبداعيا يصير المبدع في جدلٍ مع العالم في كليّته، ومن ثم يكون قد أخذ بالتحوّل في العلاقة بمقدار ما يحوِّل العالم، أي بمقدار ما يغير في نظامه ونظام العلاقة بين أشيائه.[49]

وما أشرنا إليه سابقا من أن التعريف الدقيق للذات يتبع غالبا السياق الذي أتاحه الراوي وصاغه للشخصية المترجمة لهذه الذات، والذات التي نحن بصدد تعريفها والتقصي عن صورتها هي الذات الفلسطينية المُقاوِمة الحُرّة، الصورة التي لطالما قابلت صورة العدو الصهيوني كضد وآخر مغاير له، روحٌ تجهر للعدو تلاحمها بأرضها، وتصدح في أعماقها نداء الحرية، وتأبى المساومة على أرضها وهويتها ولو كان الثمن تلك الروح أو الذات.

المبحث الثاني: المُقاومة في اللغة والاصطلاح

- **المُقاومة في اللُّغة:**

يأتي ابن منظور على ذكر المصطلح في لسان العرب، في باب قَوَمَ، فيذكر: "وقاوَمَهُ في المِصارَعَة وغيرها. وتقَاوموا في الحرب أَي قام بعضهم لبعض. وقِوامُ الأمر، بالكسر: نِظامُه وعِماده".[50]

"ويقال ما زِلت أُقاومُ فلانا في هذا الأَمر أي أُنازِله. وفي الحديث: مَن جالسَه أوقاوَمه في حاجة صابَرَه. قال ابن الأَثير: قاوَمَه فاعَله من القِيام أي إذا قامَ معه ليقضي حاجضتضه صبرَ عليه إِلى أَن يقضِيها".[51]

---

[48] المصدر نفسه، ص19.

[49] انظر: منال العيسى، **الذات المروية على لسان الأنا دراسة في نماذج من الرواية العربية**، ص27.

[50] ابن منظور، **لسان العرب**، ج6، ص546.

وفي "العين" يرد ذكره في قوله: وقاومته في كذا، أي: نازلتُه.[52]

- **المُقاومة اصطلاحا:**

تعني المُقاومة: النضال ضد الأفكار والممارسات الاستعمارية، بهدف استعادة ما أخذه المستعمر بالقوة، وتتحدد المقاومة غالبا في فعلين: المقاومة بالفعل المسلح، من خلال اللجوء للقوة، ومواجهة العدوان بالعنف، أو المقاومة من خلال الفعل الثقافي بوسائل ثقافية، والتي تهدف لإعادة بناء الذات التي يحاول الاستعمار طمس معالمها، وتقوم على رسم خريطة الأرض الثقافية كمرحلة تابعة للمقاومة المسلحة،[53] وهو ما يميّز السرد المقاوم في منحه الأولوية للعنصر الجغرافي، انطلاقا من كون الامبريالية نفسها قد عرّفت نفسها بأنها فعل من أفعال العُنف الجغرافي، والتي أسهمت بشكل جوهري في فقدان الأصلاني لأرضه؛ لذا كان من المهمات الأولى لثقافة المقاومة استعادة الأرض وإعادة سكناها.[54]

وحيث عُدَّ الأدب بمنظومه ومنثُوره كمرآة تنعكس فيها حقيقة الشعب، كان الأديب بمثابة جُندي يحمي الحدود ويخدم الوطن بقلمه، واللغة آلة ينحت بها سلاحا ليُجابه مكاره الدهر، لا سيما حين يستهدف عدو حقيقته وأرضه ووجوده.[55]

والمُقاومة أيضا: دفعٌ بين قوتين، دفعٌ بين الأنا والآخر، وبحث عن الحُرية وسعي نحو الانعتاق من القيود التي تفرض على الفرد أو مجموعة من الأفراد، وتشكل صورة اجتماعية وسياسية، وما هي إلا محاولة لاستعادة ما كان موجودا في الأصل، مع نظرة تأملية تحليلية لما هو كائن، في خلفية ما كان لأجل ما يجب أن يكون، ووجود الحرية فطرةً في الإنسان جعلت من العبودية حالة مرفوضة لديه، تحملها الإرادة الحرَّة التي تقفُ رافضة لكلِّ ما هو غير قادر

---

[51] المصدر السابق، ص550.

[52] الفراهيدي، **كتاب العين**، ج5، ص179.

[53] انظر: لونيس علي، **إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية – كيف نؤسس للوعي النقدي– دراسة نقدية**، (الجزائر: دار ميم للنشر، ط1، 2018م)، ص321.

[54] انظر: المصدر السابق، ص321-322.

[55] أكرم روشنفكر، **الأدب العربي المقاوم بين القومية والإسلامية، بحث مقدم ضمن أوراق المؤتمر الثالث للّغة العربية وآدابها الاتجاهات الحديثة في الدراسات اللغوية والأدبية**، (ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، ط1، 2011م)، ج1، ص137.

على تقبُّلِ هذه الحُريَّة والتعايش معها، وتجعل الـمُقاومة فلسفةً، والتمرُّد مسلكا للإنسان المضطلع، الشاعر بحقوقه.[56]

فنجد بذلك أن شِعار الـمُقاومة شِعار بعديّ يستبق القبليّ، شِعار يستبق شِعار إزالة الأسباب التي أدَّت إلى العدوان وهي الأجدر بأن تُزال حيث كان العدوان هو الأقوى صدى، والأبعد ترددا وقد تخلل خلايا الوجودد الآنيّ، فلا وجود هناك للأنا إلا إذا وضعت الأنا نفسها حين تُقاوِم، والمقاومة لا تقف عند حد منع العدوان، بل تكون صدا في حالة وقوعه، ولكي يتم ذلك، لا بد من إحداث تحرر للذات الفردية، القادرة بدورها على تحرير الذات الجمعية من أسر القديم وثقل القيود.[57]

وهو ما أجازته القوانين الدولية للشعوب من شرعية لانتهاج أسلوب القوة والمقاومة للدفاع عن نفسها في حال وقوع عدوان خارجي عليها، من أجل الاستقلال، ووحدة الأرض، والوحدة الوطنية، والتحرر من السيطرة الاستعمارية والأجنبية، بكل الوسائل المتاحة، خاصة الكفاح المسلح، ولضمان حقها في تقرير المصير.[58]

وأدب قضية ما، هو الأدب الذي يلتزم بطرح هذه القضية، فيعرّفها ويشرحها ويدافع عنها وعن المؤمنين بها، ويعمل على تحقيق أهدافها،[59] ومع ارتكاز المضامين في أدب المقاومة على قيم البطولة، والفداء، والصمود، والتحدي، والثورة، والصلابة، والشهادة، والتمسك بالأرض، والمعاناة، فقد تداخل مع آدابٍ أخرى إلا أنه أتخذ هوية خاصة ضمن مساق أدب المقاومة، كأدب السجون والأسر، وأدب العودة، وأدب اللجوء، وأدب المنفى والاغتراب،

---

[56] انظر: محمد المجتبى عبدالعزيز عثمان: **المقاومة بين الذاتية والموضوعية، ثقافة المُقاومة:** أعمال الندوة الفلسفية السادسة عشر التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية بجامعة القاهرة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2007م)، ص45-46.

[57] انظر: المصدر نفسه، ص43-44.

[58] انظر: سليمان قوس، **المقاومة والإرهاب رؤية تاريخية للحالة الفلسطينية**، (رسالة ماجستير في الدراسات الدولية، جامعة بيرزيت، 2006)، ص19-24.

[59] انظر: مصطفى السيوفي، **تاريخ الأدب العربي الحديث**، (القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط1، 2008م)، ص207.

إضافة إلى ما يحويه من قيم رمزية عالية لأبطال هذه القيم، وما يعكسه عن التجربة الثورية الجهادية بمبادئها ومواقفها وتسجيلها للوقائع والأحداث التاريخية.[60]

وتعد ثقافة المقاومة ضرورة إنسانية مُطلقة لتحقيق الذات الإنسانية، وهي مشروعة في مختلف تجلياتها، فالتاريخ هو تاريخ نضال الإنسان واستشهاده في مختلف مجالات العلم والفكر، ضد كل ما يعيق وجوده وتقدمه، والثقافة المقاومة هي الثقافة التي تفرز حالة من الفاعلية الإيجابية والتنبه لمواجهة محاولات الاختراق والتفكك الثقافي من الداخل.[61]

بدأت ملامح المقاومة بالظهور في الأدب مع نهاية العهد العثماني، وبدأت بالترسخ في حقبة الثلاثينات مع نهوض الوعي الثقافي والسياسي والعروبي وانتشار الصحافة والتعليم.[62]

أما بداية تشكله وظهوره وسط الساحة الأدبية الفلسطينية، فيقدم غسان كنفاني شرحا مفصلا في كتابيه، الذي يعد كل منهما مكمّلا للآخر[63]: "أدب المُقاومة في فلسطين المحتلة 1948-1966م"،[64] و"الأدب الفلسطيني المُقاوم تحت الاحتلال 1948-1968"[65]، ليذكر أن إرادة التحرير هي النتاج الطبيعي والمنطقي والحتمي للمقاومة في معناها الواسع: المقاومة على صعيد الرفض، وعلى صعيد التمسك الصلب بالجذور والموقف، ومثل هذا النوع من المقاومة اتخذ شكله الرائد في العمل السياسي والعمل الثقافي، من هنا فإن الشكل الثقافي في المقاومة يطرح أهمية قصوى لا تقل أبدا عن المقاومة المسلحة ذاتها، ويشكل

---

[60] انظر: عادل الأسطة، **أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات**، (دمشق: مؤسسة فلسطين للثقافة، ط2، 1429هـ/ 2008م)، ص9.

[61] انظر: مصطفى عبدالغني، **الغيم والمطر الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة**، (مصر: دار جهاد للنشر والتوزيع، د.ط، 2003م)، ص11.

[62] انظر: نادي ساري الديك، المقاومة المسلحة أعادت الأمل ونهضت بالأدب، **مجلة الحياة الجديدة الثقافية**، العدد 6110، (2012/11/8م)، مقال منشور بصيغة PDF.

[63] غسان كنفاني، **الأدب الفلسطيني المُقاوم تحت الاحتلال 1948-1968**، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، 1968م)، ص10.

[64] غسان كنفاني، **أدب المُقاومة في فلسطين المحتلة 1948-1966**، (بيروت: مؤسسة غسان كنفاني الثقافية، دار منشورات الرمال، ط2، 2015/2014م).

[65] غسان كنفاني، **الأدب الفلسطيني المُقاوم تحت الاحتلال 1948-1968**.

رصدها وتتبع حركتها واستكشاف أعماقها ضرورة لا غنى عنها،[66] وأدب المقاومة الفلسطيني –على وجه الخصوص– لم يكن أبدا ظاهرة طارئة على الحياة الثقافية الفلسطينية، وفي نطاقه قدمت المقاومة الفلسطينية نماذج مبكرة ذات أهمية قصوى، على الصعيدين الثقافي والمسلح كعلامة من علامات المسيرة النضالية العربية المعاصرة، فكما أنتجت الثورات المسلحة أسماء خُلّدت مثل عز الدين القسام، فإن أدب المقاومة أنتج أسماء من الطراز ذاته ما زال المواطن العربي يذكرها بكثير من الاعتزاز، كابراهيم طوقان، وعبدالرحيم محمود، وأبو سلمى (عبدالكريم الكرمي) وغيرهم، من هذه الناحية فإن أدب المقاومة الفلسطيني الراهن، مثله مثل المقاومة المسلحة يشكل حلقة جديدة في سلسلة تاريخية لم تنقطع عمليا خلال نصف القرن الماضي من حياة الشعب الفلسطيني،[67] لكن ما مَيَّز الأدب الفلسطيني المقاوم في فلسطين المحتلة منذ 1948 وحتى 1968 هو تَشكُله وسط ظروف قاسية بالغة الشراسة، تلك التي تحداها وعاشها يوما وراء يوم،[68] فالتغيرات التي امتدت آثارها بوقوع كارثة عام 1948م، أحدثت هزّة جوهرية، وخللا بالغا في التركيبة الاجتماعية للعرب في فلسطين المحتلة، وذلك بتهجير الغالبية الساحقة من سكان المدن والتي عُدَّت بمثابة مراكز أساسية للقيادة الفكرية.[69]

مع هذه الأحداث، غادر جيل كامل من المثقفين الفلسطينيين إلى المنفى ولم يبقَ معه إلا مجتمع قرويّ في غالبيته الساحقة، يخضع لحصار سياسي واجتماعي وثقافي يندر وجود مثله في العالم.[70]

في ذلك الجو الخاضع للحصار ، كان السبق للشعر في اقترانه بلفظ المقاومة وتوجيه النداء إليها وذلك لسهولة تداوله وحمله للحرارة العاطفية المطلوبة،[71] ولم يكن مصطلح شاعر

---

[66] انظر: غسان كنفاني، **الأدب الفلسطيني المُقاوم تحت الاحتلال 1948–1968**، ص9.

[67] انظر: المصدر نفسه، ص9، 10.

[68] المصدر نفسه، ص10.

[69] انظر: المصدر نفسه، ص11.

[70] انظر: المصدر نفسه، ص14.

[71] انظر: المصدر نفسه، ص66.

المُقاومة مختصا بالشُّعراء المحدثين الذين أُطلِق عليهم هذا المُصطلح رسميا ولو بشكل وصفيّ قبل أن يتحول إلى ظاهرة إصطلاحية زمن شهرة الشاعر محمود درويش.[72]

إلا أن شيوع هذا المُصطلح وتداوله تداولا واسعا في أدب المبدعين الفلسطينيين ظهر منذ منتصف الستينيات إثر اكتشاف نغمة المُقاومة وتكريس الأدباء لهذا المصطلح، فانتشر انتشارا سريعا واكتسب قوة اصطلاحية هائلة اتسمت بها التجربة الأدبية الفلسطينية –نظريا وإجرائيا– في هذه المرحلة، فأصبح مصطلحا عالي التداول عند الأدباء والنقاد والدارسين العرب، وعلى الرغم من قِدم المصطلح إلا أن تكريسه كمصطلح أدبي وثقافي قائم كان في النصف الثاني من ستينيات القرن الماضي، حيث أطلق غسان كنفاني على أدب فلسطين المحتلة "أدب المُقاومة"، والذي اشتقّت منه لاحقا صفة شعراء المُقاومة.[73]

وتكمن أهمية الزاوية الفكرية التي تَشَكَّل من خلالها أدب المُقاومة، في تلك الزاوية الإنسانية العريضة الرحبة التي يعبر من خلالها ويتمثَّلها، والتي انطلقت لترجمة المأساة الفلسطينية من منظور إنساني شامل، بعيدا عن الأطر القومية والدينية أو الاجتماعية، ذلك المنظور جمع تحت مظلته العديد من الأدباء والشعراء والكُتّاب بمختلف انتماءاتهم، لمؤازرة الحالة الإنسانية ذات الصراع البحت؛ فكان أدب "تجمُّع"، ومن هذا المنطلق برز الجانب الإيجابي لهذا الأدب وهو خلق عامل للتجمع بعيدا عن عامل التفرقة، فهذا الأدب الإنساني هو أدب تجمُّع للدرجة التي تجذب الخامة الإنسانية إليها أنظار واهتمام وتجاوب من يتناقضون مع شكلها القومي أو مضمونها الاجتماعي.[74]

مع هذا المنظور الانساني الشامل الذي جمع تحت جناحيه مختلف الحركات المناهضة للظلم والعدوان بكل أشكاله، وتخترق حدود الغلاف القومي الضيق، كانت الحركة الفلسطينية جزءا لا يتجزأ منها، فمدت رغم آلامها والأحداث التي مرت بها خلال الستينات والسبعينات، يد العون واحتضنت معاناة العديد من الدول الأخرى من أفريقيا ونيكاراغوا

---

[72] انظر: فيصل صالح القصيري، **جماليات النصّ الأدبي أدوات التشكيل وسيمياء التعبير**، (سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، 2011م)، ص116.

[73] انظر: المصدر نفسه، ص116-117.

[74] انظر: غالي شكري، **أدب المقاومة**، (القاهرة: دار المعارف، د.ط، 1970م)، ص7-8.

وفيتنام وإيران ومختلف حركات المقاومة التي تلقت دعما هائلا من الفلسطينيين في بيروت، ليذكر نيلسون مانديلا إثر لقائه بإدوارد سعيد في جوهانسبرغ، وذلك بينما كانت حركة المؤتمر الوطني الإفريقي في أسوأ لحظاتها: "لن نتخلى أبدا عن الفلسطينيين. أولا لأنها قضية مبدأ وثانيا بسبب مساعدتهم لنا."[75]

ومع أهمية ما يشكله البعد الإنساني، إلا أنه لم يكن ليتعارض مطلقا مع وجود بعد قومي في أدب المقاومة، فليس للعمل الأدبي وجه عام أو مجرد ينفرد به، بل تتفاوت نسب التركيز فيه على هذا الوجه أو ذاك.[76]

وهي بتمثيله للوجود الإنساني غاية يسعى إليها الأدب، إنسانية تتضمن المؤلف وقارئه، والسرد كحديث قائم بينهما،[77] وبكونه متصلا بكل شئ، غير منفصل عن الدين والسياسة والأخلاق، ومُعبِّرا عن آراء الناس حول كل واحدة من هذه الأشياء؛ ومثل كل شئ في الطبيعة هو في الآن ذاته علّة ومعلول، ورسمه كظاهرة معزولة، يساوي عدم رسمه.[78]

مع ذلك، فقد تعددت المسميات التي اختصت بالسرد المُقاوم، فكان منها: السرد المضاد، والخطاب النقيض، لكن وعلى اختلاف المسميات إلا أن المسمى يبرز المقاومة الرمزية التي تقوم على منظومات خطابية وتمثيلية، حيث تغدو اللغة ونظامها التعبيري مسرحا للمارسة فكر المقاومة، وتؤكد كذلك على السلطة التمثيلية للسرد الروائي،[79] بما تعنيه من تفكيك للصورة النمطية المتحيزة ايديولوجيا للمركزية الغربية، منطلقة من الوعي بأهمية امتلاك سلطة الكلمة والصوت في تمثيل الذات.[80]

---

[75] انظر: إدوارد سعيد، **القلم والسيف، حوارات مع دافيد بارساميان**، ترجمة: توفيق الأسدي، (دمشق: دار كنعان للنشر، ط1، 1998م)، ص46-47.

[76] انظر: غالي شكري، **أدب المقاومة**، ص10.

[77] انظر: تزفيطان طودوروف، **الأدب في خطر**، (المغرب: دار توبقال للنشر، ط1، 2007م)، ص51.

[78] انظر: المصدر نفسه، ص33.

[79] انظر: لونيس علي، **إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية – كيف نؤسس الوعي النقديّ– دراسة نقدية**، ص322.

[80] انظر: المصدر نفسه، ص322.

إلا أن كتابة سرد مُقاوم لا تتوقف في الغالب عند حدود إحلال نص مكان آخر، أو على حضور نص معتمد في نص كتبه الأصلاني على شكل تناص، ولكن ما يجعل من هذا السرد مضادا هو تفكيكه للسلطة والقوة الفاعلة داخل النص المعتمد كما يسعى إلى تحرير النص من قبضة هذا التمثيل، وهو بذلك لا يقوم على عملية إعادة كتابة أو تمثُّل للنص الكولونيالي، لكن العملية في جوهرها هي تفكيك لمظاهر حضور السلطة الكولونيالية في تلك النصوص، وتحرير صورة الذات من منظومات التمثيل الكولونيالية التي صورته خارج شرطه الاجتماعية كذات جوهرانية. [81]

وتأتي المقاومة السردية بهدف إعادة اكتشاف ما كان قد تمّ قمعه في ماضي الأصلانيين من قبل العمليات الإمبريالية، فهي فعل بمثابة استعادة للصوت المصادر كتتمة لاستعادة الجغرافيات المنهوبة.[82]

إن علاقة الذات ووعيها بموضوع المقاومة، جعلت فرضية المقاومة تتخذ أشكالا في ظاهرها مختلفة، في جوهرها متطابقة، فالشكل الذي يحمل ظاهر السلبية في رفض القائم من حالة حجر الحرية، وذلك الشكل الديناميكيّ الحركي الذي تعبر عنه أشكال من التكوينات المسلحة أو المشيرات التظاهرية، كلها في جوهرها إعلان عن رفض لما هو قائم، أو التمرد على المتغير الذي يستصعب معه تحجيم الحرية أو كبتها، وقمعها في شتَّى الصور ومختلف الطرائق.[83]

وهو ما تحتمه ضرورة المقاومة من توافر علاقة حرة بين الذات والموضوع؛ ذلك أن الذات الواعية بذاتها، هي القادرة على إحداث فعل الحرية والتغيير، وفعل الحرية يتحرك بصورة ديناميكية يجعل من الإرادة الحرة، الإرادة الكامنة داخل الروح، الروح التي عنت دائما أن

---

[81] انظر: لونيس علي، **إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية – كيف نؤسس الوعي النقديّ– دراسة نقدية**، ص322- 323.

[82] انظر: المصدر نفسه، ص321.

[83] انظر: محمد المجتبى عبدالعزيز عثمان: **المقاومة بين الذاتية والموضوعية، ثقافة المُقاومة**. ص44.

الإنسان ليس بعبد، وإنما سيد، سيد ولكنه صديق ومحرر، إرادة قادرة على التمرُّد ومن ثمّ إحداث فعل المقاومة.[84]

المبحث الثالث: الاغتراب في اللغة والاصطلاح

- **الاغتراب في اللُّغة**

"الغُرْبَةُ: الاغتِرابُ من الوَطَن. وغَرَبَ فلانٌ عَنَّا يَغْرُبُ غَرْباً أيْ تَنَحَّى، وأَغْرَبْتُه وغَرَّبْتُه أي نَحَّيْتُه. والغُرْبَةُ: النَّوَى البعيد، يقال: شَقَّتْ بهم غُرْبَةُ النَّوى. وأَغْرَبَ القومُ: انتَوَوا. وغايةٌ مُغرِبةٌ أي بعيدة الشَّأوِ. وغَرَّبَتِ الكِلابُ أي أَمعَنَت في طَلَبِ الصَّيْدِ. ويقال نحن غُرُبانِ أي غَريبانِ، قال: وتَأَنَّ فاننا غُرُبانِ، وقال ابنُ أحمَر: لاحَت هَجائِنُ بأسي لَوْحةً غُرُباً. والغَريبُ: الغامضُ من الكلام، وغَرُبَتِ الكلمةُ غَرابَةً، وصاحبُه مُغْرِبٌ".[85]

وفي لسان العرب: "**الغَرْبُ**: هو الذهابُ والتَّنَحِّي عن الناسِ. وقد **غَرَبَ** عنا **يَغْرُبُ غَرْباً، وغَرَّبَ، وأَغْرَبَ، وغَرَّبه، وأَغْرَبه**: نَحَّاه".[86]

"**والغَرْبة والغَرْبُ**: النَّوَى والبُعْد، وقد **تَغَرَّب**"[87].

"ويقال: **غَرَّبَ** في الأرض **وأَغْرَبَ** إذا أَمْعَنَ فيها؛ قال ذو الرمة: أَدْنَى تَقاذُفِه التَّغْرِيبُ والخَبَبُ، ويُروى التَّقْرِيبُ. ونَوى **غَرْبةٌ**: بعيدة. **وغَرْبَةُ** النَّوى: بُعْدُها".[88]

"والنَّوى: المكانُ الذي تَنْوي أَن تَأْتِيَه في سَفَرك. ودارُهم **غَرْبةٌ**: نائِيَةٌ. **وأَغْرَبَ** القومُ: انْتَوَوْا".[89]

"وقالوا: هل أَطْرَفْتَنا من **مُغْرِّبةِ** خَبَرٍ؟ أَي هل من خَبَر جاءَ من بُعْدٍ؟ وقيل إنما هو: هل من **مُغَرِّبةِ** خَبَرٍ؟ وقال يعقوب إنما هو: هل جاءتْك **مُغَرِّبةُ** خَبَرٍ؟ يعني الخَبَر الذي يَطْرَأُ

---

[84] انظر: المصدر نفسه، ص47، 55، 57.

[85] الفراهيدي، **كتاب العين**، باب حرف الغين، ج4، ص352.

[86] ابن منظور، **لسان العرب**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط1، 1416هـ/1995م)، ج10)، باب غَرَبَ، ص32.

[87] المصدر نفسه، ص32.

[88] المصدر نفسه، ص32.

[89] المصدر نفسه، ص32.

عليك من بَلَدٍ سوَى بلدِك. وقال ثعلب: ما عِنْدَه من **مُغَرِّبةِ** خَبرٍ، تَسْتَفْهِمُه أو تَنْفِي ذلك عنه أَي طريفةٌ. وفي حديث عمر، رضي الله عنه: أنه قال لرجل قَدِمَ عليه من بعض الأَطْرافِ: هل من **مُغَرِّبةِ** خَبَر؟ أي هل من خبرٍ جديدٍ جاءَ من بلدٍ بعيدٍ؟ قالوا أَبو عبيد: يقال بكسر الراءِ وفتحها، مع الإِضافة فيهما. وقالها الأُمَوِيُّ، بالفتح، وأَصله فيما نُرَى من الغَرْبِ، وهو البُعْدُ؛ ومنه قيل: دارُ فلانٍ **غَرْبةٌ**. والخبرُ **الـمُغْرِبُ**: الذي جاءَ غريباً حادثاً طريفاً. و**التغريبُ**: النفيُ عن البلد".[90]

"و**غَرَبَ** أي بَعُدَ؛ ويقال **اغْرُبْ** عني أَي تباعَدْ؛ ومنه الحديث: أَنه أَمَرَ بتَغْرِيب الزاني؛ **التغريبُ**: النفيُ عن البلد الذي وَقَعَتِ الجِنايةُ فيه. يقال: **أَغْرَبْتُه وغَرَّبْتُه** إذا نَحَّيْتَه وأَبْعَدْته. و**التَّغَرُّبُ**: البُعْدُ"[91].

و**الغُرْبة** و**الغُرْب**: النُّزُوحُ عن الوَطَن والاغْتِرابُ. و**الاغْتِرابُ** و**التغرُّب** كذلك؛ تقول منه: **تَغَرَّبَ**، و**اغْتَرَبَ**، وقد **غَرَّبه** الدهرُ. ورجل **غُرُب**، بضم الغين والراء، **وغريب**: بعيد عن وطنه؛ الجمع **غُرَباء**، والأنثى **غَريبة**. ورجلٌ **غرِيبٌ**: ليس من القوم؛ ورجلٌ **غَريبٌ** و**غُرُبٌ** أَيضاً، بضَم الغين والراء وتثنيته **غُرُبانِ**. والغُرباءُ: الأَباعِدُ.[92]

- **الاغتراب في الاصطلاح**

"يقابل الكلمة العربية (اغتراب) الكلمة الإنجليزية (Alienation)"[93] والتي تعود من خلال الإنجليزية الوسيطة والفرنسية القديمة إلى اللاتينية الكلاسيكية[94] ومنه اشتقت الكلمتان الإنجليزية والفرنسية أصلهما، وهو اسم مستمد من الفعل اللاتيني (Alienare)، والذي يعني

---

[90] ابن منظور، **لسان العرب**، ص32.

[91] المصدر نفسه، ص32

[92] المصدر نفسه، ص32، 33.

[93] يحيى العبدالله، **الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلّون الروائية**، (بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع، ط1، 2005م)، ص21.

[94] انظر: أحمد عودة الله الشقيرات، **الإغتراب في شعر بدر شاكر السيّاب**، (الأردن: دار عمّار للنشر والتوزيع، ط1، 1407هـ/1987م)، ص13.

نقل ملكية شئ ما إلى آخر، أو الانتزاع أو الإزالة[95] والجذر اللاتيني لها هو (Alienato)،[96] كما يرد في الأدب الألماني العالي الوسيط مصطلح الإغتراب مقابلا للكلمة (Entfremdung).[97]

ومع أن مفهوم الكلمة المتداولة حاليا كمصطلح فنيّ دقيق، قدِم إلينا من الثقافة الغربية، إلا أنه متجذر ومتأصل في الثقافة العربية الإسلامية، فكان الاغتراب صفة يتصف بها أفاضل القوم، وسمةً يستقل بها الشعراء والنخبة من الأدباء والمفكرين في مخالفتهم للجموع، ودلَّ على تفرد الأكفاء بالوعي والمعاناة،[98] إلا أن أغلب ما حملته المقولات المتناثرة عن الاغتراب، إلتصقت في الأذهان بالغرُبة التي عنت الابتعاد عن الوطن، أو الغُربة في الوطن بسبب الفقر، أو شعور الفرد بالاغتراب الذاتي، وهي ظاهرة كثرت لدى الصوفيين، في حين رجعت بعض الأسباب إلى ترك المحبوب لمن يحب.[99]

وبوصف الاغتراب ظاهرة في الأدب العربي، فقد كانت ومازالت شديدة الاستجابة للمقتضيات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية للعصر، ولم تكن لتنمو بعيدا عن المناخ العام للمجتمع،[100] ومع أن التفسيرات القديمة لمفهوم الاغتراب قد انطلقت من أسس غيبية وروحية، إلا أنها وبمرور الزمن أصبحت تعتمد على عناصر من الواقع الاجتماعي في تحليلها للاغتراب ولاسيّما بعد ازدياد حركة التصنيع،[101] ومع كثرة ما كتب حول هذه الظاهرة وتضارب الآراء والاتجاهات حولها، إلا أن مفهوم الاغتراب لازال يعاني الكثير من الغموض؛ وذلك لصعوبة الحصول على تعريف دقيق لهذا المفهوم، حيث أن أغلب المحاولات لتفسير المفهوم كانت تدور حول أمور معينة تشير كلها إلى دخول عناصر معينة أيضا في مفهوم

---

[95] انظر: يحي العبدالله، المصدر نفسه، ص21.

[96] انظر: أحمد عودة الله الشقيرات، المصدر نفسه، ص12.

[97] انظر: أحمد عودة الله الشقيرات، **الإغتراب في شعر بدر شاكر السيّاب**، ص13.

[98] انظر: سعيدة خاطر الفارسي، **سوسنة المنافي حمدة خميس وتحولات الاغتراب السياسي**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 1424هـ-2003م)، ص8.

[99] انظر: يحي العبدالله، **الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلّون الروائية**، ص23.

[100] انظر: المصدر نفسه، ص8.

[101] انظر: أحمد عودة الله الشقيرات، المصدر نفسه، ص12.

الاغتراب، مثل: الإنسلاخ عن المجتمع، والعزلة، أو الانعزال، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع، واللامبالاة، وعدم الشعور بالانتماء، وانعدام الشعور بمغزى الحياة.[102]

هذا التعدد في معنى الاغتراب قد يوقع القارئ في اللبس أو التضارب، فهو موضوع حافل لا يحمل معنى واحداً عام، بل يتعدد ويتباين تبعا لتنوع العلوم التي قامت بتوظيف المصطلح الذي تناولته تناولا أسهم إلى حد كبير في انتشاره، وأفقده الدلالة المحددة، وجعله مصطلحا فضفاضا يفتقد إلى الدقة والوضوح،[103] حتى بدا كمشكلة بلا معنى محدد.[104]

وكما يحمل المصطلح في طياته معانٍ متفرعة عدّة، فإن الدلالات المختلفة التي يشير إليها الاغتراب متعددة كذلك، فقد يشير في الغالب إلى دلالتين، إحداهما إيجابية، والأخرى سلبية، ومن المُلاحظ أن الدلالة السلبية قد طغت على المفهوم في الدراسات الاجتماعية والنفسية، بينما طغت الدلالة الإيجابية على المفهوم في النواحي الإبداعية، فالدلالة السلبية ناجمة عن اغتراب سلبيّ مرضيّ يتسم بالتقوقع، أو الهروب، أو الانسحاب[105]، أو بفعل ضياع الغاية لدى الفرد، أو انعدام الثقة،[106] في حين أن الدلالة الإيجابية نجمت عن اغتراب إيجابي صحيّ، يتسم بالوعي والفاعلية، وهو اغتراب المبدع والمفكر والفيلسوف.[107]

وضمن دائرة الاغتراب الإيجابي يقع اغتراب المبدع، حيث يرتكز اغترابه على رفضه للسلبيات، ورغبته في توعية الجموع (الآخر) والتسامي به، وإصلاح المكان (المجتمع) سعيا منه لتحقيق مستقبلٍ أفضل (الزمن)، وانتصارا منه للجمال والحرية على القبح والتشيؤ، وهي غاية الفن والفنان دوما، كما أنه رفض ينبع من الحب وشدة الرغبة في الإنتماء، وبذلك يكون الإنسان المبدع – لا مُنتمياً – بوعيه الشديد الرافض لحضارة قائمة على الضجر، والفناء،

---

[102] انظر: أحمد عودة الله الشقيرات، **الإغتراب في شعر بدر شاكر السيّاب**، ص12.

[103] انظر: سعيدة خاطر الفارسي، **سعاد الصباح بين الاستلاب والاغتراب**، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط1، 1424هـ/2003م)، ص8.

[104] انظر: سعيدة خاطر الفارسي، **سوسنة المنافي حمدة خميس وتحولات الاغتراب السياسي**، ص7-8.

[105] انظر: المصدر نفسه، ص 8-9.

[106] انظر: يحي العبدالله، **الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلّون الروائية**، ص23.

[107] انظر: سعيدة خاطر الفارسي، **سوسنة المنافي حمدة خميس وتحولات الاغتراب السياسي**، ص9.

والحروب، والدمار، والكوارث، والتلوث الصناعي، والموت المجاني، فهو لا مُنتمٍ للواقع والزمان السيئ، باحثٌ عن الأفضل؛ بذلك هي ظاهرة إيجابية، وعلامة وعيٍ، وصحةٌ ذِهنية يصاب بها الأشخاص الأكثر حساسية نفسية من الآخرين، ويَتَلازم اغترابهم مع البحث الإنساني الدائب عن الحرية بمعناها الروحي العميق،[108] ولتتضح أبرز ملامحهم في: العزلة، والحزن، والتأمل الذي يولّده الوعي، والقلق، والرفض، والتمرد، وعدم التكيف، وعدم الشعور بالانتماء، وبذلك لا يعد المغترب إنسانا وسطيا، بل هو إنسان متطرف، تطرفاً لا يأتي من فراغ، وإنَّما من وعي، فبدون هذا الوعي لا يوجد اغتراب.[109]

وقد يُعدُّ الاغتراب في الغالب ظاهرة إنسانية وجودية، فليست مرضاً ولكنها سمة ملازمة للوجود الإنساني،[110] ظلت تتفاقم ويتعاظم أثرها كلما ازدادت حدة الضغط مما خلفته الحضارة المادية على جوهر النفس البشرية، حتى أصبحت التجارب والأحوال التي ترتبط، وغالبا ما توصف بهذا المصطلح هي خصائص تميز عصرنا الحديث، والمجتمع الصناعي بوجه عام، والمجتمع الرأسمالي بوجه خاص،[111] وهو ما يشير إليه كارل ماركس في مخطوطاته،[112] من اغتراب العامل أو انسلابه* في المجتمع الرأس مالي، وتملّك الرأس مالي لناتج عمل العامل، وانفصال العامل عن وسائل الانتاج التي تواجهه – وهي في حيازة الرأس مالي– كقوة غريبة مستَعبِدة، ومنها يقترب كارل ماركس في عرضه للسمات المميزة للاستغلال الرأسمالي،[113] مع نقده للاقتصاديين البورجوازيين، وكشفه للتناقض العدائي المتبادل بين العمل

---

[108] انظر: سعيدة خاطر الفارسي، **سوسنة المنافي حمدة خميس وتحولات الاغتراب السياسي**، ص10-11.

[109] انظر: المصدر نفسه، ص9.

[110] انظر: سعيدة خاطر الفارسي، **سعاد الصباح بين الاستلاب والاغتراب**، ص7.

[111] انظر: مريم جبر فريحات، "الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني"، **مجلة جامعة دمشق**، الأردن: كلية إربد الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، العدد 3+4، المجلد26، (2010م)، ص290.

[112] كارل ماركس، **مخطوطات كارل ماركس لعام 1844**، ترجمة: محمد مستجير مصطفى، (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، د.ط، د.ت).

* **الاستلاب:** هو عدم الانتماء الفرد لذاته، وانقطاع انتماءه لنفسه، والشعور بأنه المتصرف بنفسه نتيجة لظروف خارجة عن إرادته، أو بفعل سطوة الآخر، فيُعامل معاملة الشئ، وقد يصبح عبداً للأشياء. انظر: سعيدة خاطر الفارسي، **سعاد الصباح بين الاستلاب والاغتراب**، ص9-11.

[113] انظر: كارل ماركس، المصدر نفسه، ص6.

ورأس المال، ففي نظره كلما ازداد ما ينتجه العامل من ثروة ازداد بؤسا، إضافة إلى أن عملية التطور الاقتصادي للمجتمع الرأسمالي ذاتها تقود حتما إلى الثورة، كما يثير مسألة تحرر العمال، والتي يوضح أنها تحوي التحرر الانساني الكليّ.[114]

وهو ما نتج عن استبداد الأنظمة الاقطاعية** في أوروبا في العصور الوسطى، التي استعبدت الناس والأرض استعبادا حقيقيا فلم يكن العامل في ظل تلك الأنظمة يستطيع التملك التام لأرضه، ولا أن يتصرف فيها، أو أن يقوم ببيعها أو توريثها، وعليه أداء أعمال صاحب الأرض وأداء ضريبة غير محددة المقدار اعترافا بعلاقة التبعيَّة، وهو ينتقل مع انتقال الأرض إلى يد أخرى، ولا يملك الحرية المطلقة لمغادرة مكان العمل أو الالتحاق بخدمة سيد آخر، في ظل حراسة الكنيسة لهذه الأوضاع، حتى انهيارها. وهي صورة لم يعرفها الإسلام في تاريخه قط، إلا أنها ألقت بظلالها اليوم على العديد من الأنظمة ولو بصورة غير مباشرة.[115]

وباعتبار الاغتراب ظاهرة إنسانية وُجِدت في أغلب الثقافات ومختلف أنماط الحياة الاجتماعية، فهي أقدَم ممّا كَتَب عنها هيجل وكارل ماركس، مع أن الفكرة قد وصلت إلى التكامل على يدي هيجل،[116] وهو ما يكاد يجمع عليه أغلب الباحثين، فكان أول من استخدم مصطلح الاغتراب استخداما منهجيا مقصودا ومفصلا، بل ونظّر له في كتابه "فينومينولوجيا الروح" عام 1807، وكان أول من أعطاه معنى مميزا،[117] فيذكر هيجل حول ذلك: إن عالم الرّوح المغترب ذاتيا يتحلل في عالم مضاعف، فالعالم الأول هو عالم الحقيق أو عالمُ اغتراب الروح نفسه، وأما الآخر فالعالم الذي استشاده، إذ يرتفع على العالم الأول في أثير الوعي المحض، لذلك فالعالم المتضاد مع الاغتراب لا يكون على التدقيق في حِلّ منه،

---

[114] انظر: كارل ماركس، **مخطوطات كارل ماركس لعام 1844**، ص6.

[115] انظر: محمد قطب، **جاهلية القرن العشرين**، (القاهرة: دار الشروق، د.ط، 1989م)، ص98 – 99.

** نظام الإقطاع: هو أسلوب إنتاج، يتَّصف بالتبعيَّة الدائمة، وفي ظله يلتزم المُنتِج المباشر نحو سيده بأداء مطالب اقتصادية معيَّنة، سواء أكانت تلك المطالب تؤدى على هيئة خدمات يقوم بها أو على شكل مدفوعات أو استحقاقات يؤديها نقدا أو عينا. (انظر: محمد قطب، **جاهلية القرن العشرين**، المصدر نفسه، ص98).

[116] انظر: أحمد عودةالله الشقيرات، **الإغتراب في شعر بدر شاكر السيّاب**، المصدر نفسه، ص12.

[117] وليام العوطة، **مفهوم الاغتراب في الماركسية**، مقال منشور بصيغة PDF، ص2، على موقع أكاديميا للأبحاث الالكترونية: https://www.academia.edu/3842790/ الاطلاع الأخير بتاريخ: 24-3-2021

وإنما في الأكثر هو صورة أخرى للاغتراب تتمثل على الحصر في أن يكون له الوعي في عالمين من جنسين اثنين ويحيط بكليهما، وعليه فليس الوعي بالذات الذي للماهيّة المطلقة كما هو في – ذاته ولذاته؛ لذلك فإن هذا الإدبار من ملكوت الحاضر هو في حد ذاته في – الحال إدبار مضاعف، فالوعي المحض إنما هو العنصر الذي ترتفع فيه الرُّوح، لكنه ليس عنصر الإيمان وحسب، بل هو كذلك عنصر المفهوم؛ ولهذه العلة يهلّ كلاهما متآينين، والإيمان لا يدخل في الاعتبار إلا في التضاد مع المفهوم.[118]

كذلك فإن هناك ما يشير إلى وجود هذا المفهوم في الفكر اليوناني القديم، وقد ردّ العديد من مؤرخي الفلسفة الفكرة إلى كتابات أفلوطين ونظريته عن الفيض، وتتبعوا ظهورها في الأفلاطونيات الحديثة، وانتقالها إلى اللاهوت المسيحيّ، ومعالجتها في كتابات العديد من الفلاسفة الإجتماعيين في أوروبا وبخاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر،[119] حيث ظهرت في كتاب العالم الأنثروبولوجي "Lewis Morgan" (المجتمع القديم)، وهو الكتاب الذي اعتمد عليه انجلز وماركس اعتمادا كبيرا فيما بعد،[120] ومع أن مصطلح الاغتراب لم يظهر في الكتابات الأنثروبولوجية إلا منذ عهد قريب، إلا أن المصطلح نفسه وجد له تعبيرا في العديد من المصطلحات الأنثروبولوجية مثل: "الانسلاخ عن القبيلة" أو "تصدع الإنتماء القبلي".[121]

إلا أن مما لا شك فيه أن الاغتراب يعد بمثابة مؤشر على اختلال علاقة الذات الإنسانية بواقعها الذي يفترض فيه أن تكون العلاقة فيها مبنية على التكيف والانسجام،[122] وقد "يتجسد مفهوم الاغتراب بمظاهر العزلة الناتجة عن إحساس الفرد بأن الآخرين لا يواكبونه فكريا، وعن ما يسود المجتمع من ثقافات مُشوَّهة، وتضليلٍ سياسي، وتضارب في الآراء والأفكار، والموضوعية الناتجة عن وعي الفرد بوجود الآخرين كشئ مستقل على نفسه،

---

[118] انظر: غِيُورْغْ فِلْهِلْم فريدريش هيجل، **فينومينولوجيا الروح**، ترجمة وتقديم: ناجي العوْنلّي، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2006م)، ص517.

[119] انظر: أحمد عودة الله الشقيرات، **الإغتراب في شعر بدر شاكر السيّاب**، ص12-13.

[120] انظر: المصدر نفسه، ص13-14.

[121] انظر: المصدر نفسه، ص14.

[122] انظر: سعيدة خاطر الفارسي، **"على شفا حفرة" دراسة في الاغتراب الصوفي لدى زكية مال الله**، (القاهرة: مركز الحضارة العربية، ط1، 2004م)، ص7.

أو عن تميزه في اختصاصه، أو تفرده بمجال معين؛ ذلك فقد أصبح الإنسان في العصر الحديث منفصلا انفصالا حادا لم يسبق له مثيل سواء عن الطبيعة، أو المجتمع، أو الدولة، أو الله، أو حتى عن نفسه وأفعاله، فلم يعد قادرا على إقامة الجسور التي تصل بينه وبين الآخر المختلف المَظاهر، والمتعدد الأسماء، ومن ثمَّ أصبح عاجزا عن تحقيق ذاته ووجوده على نحو شرعي أصيل،[123] والاغتراب بذلك صرخة احتجاج تومئ إلى بشاعة الوضع السائد ورغبة يحركها نشاط داخلي لضرورة الانطلاق نحو التغيير للوصول إلى وجود إنساني أفضل، أما الاغتراب الميتافيزيقي فهو الاغتراب الذي يأخذ من مجال ما وراء الحس "العالم الآخر" الذي يسمى بعالم المُثل، عالما مناقضا ومتضادا مع الأرضي الواقعي، اغتراب رافض للزمان والمكان والآخر، يقوم على صراع جدلي منشؤه الذات، وبين ثنائية متضادة متنافرة كالروح والجسد، والخلود والموت، والخير والشر، والظلام والنور، والمغترب الميتافيزيقي قد لا يسعى بالذات إلى إصلاح الواقع، أو بأن يقوم بدور المبشر والمصلح، فقد ينسحب إلى عالم آخر، مستعينا بالحلم، أو الطفولة –وهو ما يمثل الفطرة والطهر–، أو الأشخاص حينا، وبالإبداع حينا آخر، وذلك رغبة منه في الوصول إلى المِثال المطلق، وخلاصا من معاناة الواقع، إنه يدعو إلى السموّ والارتفاع إلى مرتبة أعلى في واقع أدنى، ورغم كون حلم هذا المغترب عصياً على التحقق، وكون العلاقة مع الآخر ذات شكل سلبي ترتكز على الحلم لا الحركة، ومواجهة الآخر بالتفوق لا بالمشاركة، فالمغترب الميتافيزيقي لم يكن مُتشائما سوداوي المزاج كالمغترب التاريخي عموما، بل كان دائم التفاؤل يفرُّ إلى حلم جديد، وإن ظل مبددا بين الرغبة والإمكان.[124]

هي ذات الغُربة التاريخية المكانية، التي تعاقبت بأحداثها مع بدء الانتداب البريطاني على أرض فلسطين، وتفاقمت بمرور أحداث عام 1948م وما تلاها، وأي اغتراب قسريّ كان أشد وقعا من النَّفي عن الأرض، أو اختياريّ لكن بفعل عوامل خلقت هذا الاضطرار وفعَّلت أوضاعا لدفع حركة الهجرة والنزوح، كالذي فعّلته الحركة الصهيونية، ضد شعب أُجبِر على مُعاينته، وعُدَّ من أكبر ضحاياه، ليتجرَّع آلآم الشتات، وتذيقه أحداثها الأمرّين، سواء

[123] انظر: مريم جبر فريحات، "**الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني**"، ص290-291.

[124] انظر: سعيدة خاطر الفارسي، **"على شفا حفرة" دراسة في الاغتراب الصوفي لدى زكية مال الله**، ص7.

كان الاغتراب الناتج نفسيا أم جسديا، على أرضه أو قسرا خارج المنفى، لتُلقي بظلالها على هذا الفرد المنفيّ،[125] وتنعكس من خلال أدب يحمل آلآمه وقضيته المنفى والاغتراب، والتي أثمرت أدبا من نوع آخر، كان في جزء كبير منه نتاجا لؤلاك للمنفيين، والمهاجرين، واللاجئين،[126] حتى عَدَّ بعض النقاد – أدب المهجر– جنسا أدبيا قائما بذاته بين الأجناس الأدبية الأخرى في القرن العشرين،[127] أدبٌ كتبه المنفِيُّون عن المنفِيِّين ويرمز إلى عصر اللاجئين، عصر بحريته الحديثة وإمبرياليته، ومطامع حكّامه الشموليين شبه اللاهوتية، هو حقا عصر اللاجئ، والمطرود، والهجرة الجماعية، لكن ومع تلك الخلفية الواسعة، وغير الشخصية، فقد كان من غير الممكن –كما يشير إدوارد سعيد– أن يوضع المنفى في خدمة أفكار الإنسانوية وتصوراتها، وبمقياس القرن العشرين، فإن المنفى لم يعد من الممكن الإحاطة به جماليا ولا إنسانويا: فأقصى ما هنالك أن يُجسد أدب المنفى ذلك القلق وتلك الورطة التي نادرا ما يختبرهما معظم الناس على نحو مباشر، إلا أن التفكير بأن المنفى هو الذي يُملي أدبا إنسانوياً محسنا يُعدُّ بمثابة ابتذال لما يُحدثه المنفَى من بترٍ وضروب تشويه، ولما يُنزِله من خسارات بؤلئك الذين يعانون منه، ولما يَرُدُّ به من خَرسٍ على أيَّة محاولة لفهمه على أنه (خيرٌ لنا)، أليست النظرة إلى المنفَى في الأدب، بل وفي الدين تخفي ما هو رهيب وفظيع في حقيقته؟ وهو أن المنفى أمرٌ دنيوي على نحو لا براء منه، وتاريخي بصورة لا تطاق؛ وأنه من فعل البشر؛ وأنه، شأن الموت، إنما من غير نعمة الموت الأخيرة قد اقتلع ملايين البشر من منهل التراث، والأسرة، والجغرافيا؟.[128]

لقد حمل المنفيون في مختلف العصور ذات الرؤى العابرة للثقافات والقوميات، وعانوا من ذات ضروب الإحباط والبؤس،[129] وأي صراع فاق في عناده حدَّة الصراع القائم بين

---

[125] انظر: محمد الشحّات، **سرديات المنفى الرواية العربية بعد عام 1967**، (الأردن: أزمنة للنشر والتوزيع، ط1، 2006م)، ص9.

[126] انظر: إدوارد سعيد، **تأملات حول المنفى ومقالات أخرى**، ترجمة: ثائر أديب، (بيروت: دار الآداب، ط2، 2007م)، ص117.

[127] انظر: المصدر نفسه، 118.

[128] انظر: المصدر نفسه، ص118.

[129] انظر: المصدر نفسه، ص118.

الحركة الصهيونية والشعب الفلسطينيّ؟ هذا الصراع الذي حوَّل الغالبية من الفلسطينيين إلى منفيين؟ حتى أصبح شعبا يُضرب به المثل في النفي، ومع أحداث صيف عام 1982م، لم يبقَ فلسطينيٌ أو فردٌ واعٍ إلا وتساءل: أيُّ دافع خفي دفع الحركة الصهيونية، التي سبق لها أن اقتلعت الفلسطينيين عام 1948م، أن تواصل الإبادة والطرد وصولاً إلى بيوت ومخيمات اللجوء في لبنان؟! وكأن التجربة الجمعية اليهودية التي أُعيد بناؤها على النحو الذي تمثله الصهيونية الحديثة، لا تطيق أن تتواجد بجانبها قصة اجتثّتها من عمق تفاصيلها وألقت بها للاستلاب والضياع، وهي عدم إطاقة لطالما عززها العداء الصهيوني تجاه وطنيَّة الفلسطينيين، الذين عانوا أشد المعاناة أعواما طوالا وهم يجمعون في المنفى شتات هويّة وطنيَّة.[130]

فكان من ما لا شك فيه أن المنفى كان في وجه العديد منهم أحد أكثر الأقدار مدعاة للكآبة، ففي أزمنة ما قبل العصر الحديث كان الإبعاد عقابا مُرعبا بصفة خاصة، وكان ثمَّة ربط على الدوام بين فكرة المنفى وأهوال أن يكون المرء مجذوما، يُنبَذُ إجتماعيا وأخلاقيا، وفي القرن العشرين تحول النَّفي إلى عقاب حاد، وأحيانا حصريّ، وأحيانا لأفراد ذوي صفة خاصة، فلم يكن مجرد أعوام يعيشها الفرد تائها بلا هدف، بعيدا عن الأسرة والأماكن المألوفة بالنسبة إليه، بل كان يعني أن يبقى أشبه بمنبوذ دائم، لا يشعر أبدا أنه بين أهله وخلانه، ولا يتفق البتَّة مع محيطه، لا يتعزى عن الماضي، ولا يذيقه الحاضر والمستقبل إلا طعم المرارة.[131]

كما يذكر إدوارد سعيد في "تأملات حول المنفى"[132]: "يُجبِرُ المنفَى المرءَ على التفكير فيه ويا لها من تجربة فظيعة، إنَّه الشرخ المفروض الذي لا التئام له بين كائن بشري ومكانه الأصليّ، بين الذات وموطنها الحقيقي: فلا يمكن البتّة التغلب على ما يولّده من شجن أساسي، وإذا ما كان صحيحا أن الأدب والتاريخ يحفلان بحوادث بطولية، ورومانسية، ومجيدة، بل وظافرة حدثت في حياة النَّفي، إلا أن هذه الحوادث لا تَعدو أن تكون جهودا

---

[130] انظر: إدوارد سعيد، **تأملات حول المنفى ومقالات أخرى**، ص123.

[131] انظر: إدوارد سعيد، **صور المثقف، محاضرات ريث سنة 1993م**، ترجمة: غسَّان غصن، (بيروت: دار النهار للنشر، د.ط، د.ت)، ص49.

[132] إدوارد سعيد، **تأملات حول المنفى ومقالات أخرى**.

يقصد منها التغلّب على أسى الغُربةِ الشَّال، فمآثر المنفى لا يني يقوّضها فقدان شئ ما خلّفه المرء وراءه إلى الأبد.

وعلى الرغم من ما أحاط الفلسطينيّ من مختلف أنواع الاغتراب في أرضه ومنفاه إلا أنه ما زال متمردا أمام ثأره، لا يكل ولا يموت الدفاع في ذاته، ذاته الواعية بحقه وقضيته.

ولم يكن ليتم تحوُّل هذا الاغتراب إلى وعي بالذات الفلسطينية والعالم، ويتم من خلال الوعي بالذات إتيان فعل العقل الذي يشكل فعل الحُرِّية، إلا بفعل المقاومة والرفض، فالرفض اغتراب داخليّ، اغتراب الأنا الفرديّ، داخل الأنا الجمعيّ، ليتولَّد عن هذا الاغتراب من خلال تفاعل الأنا والذات، فعل المقاومة، التي هي محور الدراسة الآتية والمغزى منها.

الفصل الثالث

صورة الذات المقاومة في أحداث ما قبل النكبة في الرواية الفلسطينية الحديثة (نماذج مختارة)

اشتغل المتن الروائي الفلسطيني بشكل خاص، منذ احتلال فلسطين وقيام الدولة الصهيونية عام 1948م على إنجاز نصٍّ سردي متخيل ينطلق من نكبة فلسطين والأحداث المصاحبة لها، من عمليات تطهير عرقي وتهجير قسري وشتات دفع بالفلسطينيين إلى جهات الأرض الأربع، سعت للقبض على لحظة النكبة في الزمان والمكان، واستعادة فلسطين الي كانت وجرى تدميرها ومحوها عام 1948م، معتمدة في العديد من الأحيان على المصادر التاريخية، وكتب الرحالة، والوثائق، والشهادات الشخصية للفلسطينيين الذين عايشوا تلك المرحلةوالتجارب الشخصية للروائيين أنفسهم، لبناء مادتها السردية التي تعمل من خلال التخييل وابتداع الشخصيات وتصوير الأحداث على تركيب صور الحياة الفلسطينية لتلك الحقبة الزمنية.[1]

وقد أسهمت الروايات التي قدمها الفلسطينيون بلغات أخرى غير العربية بتقديم رواية مختلفة عن الرواية الصهيونية لاحتلال فلسطين وقيام الدولة العبرية، رواية تسرد الحكاية الحقيقية لقدوم الاستعمار الصهيوني الكولونيالي الإحلالي، وتشترك السرديات الروائية الفلسطينية التي تبدأ سردها من نقطة سابقة لزمن الانتداب البريطاني إلى تصوير الحياة الفلسطينية رغم المظالم والصراعات التي مرت بها في أواخر أيامها ، وفي زمن يبدو رغم سرمديته أقرب إلى الحياة الفلسطينية في جريانها الطبيعي قبل انفجار الصراع بين العرب واليهود خلال فترة الانتداب البريطاني، والتهيئة لكتابة لحظة الخروج الكبير للفلسطينيين من بلادهم[2]، وهو ما يقارب العملين الآتيين في رؤيتهما لهذه المراحل الزمنيةولا يخفى حضور الشخصيات المقاومة التي جمعتها هذه الأعمال، ودفعها بالتغيير الجذري لبوصلة التاريخ بتكوين تخييلي لها يتوافق مع حضورها في الأزمنة والأمكنة.

---

[1] انظر: فخري صالح، **النكبة والرواية وتبلور الهويَّة الوطنية الفلسطينية**، مقال منشور في الصفحة الإلكترونية لمجلة الجديد، رابط الصفحة:https://www.aljadeedmagazine.com/%D8%A7%D9%84%.

[2] انظر: المصدر نفسه.

– المبحث الأول: الثورة الفلسطينية الكُبرى وأحداث ما قبل النكبة (زمن الخيول البيضاء)

يقدم إبراهيم نصرالله[3] في روايته "زمن الخيول البيضاء" وهي جزء من سلسلة الملهاة الفلسطينية، ملحمة التاريخ الفلسطيني على امتداد زمني متسع النطاق، ما يقارب قرنا من الزمن، يُسهب في سَردٍ مُطولٍ تخييلا لأزمنة تاريخية بمنظور أسطوري، يعكس وجه الرواية التقليدية، بوصف العادات والتقاليد، وأحوال المجتمع، والأغاني والأشعار الشعبية ووصف البيئة وعُمق ارتباطها بالمجتمع خلال تلك المراحل، ومَدى اعتزاز العربيّ بالخيل الأصيل التي تصور جزءا مهما من تاريخ الشعب وأصالة تجذره في أرضه، وكيف شاركت فرسانها صناعة الأمجاد ولازمته في علاقة وطيدة، فهي فرد من أفراد العائلة، لها مساحة من الفاعلية الزمانية والمكانية والجمالية[4]. متعلقة بأصحابها كما يظهر مع الشخصية الرئيسة خالد وفَرسِه الحمامه، فرس مُهِيبة أشبه بالضوء الناصع في بياضه، والطائر الأسطوري في سُرعته، يَطمع بها الأعداء، ترتبط هَيبتها بشخوص العائلة وتُقاسمهم البطولة والمصير[5]، حُرمتها وكرامتها مُصانة، مكرَّمة في العائلة كما كانت تُكرَّم النساء، وكما يظهر من ارتباط الفَرس الجليلة بالعزيزة أخت خالد، وريحانة بفَرسها الأدهم الذي يتولى مُلازمتها وحِمايتها بعد مقتل زوجها على يد العميل الهبَّاب.

يأتي سرد الكاتب مدمجا بوقائع تاريخية وأخرى متخيلة للمكان الذي سكنته عائلته قبل عقود من التهجير، ودمَّرته العصابات الصهيونية إبان أحداث النكبة الفلسطينية[6]، صاغ تاريخيتها وأعاد بناءها بشهادات أبناءها الأصليين الذين وقع على حكاياتهم، ومنها يُشيِّد

---

[3] إبراهيم نصرالله كاتب وشاعر فلسطيني، ابن لأبوين فلسطينيين تم تهجيرهما من بلدة البريج، في إحدى المجازر إبان النكبة الفلسطينية عام 1948م، من مواليد الأردن عام 1954م، انظر:كفاح طافش، **رمز الحصان في رواية زمن الخيول البيضاء**، (مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي).

[4] وفاء عوني الخضراء، **تبادل الأدوار بين الإنسان والحيوان في رواية زمن الخيول البيضاء**، ص578.

[5] المصدر السابق، ص582، 583.

[6] شاهد: لقاء مع الكاتب إبراهيم نصرالله، قناة الغد، منصة يوتيوب، برنامج بيت ياسين.

مساحة فضاء متخيل لقرية الهادية[7] الواقعة على أعتاب مدينة القدس، قرية يؤسس بناءها الأول شيخ القرية: الحاج محمود -ممثل الجيل الأول في العمل-، والذي يكسب على مر الأيام ثقة الأهالي واعتراف الراهب جورجيو بالحكمة والنُبل: "أنصت الخوري باهتمام، فهو يعرف أن رجُلا كالذي أمامه لا يجوز بأي حال تجاوز رأيه وحكمته أيضا"[8].

يوظف الكاتب الأحداث في تسلسل زماني ابتداءا بتَصوير مرحلة الحكم العثماني وامتداد نفوذه في أراض الشام وفلسطين. ويصور مآلات ذاك الحكم الذي اتصفت نهايته بالظلم والجور تجاه الفلسطينيين بمَصادرة وأراضيهم بأنظمة إقطاعية، وفَرضِ الضرائب كعُشر ما تنتجه الأرض المزروعة على المزارعين الفُقراء، إلى جانب تدني مستويات الأجور، كما يرى القارئ بتعاقب الأحداث ظُلم من يُسمَّون الضامنين أو الملتزمين، من يدفعون مقدارا معينا من المال للدولة عن كل قرية مقابل استيفائهم الخاص من أعشار غلات القُرى، حين يشيع الظلم والغبن والتلاعب في فرض الضرائب وفي طرق جبايتها وتحصيلها[9].

في الوقت الذي تضاعفت فيه أسعار الضرائب وأتت على أصحاب الأراضي وأملاكهم، فلجأ العديد منهم لإخفاء حقيقة امتلاكه لأراض خاصة خشية ارتفاع سعر الضريبة أو مضاعفتها حال تعدد الأراضي لديه: "صَمَت الحاج محمود ثم قال: كان أبي الحاج عمر —رحمه الله- يروي عن أبيه، أنه ذات يوم أشار عليه أصدقاؤه في الرملة أن يسجِّل الأرض باسمه، لأن الكوشان حجة الحجج في هذا، لكنه كان يعرف أن وجود الكوشان كان يعني شيئا واحدا، هو أن تدفع ضرائب أكثر"[10]، إلى جانب ما كان يفرضه الدير على أهالي القرية من قيود لقاء ضمانها، الأمر الذي فاقم العديد من الإشكاليات الاقتصادية على طبقات المزارعين، وزاد امتعاض الناس تجاه الحكم القائم، يبرز ذلك مع تعيين جُباة مُتعنتين

---

[7] ينسب اسمها الكاتب إلى طريقها الممتد بين السهول إلى أعالي القمة والسماء، حيث يهتدي الناس بعلوِّها إلى القُرب من الله. انظر: إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط6، 2012م)، ص16.

[8] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، المصدر نفسه، ص33.

[9] انظر: كامل السوافيري، **الأدب العربي المعاصر في فلسطين من سن 1860-1960م**، (القاهرة: دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، د.ط، د.ت)، ص19.

[10] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، المصدر نفسه، ص33.

في تحصيل الضرائب؛ كما يتمثل بشخصية الهبَّاب، الذي يُوضع كعميل للقوات البريطانية مع دخولها لأرض فلسطين، حفاظا على استمرار تدفق المصالح العثمانية، ومحاولةً لفرض الوصاية على المجتمع الفلسطيني، حين يتحقق ضياع العديد من أراضِ القرية بتآمر الخوري ثيودورس المبشر المسيحي[11]، مع عمله على إدخال معصرة الزيتون إلى القرية مقابل عُشر محاصيل الفلاحين للعصر: "الحاج محمود كان مُضطرا لطرد هذه الهواجس التي تعذبه، فقد كان يعرف أن وجود الدير لابدّ منه، بعد أن قام الأتراك ببيع عشرات القُرى في المزاد العلني العلني لملاك من سوريا ولبنان بعد أن عجزت هذه القرى عن دفع العُشر لسنوات متتالية وتراكمت عليها الديون"[12]، ذلك الفساد المتفشي لحُكم المرحلة الزمانية، واستغلال الدير للعُمال الفلسطينيين وموارد معيشتهم الأساسية بهدف إنفاذ سيطرة الحكم العثماني، يعمل من خلال المشاهد كدافع لأهالي قرية الهادية للوقوف في مواجهة القائم على الدير: "لم يعرف أحد تفاصيل ما حدث، فهناك من أشار إلى صَفقة أرض وهناك من تحدث عن مصالح مشتركة أكبر بدأت تلوح في الأفق، مع بدء الفوضى التي راحت تعم أرجاء الدولة، الدولة التي هبَّت عليها من كل مكان ديونها المتفاقمة والتي باتت تدفعها لمزيد من القسوة، بدءا من فرض ضرائب جديدة وانتهاء باقتياد الرجال إلى حروب لم يعرفوا الأماكن التي تدور فيها أو يسمعوا بها من قبل"[13].

بفعل تفاقم الظلم على أهالي القرية، تتشكل ملامح المقاومة الجمعية الأولى مع مخاتير قرية الهادية ورفضهم للوضع الواقع في اجتماعهم مع القائم على الدير، وقد اكتفوا من سنوات الظلم ومصادرة أراضيهم واستغلال الدير لهم، وها هم يهبُّون في وجه القائمين على الدير رافضين، هنا يعمل السارد على توظيف شخصيات مرجعية من التاريخ الفلسطيني إحياءًا لزمانها ومرحلتها، فتظهر شخصية الأديب خليل السكاكيني واقفا إلى جانب أهالي

---

[11] أسهم في حينها فتح العديد من الدول الأوروبية لقنصلياتها في فلسطين وتوسع الحملات التبشيرية المسيحية من كاثوليكية وبروتستانية ورومية أرثوذوكسية بتتغلغل مدارسها ومستشفياتها ومطابعها وأنزالها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، انظر: وليد الخالدي، **قبل الشتات: التاريخ المصور للشعب الفلسطيني 1876-1948**، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، 1987م)، ص32.

[12] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، ص60.

[13] المصدر السابق، ص63.

القرية رغم اختلافه الديني، يسعى في جمع المواقف على الوحدة ويركز على خطورة ما يتمثله ذهاب الأموال والأراضي وخضوعها للسُّلطة والدير: "إن الكلام الذي توحيه لنا الظروف الحاضرة هو أن نكون رجالا أشِداء، أن نكون يدا واحدة في هذه الحرب المستعرة بيننا وبين رجال الدير، سقط استبداد الحكومة وبقي استبداد الرئاسة الروحية فلنعمل على إسقاطه، ولا تخشوا في ذلك بأسا، لا تخافوا السماء؛ لأن سلطتهم ليست من السماء، ولا تخافوا أن تُتَّهموا بنكران الجميل فليس لهم علينا أقل جميل، بل كلكم تعرفون والسماء والأرض تعرفان أنهم أساؤوا معاملتنا، احتقرونا، أذلونا، قال خليل السكاكيني"[14]، ويبرُز من خلال موقف التأييد الذي يوحِّد أهالي القرية في التصدي لخطورة الوضع القائم سرعان ما يُداهم بقدوم رجال الدرك للقرية واعتداءهم على الأهالي بالضرب والتهديد ونهب الممتلكات، تبدأ الشخصية الرئيسة، خالد بأخذ محوريتها في الأحداث. شخصية خالد مُرهفَة. مُحبَّة. مُعلَّقة بالأرض، والعائلة، بالبيئة والخيل. شخصية تعكس قيم الزمان: زمن الخيول البيضاء، القيم التي يتقلد عُمق تاريخها وأصالة أخلاقها؛ حيث تُقدر الخيل كفرد من أفراد العائلة، وإهانتها تُعدُّ انتهاكا لحُرمة القبيلة والعائلة. الزمان المغاير لما بعده، فيأتي كفعل ارتدادي أو ارتجاعي، وكأن ثمة نزعة تقدير مبدئي إلى زمن الخيول تحيل إلى قيم الأصالة والحرية والتفرد، بالإضافة إلى منظومة قيمية جسدتها الرواية بالإحالة إلى تمثيلات صور جمعية لتركيبة المجتمع الفلسطيني الأصيل، علاوة على صيغ التحولات التي تمتد من زمن الاحتلال العثماني، مرورا بالاستعمار البريطاني، ومن ثم الهجرة اليهودية، والنكبة، وأفعال المقاومة على امتداد تلك الأزمنة، فالرواية تبدأ من الوجود وتنتهي إلى تهديدات الوجود أو محاولة نفيه من الزمن[15].

من بعدها تأتي أفعال رجال الدرك والقائد العسكري وقدومهم على أهالي القرية بانتهاك حُرماتهم والتعدي عليهم وعلى أملاكهم وتدميرها، يطالبون بمُضاعفة العُشر، وفرض الزيادة على المواشي والأغنام والأبقار والخيول والجمال والبشر! في صدمات تتوالى وتأخذ الأهالي للإجماع على موقف حازم أمام قهر الإغارة والإقدام على الذبح الهمجي للأبقار

---

[14] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، ص88.

[15] انظر: رامي أبو شهاب، **"النكبة في رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله، المتخيل والوعي التاريخي"**، مقال علمي منشور، جامعة الكويت، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع151، (2020م)، ص259.

والماشية، يتطاير خيط الدم ممتدا من أملاك الشيخ حسني وحتى أطراف ثياب الأهالي، ووجه الحاج محمود وأطراف خالد، المشهد الذي يفرض حدا للعدوان وضرورة أخذ الثأر الملقى على عاتق الشاهدين على الجريمة، وأجيالهم: "تناثر الدم حتى لطخ أطراف ثياب كثيرين ممن كانوا يقفون بعيدا، ووصلت قطرات منه إلى لحية الحاج محمود البيضاء الطويلة. لم يلحظ ذلك. اعتصر خالد جبينه بأصابع يده اليُسرى دون أن تُفارق عيناه قطرات الدماء، امتدت يده اليمنى، مسحت الدم. أمسك الحاج بيد ابنه، نظر إليها، وهناك، رأى يُلطِّخ أصابع ولده. لاحت منه التفاتة إلى صدره فرأى الدم قد لطَّخ قُمبازه من الرقبة حتى آخر نقطة قرب النّعل، وتواصل خيط الدم حتى عُنق البقرة"[16]، ولا يكتفي رجال الدرك في المشهد بابتزاز الأهالي ونهب المزيد، بل ينتزعون في طريقهم أعز أملاك خالد: فرسه –الحمامة–، خالد الذي يَعلم يقينا أنه لن يتنازل عنها، يحتفظ خالد بهدوءه ويخرج مقتفيا أثر رجال الدرك، يغتنم عتمة الليل وتضاريس المكان التي يحفظها غيبا، يتحيَّن فرصة اقتناص الأعداء، واسترداد الحمامة.

يقترب خالد من رجال الدرك والياور ، يفتدي الحمامة بأموال ومسروقات القرية على أربعة فُرص ليغادروا أحياءا مقابل إطلاق سراحها: "هيَ أو حياتكم. أتركوها وخذوا كل ما سرقتموه منَّا!!"[17]. الفُرص التي يقابلها رجال الدرك بالسخرية والتحقير، والاندفاع لقتل خالد، فيقطع عليهم الطريق، ويجهز عليهم تِباعا، وينالُهم جميعا، ويُبقي الياورَ آخر الشاهدين على عواقب عدوانه، ويتأكد لخالد عدم جدوى مساومة الياور المصِرِّ على جرائمه، فالسماح له بالفرار يعني عودته إلى القرية، فيُنهي حياة الياور عائِدا بالحمامة، آخذا حق القرية، وحق أمنِها والدم المتناثر المسفوك.

في رمزية المشهد لاستعادة الأرض، التي تتعدى من كونها فاعلا حسيًّا إلى رمز تدور أغلب أحداث العمل حوله؛ فكما يمثل إبراهيم نصرالله ارتباط القضية الوطنية الفلسطينية بشخصية الذات الفلسطينية وارتباطها بالأض الفلسطينية ارتباطا نفسيا وعضويا، فالخيل البيضاء رمز لفلسطين النقية الرافضة للخضوع مهما تكالبت عليها الظروف والزمان، فهي من جهة عامل مؤثر في حياة الفلسطيني، يقع عليها أثر الفعل المباشر لسلوكه، وهو مطالب

---

[16] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، ص116.

[17] المصدر السابق، ص118.

بشكل أساسي بالحفاظ على أصالة وعروبة هذه الفرس، التي يضحي من أجلها، وتَقبيل حوافرها في العديد من المواضع دليل على الاحترام والتقدير[18].

في حالة من اليقظة يعود خالد إلى القرية متوقعا لهجمَة انتقامية مستعرة، يقدم بها القائد التركي "البيكباشي آغا" وعَمِيلُه الهباب في بحث مستعر لمطاردة قاتل الياور ورجاله. يجتاحون القرية بتعذيب الأهالي للخروج باعتراف واحد، وتجد الخيانة والعَمالة طريقها إلى ضعاف النفوس في مجتمع الهادية طلبا للمادة والمصلحة، كما تجد أمثال عبدالمجيد زوج العزيزة، صهر خالد، الذي يُوقع بعَمالتِه المتواطئة مع الهباب بأخوي خالد محمد ومصطفى في مقتل، في حين يحافظ خالد اختفاءه يتحيَّن لحظة الثأر لمقتل أخويه، وإهانة الجنود لوالدته وأخته العزيزة التي تنادي على اخوتها بعدم العودة والبقاء في الخفاء.

مع انكشاف تواطؤ عبدالمجيد وتجريم العائلة لأفعاله المشينة، يُنبذ في المجتمع ويُساوى بالخونة في الجزاء. يُباغته خالد في إحدى الليالي بسكينة على رقبته، يتوعده بالموت حال ظهوره مرة أخرى، إلا أن الرحمة بأبناء أخته العزيزة تدفعه عنه، إلا أن تعاقب الأعوام وقدوم موسم السيل الجارف، في مشهد مشحون بذكرى ألم مهيب، يجرف عظام الأخوين من قبريهما لتتخبط بباب المنزل، تعيد للذاكرة رنين غدر لا يغتفر، ويشعل لهيب الثأر في قلب العزيزة التي تتمثل سمات المرأة المقاومة والفارسة الأصيلة كشخصية ثانوية، تثأر لدماء أخويها الغادر من زوجها عبدالمجيد وتخرج في إثره، طلبا للقصاص وقتله.

بعودة الأحداث إلى الشخصية الرئيسة شخصية خالد، فالمواقف تتعدد بتعاقب فصول الرواية، ولا يقتصر موقف خالد على الخلاص من الياور ورجاله، بل يمضي بسيرة فارس شجاع يذود عن أهالي القرية ويتصيَّد العملاء والأعداء، ويعيد إلى الأهالي اعتبار كرامتهم في أصدق صور البطل الفلسطيني المناضل: "البدوي الملثم"، متماهيا وسط الجموع في سوق القرية يعقد العزم على تحطيم صورة السُّلطة المتغطرسة أمامهم، ممهدا للذات الجمعية فِكرة مقاومة الظلم القائم وإمكانية كسره، ما تمثله وتفرضه صورة الهبَّاب، باستيلاءه على الخيول الأصيلة من أصحابها الضعفاء بأبخس الأثمان، فيُقبل خالد مُلثماً على الهباب في سوق

[18] كفاح طافش، **رمز الحصان في رواية زمن الخيول البيضاء**، ص11

القرية ويرفض في تحدٍّ أيَّ مُساومة على المهرة الأصيلة "سمحة"، من أقل ما يفرضه الهبَّاب ووصولا إلى أعلى ثمن: "مِثلُها لا تُباع"، في جرئة وشجاعة تخطف قلوب الأهالي، يكسر خالد هيبة الهبَّاب أمام الجميع، ويَلوي يد الهبَّاب التي بطشت ونهبت وكسرت أيدي الضعفاء[19]، "أطبقت اليد إطباقتها الأخيرة. وعندها شهق الجميع وهم يرون ركبتي الهبَّاب تنغرسان في الطين"[20]، حيث كانت نهايته الأولى.

تلك الأحداث تترجم معالم شخصية الذات المقاومة الرئيسة "خالد" التي تتضح ملامحها خلال الفصل الأول من العمل، وكشاب يغدوا رمزا للبطولة، يُفتن به شُباب القرية ويقتفون خطاه، ويستند عليه الأهالي مشكلين مصدر حماية له فالمقابل، وشُبَّان يَمضون بمبادئه في لاحق الأيام على درب النضال المتواصل ضد الانجليز واليهود القادمين.

إنها أقرب إلى الشخصية التي أشار إليها حسن بحراوي وما تتمثله من صفات الشخصية الجاذبة[21]، شخصية ترث الأصالة من عائلتها، ركز عليها الكاتب في استرسال مطول خلال الفصل الأول، للأهمية التي تشكلها لديه أصالة شخصية الفارس وأصالة خيله، وجذورهم العريقة الممتدة بقِدم تاريخ الحضارة الفلسطينية. وقد تمثلت كذلك بشخصية البطل الإيجابي[22]. إلى جانب سمات الحِكمة والتَفكير العَميق الذي تحيل إليه حركاته المتكررة من عَصرٍ لجبينه بيديه كما يظهر في العديد من المواضع[23]. كما يَغلِب على الشخصية الجانب الانساني، فمع قتله لرجال الدرك والياور إلا أن الرَّهبة من أخذ ثأر الدم بالدم تسيطر عليه:

---

[19] بوطيبة ربيحة، **بنية الخطاب الروائي عند إبراهيم نصرالله: زمن الخيول البيضاء أنموذجا**، (رسالة ماجستير، الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية، جامعة زيان عاشور، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، 2017م/1438هـ)، ص60.

[20] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، ص167.

[21] انظر: حسن بحراوي، **بُنية الشكل الروائي: الفضاء–الزمن– الشخصية**، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م)، ص269.

[22] بوطيبة ربيحة، المصدر نفسه، ص53.

[23] رامي أبوشهاب، **"النكبة في رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله المتخيل والوعي التاريخي"**، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد151، جامعة الكويت، (2020م)، ص274.

"ما إن اختلى بأبيه حتى فاجأه بصوت مِلؤه الأَسى: أتعرف يابا. أتمنى أن لا تُريقَ هذه اليَدُ الدمَ مرة أخرى!! فرد الحاج محمود: ليس هنا عاقل يتمنى غير ذلك".[24]

ونرى هذه الشخصية تكبر بمرور الفصل الثاني، فقد أصبح حاجاً كأبيه "الحاج خالد" بتسارع الزمان واتجاه الأحداث لقدوم السيطرة البريطانية وفرضها الانتداب على أرض فلسطين واستقدامها لليهود في البلاد، حيث تتسارع موجات متلاحقة من الاضطرابات باستمرار الظلم وتمادي العدوان على أهالي القرى بنهب المزيد من مساحات أرضهم والاستيلاء المتواصل لممتلكاتهم: "كانت الحكومة البريطانية قد أرسلت رجال الضرائب في كل الاتجاهات، كان الزرع قد نضج، سألوا كل صاحب حقل عن مساحة أرضه المزروعة، حددوا قطعة صغيرة، مساحتها مائة متر مربع، حصدوها، وأخرجوا منتوجها، ثم اعتبروه مقياسا لحساب منتوج كامل الأرض. حين عاد موظفو الضرائب بعد أسابيع، وبدأوا بتحديد الضريبة المترتبة على كل صاحب حقل، أدرك الناس أن المصيبة قد وَقعَت، إذ لم يكن بين أيديهم شيء، فاضطر البعض لإخراج محصول السنة السابقة من المطامير ليدفع ما عليه، ومن لم يكن لديه قمح ومعه نقود، اضطر للذهاب لشراء قمح من السوق. كانت شركة ستيل البريطانية تشتري رطل القمح بستة قروش وستة مليم في حين تبيعه لصاحبه إذا ما احتاجه بثمانية عشر قرشا"[25].

أسهم هذا الحصار الاقتصادي والظلم المتنامي في فرض الضرائب ورفعها بشكل جائر بتفاقم أزمات طاحنة في مختلف القرى والمدن الفلسطينية، إلى جانب ما ألحقته من أضرار بالبنية البيئية الفلسطينية بقطع الآلاف من أشجار الزيتون واستخدامها للوقود والأغراض

[24] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، ص123.

[25] المصدر السابق، ص239.

العسكرية[26] مما دفع أهالي القرى والفئات المهمشة من الفلاحين والعمال بشكل أخص لأخذ موقف جماعي برفض الإقبال على دفع الضرائب[27].

إلا أن المأساة تحققت ببدأ الحكومة البريطانية بمد يدها الآثمة لاستقطاع وانتزاع العديد من الأراضي في عدائية ومصادرتها من ملاكها، كما عملت في دهاء إلى جانب الحراك الصهيوني البادئ في التشكل للإخلال بالتوزيع السكاني وتوازن الثروة الزراعية والعقارية وتوزيع الملكيات في البلاد والعمل على تغييرها تغييرا جذريا، حين عزَم الفلسطينيون على الدفاع عن حقهم، وواصلوا في إصرار الدفاع عن أرضهم، والحفاظ على أملاكهم، فقد شكلوا في تلك المرحلة الغالبية العُظمى من السكان، وامتلكوا السواد الأعظم من أراضي البلاد، فسعوا لإيجاد حكومة تمثيلية، الأمر الذي عارضته الحكومة البريطانية وسَعت لإفشاله، كَونه يشكل حَجرة عثرةٍ ضَخم في وجه إنشاء الوطن القومي لليهود حال قيام حكومة تمثل هذه الأغلبية [28]، فسَعت حَثيثا لقمع ردود الأفعال الشعبية الثائرة رفضا في أعقابها[29] ورفضا للهجرة الجماعية المهولة لليهود القادمين لنقل ملكية الأراضي إليهم.

هذا التوغل المدبر يظهر واضحا في النص مع تسارع الزمان وتكثيف الأحداث والمشاهد باتجاه فتح المعسكرات واستقدام المستعمرات اليهودية جاهزة البناء: "كما لو أنها سَقطت من السماء، استيقظوا صباحا فوجدوها تغطي رأس التلّ الغربي، ببيوتها وأسلاكها الشائكة وأبراجها الخشبية العالية. كان يُنادي الواحد منهم الأخر بصمت كما لو أنهم ضيَّعوا الكلام، ولحظة بعد أخرى تجمع أهالي الهادية غير مُصدِّقين أعينهم. يعرفون أن ما يرونه مُستعمرة؟ ولكن كيف استطاع اليهود بناءها في ليلة واحدة هكذا؟ كيف لم يسمعوا شيئا،

---

[26] من جانب التدمير البيئي فقد قُدِّرت أعداد أشجار الزيتون التي قطعها الأتراك عام 1918م في بيت لحم وبيت جالا بنحو30,000 شجرة، إلى جانب انقطاع الصادرات والواردات عن البلاد، وغيرها من الأزمات التي أضرت بالقطاع الإقتصادي والتعليمي. انظر: كامل محمود خلة، **فلسطين والإنتداب البريطاني 1922–1939**، (ليبيا: طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط2، 1982م)، ص74.

[27] المرجع السابق، ص71–72.

[28] انظر: وليد الخالدي، **قبل الشتات: التاريخ المصور للشعب الفلسطيني 1876–1948**، ص86.

[29] انظر: غسان كنفاني، **ثورة 36–39 في فلسطين: خلفيات وتفاصيل وتحليل**، (مصر: دار الوطن، ط1، 2016).

كيف لم ينبح كلب أو تصهل فرس أو يصحو أحد على كل تلك الضجة التي لابد أن يُحدثها تجهيز شئ كبير كهذا، ومع صعود الشمس أكثر وأكثر، أدركوا أن البيوت لم تُبن هنا، بل هي بيوت جاهزة جئ بها من بعيد"[30]، تتخلق هنا واقعية المشهد، وبيرز في مصداقية فنية توثيق تلك الأحداث التاريخية بظهور تلك المستعمرة الأولى على تلال القرية وسط ذهول الأهالي من فُجائية الظهور وسُرعة الاستِقطاع. فالبناء الضخم على حدود القرية يشكل رمزية لتآكل الأرض الفلسطينية، والذات الفلسطينية التي أصبحت محاصرة، حيث بدأت عمليات التفريغ والإحلال بخطة ممنهجة، وبدأت معها ممارسات الترويع، وارتفاع منسوب القتل وعمليات الإعدام والتهجير، شاركت بها القوات البريطانية بهدم بيوت الفلسطينيين مقابل بناء المستوطنات الإسرائيلية اليهودية، وهو ما يشكل ضمن بُنية رمزية تلاشيا للوجود الفلسطيني، وتراجعا أمام التقدم اليهودي ضمن خطة محكمة تعكسها البُنية السردية من خلال نموذج قرية الهادية[31] وتقدما مخاتلا متخفيا للتقدم اليهودي على أرض فلسطين التي كانت تُقضم شيئا فشيئا[32].

ظهور تلك المستعمرة في المكان مع عنصر المفاجئة دون سابق إنذار؛ هو الوضع الذي يمثل نموذجا لما وقع حينها في مختلف القُرى ومدن فلسطين، لجأ الكاتب من خلاله للإشارة إلى الكل عن طريق الجزء، ويأتي اتخاذ الموقع من رأس التل كبداية للتوغل والسيطرة من موقع استراتيجي على كل نواحي القرية، مكونا من عدَّة بيوت جاهزة للسكن، وأبراج عالية للمراقبة وأسلاك شائكة للحماية ورسم الحدود[33] الأمر الذي جَسَّد كابوسا حقيقيا لأهالي القرية، بمنعهم من الوصول لمحاصيلهم الزراعية في السهول الموازية للأسلاك الشائكة، وينفتح انغلاقها الغامض عليهم بالرصاص حال اقترابهم منها، كما أن وجود هذا المجسم

---

[30] غسان كنفاني، **ثورة 36–39 في فلسطين: خلفيات وتفاصيل وتحليل**، ص258.

[31] رامي أبوشهاب، **النكبة في رواية زمن الخيول البيضاء**، ص267.

[32] المرجع السابق، ص263–264.

[33] انظر: بوطيبة ربيحة، **بنية الخطاب الروائي عند إبراهيم نصرالله: رواية زمن الخيول البيضاء أنموذجا**، ص125.

المعادي في مكان القرية يشير إلى الطريقة التي اعتمدها اليهود منذ البدأ لفرض وجودهم وهو عنصر المفاجأة والقتل[34].

وسط الذهول من صدمة الاستقطاع القسري الأولى للأرض وتقديمها للمستوطنين اليهود الجدد وفرض الحماية لهم كمُلَّاك جدد، تبرز شخصية الجنرال باترسون في ظهورها على الخط الزماني السردي للرواية، كشخصية هي الأكثر إعاقة ودموية[35] من بين الشخصيات. شخصية قمعية ساديَّة تنتشي بالتنكيل بالذات الفلسطينية ورؤية دمائها المسفوكة، مُوكلة بفرض الحماية للنشأة الجبرية للمستوطنات، والحدود المحيطة بها، يفرِض مُحاولات القمع على الأهالي وقطع أي بادرة لظهور رد فعل مقاوم، وفرض العقوبات والقتل حال عدم الامتثال للأوامر. شخصيةٌ لا يُعرف الفرق "بينه وبين الشيطان" فهو يُنكل بالأهالي مع قيامهم بحماية الحِراك المقاوم البادئ بالتشكل، وتَحذُّرهم الشديد من الإدلاء بأي معلومة تخص الحاج خالد أو المقاومين، ليتمكن منه هوس العثور على خالد.

وتتبدى النقلة الزمانية من خلال السرد القائم بانتقال الأحداث باتجاه النكبة الفلسطينية، ويعود ظهور وجوه الخيانة والعمالة وأصحاب النفوس الضعيفة أمام المادة والمحتل والتي تتعاقب في الظهور بمرور الأعوام وتسهم في بدورها في الاضرار بالمجتمع الذي يواجه قوى الاستعمار والاحتلال القادم، برؤية وقيادة ودعم غربي كامل لتحقيق هدف واضح، كما يذكر أبوشهاب، في المقابل فإن القيمة المسترجعة للزمن الإيجابي تبدأ من الفترة التي تصبح فيها الذات قادرة على المقاومة[36].

وجه العمالة المتحالفة مع القوات البريطانية، والمزروعة في القرية يبرز في شخصية "عبداللطيف الحمدي" المدعوم بحماية من الجنود البريطانيين[37]، والذي يأخذ بمقتل الهبَّاب

---

[34] المرجع السابق، 125-126.

[35] انظر: بوطيبة ربيحة، **بنية الخطاب الروائي عند إبراهيم نصرالله: رواية زمن الخيول البيضاء أنموذجا**، ص57.

[36] انظر: رامي أبو شهاب، **النكبة في رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله: المُتخيل والوعي التاريخي**، ص265.

[37] يذكر حول ذلك كامل أبو خلة كيف عملت الإدارة العسكرية على تقسيم المدن إلى ألوية منفصلة تحكمها عن طريق البلديات والمخاتير، فكانت إدارات البلديات التي تعمل على اختيار الرئيس إلى جانب أعضاء المجالس ويتم الإختيار دائما من طبقة الأعيان وكبار الملاك أصحاب المصلحة المباشرة في التعاون مع الإدارة البريطانية عسكرية أو مدنية، كما

موضعه ومنزله في القرية، المرحلة الزمانية التي تواكب انقضاء الحكم العثماني، ويسعى جاهدا لتجريد أهالي القرية من السلاح مستفردا بنساء القرية لحظة خلوها من الرجال، ويسعى لتقنين التعليم في مجتمع القرية وإبقاءه في أدنى مستوياته في محاولة لضبطه وإخضاعه. وهنا يقع التضارب بين السلطة التي يمثلها عبد اللطيف الحمدي والانتماء الذي تمثله الذات المقاومة: الحاج محمود وأهالي القرية[38]. يرفض الحاج محمود خضوع القرية للعمالة البريطانية أو التبعية، ويقف في تصدٍ لعبداللطيف وخطته التي يفرضها في محاولة ضم أراضي القرية لسيطرته "هذه ليست قرية أناس قَاصرين ليكون هناك وصي عليها. قال له الحاج محمود. وكما عبرنا سنوات الأتراك دون أن نتبع أحدا، سنعبر سنوات الانجليز هذه دون أن نكون تابعين لأحد. نحن على استعداد لأن نلتقي معك في الخير. أما أن نكون تحت إمرتك فهذا لن يكون"[39]، الرفض الذي يكلف الحاج محمود حياته بعد أن يعود عبداللطيف ويستولي على القرى المجاورة بحرسٍ وعتاد أكبر ويرسل اللصوص لقطع الطريق على الحاج محمود وقتله.

يتمسك خالد بإعادة بواريد القرية واعتبار نساء القرية من الحمدي ورجاله، فيضع يديه على عشرٍ من بواريده ومئة من خرفانه، مُقرِّعا رجال الحمدي أثناء محاسبتهم على نجاح عبداللطيف في استمالتهم والتغرير بهم، مؤكدا أهمية عدم التنازل للعُملاء، فهو ما يعقب تنازلات أخرى، فتسليم أبسط الحقوق هو ما يجرؤ الطامعين والأعداء على التمادي: "ذنبكم أنكم قبلتم أن يكون مثل هذا الظالم سيدا عليكم. صمت الرجال وقد أوجعتهم الجملة الأخيرة، ودون أن يقولوا شيئا آخر غير الذي قالوه نهضوا بصمت"[40]. يرفض من بعدها

عملت على إلغاء النظام التركي الذي كان يسمح بانتخابهم وعملت على تعيين العديد منهم من أصحاب الأسر ذات المصالح في القُرى والتي كانت تخدم أهدام ومصالح الاحتلال العسكري لفلسطين، في حين عملت أغلب المستوطنات اليهودية والتي تمتعت بمجالس بلدية مستقلة عن الإدارة العسكرية البريطانية. انظر: كامل محمود خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني 1922–1939**، ص83-84-85.

[38] كما يتمثل من خلال مربع العلاقة الضديّة الذي أشارت إليه بلقيس سويطي اعتمادا على نظرية غريماس في تقسيم العلاقات مع الآخر إلى ثنائيات. انظر: بلقيس سويطي، **رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله دراسة سيميائيّة**، (رسالة ماجستير، جامعة الخليل، 2021م)، ص28.

[39] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، ص265.

[40] المصدر السابق، ص267.

المساومة على أي حق للأهالي: "أعيدوا لنا البارودة الأصليَّة، وعودوا لأخذ بواريدكم. قال الحاج خالد:

- عشر بواريد ومئات الخراف مقابل بارودة واحدة؟! قال أحد رجال الحمدي.
- لا. بل عشر بواريد ومئات الخرفان من أجل الحق. ردَّ عليه"[41]

فالمشهد يصور ملامح الشخصية القيادية التي يتميز بها خالد، وأهم صفات الذات في حملها لمسؤولية حماية أهالي القرية. يظهر تبادل التأثير[42] وإرث مقومات الشخصية الجاذبة التي يحملها خالد عن والده الحاج محمود. يظهر هذا التبادل في أخذه لدور الشخصية الرئيسة أو البطل بعد مقتل والده وحمله لمسؤوليات منصب مشيخة القرية، فيبدأ بمحاسبة من نجحت السلطة في استمالتهم، سِمة إحقاق العدالة التي تغلب على الشخصية حتى نهاية العمل: مواجهته للظلم والتمسك برد الحقوق والمظالم من أصغرها لأكبرها، والمبدأ الذي يُقدمه على حياته، ويختمها بأهم عباراته وأبلغها: "أنا لا أقاتل لكي أنتصر، أقاتل كي لا يضيع حقي"[43].

يتمادى اليهود القادمون إلى جانب حماية القوات البريطانية في عدوانهم وانتهاك مساحات المستعمرات بعد نهبها، وتجاوزها لأراضي القرية فبعد حجزهم لما يقارب ال300 متر يتوغلون ب100 متر آخر، ويحجزون تباعا مزيدا من أراضي القرية لتثبيت بوادر الاستعمار وتمكينه، ويتخذ أهالي القرية من خلال المشهد موقفا في محاولة استرداد ممتلكتهم، بالذهاب أولا إلى الضابط الموكل باترسون، الذي يسخر ويستهين بمطالبهم: "قال لهم بغضب: نحن لا نستطيع أن نرسل دورية للجيش مع كل من يريد أن يحصد حقله"[44]، ويقابلهم بالتجاهل، الذي تمضي عليه كذلك السياسة البريطانية مع تسارع قيام المستوطنات في باقي القرى، وتجاهل المطالب والمظالم. هذا العسف الجائر في النهب، والتمادي في قتل

---

[41] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، ص268.

[42] انظر: حسن بحراوي، **بُنية الشكل الروائي: الفضاء– الزمن– الشخصية**، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م)، ص269.

[43] إبراهيم نصرالله، المصدر نفسه ص372.

[44] المصدر السابق، ص270.

كل من يجتاز المسافات، يوغر صدور الأهالي على أبناءهم ويقابل بتحدٍ ومُواجهة، يبدأ بحِراك جمعي تجاه المقاومة والثأر، المقاومة الأولية بأبسط مستوياتها وإمكانياتها، وأكثرها إنسانية وشرعية: مقاومة الفلاح غير السياسية للغرباء الذين رآهم يسرقون أراضيه، أدرك معها الفلاح الفلسطيني ووعى غريزيا بخطورة الإستيطان الصهيوني[45]، فنراهم من خلال النصوص يندفعون بمناجلهم نحو الحقول، يعملون فيها بكل ما لديهم من قوة، حين يُفتح عليهم الرصاص، ويسرعون بالفرار حفاظا على أرواحهم، تعقبها أيام أشد قساوة، فيحرق اليهود حقولهم أمام أنظارهم دون رادع، يقتَرفون هذا الجرم ويَدَّعون في جنون كاذب اصتناع الدهشة وإلقاء الجرم المرتكب على الفلسطينيين: "من بعيد راحت عربات الجنود تتقدَّم، وحين وصلت، هبط منها الضابط إدوارد بترسون ثائراً، وهو يصيح: من منكم أشعل النار؟!

- وهل تظن أن أحدا منّا يمكن أن يحرق ماله بيديه؟ لم يحرقه أحد سوى أولئك الذين هناك.
- بل أنتم الذين أحرقتموه حتى تحترق المستعمرة معه.
- أنظر إلى وجوه الناس وعيونهم، وستدرك أن الذي أحرقه لا يمكن أن يكون بيننا.."[46]

الإجرام المتعمد والمعتاد يُقابل بحماية ورعاية غربية متواصلة مستمرة إلى يومنا الحالي، ويقابل الفلسطيني بحرق الأخضر واليابس، بإبادة وعقاب جماعي لأي ردة فعلٍ تجاه الظلم والحصار الخانق! يفقد صاحب الأرض والمناضل روحه ومجتمعه المساند، ولا يُبالي بظلمه وانتزاع حقِّه وروحه أحد! فالجلاد في صف الجلاد، والجاني في صف المجرم، والمجرمان على عُنق الضحية!

الوضع أشبه بما يقدمه فرانز فانون حول المناطق المستَعمَرة، كالتي يحضر فيها الدركي والشرطي بشكل مباشر بتدخلات كثيرة وسريعة، ينصحان المستَعمَر الفلسطيني بالعصا والمواد الحارقة أن لا يتحرك! فوسيط السلطة الحاكمة يستعمل لُغةَ العُنف الصَّرف، والوسيط لا

---

[45] انظر: رشاد عبدالله الشامي، **الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية**، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، سلسلة شهرية ثقافية، العدد102، 1986م)، ص157.

[46] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، ص271.

يخفف هذا الاضطهاد، ولا يسدل على السيطرة حجابا، إنه مُساهم في حَمل العُنف إلى بيت المستَعمَر وعقله[47].

لهذا الإجرام البالغ في القتل يثأر جمع من القرية بحرق بيوت المستوطنات، ويحتمون بين الأهالي الذين يشكلون حاضنة شعبية لحماية أولئك المقاومين من الشر المتكالب عليهم فلا يعود لهم أثر، ويقدم باترسون مع قواته لمحاصرة القرية وقد استعصى عليه البحث بلا جدوى، ليُنكِّل بهم قتلا وتعذيبا، إلا أنهم يرفضون تسليم أبناءهم، أو إعطاء أية معلومة أو اعتراف بمخابئ الأسلحة رغم الضرب المهين والتهديد بالقتل، مُتعمدا الإهانة والإذلال لشخصية الحاج خالد الذي يمثل سِيادة ومشيخة القرية، ويحُطَّ من شأنها وشأنِه بربطه إلى جذع شجرة وسط الساحة، وصَفعِه أمام الأهالي، وانتزاع شاربيه حتى يغطي الدم وجهه، وأخذه للسجن لمواصلة الاستجواب بالتعذيب، ويطلق أخيرا سراحه، إلا أنه يتلقى طلقة غادرة من "صبري النجَّار" الطامع بسيادة الهادية.

يعبر الزمان السردي بأحداث تاريخية مفصلية، وقصص واقعية يدمجها الكاتب بالشخصيات المستمدة من التاريخ الفلسطيني، فيستحضر اندلا ع الثورة الفلسطينية الكُبرى وخروج الحشود الشعبية في اندفاع غاضب إثر مقتل الشيخ عزالدين القسام وتشييع جنازته، التي تدفع بالثورة للاشتعال ثأرا، ويقتفي الحاج خالد أثر الشيخ الشهيد في الإعداد وتنظيم الثوار للعمليات التي تزعزع في تصاعد أمن القوات البريطانية والعصابات الصهيونية حينها، ويُلاحقُ غِيابيا بحكم الإعدام، إلا أن الحراك المقاوم يستمر في التصاعد ويلتحق به العديد من الشبان من مختلف أنحاء القرى.

مرابطا في معقل الثوار بين الجبال يتحصن الحاج خالد برفقة جمعٍ من الشباب المقاوم وليد الثورة من 500 مسلح يدعم بعضه بعضا، في أُهبةٍ وعلى احتراسٍ وحذر من القوات البريطانية والعصابات الصهيونية لنصب الكمائن واصطيادهم، وهنا يُدرج الكاتب قصصا لشهود عاينوا تلك المرحلة، منها قصة محمد أبوجعب الذي ينجح في اغتيال كبير الجنرالات أندروز، ويخرج من أجل الدفاع عنه جَمعٌ كبير من أهالي القُرى، يساند بعضهم بعضا تضامنا

[47] انظر: فرانز فانون، **معذبو الأرض**، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ط2، 2015م)، ص41.

مع أبناءهم المقاومين في تلاحم جَمعيّ يتفق على تحدي القوى الغاشمة التي بدأت بسلب أرضهم والإقدام على تدمير ممتلكاتهم وحياتهم، مندفعين بالعصيّ والسكاكين ومختلف أنواع السلاح، متجهين في أول معركة جمعية إلى بلدة خَلدَة يدفعهم إحساس واحد: "إذا خسر اليهود فإنهم سيعودون إلى البلاد التي أتَوا منها أما إذا خسرنا نحن، فسنخسر كل شئ"[48]، يسقط رفيقه جريحا إلا أنه يرتمي بجواره منشغلا بتعبأة الرصاص، ومن يفقد سلاحه يسعى لإسعاف الجرحى، إلى جانب شخصية الغجري حنّوك الذي يتنازل عن تقديم الإسعاف لإصابته في ساقه المكسوره لمن كانت إصابته أبلغ، فيعود أبوجعب لإنقاذه بعد رفقيه ليجده شهيدا في ساحة المعركة، فيخرج الاندفاع الشعبي الهائل عن انضباطه، وتقع العديد من الخسائر.

يُعارض الحاج خالد بيان اللجنة العربية العليا بوقف أعمال الثورة والاتجاه للمفاوضات، ويلتحق بقيادات الثورة المنفية في الشام لعام كامل، يعود من بعده لتنظيم صفوف الثوار بما يكسب من خبره، ويُعد كمينا لإحدى عربات الجنود إلا أن هذا الكمين يُكشف بفعل أحد الجواسيس الذين يزرعهم باترسون للتسلل بين صفوف الثوار، ويَسقُط العديد منهم شُهداء، وتتم تصفيته، حين تداهمهم الطائرات الحربية بالقصف والرصاص، ما يدفعهم للاحتماء بالأدغال والأحراش الصغيرة المجاورة، فيُعمِلون أدق التفاصيل للطبيعة وتضاريس المكان كحواجز حامية، وينجو بفضلهم عِشرونَ ثائرا، يتفرقون للخروج بسلام، وقد افتداهم "سامي الأسمر" المصاب بجرح بالغ، ويُقدم ما تَبقى من روحه في سبيل حماية الثوار، الذين ينجحون في الفرار، حين ينهض سامي بجرحه البالغ لتضليل الجنود القادمين ويفتح عليهم النار، ويسقط قتيلا بسيل من رصاص الأعداء، وتنتشر الحملة البريطانية بأعداد أكبر لتعقب الثوار وملاحقتهم، في حملة تجتاح كل مدن فلسطين ويُقتل فيها أكثر من خمسة آلاف فلسطيني، وكَوَّنت "فِرق الموت" التي عُرفت باسم قوات الليل الخاصة، وقد أغارت على القُرى الفلسطينية ليلا وقتلت العديد من الفلسطينيين[49]

---

[48] إبراهيم نصر الله، **زمن الخيول البيضاء**، المصدر نفسه، ص314.

[49] المصدر السابق، حاشية الصفحة 364.

يُصرُّ أهالي الهادية على الثبات وعدم التسليم لباترسون رغم تعذيبه لهم وحجزهم في الليالي الباردة في الساحة، وإجبارهم على المشي يوميا لخمسة كيلومترات إلى مركز الشرطة، وقبل خروجه الأخير إلى معقل الثوار، يودع خالد أهالي الهادية بوصيةٍ أخيرة للثبات على درب المقاومة وقتال الأعداء دون أدنى تنازل: "لست خائفا من أن ينتصروا مرة وننهزم مرة، أو ننتصر مرة وينهزموا مرة، أنا أخاف شيئا واحدا أن ننكسر إلى الأبد، لأن الذي ينكسر للأبد لا يمكن أن ينهض ثانية، قل لهم احرصوا على أن لا تهزموا إلى الأبد"[50]، فالانكسار عن طلب الحق هو ما سيُضيع القرية والوطن. يُحاصر الحاج خالد بقوة هائلة من قوات باترسون، ويسقط شهيدا بعشرات الرصاصات التي تمزق جسده، وتفقد قرية الهادية وفلسطين خير قاداتها، وأصدق رجالها الذين رفضوا مُهادنة العدو والهوان، ورغم من الحقد الذي ملأ قلوب أعدائه، إلا أن القائد باترسون يشهد بنُبله وشجاعته: "هذا رجل شجاع، من العيب أن نتلقى التهاني بمناسبة موته. ثم قال وهو يحدق في وجوه الجنود: كان رجلا شريفا، من أين لي بعدوٍّ مثله بعد اليوم"، [51] ويأمر الجنوده بإكرام جثته ودفنها وتحيته كما يليق بالمحاربين الشرفاء.

وقد فقدت غزة كذلك خلال عاميّ الإبادة الجماعية 2023/ 2024م التي لحقت معركة طوفان الأقصى جَمعا من أنجب وأشجع قادات المقاومة ورجالها الذين نَدر تكرراهم خلال عقود من هذا الزمن، وشهد لهم التاريخ بالإقدام والإعداد والبسالة النادرة استشهدوا مقاتلين في صفوف المعركة الأولى، مستنفذين أقصى ما أمكن لهم في الإعداد والإقدام وبذل الأنفُس، دفاعا عن مسرى رسول الله، وانتصارا لأرضهم وشعبهم ضد العدوان الصهيوني الغاشم، الرامي لتصفية المقاومة الفلسطينية وقضيتها، والساعي للتوجه لتطبيع كيانه العدوانيّ في المنطقة، لولا تكالب العالم وغدره الصامت المخزي عن المجزرة القائمة، لما صمد الكيان أمام بأس المقاومة وبسالة جنودها الذين مرغوا أنف الاحتلال في هزائم جسدية ومادية متلاحقة منذ السابع من اكتوبر..

[50] المصدر السابق، ص371-372.

[51] المصدر السابق، ص374.

يأتي اغتيال الخاج خالد على خلفية من خيانة صبري النجَّار وتواطؤه مع عبداللطيف الحمدي لاقتسام جائزة يضعها باترسون للعثور عليه، بنجاحه في الوصول إلى الحمامة التي يستخدمها خالد، ويستبدلها بأخرى، إلا أن ابنه كريم المخلص للثورة ورفاقها يقتَصُّ من والده بحَرق المال، وتصفِية أبيه جزاءا للغدر، وينضم إلى الثوار العائدين في غضب أعتى لملاحقة باترسون فيقتلونه بالمثل، رميا بالرصاص.

تمثل وفاة الحاج خالد كما يشير أبوشهاب "الاقتراب من الزمن المتهاوي"[52]، الذي يتزامن مع تقدم المدّ الصهيوني، والتصاعد في النخبة الوطنية السلبية، أو المتواطئة، فلم تفشل في الدفاع عن القضية وحسب، بل سَعت للإفادة منها، كالنماذج السلبية التي لم تخلو قرية منها من واقع العمالة والخسَّة، كالهبَّاب، وصبري النجَّار، وعبداللطيف الحمدي وسليم بيك الهاشمي[53]، إلى جانب استغلال الانتداب البريطاني للضمانات التي قَدَّمها الدير عن الفلاحين وعدم تسجيل الملاك للأراضي بأسماءهم، فيسخر أنظمة جديدة لنزع ملكيتها بشكل كامل عن الأهالي، ويفرض الراهب الجديد "منولي" بقدومه الأمر مستهزءا بأهالي القرية، زعما بكَونهم مُجرد عُمَّال أُجراء لا أصحاب أرض. ترفض عائلة الحاج خالد والتي تدير شؤون القرية بعد مقتله الأمر، ويهبُّ أخوه الحاج سالم رَفضا، كما ترفض الأنيسة –عمة الحاج خالد– والتي تمثل إلى جانب العزيزة عاملا مساندا للشخصيات الإيجابية ومضادا للشخصيات المعادية لأهالي القرية[54] :"ما لكم يا رجال، ما الذي حصل لكم هل عميتم؟!ما الذي يمكن أن يقدمه لكم شخص كهذا، لو فيه خير، لم يأتي إلى هنا ويبني قصرا يقول كل من رأى قصره في المدينة بأن هذا أكبر منه... وتقولون: يُنفق أمواله من أجل فلسطين! لا تؤاخذوني، لو كان ينفقها فعلا لما كان لديه هذا المال"[55].

---

[52] رامي أبو شهاب، **النكبة في رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله: المتخيل والوعي التاريخي**، ص265.

[53] انظر: المرجع السابق، ص265.

[54] انظر: بلقيس سويطي، **رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله: دراسة سيميائية**، (رسالة ماجستير، فلسطين، جامعة الخليل، 2021م)، ص47.

[55] إبراهيم نصرالله، **زمن الخيول البيضاء**، المصدر نفسه، ص397.

يناهض الأهالي مشروع الانتداب والدير ويسعون بكل السُبل، ويلجؤون إلى سليم بيك الهاشمي –وجه العمالة الآخر– والذي يمثل قيمة سلبية أخرى تواجه الوطن والحراك المقاوم. شخصية تعبأ بمصلحتها الخاصة، والحفاظ على مستوى عالٍ من الترف في ظل الانهيار الاقتصادي، النساء والمادة، فلا طائل منه يُنتظر، إلا أنهم يسعون في كل الطرق قاطعين الحجج عليه، قبل أخذ زمام الأمور بأيديهم.

لا مُبالاة شخصية سليم تترجه في إرساله لمحامٍ مبتدئ، غير ذي خبرة، لا يكون سوى ابنه الذي يثبت عدم جدية أو جدارة في إثبات حق الأهالي في أراضيهم من أول جلسة، فتقرر المحكمة التابعة لأنظمة الانتداب الظالمة، ذهاب سيادة أرض الهادية للدير، وحرية تصرفه بها، ولا يبقى لأهالي القرية سوى الثورة على الحكم الجائر، فيخرجون بقيادة الحاج سالم الذي يتمثل شخصية مُقاومة ثانوية كقائد لأهالي القرية المقاومين لمهاجمة السمسار اليهودي القادم لأخذ الأرض، والبائع الخائن أسعد نسناس والراهب منولي، فينهال الرصاص عليهم من المستعمرات التي تعدَّت حدودها في الامتداد ويتساقط الشهداء، ويتراجع الأهالي محتفظين بليفي ونسناس كرهائن.

وفي مخطط آخر يجمعهم، ينجح العديد من الأهالي في التسلل لمعسكرات الانجليز وتهريب الأسلحة منها مُتخفِّين، بمساعدة مدير الشرطة الفلسطيني عبدالفتاح ملحس، وقائد المعسكر شوكت مختار.

الهجوم الذي يعاوده الأهالي على اللجنة المكلفة بالبحث في حقيقة أنسابهم لقرية الهادية ومُحاولة نفيه، فيُهاجمون الجنرالات الثلاثة بأفواجهم المتلاحمة، تأكيدا وإثباتا على وجودهم وآبائهم وأبناءهم وأحقيَّتهم بها، وأن هذه القرية حاضرة بجميع أجيالها، ومن قبل وصول الحكم العثماني إلى فلسطين، وينجح الأهالي برفقة المحامي المرزوقي الذي يساندهم في مرافعة الإثبات الأخيرة وينتصر لهم في دهاء بالغ رافضا تَلقِّي أية أتعاب.

في أعقاب الحادثة تشتعل حرب عُدوانية في مختلف أنحاء القرى والمدن الفلسطينية، وتتواصل كوارث النكبة، التي تتلاحق في تسارع سردي للأحداث التاريخية، وتقليص لدائرة الزمان المتسعة، وجمع أكبر قدر من مآلاتها، فتتوالى العمليات المقاومة للاحتلال والاستيطان، ويُحرق الدير من أطراف القرية، وتبرز شخصية ثانوية أخرى كذات مقاومة، هي: "عبدالجواد"

شخصية تجرأ على أخذ مُصفَّحَة من قائد الجيش العربي حين افتقار القرية إلى السلاح والدعم، ويُوجِّهها إلى المستعمرات ويفتح عليها القذائف بشكل مباشر، وينجح في استهدافها، ليفاجَئ بالسرعة التي يعلن بها المستعمرون استسلامهم ويرفعون الرايات البيضاء، وهو ما يُشجع الأهالي للتقدم في استرجاع أراضيهم، وأخذ أسلحة المستعمرين غنائم لهم.

الصعوبة البالغة التي يخوضها الأهالي لاستعادة العديد من المناطق تدفعهم لتأمينها وحراستها بشكل مشدد، وتأمين المناطق المحيطة بالهادية والشوارع المقاربة لها، هو يجعل ثوار القرية ومقاتليها في حالة من الترقب والحذر الدائم، فيتقصون أخبار ويصلون لموعد مرور قافلة من المساعدات للمستعمرة الصهيونية، ويُعَدُّ الكمين بقيادة "محمد شحادة" الذي يوجِّه أهالي القرية، بعَجنِ الرماد بالنفط وفَرشِه خلال الليل على امتداد الطريق، ومع وصول القافلة صباحا يُشعَل الطريق بقاذفات النار، حين يُوكِّل الحاج سالم، حسين ابن اخته العزيزة، وإسماعيل الغلاييني بنَسف بُرج إطلاق النار التابع للمُستعمرة.

خلال عام النكبة 1948م تصل إحدى فِرق جيش الإنقاذ وإحدى السرايا المصرية، ويُقطع عليها الطريق من قبل العصابات الصهيونية بهدف قتلها أو إضعافها بتفرقتها، فيصل جزء منها لقرية الهادية، حيث تَنظَم إلى قياد الحاج سالم، القيادة التي تنحج برفقة عدد من الضباط بتوزيع المهام على الأهالي، والاستعانة بمَعرفتهم بخبايا المكان، وحَفر الخنادق، وتلغيمها، وإحاطتها بالأسلاك الشائكة، وتنظيم إعمال الأسلحة المحدُودة في القرية، ومُراقبة العدو مراقبة دقيقة، والانتظار وتحري الساعة المناسبة لتنفيذ العمليات التي تحقق نجاحا واضحا يتراجع معها بفضلها المستوطنون مستسلمين برايات بيضاء، إلا أن طعنات الغدر من أصحاب القوى، واستمرار خيانة أنظمة الحكومات العربية وتواطئها والساعي لقمع الحِراك والفِكر المقاوم، يباغت القرية، وينهال هجوم هائل مدعوم من قبلهم بالطائرات الحربية الانجليزية، وبحصار خانق على جميع مداخلها، إلا أن الأهالي إلى جانب قائد قوات الإنقاذ يواجهون طلب هيئة الأمم المتحدة واليهود بالاستسلام وتسليم القرية برفض مطلق، مفضلين الموت مع الجنود المتحصنين للقتال حتى آخر رصاصة.

الحصار المطبق الذي أحاط بالقرية ومنع دخول الغذاء وأيّة مادة ينال من أجساد الأهالي، إلى جانب نفاذ الذخيرة اللازمة أمام تضاعف أعداد الجنود اليهود المدعومة والمندفعة

بعتاد لا حد له، ينال من محاولات الثبات الأخيرة، ويُعدم نَسفُ البيوت وحرقها وجه الحياة عن القرية وما تبقى من ملامحها، ويُجبر من تبقى من أهالي الهادية على النزوح القسري أما القذائف الموجهة إليهم، فيُصرُّون على افتراش الشوارع، وتدفعهم القوات تحت التهديد لركوب عربات الأمم المتحدة، ليساقوا إلى المنفى وقرية الهادية تتلاشى أمام أعينهم باشتعال صورتها الأخيرة. الحريق الهائل يشتعل في قلوب آخر الأحياء، وقد غُرِّبت أرواحهم، وظلوا هائمين من بعدها إلى الأبد.

قتلت إبادة النكبة الأحياء مرتين، ومحت أثر العديد من القُرى التي حاربت حتى الرمق الأخير مرتكزة على مبدأ اللاتنازل، نجا العديد منهم، وظلوا أحياء بتناقل سرد هذه القصص، ومتصلي الجذور بشعلة الثأر الممتدة من خلال السرد والعمل المقاوم.

من هذا المبدأ صاغ الكاتب سلسلته السردية للمَلهاة الفلسطينية، فأعاد بناء الفكرة، وطرح الأحداث تخليدا لهذا التاريخ، وإبرازا لدور المقاومة الفردية والجمعية لشعب فلسطين في الحفاظ على الوطن واسترداده، فرغم تعاقب قوات الاحتلال على أرضها، والتهجير القسري الذي اكتوى به آلآف من الشعب إلا أنها لم تفتّ في عضده، وتولدَّت من عذابات المنفى والاغتراب، وفي أعقابه العديد من الأعمال الرافضة لفكرة الاستسلام والشتات والداعية إلى التشبث بفكرة المقاومة العودة، كما يُترجم العمل الآتي: "أنين القصب" لحسن حميد..

– المبحث الثاني: الاقتلاع القسري: درب النزوح والشتات (أنين القصب)

تمثل رواية "أنين القصب" مدونة تاريخية اجتماعية ميثيولوجية تحمل صورا متعددة حول المعتقدات، والعادات، والمميزات، والحكايا الشعبية، والطقوس، والأعياد والمعايشات الفلسطينية التي كانت حاضرة في تصوير المكان المميز بمحاذات النهر، دلالة على أهمية الحياة وخصبها[56]، قبل قدوم الاحتلال وقيام النكبة وانهدام هذه الصور.

يُعيد حسن حميد بناء المكان التاريخي، ويبحر في رسم تفاصيله خلال حقبة زمانية امتازت بالازدهار والنشاط الاقتصادي في فلسطين. في تدفق سردي يصوغ عمله الأدبي،

[56]: انظر: وحيد تاجا، **الرواية الفلسطينية حوارات نقدية**، لقاء مع الكاتب حسن حميد، (دار الجندي للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت)، ص98.

محاكيا واقع الناس في المجتمع الفسطيني قبل مرحلة الإغتراب والتشتيت القسري عن المكان عام 1948م، وأهم متغيرات هذا الواقع بعد تبدله إلى النقيض في ضياع المنفى، فيلتقط بعين نافِذة ملامح الهويَّة الفلسطينية، ويرصدها بأسلوب بلاغي مشبع بالوصف والتصوير المتكامل، وتتجسد مظاهر هذا الوصف في تلاحق الأحداث والوقائع[57].

يُسقط الكاتب سيرته الخاصة في بُنية سرديته، وقد هُجِّرت عائلته ومن تبقى من أهالي قريته من الجليل وقرية كراد البقارة المجاورة لجسر بنات يعقوب، فلجأوا في أعقابها إلى قرية نعران في سوريا، وقد هجروا مجددا في أعقاب حرب النكسة عام 1967م، من الجولان المحتل، لينتقل إلى أحد المخيمات الفلسطينية في الضاحية الجنوبية[58].

مفتتحا المشهد بوصف المكان: "سوق الخالصة" حيث الثراء المادي ورخاء الحياة الإجتماعية بعاداتها وتقاليدها وطبيعة التعايش السلمي الذي يجمع بين مختلف الطوائف والأديان، الطبيعة التي ميزت حياة المجتمع الفلسطيني بتنوعها الديني وازدهارها الثقافي قبل قدوم العدوان البريطاني وغَرسه مخالب النفوذ والسيطرة لاستقدام الوفود اليهودية وإحلالها محل المجتمع الفلسطيني؛ ما سبب تدميرا وإخلالا لتلك الطبيعة والجغرافيا والتعداد السكاني ودفع بها تجاه مرحلة جديدة من التغير الجذري. ورغم من ما عاينته الدولة سابقا من أزمات وظلم متصاعد خلال فترة الحكم العثماني، إلا أن الكاتب يعرج إلى تفاصيل الحضارة القائمة وغنائها الاجتماعية والطائفي آنذاك، متمثلا ب"سوق الخالصة" الشعبي الذي ينفتح بثراء مشهدي يتعمق الكاتب في تصوير تفاصيله وأحواله، خلال مروره بهذا السوق ودلالات عاداته، وتقاليده، وسمات الحياة المتسعة الرغيدة، وبوصف الزمان والمكان الذي يغرَّب بعدها عن حقيقته، ووصف للبيئة والنشاط الذي تحفل به الحياة البشرية، وعُمق ارتباطها بالحياة البحرية والاقتصادية. إنه كما يذكر فصل البداية لحكايا شعبية ممتدة لا حصر لها، تندفع بتفاصيلها كنبع ماء، ففلسطين بلاد الأساطير التي لا تنفد حكاياها[59].

---

[57] انظر: أحمد فائق أبو سالم، **الهويَّة والاغتراب في روايات حسن حميد**، ص12.

[58] لقاء مع الكاتب حسن حميد، الصفحة الإلكترونية لجريدة عُمان، السبت، 29/ جمادى الأولى/ 1444هـ، 24/ ديسمبر/ 2022م.

[59] انظر: المرجع السابق، ص97.

حكاية مُركبة من مجموع قصص وروايات شفهية متناثرة يجمعها الكاتب لتنتهي إلى الحكاية الكُبرى: حكاية فلسطين والفلسطينيين الجمع الذي ملك مكانا سلب منه، وزمن دافئ دمره الإجرام الصهيوني، يعيد حسن حميد من هذه الحكايا المتوارثة ومن تجربته الذاتية تجسيد ملامح الزمان والمكان الفلسطيني السابق للغزو والتدمير،ويواجه بالرواية نسياناً محتملا يعبث بالحكايا ويُهيل التراب على أصحابها[60].

ينفتح الزمان على أواخر العهد العثماني وقدوم الانتداب البريطاني الممهد لوقوع كارثة النكبة الفلسطينية وتوسع وامتداد آثارها، مستندا في سرده إلى نوعين من الذاكرة الفلسطينية: الفردية والجمعية[61].

تظهر معالم فلسطين التاريخية الأثرية. مهد الديانات السماوية، وتنوعها الحضاري والطائفي الذي يبرز مع تفاصيل المكان، ما بين الدير والمسجد؛ لتجسد الانصهار والتآلف الذي جمع بين المسلمين والمسيحيين في المكان ممثلة بشخصيات الشيخ وشبان المقاومة والرُهبان، في بوتقة الهم الواحد والمصير المشترك للوطن[62]. كما أشار لتلك الحقبة إبراهيم نصر الله في "زمن الخيول البيضاء" من خلال العمل السابق، وتداخل معالم تلك الحياة الاجتماعية، كانتصار خليل السكاكيني والخوري إلياس سليم لأهالي قرية الهادية وعودته بالوثائق والإثباتات لإنقاذ الأراضي ونسبها الأصيل لأهلها.

فمن خلال المكان "قرية المرج" يتضح هذا التقارب كذلك، بالمركزية التي اتخذها الدير في القرية، وعودة العديد من الأهالي للدير للاستعانة بالرهبان في العديد من المسائل وحل النزاعات والخلافات الاجتماعية، وتبرز قصص من التآخي الذي جمع بينهم وبين أولئك الرهبان وأخرى عن الحب والتخلي، وعن الوقوف في وجه الأعداء، ومُساندتهم للمقاومين.

---

[60] انظر: مقدمة فيصل دراج **لرواية أنين القصب لحسن حميد**، (دمشق: وزارة الثقافة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، ط1، 2013م)، ص8.

[61] انظر: أحمد فائق أبو سالم، **الهَويَّة والاغتراب في روايات حسن حميد**، (رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، فلسطين: جامعة القدس المفتوحة، 2013م)، ص11.

[62] انظر: المرجع نفسه، ص11.

ومن ذلك قصة "غطاس" الذي ينشأ في دار الأيتام بعد أن تخلي والديه عنه فيكبر ليصبح راهبا يبحث عن العدالة التي حُرم منذ ولادته منها. ساعيا للعدالة ونشر الخير.

كما تبرز ملامح هذا التداخل والتلاحم مع شخصية الراهب عطايا، شخصية ثانوية في الحضور، إلا أن دورها ذو أهمية تستند عليها الشخصية الرئيسة في العديد من المواضع، فيظهر دورها المبدئي في الإنخراط وقيادة العمل المقاوم، يتبعه في ذلك غطاس، والعديد من الرهبان والراهبات الدير في حمل العديد من المسؤوليات تجاه الحياة الاجتماعية، ووحدتهم في حماية الثوار والجرحى ورعايتهم، ونقل وحماية الأسلحة.

فتبرز شخصية شتيوي آخذةً دورها الرئيس في الأحداث، شخصية من الطبقة العاملة الكادحة، شخصية المحب الرعوي، قصة مأساة وتضحية، يضع فيها حبه الصادق لدندي فوق مطامع المجتمع والأنانية التي تتطلبها التبعية للعادات والتقاليد.

أما الراهب عطايا فيقف في ظهر الحراك الثائر للمقاومة البادئة بالتشكل في أنحاء القرى، ويعمل من موضع قِيادة في تسخير كافة إمكانيات الدير لحماية جماعة من الثوار بعد نجاحهم في استهداف مجموعة من العصابات الصهيونية، مدركا للأهمية القصوى التي يمثلها هذا الحراك الذي يقف وَاجهةً في حماية الوطن والمجتمع، وكرادع أول وأخير لمحاولة الإزاحة القادمة لإزالة لمعالم الحياة، فيوجِّه الرهبان والراهبات لخدمة وحماية الثوار: مواراتهم عن أنظار دوريات الانجليز المنطلقة في أعقابهم بعد نيلهم من تلك الدوريات، نقلهم في أردية الرهبان، تقديم العلاج للجرحى منهم، إخفاءهم ونقلهم في توابيت إلى خارج المنطقة المحاصرة، بناء مخرج سريّ للثوار في الدير، نقل الأسلحة منهم وإليهم في عربات الدير الخاصة، وتظهر "رشيدة" شخصية المرأة المناضلة التي تنذر نفسها للانخراط في العمل المقاوم وتصر على أخذ دورها في مهمة نقل الأسلحة والقنابل إلى الثوار في القرية، إلى جانب "غطاس" الذي ينجح في إخفاء الأسلحة قبل الوصول الى نقطة التفتيش، تبرز كمهمة تمتد لها يد الجمع من الرهبان وأهالي القرية في مواجهة إرهاب العصابات الصهيونية[63] التي عملت حينها على تلغيم

[63] برزت حينها تضامنا "الجمعيات الإسلامية المسيحية" والتي ضمت قيادات محلية تولت قيادة الحراك الوطني لمواجهة النفوذ المتزايد للحركة الصهيونية في فلسطين تعبيرا عن وحدة أبناء الشعب الفلسطيني بعيدا عن انتمائهم الديني. انظر:

ونسف قرية العباسية، ويتكرر اقتحامهم للدير وأنحاء القرية في بحث مسعور عن المجاهدين والثوار الذين نالوا من العديد من العصابات في عدة مواضع ونجحوا في نسف مراصد مراقبة تابعة للعصابات الصهيونية عند التلال ومشارف الأودية ومفترق الطرق بعد استباحة القرى بالقتل والتدمير، وتظهر معالم هذا التلاحم الطائفي واضحة في وضع علامات تحذير يتعارف عليها الأهالي حال اقتراب أي هجوم من الإنجليز أو العصابات الصهيونية، برفع التكبيرات في المساجد، ورفع أصوات أجراس الكنائس في تزامنٍ بينها، فيعمدون لرفع مستويات الحماية للقرية بأيديهم وإمكاناتهم المتاحة، ورفع أسوار القرى بأفضل أنواع الحجارة البازلتية والتناوب على حراستها، إلا أن موازين القوى في الغزو الجائر الغير متكافئ، والمدعوم من الغرب للعصابات الصهيونية، يودي بحياة الآلاف من الأهالي، فلا ينجو سوى عدة أفراد احتموا في براميل الماء والآبار.

تتصدر صورة التهجير القسري وملامح الاغتراب التي تلاحق الشخصيات ومجتمعاتها الفصول القادمة، حين تتدافع أمواج السكان الهاربة من الموت، وتندثر معالم القرية تباعا، وتُحالُ رماداً بعد تدميرها، ويشير الكاتب لعِدَّة خسائر منها معالم تاريخية عريقة في القِدم، كأقدم وأكبر حمامات القرية —حمام الحديدي– الحمام العتيق المليئ بالقصص، الزاخر بحياة اجتماعية والأشبه في عهده بالبرلمان[64]. باستراحة جمعية، وسوق مصغّر، المكان الذي يختزل ذاكرة جمعية، وشَهد سحق وجوده، ووأد المكان، وقد أحالته العصابات الصهيونية رمادا بتفجيره. ذاكرةٌ يعيد الكاتب إحياء تفاصيلها العتيقة: وجود الطاحونات، وازدهار المعامل والمعاصر، ومصانع الصابون وإحالتها وسط إجرام دامٍ لرُفاتٍ بلا أثر.

فالوقت ذاته رسَّخت الذات المقاومة حضورها وقوة وجودها، وظلَّت متحصنة في أنحاء القرية، وأعمَلَت تفاصيل البيئة والعلم بالمكان لخدمة أهدافها، وظلَّ الأهالي مرابطين معهم في قتال ضارٍ مكنهم من استعادة أغلب المناطق في القرية، والحفاظ عليها لشهر

وسام حسين عبدالرزاق، "حركة الشيخ عزالدين القسَّام وأثرها على الحركة الوطنية الفلسطينية حتى عام 1936م"، **مجلة مداد الآداب**، العدد4، الجامعة العراقية، كلية الآداب، د.ط، (د.ت)، ص482.

[64] انظر: حسن حميد، **أنين القصب**، ص132.

كامل[65] قبل سقوطها مجددا في مواجهة غير متكآفئة مدعومة بقوى الاستعمار البريطاني، وتظهر المقاومة في فعل الحديدي وعودته للوقوف في تحدٍ وصبر مرير على الدمار والفقد الهائل الذي طال ذاته وأملاكه، والجمع، المكان والذاكرة، ليقطع بنار ثأر متقدة عهدا بإعادة بناء الحطام المهدّم، ويتوعد اليهود من الاقتراب أو الدخول إليه: "كان الحديدي قد شرع في بناء الحمام منذ أن انتهت التحقيقات، كان يردد: "سأبنيه، ولو ألف مرّة، ولن أسمح لهم بالدخول إليه"![66]

هذا التلاحم الفردي يُدعم بتلاحم جمعي في المشاهد اللاحقة، فتَنهض الحاضنة الجمعية متسعة النطاق ومتعددة الطوائف كوحدة واحدة إلى جانب الثوار في وجه الانجليز وعصابات الصهاينة لمواجهته؛ بهدف اجتياز الأزمة الوطنية، والحفاظ على المجتمع بعيدا عن محاولة تفكيك وحدته وإعادة الاستقرار المسلوب إليه.

تعود الشخصية الرئيسة "شتيوي" للظهور، فيقطع دروب العودة فور معرفته بأخبار الفاجعة التي تهدد فلسطين بوعد بلفور ومحاولة تسليم وطنه لليهود، يعود أدراجه من أميركا ويقطع الدروب متجها للبنان، ومنها إلى الخالصة وصولا إلى قريته الشماصنة، يعبر شتيوي بتفاصيل المكان والمعالم التي هُوِّدت وفقدت أصالتها، والتدمير الذي أحال الأراضي سوادا، يرى تضاعف أعداد الجنود، بناء الحواجز، قطع الطرق بزرع نقاط التفتيش. يرفض شتيوي هذا التغيير، والآخر الذي يحدُّ حدودا ويجتر الفواصل في وطنه، يسأل الجنود في شجاعة واضحة ونبرة رافضة للسؤال والتفتيش المهين:" لم أفهم كيف يسمح أهال القرية لمثل هؤلاء الجنود بمراقبة الداخلين إليها أو الخارجين منها! هؤلاء الغرباء.. من وكلهم بأمر الناس! أسئلة دارت في رأسي، فأمرت السائق أن يتوقف، قفزت من فوق العربة، وعُدت إلى أفراد الدورية، وسألتهم بأي حق قاموا بسؤالي، وبأي حق فتشوا حقائبي! فدُهِشوا! لعلهم لم يسمعوا مثل هذه اللهجة من قبل، وراحوا يتغامزون عليّ!.."[67] وكردات فعل ناتجة عن محاولات القمع

---

[65] انظر: وليد الخالدي، **كي لا ننسى: قُرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة 1948 وأسماء شُهدائها**، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط3، 2001م)، ص713.

[66] حسن حميد، **أنين القصب**، المصدر نفسه، ص136.

[67] حسن حميد، المصدر السابق، ص173.

والحِصار والإهانات والإذلال المتواصل الذي يتلقاه أهالي القرى، تبرز كذات قيادية للفعل المقاوم شخصية "الشيخ المصباحي"، كبير مشائخ القرية ورجال الدين، وأهم مُعلميها، يحذر أهالي القرية باستمرار من هجرات اليهود القادمة وتزايد مستعمراتهم، لم يخشَ المواجهة ودعى للمقاومة، مُقاومة الإنجليز وعُدوانهم وتقديمهم الوطن لليهود والدعم للعصابات الصهيونية التي تَفشَّت في مختلف أنحاء القُرى لتدميرها وقتل الأهالي بلا رادع. يدعو الشيخ المصباحي أهالي القرية وشبانها إلى ضرورة التعلم، والمسارعة في تعلم اللغة العبرية حذرا من دوافع اليهود القادمين وتربصا بهم، يخرج بعد ليلته الأخيرة في المسجد بالصلاة وختم القرآن برفقة أربعة من الثوار لمواجهة جمع من جنود الانجليز ويُقتل في تلك المواجهة. في وداع الشيخ المصباحي تعم الأحزان والإضراب أنحاء القرية، ويترك ثأرا يتعهده رجال القرية، شبانها وصغارها، يمضون من بعده "لغياب طويل"[68]، ومن ذلك الثأر يمتد الحراك المقاوم ويتوالد، وتتعاظم رغبة أهالي القرية في الانتقام من اليهود القادمين إلى المستوطنات التي تواصل ابتلاع أراضيهم، ويتعمدون إفساد محاصيل المزارعين، وأراضيهم الزراعية وإغراقها بالمياه، واستفزازهم بشكل متواصل..

وتظهر شخصية ثانوية أخرى، هي شخصية عبدو المحمود الذي يتوعد المستوطنين بالانتقام لقتلهم والده، ويعمل على قطع أسلاك الإتصالات، وقطع المياه عن المستوطنات بزرع أكياس الخيش في الأنابيب المتصلة، لحبس مياه النهر عنهم، وقطع الطريق على نهبهم لمياه المزارعين، ورغم اعتقاله وتعريضه للعقوبات والضرب المبرح إلا أنه يتوعدهم بالمزيد من العمل المقاوم.

يُقابل الدعم المادي والعسكري الذي تقدمه بريطانيا لليهود القادمين والعصابات الصهيونية باشتعال الغضب العارم لدى الفلسطينيين، وبهذا الدعم المساند تقوى شوكتهم ويواصلون التدمير، تدمير القطارات بمن فيها وسكك الحديد، ومعاصر الزيتون التي يمتلك شتيوي ثلاثا منها ويتم تفجيرها حقدا، ورغبة من تجار اليهود لاحتكار بيع الزيت الغربي المستورد[69].

---

[68] المصدر السابق، ص185.

[69] أشار كنفاني إلى تلك الأحداث كأحد أهم العوامل التي أدت لإشتعال الثورة الفلسطينية الكُبرى، وكان من بين تلك الأسباب "وصول حِدَّة التناقض في عملية انتقال المجتمع الفلسطيني من الاقتصاد الزراعي –الإقطاعي– الإكليركي العربي

كما أن التوسع الجائر المبني على سرقة المزيد من أراض الفلاحين والمزارعين وزيادة مساحاتها في كل مرة، وإرهاب ملَّاكها في كل مرة بتَلغيم حُدودها، يخلق حالة من الاستنفار الجماعي لدى أهالي الشماصنة وكما سبق مع أهالي قرية الهادية، ويخلق في المقابل إلى جانب نقمة الثوار عدم تنازلهم عن ثأر القتلى وأراضيهم، ووحدة في صفوف المجتمع الفلسطيني، فيُعِين أهالي القرية الثوار، ويمضون لمهاجمة كبانيات المستوطنين وإضرام النار فيها، حين يتضح إخلاؤها المسبق واحتماؤهم في ملاجئ مؤقتة متوقعين ردات فعل الثوار.

يلتحق هذا الحراك الثائر بأهم قيادة برزت حينها. الشخصية الأبرز في أحداث الثورة الفلسطينية الكُبرى، ويعود حسن حميد كذلك لإحياءها، شخصية الشيخ الشهيد عزالدين القسَّام التي يجد الثوار فيها أهم مميزات القيادة الحكيمة: الشجاعة، والإقدام والثبات الإيماني الصادق ما يدفعهم للوثوق به وبمشورته، ويلجأون إليه حول عتاد أسلحة هائل يُصدَّر للعصابات الصهيونية من دول الغرب، فيدعوهم الشيخ عزالدين للخروج في إثر القوات الإنجليزية والعصابات الصهيونية، ومهاجمة كابيناتهم، ووضع خطط مدروسة لمحاصرة وإفشال مخطط التسليح، وتسليم الأراضي لليهود القادمين، إلا أن تفوق السلاح والعتاد والدعم الغربي الذي يتلقاه اليهود، مُقابل الخذلان والتخلي الذي تلاقيه المقاومة باستمرار من أمراء العرب، يسهم في إسقاط الثورة القائمة، ويُحاصر المقاتلون وتنجح عملية اغتيال الشيخ عزالدين القسام، ليمضي في ركاب الثأر له من تبقى من شبان القرية ومن التحق بهم، ويواصل أهالي القرية التمركز في قُراهم، ويمتنع التجار عن معاملة اليهود وإفساح المجال لهم في أسواقهم، ما يدفع بأفراد العصابات الصهيونية بحقدها لإحالة المشهد التجاري المزدهر في سوق الخالصة إلى دمار وساحة إعدام، فيعمدون إلى تفجيره وتعليق الثوار الذين نالوا منهم في المشانق في مقدمة السوق، ويحيل فضاء هذا المشهد والمكان إلى زمن قاتم السواد فَقَد الأهالي فيه بيوتهم ومصادر دخلهم وجزءا لايقل أهمية بالمناضلين الذين استندوا عليهم: "صار هذا المشهد المؤلم عنوانا لإغلاق السوق.. وعدم دخول الناس إليه"[70]،إلا أن كيد القوات

إلى إقتصاد صناعي بوروجوازي يهودي غربي إلى ذروته". انظر: غسان كنفاني، **ثورة 36–39 في فلسطين: خلفيات وتفاصيل وتحليل**، (جمهورية مصر العربية: دار الوطن للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 2016م)، ص67.

[70] حسن حميد، **أنين القصب**، المصدر نفسه، ص204.

الإنجليزية والعصابات الصهيونية لم يثني الأهالي والمقاومين عن الدفاع عن مُدنهم وقُراهم فيعودون للتحلق حول قيادة القائد عبدالقادر الحسيني، الشخصية المرجعية التي يستند عليها الكاتب في إحياء المشهد، كأهم شخصية قيادية برزت في أعقاب مقتل الشيخ عزالدين القسَّام. يخرج عبدالقادر الحسيني برفقتهم باتجاه قرية القسطل غرب مدينة القدس ويتولى أهم معارك الدفاع عنها أثناء تعرضها لهجوم مكثف خلال عام النكبة 1948م. وقد توجَّه قبلها القائد الحسيني لجامعة الدول العربية، طلبا للعون ومدا للسلاح، محذرا من عواقب ضياع القدس وفلسطين، إلا أنه يُقابل بالرفض والتخاذل، فيمضي مُصرًّا إلى القسطل برفقة خمسمائة من رفاقه منفردين[71]، مواجها بالرفض حالة التواطؤ والخذلان العربي والإسلامي والعالمي، وينجح في تحريرها إلا أنه يستشهد في تلك المعركة وتعود العصابات الصهيونية لاقتحام القرية بدعم وعتاد غربي مضاعف وينجحون في نهبها ونهب المدن من حولها، وتسقط القرى تِباعا ويهجر سكانها، وتدمَّر منازلهم، وتقع إحدى أكثر المجازر بشاعة وإجراما في قرية دير ياسين المقاربة لقرية القسطل[72].

ويستمر الأهالي بالصمود في قراهم والدفاع عنها، وتعود دائرة المكان للتمركز في قرية الشماصنة، حيث يفرض الأهالي والمقاومون وجودهم وحقهم في البقاء، يدعمهم في ذلك شيخ القرية "عبد الكريم الأسود" الذي يرفض مع الأهالي الرضوخ لطلبات قائد القوات العربية بضرورة الإخلاء حفاظا على أرواح الأطفال والنساء فيجيب بأن: "بقاء الناس في القرية القرية هو جزء من صمود هذه القوة وبقاءها"[73]، ويتجلى ثبات الأهالي مُجددا كنوع من القاومة الشعبية الجمعية الرَّادعة، ويواصل المقاومون الدفاع عن القرية بأسلحتهم البسيطة، ودعمهم ل"سعيد العيد"، يثق به الأهالي ويسلمونه الرشاش الوحيد المتبقي للقرية، يُتقن سعيد التصويب، ويتمركز لمواجهة العصابات القادمة أمام مدخل القرية، رافضا قدومها وحتى

---

[71] طارق السويدان، **فلسطين: التاريخ المصور**، (الكويت: دار الإبداع الفكري، د.ط، د.ت)، ص263.

[72] المرجع السابق، ص264، 265.

[73] حسن حميد، **أنين القصب**، المصدر نفسه، ص214

بقاءها يوما آخر: "كان يقول: ما دام الرشاش موجودا، والذخيرة موجودة أيضا.. لا خُبز لليهود في القرية"[74]، إلا أن الغزو القادم بقصف هائل يُسقِطه قتيلا بين حطام منزله.

يُحمل أهالي القرية قسرا تحت تهديد السلاح في عربات عسكرية كبيرة ويتم إلقاءهم عبر الجسر إلى الطرف الشرقي من جسر بنات يعقوب، وأصوات حفيف القصب الشديدة تتعالى في تصوير الكاتب غضباً وأسى وقد يُتِّمت بفقد أصحابها الذين رَعوا غرسها ونمت على أيديهم.

يسرد شتيوي للقارئ آلام ذاك النزوح الأشبه باقتلاع روحه، وبكاء الأرض معه فاجعة هذا الفقد بانتزاع أصحابها عن أملاكهم: "في الليل لم يكن من رفيق لهم في رحلتهم المعتمة سوى حفيف القصب الذي أحاط بالنهر.. حفيف راح يتعالى ويشتدّ..كلما اقتربوا من جسر بنات يعقوب..، وحين تخطوا الجسر.. وأصبحوا في الطرف الشرقي.. صار الحفيف أنيناً لقصبٍ يبكي، في ليل طويل حزين، بشرا أحبهم، وأحبوه!"[75] حيث يُقطع طريق العودة عن المكان، وقد حُفَّ بالموت، ويحاصر المشهد صدمة الشتات، وحالة التمزُّق للذات الفلسطينية بين مكانين: الوطن والمنفى، وقد ضاق به كلاهما، وتُطبِق حالة من الأسى واليأس على الأهالي المهجَّرين واغتراب عن الواقع.

تختبر شخصية شيوي درب النزوح والشتات القسري برفقة عائلته، مُثَبتا نظره من الحافَّة البعيدة لمرتفعات الجولان المحتل على حقوله وأراضيه، يحدق في كل صباح على أشجارها العالية، يحتضر في آلامه وهي تتعرض لتدمير انتقاميّ عبثيّ. في رحلة الاقتلاع تلك تتبدى معالم الاغتراب في شخصية شتيوي، وهو يصارع ذاته بين الصدمة خارج المكان، والبحث عن عوضٍ ومُتنفس في أرض مُؤجِّريه: "أحسست، ومنذ اليوم الأول لخروجي من الشماصنة، أن خيط الحياة انقطع؛ أو قل إن خيط السعادة انقطع؛ فالروح تدور في حزنها مثل الجاروشة. أموت في النهار ألف ميتة..، كنت أحس بأنني سأموت حين سأنقطع عن رؤية الشماصنة والأرض؛ كانت دائما قبالتي في كل صباحاتي وكأنها مرآة أرى فيها نفسي ويومي! ولكم آلمني، حين رأيت بلدوزرات اليهود تَهدِم بيوتها بيتاً بيتاً، ثم تسيجها بشريط

---

[74] المصدر السابق، ص215.

[75] المصدر السابق، ص215.

شائك لكأنها صندوق يُعد من أجل إلقائه في مكب للقمامة! الآن تغدوا بيوت الشماصنة بلا دفئ، بلا أُلفة، بلا اجتماع.. إنها الآن أشبه برجم من الحجارة الخربة"[76]، هذا السرد إلى جانب كونه مشحونا بمشاعر الاغتراب والحنين، والمقت للمتسبب في فعل الاقتلاع والتدمير، تبرز فيه كذلك أهم ملامح خطاب الشتات الفلسطيني التي أشار إليها رامي أبوشهاب، فهذه السردية وكما العمل السابق والأعمال اللاحقة تختبر فعل الشتات الفلسطيني ووتترجم تداعيات فعل الارتحال، وتتمثل بادرتها الأولى في الصدمة الجماعية التي تختبرها الشعوب المهجَّرة بفعل الإجبار المفاجئ، فالمشتتون يحملون معهم مشاعر النفي والخروج والإبعاد، من ثم تتحول الحالة إلى حلم بالعودة إلى الوطن، وهو ما يسوغ بكون المشتتين يتشاركون العيش خارج مكان ولادتهم، أو ولادتهم في المنفى، كما يقع من ضمن تداعياته ما يتخلل المهاجر والمنفي من تعارضات وتقاطعات، يختصُّ معظمها بمفهوم الولاء واللغة والدولة في الأرض الجديدة أو المستضيفة[77]، وهو ما يتجلى واضحا من خلال العمل السابق والحاليّ، في الصدمة التي لاحقت أهالي قرية الهاديَّة حتى حرقهم واقتلاعهم القسري عن القرية، وأهالي قرية الشماصنة التي يتم كذلك تدميرها بالكامل وطرد أهاليها بعيدا باتجاه الحدود، فالصدمة تبقى ماثلة، ومحاولة العودة إلى الأرض تستحيل إلى فعل مقاوم متواصل من أجله أو الموت في سبيله، كما يحدث مع الحاج خالد ورفاقه، وشتيوي ورفضه مغادرة موقع الإطلالة الأخير لقريته حيث يقتله جنود الاحتلال.

يتكرر مشهد الاقتلاع بمرور عشرة أعوام، وحضور زمان عام حرب النكسة 1967م، حين يتوالى التهجير القسري، وتُحاصر الذات في عملية تهجير تتعاقب لمناطق أبعد، ورعب من القصف والمتفجرات، وكان الاستعداد للموت هو ما أمضت به عائلة شتيوي الأيام: "في ذلك اليوم عرفنا أن الحرب وقعت من جديد، يا إلهي لكأننا على موعد معها كل عشر سنوات، قد تزيد سنة أو تنقص سنة، لكأنها كتابة أزلية علينا، لكأنها قدر"[78].

---

[76] حسن حميد، **أنين القصب**، ص218.

[77] انظر: رامي أبوشهاب، **في الممر الأخير: سردية الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي**، ص82.

[78] حسن حميد، **أنين القصب**، ص220-221.

من تلك الأحداث يدرك شتيوي أهمية الصمود من أجل البقاء وعدم الرضوخ لأكاذيب الاحتلال وأي من محاولاته القادمة، في دفعهم للإبعاد مجددا، سواءا بحجة النزوح أو العودة اللاحقة.

شتيوي الذي غادر طوعا باتجاه لبنان وأميركا لسنوات، وفاءا لحبيبته دندي وتأمينا لمهرها –جرة الذهب– التي يسعى والدها إعاقة زواجهما بها، يرفض مع قيام الحرب أن يتم اقتلاعه قسرا، فيدفع بعائلته لمناطق آمنة غرب مدينة دمشق، ويبقى منفردا في القرية، يُهمّش آلامه ليساند رجال المقاومة في تلبية احتياجاتهم. يتَحدَّى جنود الاحتلال ومناكفاتهم اليومية له وتحقيرهم وتهديدهم له بالقتل، ويبقى متمسكا بالإطلالة الأخيرة لأرضه من أعلى تلال الجولان المحاصر، يأنس وحيدا بأي مظاهر للعودة، بالمتسللين خفية إلى منازلهم في القرى، بعودة الأبقار، الماشية، الحيوانات الشاردة، بسماعه لأي انتصار للمقاومة أو المقاتلين وأخبارهم.

تتجلى ثنائية المقاومة والاغتراب في المشهد والذي يعقبه مع رفض شتيوي للنزوح وقد خَبِره في المرة الأولى، وفَهِم معنى المقاومة بالبقاء، رغم التعذيب والوحشة التي تنال منه ومن عائلته، يبقى على يقين برغبة الاحتلال الدفينة الحاقدة بعدم السماح له وللمنفيين بالعودة بعدها، ويظل مقاوما لمحاولات الترحيل وفكرة الإخلاء مجددا، هو يعلم الآن أن تنازله يعني استسلامه لفكرة المحتل، وفقد أي أمل بالعودة، أو حتى النظر إلى ملامح قريته الشماصنة.

في مقاومته لمحاولة الإزالة والنفي الأخيرة، يعمل شتيوي كذلك على الحفاظ على معالم الحياة حيَّة في المكان، فيرعى الحيوانات الهائمة من حوله، ويطعم المواشي، ويحصد البيادر، يرعى بستانه وبساتين رفاقه الغائبين، يحصدها ويعمل على نظيم محاصيلهم: "..بدا لهم وكأنه حارس القرية، وراعيها؛ الحارس الذي يرعى الماشية، ويسقيها، ويشرف على مبيتها وحمايتها، والحارس الذي يجمع محاصيل القرية، ويضعها في الغُرف كأمانات لحين عودة أصحابها.. لقد ذهلوا وهم يرونه يسجل أسماء أصحاب البيادر على الأكياس كيساً كيساً، ويدون أرقامها في دفتر خاص بها.."[79]، ومع ما يطول من غيبته، وما يتتلاشى من أمل في

[79] حسن حميد، **أنين القصب**، المصدر نفسه، ص231.

عودة أهالي الجولان لقراهم، يلتحق "كعدي" الإبن الأكبر لشتيوي بالفدائيين ويتتبع أثر والده بحثا عنه عبر القرى المهجرة، وعبثا يحاول بعد العثور عليه ومع تسلله المتكرر إلى القرية اصطحاب والده للرجوع إلى العائلة، يظل رفض شتيوي قاطعا يغالب غربته، والشوق والحنين لدندي وأبناءه وأحفاده: "ينتهز كعدي الفرصة فيدعوه ليستعد للعودة معه، من أجل أن يراها قبل أن تموت! فيرفض شتيوي؛ يقول لكعدي بأنه ليس مجنوننا ليذهب معه. إن كان لابدّ من الذهاب، وترك نعران فإن طريقه ستكون باتجاه الشماصنة، وليس نحو الشام!"[80] هذا الحلم يتلاشى ويتبدد قُرب نَبعةِ ماء يقف عندها شتيوي يوما للوضوء، فتمزِّق رأسه ثلاث طلقات صهيونية حاقدة ترديه قتيلا، يعثر كعدي على جثة والده بعد غياب طويل، ويحمل عظامها عائدا، ونار اليُتم تثأر بين أضلعه، ويضع الحقيقة أمام أبناءه، ويرفع آثار المنظر الوحشي لجمجمة مهشَّمة، يمرر تلك العظام لأطرافهم ليبقى الثأر حاضرا في ذاكرة أبناءه، ويمدها في قبر والدته "دندي" التي فرقها وشتيوي في حياتهما: أنانية المجتمع، حقد الأعداء ودروب الشتات لكن المنفى جمعهما في قبر اغتراب واحد.

مُرسخا في أذهان أبناءه فرض المقاومة وضرورة تحقيق العودة مهما امتد الزمان، يتعهدهم بنقل عظام والديه، وعظامه من بعدهم، استردادا وتمسكا بأحقية العودة إلى فلسطين: "حين خرج، أغلق على والديه البلاطات، وأهال هو واخوته والأخرس والصغار التراب فوقهما، وسكبوا الماء وقرؤوا الفاتحة، وبينما هم في جلوسهم، التفت كعدي إلى صغاره الدامعة عيونهم، وأوصاهم أن يدفنوه معهما حين يموت، وأن يأخذوه ووالديه معهم إن عادوا إلى الشماصنة!

من ذلك الحين، وأولاد كعدي يحسّون بأن أجراسا تطوق أعناقهم، تقرع في آذانهم دوما، تقول لهم: متى سيكسرون بلاطات القبر، ليعودوا بالعظام إلى الشماصنة!!"[81]

وجدت السرديتان السابقتان طريقهما في بناء عالم يوازي العالم الفلسطيني الذي هدمت آثاره السابقة للنكبة الفلسطينية، ونجح هؤلاء الكتاب في إعادة تقديمه إستنادا على مرويات تاريخية وشفهية، خصص لها إبراهيم نصرالله أحد أهم أجزاء سلسلة الملهاة

---

[80] المصدر السابق، ص237.

[81] المصدر السابق، ص249-250.

الفلسطينية، وحسن حميد بأحد أهم سردياته "أنين القصب" رؤية تهدف لإعادة تشكيل تلك المرحلة التاريخية المتراجعة في حضورها إلى حد ما مقارنة بأعمال ما بعد النكبة في ذهن القارئ، وقد غلب عليها التوسع والإستفاضة والتعمق، بناءا يؤكد أهمية الماضي وأخذ العبر من تفاصيله والتي تجلت العديد منها من خلال العملين.

كوظيفة التثبيت التاريخي مع تعدد أحداثها المستندة إلى صيغ واقعية أو مثبتة تاريخيا، يقيمان عالمهما السردي على خط رفيع بين الحقيقة والمتخيل، رغبة في خلق روح للتاريخ بتكوينيه الجمعي والعاطفي، ونمط مضاد للمروية الصهيونية التي تسعى لتفريغ أرض فلسطين من مضمونها التاريخي، ضمن بُنية سردية تتكئ على على المتعة حققتها الحكاية بإضافة طقم من الممارسات الثقافية والاجتماعية والانسانية التي تواتر ذكرها عن أرض فلسطين[82].

[82] انظر: رامي أبوشهاب، **النكبة في رواية زمن الخول البيضاء لإبراهيم نصرالله: المتخيل والوعي التاريخي**، ص260-261.

الفصل الرابع

صورة الذات المُقاوِمَة في أحداث ما بعد النكسة في الرواية الفلسطينية الحديثة (نماذج مختارة)

شكلت مرحلة ما بعد النكسة مُنعطفا حادا في مسار السرد الفلسطيني الروائي، إذ لم تعد الكتابة الروائية معنية بتسجيل الهزيمة أو توصيف الخسارة فحسب، بل اتجهت إلى مُساءلة أثرها العميقفي تشكل الذات الفلسطينية، والذات المقاومة وهي تواجه واقعا جديدا قوامه الانكسار، وتفاقم الاغتراب، وتحول المقاومة من فعل جماعي واضح المعالم إلى تجربة داخلية مركبة، تتخذ أشكالا نفسية وسردية متعددة. ففي هذا السياق، غدت الرواية فضاءً للكشف عن تحولات الوعي الفلسطيني، ومحاولة لإعادة بناء الذات في ظل واقع تتداخل فيه الهزيمة مع الإصرار على استرداد الحق والبقاء. ويأتي هذا الفصل ليتناول صورة الذات المقاومة في الرواية الفلسطينية الحديثة خلال مرحلة ما بعد حرب النكسة من خلال ثلاثة نماذج سردية مُختارة، تمثل تجليات مختلفة للذات في علاقتها بالمكان والآخر والمنفى. إذ تتناول رواية "الشوك والقرنفل" صورة الذات الفلسطينية المقاومة المتجذرة في أرضها والتي تمارس حقا الشرعي والوطني ببسالة فذَّة وبمختلف أوجه المقاومة اليومية والصمود للحفاظ على الوجود في مواجهة واقع القمع والانكسار، في حين تكشف رواية "الصبَّار" عن صورة الآخر بوصفه عنصرا في تشكيل وعي الذات المقاومة، سواء عبر الصدام أو التداخل أو إعادة تعريف الحدود بين الأنا والآخر. وفي "رأيت رام الله" فتتجلى الذات الفلسطينية في أقصى حالات الاغتراب، حيث يتحول النزوح والشتاتإلى تجربة وجودية عميقة، وتغدوا العودة نفسها لحظة إشكالية تُعيد إنتاج المنفى داخل الوطن.

ومن خلال هذه النماذج، يسعى هذا الفصل للكشف عن الكيفية التي أعادت بها الرواية الفلسطينية، بعد حرب النكسة تشكيل مفهوم المقاومة، ليس بوصفها فعلا خارجيا مباشرا فحسب، بل باعتبارها بناءا سرديا للذات، يحاول ترميم ما أحدثته الهزيمة في الوعي، وإعادة وصل الذات بتاريخها وذاكرتها وهويَّتها في مواجهة واقعٍ لا يَكفُّ عن انتاج الاغتراب.

المبحث الأول: ثبات الذات الفلسطينية المقاومة (الشوك والقرنفل)

في سرده لأحداث تاريخية واقعية يتمثل الكاتب في سيرته صورة الذات المقاومة، في نموذج هو أقرب إلى سيرة ذاتية وتخييل تاريخي، يقدم يحيى السنوار إلى جانب كتابات أخرى متعددة أبصرت النور من عتمة زنازين الاحتلال، عمله السردي المقاوم "الشوك والقرنفل" والذي حقق بإطلاقه من خلال معركة الأسر خلف قضبان الاحتلال الجائر، في سجن بئر السبع انتصارات متعددة على سجَّانه، مُطلقا هذا العمل في طريق نضاله الوطني والأدب الفلسطيني المقاوم، وسيرة تدرج كذلك ضمن مؤلفات أدب السجون.

تحمل السردية قصة الجيل الذي ولد ونشأ في مخيمات اللاجئين بالقطاع، كأول جيل أتى بعد أحداث الفاجعة للنكبة الفلسطينية[1]، ليقطع في طريق النضال دربا طويلا من العذاب والألم هو أقرب للشوك القاسي، إلا أنه درب يُزهر آخره بوضوح جليّ كرائحة القرنفل النفاثة، وينتهي للمناضل بسيرة عطرة دلالة على وفاءه.

يحمل عنوان الشوك والقرنفل رمزيتان: فالشوك دليل المصابرة والمجالدة على ظروف الحياة الفلسطينية الصعبة، والواقع المتمثل بالسجن والحياة تحت قهر الاحتلال، والمأمول الذي يشبه القرنفل بطاقة نارية تبعث على الحياة، وهي من الزهور التي تشتهر زراعتها في غزة.[2]

"أبو إبراهيم" وكما يُكنَّى الكاتب، هو ابن كُنيته في هذا العمل، صاحب شخصية "إبراهيم"، الشخصية الرئيسة في العمل، ولعل الكاتب ضمنه رمزية باسم ابنه إبراهيم، كناية عن أهمية دور الجيل القادم في استكمال طريق المقاومة[3]، وتصور الأحداث إلى جانب الشخصية شخصية ثانوية تلازمها، شخصية ابن عمه "أحمد" الذي ينشأ إبراهيم في منزله بعد وفاة والده، وقد تم تهجير العائلتين للمرة الثانية وخلال أحداث حرب النكسة من مدينة الفلوجة، لينتهي المطاف بهما لاجئتين في مخيم الشاطئ في غزة.

---

[1] باسم النبريص، **من حال الشوك إلى حال القرنفل**، مقال منشور على موقع العربي الجديد، بتاريخ 2023/12/17م.

[2] يزن حج علي، **شوك السنوار وقرنفله**، مقال منشور في موقع متراس، بتاريخ2024/4/24م.

[3] المرجع السابق.

يسرد الكاتب قصة شاب نشأ في مخيمات غزة، عرف شعبه بكل أحواله عن قُرب، وعرف أحياءه، حمل همومه، وساهم بيديه في بناءه، إلى جانب العديد من المقاومين وأصبح رمزا من رموز تاريخ نضالها، تدور الأحداث في المكان الفلسطيني: مدينة غزة حيث ينشأ إبراهيم يتيما بعد رحيل والده إلى حرب عام السابع والستين، ويروي صوت السارد –ابن عمه أحمد– وهو طفل كيف ارتبطت البندقية بتفاصيل ملامح وجه أبي إبراهيم الذي طالما توارى خلفها، البندقية التي لم تفارقه يوما في الحرب وملاحقة أعداءه من قوات الاحتلال.

أحمد الراوي للأحداث، ابن الخمسة أعوام ينشأ في مخيم الشاطئ، يقاسي حياة اللجوء في منزل متهالك، تفيض به السيول شتاءاً، وتُغرق داخله، فيما تصارع الأم بشكل يومي تفريغ تلك المياه من المنزل.

يروي أحمد ذكرى أيام حرب ال67، حين يخرج متسللا لأطراف مخيمات العساكر المصرية مع أخيه محمد ابن السبعة أعوام، فيسعد بهم الجنود ويقدمون لهم الحلوى، لكن مع تقدم الأحداث وانتصار الجنود الاسرائيليين، ينالون التقريع ويصرخ بهم الجنود محذرين لمنعهم من الاقتراب من مكان المعسكر، وهي المشاعر التي تختزن ذاكرته كأول تعريف لمشاعر الرعب وقد تملكته طفلا صغيرا وأنذرته بخطورة الوضع القادم.

تتضاعف هذه المشاعر وهو يشاهد والده يحفر لأول مرة حفرة كبيرة في ساحة الدار لتحتمي فيها العائلة، ويحملون إليها الفُرش والقليل من الطعام، برفقة عائلة عمه، ممنوعين من مغادرة الحفرة خوفا من أهوال الحرب القادمة.

باستماعهم لنشرات الأخبار تنهار أحلام عائلة أحمد والدته وجَدّه بالعودة إلى مدنهم وقراهم في مدينة الفلوجة التي هُجِّروا منها خلال أيام النكبة، ومع ازديات أصوات الانفجارات واشتدادها، تصبح عودة والد أحمد الذي غادر برفقة المقاومين الشعبيين، وعمه المجند في جيش تحرير فلسطين حلما.

مع انتصار قوات الاحتلال في حرب ال67، تواصل المقاومة مُواجهة قوات العدوان في مختلف القرى، وتُجبرهم على التراجع عن حدودها، إلا أن قوات الاحتلال تعود في خبث للتسلل إليها، وفي إحدى الحوادث تعمل على تغطية دباباتها بالأعلام المصرية فيستبشر

المقاومون ويخرجون للترحيب بهم، فيفتح الجنود عليهم النيران الكثيفة وتُرديهم قتلى[4]، وتداهم المخيمات بحظر التجوال، وتجمَعُ الرجال والشبان في ساحات المدرسة، وتنتقي أقواهم بُنية لتعذيبهم وإذلالهم، وتصفيتهم بعدها ووجوههم إلى الحائط، ويُنفى البقية عبر الحدود المصرية بالجيبات العسكرية قسرا، بفرض من ضابط المخابرات الإسرائيلية المسؤول عن المنطقة "أبو الديب".

في منزلهم يواجه أحمد وإبراهيم وعائلتيهما خبر اشتشهاد عمه –والد إبراهيم– وتنهار العائلتين أمام وقعِ الخبر، في حين تصل أخبار والد أحمد بنزوحه باتجاه الجنوب، وترضخ العائلتان لواقعهما المرير إلى جانب الفقر الذي تُحاصر به المخيمات من قبل سلطات الاحتلال، لتركها تقتات على أقل من القليل، وكما يظهر في انتظار العوائل لقدوم شاحنات محدودة من المياه استعانة بوكالة غوث لساعتين أو ثلاثة في اليوم الواحد، وتقديم صُرر الملابس المستعملة التي توزع عليهم مرتين في العام بتموين الوكالة، والإذلال الذي يتمثله إلقاء هذا الفُتات إليهم مرة في كل شهر بما يسمى بطاقات التموين، مُقابل حقهم الذي يتمثل في كامل الوطن.

إلى جانب ما يُبصره السارد من صبر أمه المكلوم، وهي تمثل صبرا مُقاوما رغم مُعاناة الحرب جميع نساء وأمهات فلسطين"[5] وصمودهن أمام صعوبات الحياة وتنكيل الاحتلال، فأم أحمد تقوم على إدارة شؤون العائلتين مع غياب زوجها وأخيه مُقدمة الرعاية والدعم الكامل لعائلة إبراهيم، وترعاها خلال السنوات التي تمر بهم كأبناء لها حتى بعد مغادرة أمهما، وتبيع من ذهبها الخاص لإدارة شؤونهما، وتدخر مُساعدات أخيها لإعانتهم، مُتعففة من طلبه رغم شدة الاحتياج.

تتشكل معالم المقاومة الأولى في المخيم مع خروج أحد الشبان لملاحقة دوريةٍ لجنود الاحتلال بقنبلة ينجح بتفجيرها في إحدى العربات والفرار، فينتقم الجنود بفتح النار العشوائي على الأحياء ويقتلون العديد من سكان القرية.

---

[4] انظر: يحيى السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص8.

[5] "الشوك والقرنفل: **قراءة في رواية يحيى السنوار**، مقال منشور على صفحة موقع بنفسج.

وخلال أحداث الفصل الثالث يعود العديد من الرجال الملتحقين بجيش تحرير فلسطين لقراهم، من هذه الشخصيات شخصية "أبوحاتم" التي تعود لإحياء الحراك المقاوم في الوسط الشعبي بعد أحداث حرب النكسة، ولكسر شعور الانهزام بين الأهالي المهجرين في قطاع غزة، يجتمع برفيقه "أبو يوسف" في اتفاق لجمع شمل المقاومين والإعداد لإشعال الثورة والعودة لمواجهة جنود الاحتلال. يلتقي أبو حاتم وأبو يوسف في دار "صالح المحمود" خال أحمد، مع سبعة من المقاومين ويضعون خططا لتنظيم العمليات المقاومة وأخذها لمستوى أعلى، كُّل في منطقته. يرتفع منسوب العمليات وينطلق الحراك الشعبي المقاوم إلى تصاعد وتزداد ملاحقة جنود الاحتلال للمقاومين، تتوسع عمليات حظر التجوال، وتضييق الخناق على المكان، إلا أن الرعب يسيطر على هؤلاء الجنود من فِكرة الدخول إلى المخيم وأزقته التي يسيطر عليها المقاومون، ويُحصِنون ثغراته بالأسلحة والكمائن.

مع بناء تلك القوة في المخيمات وفشل جنود الاحتلال من الوصول إلى المقاومين، يُمعن الجنود في التنكيل وإيذاء المدنيين وكبار السن، وفرض العقوبة الجماعية على الأهالي بمنع وصول الغذاء إلى المخيمات، وعلى الرغم من الحصار المفروض على أهالي القطاع إلا أن مشاعر الفخر والرضا بتمكين المقاومة تطغى على أسوأ ظروف الفقر والحرمان: "استمر فرض حظر التجول أسبوعا كاملا عشنا فيه على (البيصارة والعدس والفول والزيتون) ورغم أنها كانت ممزوجة بالخوف، إلا أنها كانت من ألذ ما أكلنا من طعام منذ بدء الاحتلال، فقد شعر الجميع بالعزة تحت حماية بنادق المقاومة"[6]، مشاعر الفخر والاعتزاز تلك دفَعت الناس إلى الخروج رغم منع التجوال المفروض عليهم بين بيوتهم وإلى أعتاب منازلهم، مُحتمين بالأزقة التي يسيطر عليها المقاومون، فيما ينجح أبو حاتم والملتحقون به في مخيم جباليا من تحقيق انتصارات متعددة، وتنهض الثورة ليتقلد المخيم اسمها، "مخيم الثورة"[7]، وتأخذ المقاومة صدى أوسع انتشارا في مختلف أنحاء المدن والضفة الغربية، بين أعمال مُنظمة وأخرى فردية.

ويدرج الكاتب إلى جانب البطولة التي تتمثلها تلك العمليات، الصعوبات التي تواجه الفدائي والمقاوم من قبل فئة العُملاء الذين نجح الاحتلال باستمالتهم والتغرير بهم بالمادة

---

[6] يحيى السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص26.

[7] المصدر السابق، ص27.

والمصلحة مقابل الإبلاغ عن هؤلاء المقاومين، وما يشكلونه من خطورة بالغة في استهداف الحراك المقاوم وتصفيته من قبل سلطات الاحتلال، والإضرار بالقضية الوطنية، ويمثل حضور شخصيات العَمالة المتواطئة قيمة سلبية كما تقدم، فتنخر في العمل الوطني، وتودي بالحراك المقاوم وتعمل كمعاول هدم أمام بلوغ هدف التحرير، ويسرد الكاتب حول السياسة المتبعة في تجنيد أولئك العملاء، وقد خَبِر العَمالة ودوافعها مع تأسيسه لاقوى الأجهزة أمنية الرادعة للعملاء: جهاز "مجد"، بعد أن عملت مخابرات الاحتلال على تكثيف عملها للتغلغل إلى أوساط الشعب واستمالته، أحيانا بالترهيب والتعذيب وأخرى بالترغيب، وأُخرى باستغلال ظروف الناس ونقاط ضعفهم وحاجتهم لإطعام أبناءهم وأهلهم، أو لتجاوز مراحل الفقر المتفشية بتدنٍ بالغ[8].

بفعل العمالة المتواطئة يُقتل "أبو يوسف" أثناء إعداده لكمين لإحدى دوريات عصابات الاحتلال مع اثنين من الشبان، فيُفاجؤون بمهاجمة الجنود لهم من الخلف، ويقتلون جميعا، يتمكن رفيقه "أبو حاتم" من الوصول للعميل المتواطئ، ويلقيه لأهالي المخيم الذين يحكمون عليه بالموت جزاء خيانته، ولما لطخّ يديه من دماء المقاومين.

أما المقاومون فهم يأخذون بثأر أبي يوسف ورفاقه، وينالون من دوريات أخرى للعصابات الصهيونية تقدمت باتجاه مخيماتهم بالقنابل وزخات الرصاص، ويقتلون ويصيبون العديد من أفرادها، وتعود قوات الاحتلال لمداهمة المخيم، وحِصار مكان العمل المقاوم والذوات المقاومة، وتعذيب السكان وإجبارهم على الاعتراف إلا أن جميع محاولاتهم تبوء بالفشل.

ينتقل الكاتب بصوت السارد لوصف فضاء مدينة الخليل حيث تنتقل خالة السارد أحمد برفقة زوجها عبدالفتاح، كمكان ثانوي الحضور للعمل المقاوم، والذي عُرف بوَفرة الأعمال الفدائية من قبل أحداث حرب النكسة، من ذلك عملية عملية بلدة صوريف التي نجح فيها المجاهدون بنصب كمين وقتل خمسة وثلاثين من ضباط وجنود الاحتلال؛ ما ملأ

[8] المصدر السابق، ص39.

اليهود حقدا على سكان بلدة صوريف فعمِدوا إلى قصفها وتدميرها بالمدافع خلال حرب السابع والستين[9].

بعد حرب النكسة ينخفض مستوى العمليات المقاومة لمدة من الزمان، مع نجاح اليهود تحت الحِراسة المشددة في التوافد إليها بأعداد مُضاعفة، وتضاعف أعداد الجنود لحراستها، والاستفادة من وضعها اقتصاديا وفتح المجال لتوافد السياح إليها، إلا أن الحراك الشعبي المقاوم يقتنص فرصه في العديد من المواقع، وينشط في أطراف المدن والقرى والبلدات المحيطة بها، ويلجؤون للاحتماء بالمغارات المتوارية بها، وقد نجح الاحتلال خلال المرحلة الزمانية في توظيف واستمالة العديد من النخب الفكرية لتقديم فِكرة اللاجدوى من الحراك المقاوم أمام القوة والعتاد العسكري الإسرائيلي الهائل، وأن ضررها أكبر من منافعها، وأن الاهتمام أولى بأن ينصب في الارتقاء بالمستوى الاقتصادي وتنمية الثروات الوطنية.

فالمقابل يعرج الكاتب إلى بداية تكون حركات فصائل المقاومة في فلسطين مع تنوع توجهاتها، وأن ما جمعها في بداية تأسيسها كان مبدء ضرورة الكفاح المسلح، وهو ما تأسست عليه بدايةً حركة فتح، وجبهة التحرير، وفي غزة حيث كانت الغالبية لقوات التحرير الشعبية التي جمعت ضباط ومقاتلين من جيش "تحرير فلسطين" الذي تفكك إبان حرب ال67، وشكلت التجمع المقاوم الأكبر[10]، والفدائيين من حركة التحرير الوطني الفلسطيني الذين حققوا انتصارا بالغا في معركة الكرامة عام 1968م على الحدود الأردنية، وما كان لها من أثر في رفع معنويات الشعب في الداخل للعودة لمواجهة الاحتلال، وإعادة شحذ الفكرة بإمكانية تحقيق النصر من جديد.

من مدينة الخليل يخرج "أبوعلي" رفيق عبدالفتاح زوج خالة الراوي أحمد متجها للأردن والبحث عن قيادات حركة النضال الوطني، رغبة في تنظيم حراك عسكري فلسطيني في الداخل وإمداده بالسلاح والتدريب والتنظيم اللازم لبدء المقاومة المسلحة، وبعودته يعمل على البحث عن شبان أهل للثقة، فيما يعمل عبدالفتاح مُستترا بتجارته على تنظيم نقل السلاح إلى الضفة، وينجح هذا الحراك المبدئي في استقطاب جمع من الشباب، إلا أن خللا

[9] المصدر السابق، ص44

[10] المصدر السابق، ص38.

في إحدى العمليات المنفَذة يؤدي لإيقاع بعض منهم في الأسر، والمرور برحلة التعذيب الوحشي، التي يصل من خلالها الجنود لمعلومات عن أبو علي وعبدالفتاح ويتم اعتقالهما وتعذيبها وحبسهما في سجن الخليل، ولا يكتفي الجنود بتعذيب السجناء بل وكما يفصل الكاتب فإن التعذيب يشمل ذويهم القادمين لزيارتهم وإذلالهم، وإذلال النساء القادمات لزيارة أقاربهن بالتعذيب والتفتيش المهين تنكيلا بهم جميعا.

إلا أن الجماعة المنظِمة للعمل المقاوم تستمر في إدارتها للعمليات، وتتزايد أعداد الشبان المناضلين للانضمام إليها في كل مرحلة ومع كل عدوان، مُتمَترسين بالأسلحة التي نجحوا في تهريبها في مُدنهم وقُراهم، مُحتمين بالجبال والمغُر والأودية التي يَخبَرونها، ويعدون منها الكمائن لقوات الاحتلال، وبالعودة إلى مخيم الشاطئ الذي نجح المقاومون في السيطرة على مداخله وأزقته، وتكبيد جنود الاحتلال أثمانا باهضة، شكلت معها المخيمات هاجس خوف لدى الاحتلال، لعلمهم بما ينتظرهم من كمائن وأفخاخ تُسقطهم في أيدي المقاومين، وتعيدهم في كل مرة بخسائر وعتاد معطوب، إلا أنهم بفضلٍ من الدعم الغربي ينجحون في التنكيل بهذه المجتمعات والانتقام منها لكونها حاضرة في مساندة واحتضان المقاومين، فيقدمون على السكان بواقع جديد، يَفرِض هدم تلك الأزقة والمنازل قسريا، وتقطيع أوصالها بشوارع عريضة إلى أجزاء، تسهل عمليات الاقتحام المتكرر وتمشيط المناطق، وتلقي بأصحابها للتشرد والعراء، ويظل الحراك المقاوم صامدا يتشبث بالبقاء في المخيم، يفرض سلطته وهيبته وانتماءه للمكان، في ظهرهم أطفال المخيم، شبابه، نساؤه ورجاله، يصدحون برموز وأناشيد شعبية ذات دلالات خاصة متعارفة بينهم، يترقبون في حذر بالغ مرور أي من دوريات الاحتلال قرب مداخل المخيم، لينتبه المقاومون ويأخذوا مواقعهم وعتادهم استعدادا لمواجهة جنود الاحتلال.

مع فرض العقوبة الجماعية وتضييق الحصار تنحدر الأوضاع بالمجتمع الفلسطيني والغزي بشكل أخص للتأزم والاختناق إلى جانب الارتفاع الهائل في مستوى البطالة، وما تبعها من ثورات، دفعت بالاحتلال لفتح باب العمل في الأراض المحتلة، وهو ما أدى إلى كذلك لانقسامات في الآراء الشعبية حول قبول تلك الأعمال، فيعارض البعض ويعدُّها خيانة لا تغتفر، ويضطر آخرون لقبولها لسوء الأوضاع وتردي الأحوال المعيشية حد الفقر،

ورغبة في التمسك بالبقاء في الوطن والداخل، ما يسهم بإيجابية في خفض تصعيد عدوان الاحتلال، وخفض ساعات حظر التجوال، إلا أن الحصار والتمييز العنصريّ يبقى قائما، جليَّ الفوارق، والتمييز، كما يظهر في توزيع الأجور الممنوحة لليهودي مقابل الفلسطيني.

حالة الفقر ظلت سائدة في العديد من المخيمات لدى الأسر المعسرة، كما تلازم عائلة أحمد لمدة من الزمن، فالتحسين الذي يطال منزله هو تغطية السقف بألواح من الخشب والنايلون الذي يمنع تسرب المياه في الشتاء، وحصول أحمد على وجبات إضافية من خلال مدرسته لما يعانيه كطفل من سوء تغذية، وما يسرده عن جارته أم العبد التي تعيل سبعة من الأبناء بعد استشهاد والدهم، وتضطر إلى جمع الزجاجات الفارغة، والأحذية القديمة، والمعلبات المنتهية الصلاحية، لتعيد تنظيفها وبيعها أو مبادلتها بقطع الخبز.

عائلة أحمد تلتزم بالبقاء في القطاع وعدم الذهاب للعمل في الأراضي المحتلة، ويؤثر أخوه الأكبر محمود العمل وجمع المال، على الرغم من الامتياز الذي يحققه في مرحلة الثانوية العامة إلا أنه يعمل لعام كامل في بيع الخضروات لجمع المال ومواصلة دراسته في مصر.

انفتاح الطرق في تلك المرحلة وسهولة وصول العمال إلى الأراضي المحتلة كان ذا أثر إيجابي على الفلسطينيين الذين سعو لتحسين أحوالهم المعيشية، واستفاد المقاومون منها كذلك، فاختصرت عليهم تنفيذ العديد من العمليات تجاه المستوطنين في العدى وحول المدن: "رغم تحسن الوضع المادي العام للناس بصورة عامة، إلا أن المقاومة استمرت وظلت على شكل موجات تعلو وتهبط، فهي لم تكن يوما مرتبطة بالوضع المادي فقط وإنما بالانتماء الوطني والشعور بالواجب، مع أن ضيق الحال يزكي تلك المشاعر، بذلك ظلت العمليات الفدائية مستمرة، إلقاء قنبلة هنا، إطلاق نار هناك، وفرض حظر التجول هنا أو هناك، واعتقالات وتحقيقات واحتجاز المارَّة بالساعات واكتشاف عميل وقتله أو قتلها"[11].

في الفصول اللاحقة يعرج الكاتب في تسارع زماني لأحوال المقاومين بين الضفة وحدود الخارج، بانتقاله لأحداث أيلول الأسود وما واجهته المقاومة من اشتباكات وانتقالها إلى لبنان، مرورا بوفاة جمال عبدالناصر وما خرج في أعقاب وفاته من تجمعات تحولت إلى

[11] يحي السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص64.

مظاهرات تنادي بالقومية والوحدة العربية، يسرد اكاتب عن انضمام غالبية أهالي المخيم لهذه التظاهرات التي اتسع نطاقها واتجاهها للطرق الرئيسية ومركز المدينة حيث تواجه هذه التظاهرات بإطلاق النار من قوات الاحتلال لتفريق صفوفها ويرد عليهم المتظاهرون بإلقاء الحجارة.

مع تدافع هذه الأحداث تلجأ سلطات الاحتلال لطرق أخرى لتدقيق المراقبة وتتبع الفدائيين وتضييق الخناق على تزايد أعدادهم، فتعمد إلى الأحصائيات وتسجيل السكان وتفاصيلهم، وتفرض تسجيل المواليد الجدد بدوائر خاصة بالجوازات والتصاريح، تعيين مخاتير ووجهاء لمختلف المناطق وكما في السنوات السابقة، والذين يتعاونون مع قوات الاحتلال في العديد من الأحيان، وليوصلوا لأهالي أوامر الحكام العسكريين للمناطق، إلى جانب تكثيف أعداد الدوريات التي تجوب أحياء القرى والمدن بحثا عن المقاومين وما قد يسقط في أيديهم من أخبار عنهم.

تكثيف ذلك الحصار من قبل الاحتلال دفع بالمقاومين لتوخي الحذر والإلتزام بالسريَّة التامة في حياتهم الخاصة وأعمالهم، بعد اغتيال العديد من المقاومين وقياداتهم، وتتجه الأوضاع للتأزم مع تولي شارون للرئاسة وتجنيده لوحدة خاصة "عرفت شعبيا باسم الطواقي الحمر"[12] خصصت لمهمة ملاحقة المقاومين واقتحام المخيمات وإطلاق النار على كل من يُشتبه به.

وذلك في تزامن مع الامتداد الاستيطاني المتسارع لابتلاع أراضي الضفة، والتوسع على أراضٍ عامة وأراض مخصصة للمساجد والمدارس، وفرض السيطرة على المسجد الإبراهيمي..

تسارع في الأحداث ودمج الخلاصة من العديد من الأحداث، حيث تستعيد مصر السيادة على سيناء وخط بارليف عام 1973م، ما يشحذ الهمم ويرفع المعنويات والعودة لرغبة التحرير والأمل بها بين الأوساط الشعبية.

[12] يحي السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص75.

ترتفع وتيرة انضمام الشباب لحركة فتح في تلك المرحلة كما يروي السارد، وعلى خلفيتها يتم اعتقال محمود الأخ الأكبر للشخصية الساردة أحمد، بعد عودته من الدراسة في مصر والعثور على اسمه ضمن الشباب المنضمين لحركة فتح، ومنها يتم إيداعه للسجن المركزي في غزة، الذي يطلق عليه "المسلخ"[13] من شدة ما يلاقيه الأسرى في فروعه من تعذيب وحشي، يستغرق الكاتب في وصف التفاصيل التي خاضها في المكان الموحش، وما يلاقيه المتهمون والمقاومون فيه من أشد أنواع الضرب والعذاب، تعذيب نفسي وجسدي، من تدمير وفتك بالجسد والأعضاء، في محاولات لانتزاع أي نوع من الاعتراف، وهو ما يعرض له محمود ورفاقه، إلا أن الجنود يفشلون في الوصول إلى شئ بتلك المحاولات، وينقل إلى زنزانة في أحد الأقسام في السجن، حيث تمضي وتيرة الزمان بتثاقل شديد على الأجساد المعذبة في المكان الذي يتصف بضيقه الشديد الخانق لأجساد الأسرى، حيث تقيد قدرتهم على الحركة أو النوم، إلى جانب تقليل كميات الطعام المقدمة للأسير ورداءته، وسوء أحوال النظافة الشخصية المسموح بها، منها يقرر الأسرى بإجماع على الانتفاض في وجه السجانين والبدئ بحركة إضراب الأسرى، كسرا لقيد التعذيب، وتحررا من الإذلال المتواصل، بفرض مطالبهم، وانتصارا على سياسة كسر المقاوم وظلم السجَّان. بفضل حركة الإضراب ترفع القيود عن بعض المطالب ويرفض الأسرى المساومة حتى قبول جميع المطالب ورضوخ إدارة السجن لجميع المطالب، تنتصر إرادة الأسرى في تحسين أوضاعهم، وترفع القيود المفروضة على الحلقات التعليمية وتأخذ منحاً تصاعديا في تحويل زنازين السجن إلى أقسام تعليمية لتدارس العلوم التاريخ والدين والسياسية، خرجت منها ثلاثة تيارات فكريةكانت هي الغالبة: "تجمع قوات التحرير الشعبية بميولها اللينينية، تجمع فتح بطرحه الوطني المجرد، وتجمع الجبهة الشعبية بطرحه الماركسي اليساري"[14]

يأخذنا الكاتب باتجاه تعدد هذه التيارات الفكرية التي تبرز بين القطاع والضفة، وتعدد هذه التيارات والجدال الدائم بفعل اختلاف توجهاتها، والتي تجد صدى في عائلة أحمد، مع ميل محمود لفكر حركة التحرير الوطني فتح، يميل حسن ومحمد وإبراهيم للفكر

---

[13] المصدر نفسه، ص79.

[14] يحي السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص89.

الإسلامي وتكثر النقاشات بينهما ويحذره محمود من الاتجاه للطرف، فيما تميل شخصية أحمد للفكر الإسلامي إلا أنها تجد ضعفا في دور الإسلاميين في حمل الهم الوطني والمقاومة المسلحة ضد الاحتلال، إلى جانب الإسلاميين المتشدد تجاه شهداء الوطن، الذين يرون الشهيد فقط من يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا.

تبرز من خلال المرحلة شخصية هي الأقرب لملامح الشيخ الشهيد أحمد ياسين، الذي يسكن مخيم الشاطئ كذلك. شيخ الدعوة المربي الذي يرعى الشباب ويقترب من اهتماماتهم، يدعوهم للالتحاق بحلقات المساجد ويرعى بنائهم الديني والفكري[15]، ويأخذ هذا التيار الفكري الصدارة كأبرز فكر يميل إليه الشبان في القطاع، واهتمامهم السائد بالتوجه للنشأة والتربية الدينية المحافظة لأبناءهم.

ويشير الكاتب إلى انتشار هذه التيارات الفكرية في العديد من الجامعات والكليات، وفي نهاية السبعينات أغلقت الجامعات المصرية أبوابها أمام الطلبة الفلسطينيين على خلفية الخلاف القائم بين منظمة التحرير الفلسطينية والسادات الذي أخذ يستميل محادثات السلام مع إسرائيل، ما يدعوا عددا من الوجهاء في غزة لرفع المطالبات بفتح جامعة في القطاعالأمر الذي تواجهه سلطات الاحتلال بالرفض، ويواجهون هذا الرفض القائم بإصرار ويعملون على فتحها بأنفسهم في مدرسة معهد الأزهر الديني الثانوي في الفترة المسائية حتى اتسعت وأصبحت جامعة دون نيل أي اعتراف بها وظلت عرضة للمضايقات والحصار، كما ينجح الإسلاميون في افتتاح مؤسسات وجمعيات: "كالجمعيات الإسلامية، وجمعيات الشبان المسلمين، والمجتمع الإسلامي، والجمعيات الخيرية، والأندية، ورياض الاطفال، والعيادات الطبية، والتي من خلالها بدأوا يقدمون الخدمات للأهالي ومن خلال ذلك ينشرون الفكرة للإسلاميين"[16]، الجامعة الإسلامية الممتدة عن مدرسة معهد الأزهر تفتتح صفوفها الجامعين

---

[15] مميزات اتصفت بها الحياة الاجتماعية للشيخ أحمد ياسين من سيرته، فبعد أن عُيِّن مدرسا بدأ باستقطاب الطلاب وتوجيههم إلى المساجد، ومنها بدأ بعمل مجموعات من الطلاب تمارس نشاطها الرياضي والثقافي من خلال حلقات الدروس والمسابقات والرحلات التي كان يقيمها الشيخ ومساعدوه لها. انظر:أحمد يوسف، محمد أحمد أبوعيسى، **شيخ الانتفاضة: العالم الجليل الشيخ أحمد ياسين**، (دبي: دار الأمة للنشر والتوزيع، ط2، 1991م)، ص28.

[16] يحي السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص113.

بأعداد صغيرة، ما يقارب العشرين طالبا، تنتقل إليها الشخصية الرئيسة إبراهيم بعد تخرجه من الثانوية العامة، وعلى الرغم من ما يحققه من تميز علمي ومعدل عال، إلا أنه يرفض إلقاء الثقل على عائلة عمه، ويصر على البقاء في غزة والمضي قدما في إعمار هذه الجامعة إلى جانب العمل الذي يلتزم به في البناء خارج وقت دراسته، إلى جانب انخراطه في تفعيل الأنشطة الكتلة الإسلامية في الجامعة واتصالهم بجامعات الضفة وإقامة الأنشطة الثقافية والرياضية لطلاب المدارس، من هذه الأنشطة ينظم إبراهيم إحدى الرحلات لمدسة أحمد للأماكن الأثرية والمقدسة وأهم المدن والقرى في الضفة وينقلون إلى الطلبة أهيمة هذه المواقع وآثارها الدينية والتاريخية كما في مرورهم بدير اللطرون موقع معركة عمواس التي قاد فيها الصحابي أبو عبيدة عامر بن الجراح جيش المسلمين لفتح فلسطين واصفا بتأثر بالغ كما يراه أحمد لأول مرة مرتبطا بعمق بالمكان وآثاره ومعالمه، آثار بقيت حيَّة من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته مترابطة بدمائهم الطاهرة، يمر بهم بعدها لموقع قرية دير ياسين التي دمرتها العصابات الصهيونية بأحد أبشع المجازر التي مرت بعام النكبة، ليقفوا على أعتاب مدينة القدس والبلدة القديمة والمسجد الأقصى الذي يضج بقوات الاحتلال لمراقبة الداخلين ومراقبة المكان، دخول أحمد إلى المسجد يأسره برهبة بالغة تجاه المكان الذي يشاهد تفاصيله لأول مرة متأثرا بشرح إبراهيم للطلاب عن أهمية المسجد العقدية للمسلمين وأنها تشكل إرثا بالغ الأهمية ، وارتباطها برحلة الإسراء والمعراج، والأنبياء، اللحظات التي تشكل وعيا جديدا لأحمد وفهما لدوافع أطماع اليهود تجاهها، ولكونها: "معركة عقيدة ودين، ومعركة حضارة وتاريخ ووجود"[17]، تترسخ هذه الحقيقة في أذهان الطلبة، ويتعزز ارتباطهم بالمكان وأحقيتهم به، بمرورهم بمدينة الخليل والمسجد الإبراهيمي ومشاهدة الأعداد الهائلة لجنود الاحتلال حول ساحاته، جميع هذه المشاهد حملت تجديدا للوعي في أذهان الطلبة وفي ذات أحمد ويتعهد نفسه بالالتزام بصلاته وانضباط بتعليمه، ويزداد اعتزازا وتقديرا بإبراهيم، إثر ذلك يقرر الإلتحاق معه بالجامعة الإسلامية في القطاع بعد تخرجه من الثانوية العامة.

[17] يحي السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص132.

ينجح إبراهيم برفقة الكتلة الإسلامية في الإرتقاء بصرح الجامعة الإسلامية، التي تستقبل بعدها خمسمائة طالب وطالبة ويقدم للتعليم فيها نخب من الأكاديميين وحملة الدكتوراه.

المرحلة تدخل على أعتاب الثمانينات وتقع فيها الإشتباكات بين فصائل المقاومة في لبنان وجيش الإحتلال وتقع في إثرها أحداث غزو الجيش الإسرائيلي لجنوب لبنان، ويتم ترحيل منظمة التحرير الفلسطينية عنها، وارتكاب مجزرة صبرا وشاتيلا بأيدي القوات الإسرائيلية الإجرامية. يأخذ الغضب العارم بالأوساط الشعبية لتتبعها الثورات تباعا في مختلف مُدن الداخل الفلسطيني بالعمل الفدائي والمقاوم ملاحقة لجرائم هذا الاحتلال، مدينة الخليل تشتعل غضبا ويمضي شبانها بتهريب الأسلحة وملاحقة تجمعات المستوطنين وجنود حراستهم ومهاجمتهم بالقنابل والرصاص في إحدى المباني وينجحون بإيقاعهم قتلى، ويأتي الرد الإنتقامي الحاقد سريعا على جميع السكان في المدينة بإرسال أعداد مضاعفة من الجنود، وهدم ومصادرة العديد من البيوت، واقتطاع أجزاء كبيرة من المسجد الإبراهيمي واحتلالها بالكامل، التضييق على حياة الناس وعبرورهم بالطرق العامة وتفتيشهم المبالغ بتطفل مهين، وينتقم المستوطنون بإعداد تنظيمات سرية متطرفة لمهاجمة السكان في المدينة يمدها جنود الاحتلال بالذخيرة والمتفجرات، ويتضخم الإنتقام العدواني، باقتحام المستوطنين لمبنى جامعة الخليل في المدينة وفتح النار على الطلاب الذين يقعون جرحى وشهداء.

وينظم إليهم في التصعيد حاخاماتهم بحراك يتغطى بدين متطرف الملقب بأمناء الهيكل لاقتحام المسجد الأقصى المبارك وتفجيره لوضع حجر الأساس لإقامة الهيلك المزعوم على أنقاضه، محقرين ما يتمثله هذا المكان ورمزه من ترابط قدسيّ وعقيدة متجذرة في نفوس المسلمين وما يربطه بالفلسطينيين على وجه أخص كونها أمانة لهم في أرضهم، يقدمون أرواحهم لحفظها والدفاع عنها.

يجتمع إثر ذلك إلى جانب المقاومين والفدائيين، الحراك الطلابي الثائر، وتخرج في إثرها حركة الطلاب من الكتلة الإسلامية باتجه القدس، يقود هذا التجمع إبراهيم ويتبعه أحمد برفقتهم عدد من المعلمين والمشائخ متوجهين للاعتصام في ساحات المسجد الأقصى، ليجدوا أعدادا كبيرة من النساء والرجال والولدان قد سبقتهم، ينظم الشيخ برفقة إبراهيم صفوف

الطلبة القادمين، ينقسمون إلى جماعات، كل جمع يتولى حراسة أحد أبواب المسجد ملتزمين بمواقعهم وعدم التنازل عنها مهما يقع من تدافع، يحملون أقل ما لديهم من عضيّ وحجارة ونفوس ثائرة، تتقاسم كل جماعة الحراسة بانقسامها عند الصلاة إلى قسمين يحرس أحدها الآخر في تناوب منتظم، يتكاتف معهم الأهالي القادمين من مختلف المدن والقرى، والطلبة الذين بدأوا بالتوافد إلى المسجد، منتشرين في الأرجاء يدعمون بعضهم، يقدمون الأغطية والدعم النفسي، ويدعمهم حراس المسجد بتقديم المواسير الحديدية الخاصة بالبناء كأسلحة تستعين بها الجماعات المنتظمة، يذكر بعضهم بعضا بقدسية المكان، بمرور الرسول صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج، بذكرى القائد صلاح الدين الأيوبي وفرضية الدفاع والذود عن المكان المقدس، فتزداد النفوس حميَّة ويتعمق شعور الترابط ووحدة الصف بين الأفراد لتحقيق هذا الهدف والاعتصام به، وعدم التخلي عن مواقعهم مهما كان الفقد والثمن، وتعكس هذه الأحداث حبا خالصا لعقيدة إيمانية تجذرت بأعماق النفس، فكان ارتباط الذات والجماعة بالمكان وحمايته أعز عليها من الروح والحياة، وبفضل الاعتصام والترابط يتراجع المتطرفون عن الموعد الذي يحددونه لاقتحام الأقصى إلا أن الأهالي والطلبة يبقون على ثباتهم مرابطين يوما آخر، حتى اطمئنوا لعدم عودة المستوطنين.

يعود الطلبة إلى جامعاتهم وتستمر أعمال فصائل المقاومة والتنافس بينها، يقود إبراهيم الكتلة الإسلامية في الجامعة الإسلامية في غزة، ويعمل في بناء الصفوف وزيادة مساحة الجامعة وإعلاء صرخها، مناضلا للحصول على اعتراف رسمي لهذه الجامعة يدفع عزائم الطلبة، ويعيدللتعليم أولويته في المجتمع من الاحتمال وإمكانية إلى حق إلزامي مشروع للذات للنهضة به وبالمجتمع.

ويأتي انخراط إبراهيم إلى جانب دراسته في البناء وجمعه للبناء والدراسة في محيط جامعته ساعيا لتطوير بنيانها، لمواجهة الظلم الثقافي الذي واجه القطاع إلى جانب العديد من المظالم. يواجه شتات الداخل، نشأته كيتيم ولاجئ، محاولة سلخهم من قبل الاحتلال عن ثقافتهم، تاريخهم، قوميتهم، ومحاولة تهشيم للهويَّة الفلسطينية الثابتة على أرضها، وحتى عن

التفكير بإدراك ذاتهم الفلسطينية الداخلية في نطاق دولة ناهضة، هنا يتجاوز الشتات مفهوم النفي عن الوطن فيزيائيا إلى أحد مستوياته من التشتيت الثقافي[18]

العمل الدؤوب والمتواصل لإبراهيم كقيادي للحراك الطلابي للكتلة الإسلامية، يفتح أعين العملاء لدى مخابرات الاحتلال ويعرضه للمراقبة والاحتجاز والتهديد المتكرر، ويشير الكاتب إلى مظاهر تفشي العمالة المزروعة وارتفاع معدلها بتوسع حركة العمال وانتقال العديد منهم للعمل في مناطق الأراضي المحتلة، وهو ما أسهم في تكوين العلاقات لدى العديد منهم مع أرباب أعمال من اليهود ونشوء صداقات سهلت عملية استمالة العديد منهم والتواطؤ معها، ويشتهر العديد من هؤلاء العملاء بين الأوساط الشعبية، فيعتدي العديد من اغتر منهم بالأسلحة التي سمح لهم بحملها ويستغلون احتياجات الناس ويطلبون العمولات والرشاوي منهم، إلى جانب ما تتوجه إليه سلطات الاحتلال بمحاولات لنشر الفساد الأمني والأخلاقي في القطاع الذي يعرف بكونه مجتمعا محافظا بإرسال النساء العاريات ومحاولة إغراقها بالمخدرات والخمور، لمحاولة إسقاط هذه المجتمعات وإسقاطها في أوحال من الضعف والوهن وتسهيل عمليات التوصل إلى الحركات المقاومة لتصفيتها.

في أوحال هذه العمالة يسقط "حسن" أخو إبراهيم الذي ينتقل للعيس في نطاق الأراضي المحتلة، ويتردد على صديقة يهودية ويتردد على "أبووديع" مسؤول المخابرات في القطاع، ويتأكد لإبراهيم من تواطؤه وانخراطه في العمالة والتجسس ضرورة إقصاءه وتصفيته لما يشكله من خطورة على عملهم المقاوم، وإساءة لسمعة العائلة المحافظة، يضع أبووديع أعينه على محمود وإبراهيم ومنزلهما باستمرار فيعمدان لفتح باب خلفي سري للمنزل يخرجان منه دون ملاحقة أو تتبع.

على خلفية احتلال الجنود لأجزاء من المسجد الإبراهيمي تنتظم المظاهرات الرافضة وتنخرط فئة الشباب من الطلبة والطالبات الجامعيين، تبرز هذه الجامعات بسِمات معاقل المقاومة الفكرية والجسدية، يخرج منها الطلبة بأفواجهم لمواجهة عدوان الاحتلال على الأماكن المقدسة ورفض النهب السافر لها، حيث تشتعل اصطداماتهم بجنود الاحتلال

[18] انظر: رامي أبو شهاب، **في الممر الأخير: سردية الشتات الفلسطيني، منظور ما بعد كولونيالي**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2017م)، ص92.

وقذفهم بالحجارة، وينحجون في إجبارهم على الانسحاب المتكرر، إلى لحظة إطلاق النار والغاز المسيل للدموع على الطلبة الذين يسقط العديد منهم شهداء، ليخرج أهاليهم في أعقابهم يردعون قوات الاحتلال، وتمتد الثورة للقطاع الذي يسقط اثنين من الشهداء من أبناءه، وتنظم الجامعة الإسلامية للانتفاض في وجه الاحتلال متحصنين بالمبنى يقذفون الجنود ودباباتهم بالحجارة وما يقع في أيديهم، ويخرج أهاليهم كذلك يذودون عن أبناءهم، ويخرج من خلفهم أعداد هائلة من أهالي القطاع باتجاهه الجامعة، وتبدأ قوات الجيش بالانسحاب والفرار من المكان.

يمضي إبراهيم في تتبع المغرر بهم من الشبان الجدد وانحرافهم لطريق العمالة، ويجد برفقة أحمد رموزا مشفرة يضعها أبو وديع للعملاء الجدد، ويتمكن من فك تلك الرموز، اللحظة التي يداهم فيها الجنود منزله ويأخذ وأحمد إلى السجن، حيث يتحرى الجنود عن اختفاء حسن، ويتلقى إبراهيم وأحمد الضرب والتعذيب والإهانة للاعتراف بمكانه، ويطلق سراحهما بعد شهر بعد فشل القوات للتوصل لأية معلومات عن حسن.

في حين ينجح أبو وديع باستمالة أحد رفقاء إبراهيم "فايز" والتغرير به، إلا أن نجاح إبراهيم في التوصل إلى رموز الشفرات والوصول إلى مواقع لقاء العملاء يكشف له انخراط هذا الزميل توالى الأحداث اللاحقة بين الضفة والقطاع والعمليات الفردية والجماعية التي ينفذها المقاومون تجاه مصادرة الأراضي والاعتقال والقتل، بين عمليان انتقام بالطعن أو اطلاق للرصاص، هروب من زنازين الاعتقال، ويصل بالخط الزماني للانتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987م، حين يقتل سائق شاحنة إسرائيلي مجموعة من العمال العائدين من العمل في الأراضي المحتلة دهسا، يقرب الكاتب تفاصيل هذا المشهد حيث ينتفض الحراك الشعبي بعد جنازة القتلى ويخرج غالبية سكان القطاع للاشتباك مع جنود الاحتلال الذين فقدوا كل مهابة في قلوب الأهالي، يلقونهم بالحجازة والزجاجات الحارقة، يصدون قذائف الغاز المسيل للدموع ويعيدون قذفها باتجاه جنود الاحتلال، يقطعون الشوارع على دورياتهم، وعلى العمال المتجهين للعمل في الأراضي المحتلة، ينضم إبراهيم إلى النتفاضة ويدعو شباب الكتلة للخروج كل في منطقته في تظاهرا عنيفة تجمع سكان القطاع تطلب الثأر للشهداء، يطلق الجنود النار ويستمر الغضب في اتقاد يحشد جماهير الشعب ويجبر الجنود بعد يأس على الفرار، وينتقل

الحراك الشعبي الثائر لإسعاف الجرحى والتبرع بالدماء متجمهرين في مستشفى دار الشفاء تلاحقهم دوريات الاحتلال مجددا لتنهال عليهم ضربات الحجارة مع كل اقتراب ليعودوا للفرار.

تعود شخصية الشيخ أحمد ياسين وعودة إبراهيم إليه لاستلام البيانات الصادرة للشعب، ودعواته تنتشر استمرار الجهاد ضد طغيان الاحتلال ومواصلة الرباط حتى دحره عن الأراضي والمقدسات الأرض الفلسطينية، وتنضم إلى تلك الانتفضاة العديد من البلدات والمدن والمخيمات[19] ويستمر التصعيد لعدة أيام، تمضي الجموع تهتف: "خيبر خيبر يا يهود.. جيش محمد سوف يعود"[20] ويستمر الفدائيون في إبقاء شعلة الانتفاضة في اشتعال، تزداد حينها حركة الاعتقالات ومراقبة العملاء، ويتم اعتقال العديد منهم، يعتقل محمود وحسن وإبراهيم ويتم افتتاح معتقل النقب، بعد تكدس سجون الاحتلال بالأسرى.

يقتل الجنود بوحشية أحد الأسرى، فينتفض الأسرى معا في مواجهة الجنود، يقذفونهم بكل ما يعق بأيديهم يقتلعون حواجز الأقسام يواجهون الجنود الذين يبدؤون بفقد السيطرة والارتباك، ويجبرون على تلبية المطالب القادمة من طرف الأسرى والمقاومين، والاستسلام لتنفيذ مطالبهم، فيدفعون بعجلة التغيير المكاني لمعتقلات النقب، ويعيدون تحويل أقسام الزنازين لتدارس مختلف العلوم، ويأخذون بهذا التغيير بعد الخروج من الأسر للمجتمع مع استمرار أحداث الانتفاضة، فتنتقل مواقع التعليم مع إغلاق سلطات الاحتلال للجامعات، إلى المساجد والهيئات العامة، متجاوزة كل عثرة يصنعها الاحتلال لأعاقة الحياة الطبيعية في القطاع.

المراقبة التي يضعها الاحتلال لتتبع تحركات الفصائل في المنطقة وكثرة حملة المداهمات والاعتقال، تدفع أم أحمد للطلب من إبراهيم السفر للعمل في الخارج حفاظا على حياته من الخطر، إلا أنه يرفض مغادرة القطاع ويتمسك بالبقاء في العمل المقاوم، وقد جعل نصب عينيه في إصرار درب الجهاد وطريق الشهداء، على الرحيل ولقمة العيش والعائلة، يلاحق أيام مطارته بالعزم في تصعيد من العمليات تجاه جنود الاحتلال.

---

[19] يحي السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص202.

[20] المصدر نفسه، ص204.

تستمر عمليات المقاومة في ارتفاع وتيرتها بين قطاع غزة والضفة، بأسلحة بيضاء كالسكاكين أو حجارة أو القنابل اليدوية، زرع الكمائن، استهداف دوريات الاحتلال، يختطفون أحد الجنود مقابل إطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين الذي يتم اعتقاله، ويشير الكاتب من خلال تلك المرحلة كيف يزداد الوعي الشعبي حول تضاعف اعدد العملاء الذين تزرعهم سلطات الاحتلال لتقصي أخبار المقاومين والثوار وتتبع حراكهم عن قرب، فيزداد انتباه الأهالي لهؤلاء العملاء وسرعان ما يكشفونهم ويواجهونهم بالعقوبات والإقصاء وحد القتل، عن المجتمع عبرة ونبذا لأفعالهم ووضع أيديهم بأيدِ اليهود والتي تعد خيانة عظمى للدين والشعب للوطن.

يعاد اعتقال محمود وحسن وإبراهيم وإحالتهم إلى سجن النقب حيث يتعرفون على جموعة من المقاومين، تبرز من بينهم شخصية عماد عقل الذي يقع في الأسر نتيجة لانخراطه في أعمال المقاومة والانتفاضة الفلسطينية الأولى.

وتأتي من خلال الأحداث مرحلة غزو الكويت للعراق، ما يزرع الخوف والقلق لدى سلطات الاحتلال ، فتضع مخططا لتفريغ المناطق من الأسلحة وحملات التفتيش والاعتقال والاغتيال، فيجمع إبراهيم ورفاقه ما يجدون من أسلحة ويقررون الانقسام المؤقت بين الضفة والحدود وأماكن أكثر تحصينا وتواريا في القطاع، يتدربون على الأسلحة ويخططون لتوسيع دائرة العمل المقاوم وضم العديد من النشطاء الجدد من الشبان، ورصد أهداف جديدة تجمع جنود الاحتلال للنيل منهم وأخذ أسلحتهم، متحدين سياسة الاحتلال في ملاحقتهم ووهم القضاء على العمل المقاوم، وقد أعانهم الأهالي في الاحتماء والتواري مع اضطرارهم لتغيير أماكنهم في العديد من الأحيان، وهو ما تترجمه الأحداث بعد أن يصبح عماد عقل أشهر المطاردين: "عماد الذي أصبح رمزا للجهاد والمقاومة، وغدا اسمه علما من أعلام فلسطين"[21]، يقدم كل من يخفي سلاحا، أو يرغب في بيعه له ولرفاقه بكل فخر ويسر، يتلهف إليه الشبان ولأخذ خطاه، كما يحميه ورفاقه أثناء قيامهم بالعمليات ونصب الكمائن في منازلهم أحد الشبان حريصا على أمنهم، ويعزز والده حمايتهم بدفع دورية الجنود بعيدا،

[21] يحي السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص247.

الذي يعت ويشرف بهؤلاء المقومين ويتابع أخبارهم عن كثب ، وهم أعز عليه من كل شئ في الكون[22].

كما تبرز في الفصول اللاحقة شخصية مرجعية أخرى يستعين بها الكاتب، شخصية مهندس الكتائب "يحيى عياش" الذي ينال من قوات الاحتلال بعمليات التفخيخ لمركباتهم واستهدافه المتكرر لدوريات الاحتلال، واصطياد لآلياتهم بألغام وعبوات ناسفة يدوية الصنع.

مع قدوم أحداث اتفاقية أوسلو، يتضاعف اشتعال نار الثورة والغضب في القطاع والضفة رفضا في غالبية الأوساط لتقسيم الأرض الظالم، أو المساومة على دماء المناضلين والشهداء، وتأتي عملية اغتيال القائد عماد العقل بعد توصل قوات الاحتلال إلى موقعه عبر أحد الوشاة، وتحاصر موقع احتماءه، إلا أنه عماد يقف صامدا حتى آخر لحظاته يهاجمهم بالرصاص حتى يسقط شهيدا وسط دماءه، لتفقد حركة القسام المقاومة أحد أشرس مقاتليها، إلا أن الثأر يشتعل وإرادة التحرير لا تنتهي، لتنفجر الأحياء إثر مقتله غضبا يلاحق جنود الاحتلال ويستهدفهم في كل حي وزقاق، كما يهب رفيق دربه ابراهيم بسلاحه، يجمع آلام اليتم والفقد ليصبها نار ثأر على جنود الإجرام، متربصا بكل دورية قادمة لينتزع منها الحياة.

العزم الذي الذي يحمل عمته إلى معان عزٍّ تستشعرها، واللحظة التي يستغرق فيها ها السارد، بارتجاع في الزمان، وقد أعادتهم صغارا يحتمون في أول نفق من ذات الظلم والشر الذي طاردهم وطارد أجدادهم وآباءهم، ها هم كبروا ويتبعهم أبناءهم بأنظارهم وهم يغادرون لأخذ الثأر من شر لا يكف ولا يرتوي من سفك الدماء. أعاد خروج إبراهيم الأخير الاعتزاز بلفظ "السلاح" شامخا لأغنية شعبية كان قد واراها الخوف والحذر: "تناول إبراهيم البندقية، وانحنى يُقبِّل رأس إسراء ثم قبَّل رأس ياسر، ومسح دمعة أخرى عن وجنة مريم وانطلق خارجا من الدار وقلوبنا تدعوا له أن يحميه الله ويرعاه ويسدد خطاه، تذكرت حينها أمي وهي تهز سرير إسراء وتردد: هاتي منديلي يا واقفة على الباب.. هاتي منديلي، هاتي لي سلاحي يا واقفة على الباب.. هاتي لي سلاحي، ثم تذكرت صورتها وأنا أحبو إلى جوارها وهي تهز سرير أختي مريم، وتردد نفس الكلمات، وأدركت كم كانت تعني تلك الكلمات التي

[22] المصدر نفسه، ص248.

كنا نرضعها مع حليب أمهاتنا ونحن نسمع كلمات تنغرس في أعماق نفوسنا، وتنجَبل مع كُريّات دمنا، تذكرت ذلك وأنا أرى مريم، تلك الريحانة التي كنا نخشى عليها أن تنقصف من نسائم الصِّبا، تمسح دموعها وهي تفارق فارس أحلامها ورجلها وأبا أبنائها، تناوله السلاح وهي تمسح الدموع دون أن يرتجف لها جفن، ودون أن تلفظ كلمة تردد أو خوف أو تحسب، وتأكدت حينها أننا شعب قوي عظيم لا يمكن أن ينكسر أو يتراجع، أو أن روحا غريبة لا أدري كنهها تسري في كياننا، فتبث فينا ذلك الاستعداد الغريب للتضحية والفداء بأغلى ما نملك، ويظل صوت أمي يتردد في سمعي: هاتي لي سلاحي يا واقفة على الباب.. هاتي لي سلاحي، أبدا ما أرتاحي يا مهجة الفؤاد.. أبدا ما أرتاحي، لأحمل سلاحي واقتل سفَّاحي واصنع نجاحي بدمي والنار.. هاتي سلاحي، هاتي سلاحي يا واقفة على الباب.. هاتي سلاحي"[23].

يخرج إبراهيم وينال ورفاقه من دوريتين لكبار القادة العسكريين وضباط حراسة، حيث تنفجر عمليات الثأر الغاضبة إثر مقتل عماد عقل، والتوقيع على اتفاقية أوسلو التي أُعدت بصياغة ظالمة لتكفل تبعيَّة للفلسطينيين وتشتتهم بزرع الفرقة بالخلافات والحروب أهليه بينهم، وإطالة أمد الاحتلال العسكري الاسرائيلي للضفة الغربية وغزة بكل وسيلة ممكنة،[24] وتقديمه وهما زائفا بتحقيق عدل ملموس.

تأخذ فصائل المقاومة الأمر على عاتقها، وينطلق إبراهيم ورفاقه من كتائب عزِّالدين القسام التي ظلت حتى اليوم واجهة حماية ومركز الدفاع عن الشعب، خاصة في قطاع غزة الصامد، منتفضة بالثأر إثر وقوع مجزرة المسجد الإبراهيمي من قبل أحد الصهاينة المتطرفين الذي يفتح النار على جموع المصلين خلال شهر رمضان المبارك، الانتقام الذي يتلاحق بعمليات تفجير للدوريات ونسف لحافلات المستوطنين، واستهداف مركبات الجنود، ويصبح "يحيى عياش" إسما يرعب كيان الاحتلال، ويؤرق مضجع قاداتهم العسكريين والأمنيين، وعلما يقتدي به الشباب المتحلق من حوله ويعشقه أبناء الوطن.

---

[23] يحي السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص279.

[24] انظر: إدوارد سعيد، **أوسلو2: سلام بلا أرض**، (القاهرة: دار المستقبل العربي، د.ط، 1995م)، ص55.

يُلاحق المقاومون من جهتين تتبعهم سلطات الأمن بالاعتقالات، ويلاحقهم بالتهديد والقتل جنود الاحتلال، وقد فشلت في ثنيهم عن دروب حملوا إيمانا عقديا ووطنيا خالصا تجاهها، ويتجهون لأسر جنود الاحتلال مقابل إطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين، ومدّ التظاهرات والتنديد بجنود الاحتلال بعد اغتيال يحيى بمعاونة أحد العملاء، وانتقاما لذكراه تتوالد عمليات النسف واستهداف الجنود في الضفة والقطاع، في حين يصل لرئاسة الوزراء الإسرائيلية أكبر مجرم حرب عرفه تاريخنا الحاضر بنيامين نتنياهو، وصاحب أكبر مجزرة عرفها التاريخ المعاصر خلال العام 2023-2024م، فاق الإجرام النازي في قطاع غزة، أباد خلال عام واحد ملامح قطاع غزة وأغلب أحياءها وحياتها السكنية. قتل ما يقارب الخمسين ألفا من تعداد سكانها، بتطرف ساديّ ودم إجرامي بارد. عمل حينها وكما يعمل الآن، على الإطاحة بما تبقى من بنود صفقة أوسلو، وزاد من عمليات نهب الأراضي التابعة لمدينة القدس، وتهجير أهلها، ومد المستوطنات بلا حدود في مدن الضفة، وتفعيل سياسة اغتيال نشطاء المقاومين، الذين نجدهم لا يعبؤون أو يلتفتون لتلك المحاولات يواصلون فرض إرادتهم، ومطاردة قوات الاحتلال، بعد كل عدوان أو عملية اغتيال لأي من المشايخ أو النشطاء المقاومين، وتسقط رئاسة المتطرف بنيامين ليأتي من بعده ايهود باراك، وفي أعقابه المجرم شارون، الذين يستفز ملايين المسلمين من كل أرجاء العالم باقتحام ساحات المسجد الأقصى، فتنتفض الأرض غضبا لأفعاله الإجرامية انتفاضتها الثانية، ويسقط من تلك التظاهرات آلاف الشهداء الذين تستهدفهم قوات الاحتلال بالرصاص، فلا يزيدون الشعب إلا إصرارا على الخلاص من عدوانه وإجرامه..

تخرج من تلك الإرادة أول قذيفة هاون تصنعها كتائب القسام تصنيعا ذاتيا، بدأت بالحجارة والسكاكين والزجاجات الحارقة وقنابل وعبوات ناسفة يدوية الصنع ومتفجرات من مواد أولية، إلى أول قذيغة دكت قواعد الاحتلال بالوعيد القادم..

يرتقي إبراهيم شهيدا بقصف يستهدف سيارته، وتجتمع الحشود الهائلة من أبناء الحارة والجيران والشعب، تشهر بنادق الكلاشنكوف، تتوعد اليهود بالرد القادم.

تأتي النهاية كذلك في إطار مفتوح يتركه الكاتب للقارئ، برزت في الأعمال السابقة كذلك، بالحرائق التي التهمت قرية الهادية وظل الأهالي يرقبونها على درب النزوح، عظام

شتيوي الأمانة التي يكلف أحفاده بإعادتها إلى الشماصنة، إبراهيم الذي يلتحق مبكرا بركب الشهداء، تشيعه بنادق الكفاح المسلح، على درب النضال المستمر، درب الشوك المليئ بالتحديات والصعاب، وأثر أنشودة صدحت بها مكبرات المسجد يوما مع قيام الانتفاضة الفلسطينية الأولى يتردد عبر الفصول: "قسما بالله الجبار لتعودي يا دار.. باسم الدين على فلسطين ليفِرّ الغدار.. مشينا الدرب.. خُضنا الصعب.. خطينا الحدود.. مهما الشوك.. درب المرّ لتعودي يا دار.. لتعودي يا دار"[25].

لقد كسر الكاتب هذا القيد، وأبصر من بعد كتابه النور، راغما أنف سجانه في صفقة وفاء الأحرار، واقتحم على عدوه حدود المسيجة بحاصر امتد إلى 17 عشر عاما في السابع من شهر أكتوبر عام 2023م، قائدا لمعركة طوفان الأقصى، يستبق سلطات الاحتلال التي طمحت من خلال صفقة القرن لتصفية المقاومة الفلسطينية وإعادة احتلال قطاع غزة، ومخططات التهويد والاستيلاء على المسجد الأقصى في الضفة الغربية، بهجمة مباغتة لؤلئك الجنود، في معركة أعدّ تنظيم فصولها قائدا مشتبكا إلى جانب رفاقه..

لقد حقق الكاتب لذاته رؤاه، مُقتحما عليهم أبواب هذه الحدود، محطما أسطورة إسرائيل كدولة لا تقهر، هادما عليهم كيد أوهامهم التي سعوا من خلالها لتكبيل أبناء غزة في حدود القطاع ومد المستوطنات في الضفة الغربية المحاصرة، وقد أسلم روحه قائدا عسكري فذّا ومقاتلا شرسا في الميدان يشاركه قادة كتائب عزالدين القسام وسرايا القدس وجبهات الإسناد التي متدت أيدي نصرتها، يمهد طريق النصر القادم، في أعتى معركة يشهدها تاريخنا الحاضر "معركة طوفان الأقصى"، التي أذاقت عدو الاحتلال هزائما لا زالت تلاحق جمعهم في ساحات قطاع غزة، وتكبدهم خسائر مادية وبشرية، رغم الدعم الغربي الكامل المقدم له، فارضا شروطه وحدود أرضه وقواعده الخاصة للمرحلة التالية للحرب. نعم وقد كان الثمن باهضا على غزة المحاصرة، التي فُتحت عليها أبواب الجحيم انتقاما بأبشع إجرام وحشي وإبادة جماعية يشهدها التاريخ الحديث وتطهير عرقيّ، سفك دماء ما يقارب ال50 ألفا من شهداء غزة المدمرة، المقطعة إلى أشلاء، والغارقة في بحر من دماء أبناءها..

[25] يحي السنوار، **الشوك والقرنفل**، ص199.

إن هذا الصراع الذي تعاقب على هذه الذات الفلسطينية عبر الأعوام، والخبرات التي اكتسبتها في مجاوزة العثرات التي عرقلت طريق الوصول إلى أعتاب التحرير، راسخ بيقين يرفض مهادنة الظلم أو تقديم مساومة على أرضها وحقها السليب، بذرائع سلم قائمة في الخفاء، خرجت هذه الذات من واقعها المرير كاشفة وفاضحة لوجوه أولئك المتواطئين في مشروع تصفية القضية الفلسطينية ومد حدود إسرائيل

لا تزال ثابتة في وجه عدو الاحتلال وأنصاره وحلفاءه، في ميادين القتال وقد ألحقت بهم عار الهزائم بعد ما يزيد عن يوما 440 على الحرب، متشبثة بالبقاء في أرضها، ترقب طريقا يُكتب آخره نصر وتمكين..

المبحث الثاني: الذات المقاومة وصورة الآخر (الصبَّار)

من خلال عملها السردي "الصبَّار" تأخذ الكاتبة اتجاها للتعمق في الأحوال الإجتماعية والاقتصادية التي مرت بها الذات الفلسطينية من بعد أحداث حرب النكسة، وبأسلوب درامي واقعي يميل في العديد من الأحيان إلى التهكم الساخر للوضع المأساوي القائم في حدود أراضي الضفة، والأوضاع التي ضيقت الخناق على حياة فلسطينيي الداخل والأزمات التي تضاعفت لتدفعهم لترك أعمالهم السابقة والتوجه للعمل في مناطق الداخل المحتل، والانتهاكات العنصرية التي تعرضوا لها بانتقالهم للعمل في تلك المناطق والتي لم تكن أقل تضييقا عليهم، إلى جانب ما تقدمه الكاتبة من خلال رؤيتها الخاصة عبر السرد الفلسطيني بطابع يميل إلى الاتجاه الوطني والقومي والكفاح المسلح والثورة الاجتماعية والنسوية، في ضرورة تحرير الوعي المجتمعي من حالة اليأس والتبعية أولا، لمواجهة المجتمع وعاداته البالية قبل مواجهة الأعداء، فالتحرر يأتي من مواجهة الذات والتخلص من المخاوف والقيود التي تعيق طريقها وبصيرتها، ومن الأفراد قبل الجماعات، ومن ثم العراقيل التي أوجدها الاحتلال خلال السنوات سعيا في محاولة تجزأة الدولة الفلسطينية وتقطيع أوصالها، وضرورة أخذ هذا الوعي في طريق إحياء الفكر المقاوم وإعادة الكفاح المسلح كحل أول وأخير للتحرير والخلاص من سطوة الاحتلال.

وهنا يأتي عنوان العمل الصبَّار بدلالة هي الأقرب لتشكيل تلك البيئة وشخصياتها، فالصبَّار نبات ينمو وسط الأجواء الصعبة، التي لا تحتملها النباتات الأخرى، ينمو بصبرٍ ويُزهر رغم الأشواك والبيئة المحاصرة، ليُدرك القارئ أن الفضاء الروائي يحمل سمات هذه النبتة ومناخها الصَّعب، وأن تأتي الشخصيات مؤهلة لتحمل تلك الصعاب والأجواء الوعرة، والدعوة هنا لولوج مثل هذا العالم، واستقبال مشاهد هي الأقرب إلى الموت والحياة، بين الوجود وعدمه، والانتصار للذات على الآخر[26]. وهو رد فعل الواقع الصعب الذي خلفه الاحتلال، رمزاً للإصرار وتجاوزا للسائد وصعودا عليه[27]..

في خط زماني يمتد من خمسة أعوام على وقوع أحداث حرب ال67 يعود أسامة، إلى منزل والدته في الضفة في نابلس، مجتازا طريق عودته الجسر بقيوده وصعوباته بتغريبه عما كان عليه، جسرا محتلا، يتمثل حاجزا بين عالمين: عالم الداخل الفلسطيني وعالم خارج تلك الحدود، تبدو أول وصوله كعَقبة مُكرسة للمهانة التي تُعرّض لها الذات الفلسطينية في وجه عودتها، رجالا ونساء، كبارا وصغارا من جنود الاحتلال، وفرضا لحالة التملُّك المتسلطة، ونهبا لأموال القادمين بوضع أمتعتهم الشخصية تحت رحمة الجمارك المضاعفة، والتفتيش المهين، كما يُعرض له أسامة، ولاستجواب يطول من جندي بولندي الأصل لمعرفة دواعي عودته إلى الضفة التي يجدهاأقرب إلى سجن محاصر بجنود الاحتلال "تَلفَت حواليه وهو يمتطي السيارة. كانت الجنَّة تحت أقدامه وأمام عينيه. لكنه بات سجين القُمقم"[28].

مُستهجنا في دهشة حالة الإعتياد والتبلد التي يمارس بها الأهالي حياتهم، الاعتياد على شراء البضائع الإسرائيلية المحتكرة للأسواق الفلسطينية: "حملق أسامة في المرآة الصغيرة المعلقة أمام السائق. أخذ يملي في عيني الرجل البليدتين بحنق.. ماذا حدث لهؤلاء الناس؟

---

[26] انظر: كريمة زكي أحمد نصر، **الاتجاه الاجتماعي في روايات الكاتبة سحر خليفة**، (رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، غزة: جامعة الأزهر، 2015م)، ص100.

[27] مصطفى عبدالغني، **الغيم والمطر: الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة**، (القاهرة: دار جهاد للنشر والتوزيع، د.ط، 2003م)، ص84

[28] سحر خليفة، **الصبَّار**، (بيروت: دار الآداب، ط3، 2013م)، ص20.

أهذا ما فعله بهم الاحتلال؟ أين روح المقاومة؟ أين الصمود؟"[29] الاستنكار الذي يتضاعف في ذاته لحالة من الغضب، وهو يبحث في المكان عن معالم لا تشي بالانصياع، أو الصمت المطبق الآخذ في التدجين، وما يرافقه من لا مبالاة بالوضع الآخذ في التنمط، لحياة تمضي وقف شروط الاحتلال، ومعالم فرض السيطرة الإقتصادية إلى جانب العسكرية تتجلى، وسط اعتياد الناس: "الاحتلال مازال احتلالا. والكرامة المسحوقة ما زالت مُلغاة. لكن شيئا ما قد تغير. الخادمات ما عدن خادمات. والسلم الطبقي مال. وشبع الناس كل الناس. وأمام الحوانيت تتكدس البضائع الإسرائيلية. في الواجهات. وعلى أبواب المتاجر. وعلى الأرصفة. والعمال يشترون بنهم المحروم. يأكلون. يلبسون. ويطعمون أولادهم حتى التورم"[30].

تستنزف الشخصية مواقف الإنغماس تلك، فما عاد المجتمع الذي عرفه، والذي عُرف عنه من نضال، هي صورة أخرى تحاصر الواقع إلى جانب الحصار المفروض، وترى ما يسخطها لأقصى الحدود فتح خط لعمل الفلسطينيين في نطاق الأراضي المحتلة، رهن ابن خاله عادل للمزرعة التي عرفها زاخرة بنتاجها وعائدها، وهجره والعمال لتلك المزرعة للتوجه للعمل في إسرائيل وهو ما يتمثل خيانة لديه، وعلى الجانب الآخر ترصد الكاتبة الاحتياجات المادية والاجتماعية التي تدفع بهؤلاء العمال للتوجه إلى العمل في تلك المناطق وهو موضوع تعددت فيه الاتجاهات بين رافض ومؤيد، إلا أن الحاجة ساقت العديد منهمرغم عدم الرغبة إلى تلك الأعمال ويتمثل أسامة الشخصية الرئيسة الاتجاه الرافض بشكل قطعي لذلك التوجه، في حين تضطر الشخصيات مثل عادل وزهدي وأبوصابر للتوجه إليها كل صباخ لتعدد المسؤوليات في عوائلهم وحاجاتهم المادية على الرغم من السلبيات والتمييز الذي يلاقونه في تلك الأعمال إلا أنها ذات عائد أكبر، رغم ما يعتري شخصيتي عادل وزهدي من سخط داخلي تجاه التمييز العنصري وحالة الظلم القائمة يتنازعهما شعور يتأرجح بين الرفض والتسليم للتعايش مع واقع تلك الأحوال.

يترجم هذا الظلم والتمييز في المشهد واستزاف العمالة البشرية إلى أقصى حد، ما يتعرض له أبوصابر من أثناء عمله من إصابة بقطع أصابعه، فيتلقى التقريع واللامبالاة في

---

[29] سحر خليفة، **الصبَّار**، ص22.

[30] المصدر نفسه، ص26.

إسعافه من الجنود، رغم خطورة حالته، فيقضي الأيام في محاولة يائسة يرافقه عادل في محاولات عدة للحصول على تعويض مادي..

وما يلاقيه العمال الفلسطينيون من عنصرية في الأجر والمعاملة مقابل العامل اليهودي، كما يطرحها زهدي رفيق عادل لأسامة "فالفرق شاسع ما بين محمد وكوهين. الشغلة الثقيلة لمحمد والخفيفة لكوهين. وللعمال اليهود غُرف طعام فيها طاولات وكراسي. أما نحن فنجلس على الأرض لتناول طعامنا تحت الشمس أو في الكراج بين الخردة والزيت والشحمة"[31]

منظر أبوصابر مقطع الأصابع يعيد الوضوح إلى الوضع المتأزم للرفاق وما يحول دون تحسين أوضاعهم المعيشية، يتأكل في ذات عادل لتنقله إلى حالة من الاغتراب عن واقعه، فهو محتل بظروف مرض والده، وإعالة أسرته وإخوته ورهن المزرعة الذي يُخفي أمره، وعمله في إسرائيل رغم الرفض في ذاته: "الاحتلال! كلمة لها أكثر من معنى. والنفي! واقع نعايشه في لُبِّ الوطن. والتعذيب! هواية يحترفها قوادو السياسة في هيئة الأمم. وغوصي يابلادي في الأوحال ، ولنقل على الدنيا السلام"[32]، ويهرب عن الواقع الذي يطغى عليه ولا يستطيع دفعه غارقا في إدمان الكحول، يحاول أسامة انتزاعه عن حالة السُّكر والعبث التي تنتهي به إلى حال أشبه بحال جاره العجوز أبوشحادة الفاقد للذاكرة: "قال أسامة بأسف: لا أنت دارٍ ولا هو. فمن يدري إذن؟!"[33]

ومحاولة لإفاقته عن حالة اللاجدوى إلى طريق من الوعي الذي يعرف أسامة أنه طالما سكن عادل، مذكرا بالفتاة التي ظلت تلاحق ذاكرته عند عبور الجسر، وهي تتلقى إهانات وعدوان جنود الاحتلال: "كور قبضته بغضب. لا. ليست كذلك. أنت هنا تسكر وفتاة في الغرفة الخشبية تصيح يا كلاب!"[34] ويضعه أمام حقيقة عودته إلى الضفة إعدادا للانتقام

---

[31] سحر خليفة، **الصبَّار**، ص67.

[32] المصدر نفسه، ص53.

[33] المصدر نفسه، ص59.

[34] المصدر نفسه، ص59.

بنسف الباصات المتجهة لإسرائيل: "اسمع. هناك أوامر بنسف باصات العمال. خُذ حذرك. نبّهتك. قمت بواجبي تجاه وأرحت ضميري"[35]

إلا أن حالة السكر التي يغيب بها عادل عن الوعي والزمان يجد أسامة الحوار فيها غير ذات جدوى: "هزَّ أسامة رأسه وتمتم: الكلام مع السكارى عبث! أنت سكران. ادخل البوابة واصعد إلى غرفتك فورا ونم. أنت سكران"[36]، حالة من الغيظ يمضي بها أسامة تجاه المجتمع والمكان.. قبل تعمقه الكامل في أوضاع المجتمع وانغماسه في مآلات الأحوال، بفعل القيود التي فرضتها سلطات الاحتلال والصعوبات التي أزمت معاناة الناس اقتصاديا واجتماعيا وتضاعفت عبر سنوات من الاحتلال لتوغل في التجذر..

يجد نفسه في تذبذب مع يقينه الذاتي وبين هذه الأحوال، تصارع ذاته بين انسانيتها وبين ضرورة العمل الذاتي ثأر والسعي للتحرير، وبين التردد عن فكرة نسفه للمواصلات المتجهة في كل صباح لإسرائيل، والخوف من الإقدام على مهمة كهذه يشكل فيها عادل والعمال خسارة أخرى، كيف وهو الذي عرف بشاعريته واحساسه المرهف تجاه الحياة والناس والقيم؟ وتأخذه الذكرى إلى زمان آخر من صباه حين ذرف الدموع وقصيدة رثاء على خروف العيد المذبوح، هناك شاعرية تدفع شخصية وميول ثورية راديكالية يؤمن بها تغربُّه عن هذا الابمجتمع، لكن سرعان ما يحسم أمره برفض لقبول أي مسوغات لحالة التبعية والانصياع الأعمى لقوانين الاحتلال في الوطن، يرفض الرضوخ لتلك المشاعر، مشاعر التأقلم والهزيمة التي لم تسم يوما هذه الأرض التي طالما حيت على الثورة والنضال، مستحضرا رمزية جيفارا وأشعار وكتابات نيرودا في الثورة للتحرر من أسر الأنظمة الاستعمارية والرأسمالية التي أدخلت هذا المجتمع في طبقية بائسة.

"إحساس بالغُربة والعجز. إحباط يُدثر كل الناس بما في ذلك نوار! نوارة الدار تبكي. دموع. مرض. غُبار. وعدم وضوح في الرؤية. وعاد يقول للصورة أكثر من بُعد واحد. أي بُعد! ليس هنالك إلا بُعد واحد. واقع واحد. واقع الهزيمة والاحتلال. احتلال هذا أم انحلال؟ سيان يا بلدي سيان. وهذا الشعب يهزمني أكثر من إسرائيل. وعادل سند العائلة كلها قد

---

[35] المصدر نفسه، ص60.

[36] سحر خليفة، **الصبَّار**، ص60.

دُمِّر أيضا. ماذا بقي؟ باسل والفتيان؟ هؤلاء ما زالوا صغارا. يا صبر أيوب. علينا أن ننتظر طويلا حتى يكبر الأولاد. ولكن ما يدرينا بأن كل فرد من هؤلاء لن يتحول إلى عادل جديد؟ عادل.. والقلب المفعم بالحسرات. والرسغ الموغل في الأصفاد. وكل الثقافة. وكل النظافة! غوصي يا بلدي.. ولكن لا! لن تغوص البلد. سيظل فيها أناس يؤمنون بالمستحيل. إرادة الإنسان أقوى من المستحيل.وفلسطين في القلب يا نيرودا. في بؤبؤ العين في لبِّ الحياة. وهؤلاء الناس. بجهلهم. بحزنهم. بخبزهم الموصوم بدمغة عبرية ما زالوا أهلي. وردد يا شيخ ردد. يعيش أهل بلدي وغيرهم مفيش، جيفارا لم يمت يا شيخ. مازال معي. في هذا القلب. وفلسطين في القلب يا نيرودا. في بؤبؤ العين في لبِّ الحياة. ولتنسني يميني إذا نسيت"[37]، ويدفعه بعض التفاؤل تجاه الجيل الأصغر سنا: باسل أخو عادل ونقاشاته السياسية، والتفافه برفاق يرفضون منهج التبعية ويقطعون الطريق للتوجه للعمل المقاوم، وما يرونه من عبثية في انتظار التحرير القادم من الخارج..

وهو ما يكاد يتلاشى كذلك مع شخصية زهدي رفيق عادل، المسؤول عن عائلته والمتوجس من خوض هذا الطريق وما قد يحمله من تبعات أذى لهم، إلا أن شخصية أسامة تعود لتؤكد أما المجتمع الذي يمثله أبو صابر وعادل وزهدي على أن التحرير إن أتى فإنه يأتي عن طريق الثورة الجمعية والحراك الشعبي أو الفردي المقاوم سواء، يكررها مرتين في إصرار ونفاذ صبر: "الإعتماد على الناس الموجودين في الداخل"[38] حين يواجه التردد من أبي صابر والاعتراض من زهدي وعادل، خوفا من نسف المنازل الذي تتعمده قوات الاحتلال في حق المناضلين وأهاليهم، والاعتقالات الادارية التي تبقيهم في سجون الاحتلال لأعوام، فيعمل على تأجيل مهمته تفهما وخوفا على زهدي وعادل إلأ أنه يعزم القيام بنسف تلك الباصات وردعا للعمال الفلسطينيين عن التوجه للعمل تحت رحمة الاحتلال!

وهو ما جاء اسقاطا لتعمق الكاتبة في أحوال المكان الواقعي للضفة وتقصيها لأحواله إبان تلك المرحلة، وأثناء الإعداد لكتابة العمل، حين تعدد وجهات النظر حول العمل في إسرائيل، إلا أنها اتسمت غالبا بطابع الخيانة بداية ظهورها، وكما اتضح لدى الكاتب من

---

[37] سحر خليفة، **الصبَّار**، ص62-63.

[38] المصدر نفسه، ص72.

خلال العمل السابق، وقد سعت الكاتبة لرصد هذه الظاهرة بأبعادها المباشرة وغير المباشرة، وكما تذكر فإنه على المستوى الوطني الفلسطيني كانت كل التنظيمات الفلسطينية بما فيها اليسارية، تُعاقِب العمال وتضربهم بالعصيّ والكرابيج حين تضبطهم وهم في طريقهم إلى العمل في إسرائيل. توقف باصاتهم الذاهبة غربا نحو المصانع الإسرائيلية، توقفهم في منتصف الطريق أو في أولها، وتضربهم ضربا جسديا حقيقيا، ثم تفجر باصاتهم وتُعيدهم مشيا إلى مدنهم ومخيماتهم وقراهم، خبرت الكاتبة تلك التجربة مجازفة بالذهاب في باصاتهم الصباحية، وعملها في تقصي مختلف أحوالهم متلمسة آلآم العديد منهم وهي ما احتملت أبعادا أخرى[39]..

الرفض المترجم من خلال شخصية أسامة، وقد بدأت الأعذار التي تلمسها لعادل وزهدي بالتساقط أمام الغاية الكبرى، وأمم الرضوخ الذي يراه ذليلا أمم تلك القوانين، وهويَّة الأرض وآثارها التي غُرِّبت خلف انتماءها لهؤلاء الذي تنازلوا عن كرامتهم وعزة أنفسهم: "هؤلاء الرجال لا يحفظون العشرة والعيش والملح ودائما يطالبون بما في يد الغير. وبائع الخبز الحاقد يعيِّر بالبنطلون والقميص المكويين. وأساور أم صابر تملأ معصميها. وأقوال زهدي المبطنة بالجهل والغرور. ماذا يريد هؤلاء، أن يعيشوا الرفاهية في ظل الاحتلال؟ أهذا مفهومهم للوطنية والقومية؟ وزهدي اللعين يعرف بأن كلمة عرافيم تعني لصاً قذراً وخنزيراً ابن قواد. ورغم هذا مازال يعمل هناك ويدافع عن نفسه بالشتائم. والتهديد الوحيد الذي يملكه هو الهجرة. أي جهل! يجب أن يتلقى زهدي وشحادة وأمثالهما درسا لا ينسونه قط"[40]، فهو حاقد أيضا على الطبقية التي أوجدها العمل في إسرائيل على الوضع المعيشي لهؤلاء العمال، وتقريب العملاء والمتعاونين منهم إلى مصالحهم وإعلاء شأنهم مقابل العمال العاديين، كما يجد شخصية شحادة ابن حارته في الماضي. يسترجع أسامة ماضي هذه الشخصية وقد كانا أيام الطفولة سواء، وقد أصبح اليوم ممثلا لأثرياء لطبقة البرجوازية، بشخصية استعلائية، يتباهى بالثراء المادي وخاتم الذهب في يده، مستهزءا بالعمال الأدنى منه منزلة، بالأحوال

---

[39] انظر: وحيد تاجا، **الرواية الفلسطينية: حوارات نقدية**، حوار مع الكاتبة سحر خليفة، (دار الجندي للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت)، ص161

[40] سحر خليفة، **الصبَّار**، ص75-76.

العائلية لعادل، وانتقاصا من عائلته، عائلة الكرمي التي عرفت بتاريخها في النضال، إلا أن شخصية أسامة تنفصل بهمومها عن هذه العائلة وهو ما يعمق حالة الاغتراب لديه عن هذه العائلة التي ما عادت تتوافق مع توجهاته، باندماجها في حياة من الذل تحت قيد الاحتلال، وانشغالها اللامنقطع عن حياة المادة وتلبية الشؤون الذاتية، بعيدة كل البعد عن تاريخ المتجذر في العمل النضالي والكفاح المسلح الذي يجد أسامة هويته وانتماءه إليها..

مزدريا قبول عادل بسخرية شحادة يجتر أسامه ابن خاله لخارج تلك الجلسة، يصارع محاولات أخرى لعله يعيد الوعي الدفين ليصحو في ذات عادل، والفجوة بينهما تزداد اتساعا مع عودة عادل للغرق في الكحول مع كل انكسار: "هذه القنينة لعنة. الرفاق يتعاملون بالمولوتوف وأنت تتعاطى هذه! هاتها. سأحكمها على رأس كل واحد من عائلة الكرمي!"[41]..

ويُجدد عزمه بآمال أخرى تتجلى في أفعال مقاومة للأجيال الصُغرى ويجد في ذاته انتماءا لهذه الأجيال التي تشاركه الهم والطموح ذاته، وهم الأقرب إليه رغم فارق السن، الأطفال الذين نشؤوا في أوضاع قهرية غير اعتيادية، محيطه العُنف والعدوان، ها هي لا تخشى هذا العنف والقهر والحرمان وتلاحق جنود الاحتلال، مع ما تتوجسه من خوف، إلا أنه سرعان ما يتلاشى بالتآلف والعمل الجماعي، حين يرى أسامة أن الدنيا لا تزال بخير، مع إقدام الأطفال على انتقام ساخر ينالون به معا من دوريات جنود الاحتلال أثناء حظر التجول الذي يُفرض عليهم مع تجدد انطلاق العمليات المقاومة: "خرج الأولاد من كل بيت، ووقفوا في الزوايا المعتمة كالفئران. يتطلعون نحو الجنود يتغامزون ويضحكون. والجنود يحملون الرشاشات ويلبسون الخوذات. وركض أحد الصبية من بيت لآخر. فانتهره جندي وناوله شتيمة. فترددت أصداء ضحكات الأولاد. ورددوا الشتيمة بنغمات مختلفة. وربط أحدهم علبة بندورة بذنَب قطة وأطلقها. واستدار الجندي شاهرا سلاحه. وترددت ضحكات الأولاد وقد أعجبتهم اللعبة . وركض الجنود خلف الصبية. فاختبأوا في بيوتهم وأغلقوا الأبواب. ثم عادوا وفتحوها. فاندفع جندي نحو أحدهم وأعمل فيه ضرباً، والأمهات يستنزلن اللعنات

[41] سحر خليفة، **الصبَّار**، ص86.

على كل من ساهم في بناء الدولة"[42]، ويستمرون بملاحقة تلك الدوريات التي تختطف عدة أطفال، وإغاظة الجنود بعبارات تتوعد بالثورة: "ثورة ثورة حتى النصر"[43]، يكررها مع الأطفال باسل الذين يتم اعتقاله وإيداعه سجن نابلس.

تعيد عمليات الاغتيالات ونسف المنازل واعتقال حمادة وباسل شحن الأجواء بالغضب والمقت تجاه جنود الاحتلال، الغضب الذي يشتعل في أعماق زهدي الراغب في كسر هذا القيد وترك العمل الذي طالما دفعته الحاجة إليه، تدور صدى كلمات أسامة في ذاته، وتصارعها الإنسانية التي مازال يحتفظ بها تجاه الآخر الذي يستفز محتقرا كل ما في كيانه من غضب وكبرياء، وقد أهانه ورفاقه ورجال المقاومة بأقذر الألفاظ: "مخربين عرافيم ملوخلاخيم. عرب قذرون"[44]، ويخرج زهدي عن دائرة الإنسانية التي وضع لها اعتبارا، بعد انفلاته عن أعصابه يدفعه احتراق قلبه وقد طفح به الكيللإنهاء مشاهد استعباد هؤلاء الجنود له ولرفاقه، وينهال بالمفك على رأس الجندي المتغطرس ويسقطه بين دماءه، غير مبال بالجنود وقد أخذ ضربا للاعتقال.

إلى المكان في سجون الاحتلال حيث باسل وصالح في إحدى الزنازين وصالح وزهدي في زنزانة أخرى تجمعهما بمقاومين آخرين، رجلال وشبانا ، يحيون باسل ويحفلون بمواجهته لجنود الاحتلال، يكنونه بأبي العزّ، ويحفلون به بأغان وقصائد وطنية يرفعون معنويات بعضهم، وبإلياس الفتلى الصغير الذي فقد يده وتشوهت معالم وجهه أثناء تفجيره لإحدى حافلات الاحتلال..

والقصص التي تمر به في السجن وتشحذه عزما على مواصلة العمل في درب النضال، مذكرا رفاقه: "الثوار الحقيقيون لا يحملون الكتب. بل المدافع. والخناجر. الخنجر له مفعول مضمون. تذكروا هذا القول جيدا"[45].

---

[42] المصدر نفسه، ص87-88.

[43] سحر خليفة، **الصبَّار**، ص88.

[44] المصدر نفسه، ص94.

[45] المصدر نفسه، ص126.

المقولة التي تتحقق خلال أيام على يد أسامة بعد أيام وأسابيع سخر ذاته فيها لمحاولات إحداث تغيير وصحوة ما، لإحياء الثورة في المجتمع الراكد بين الرضوخ والعيش السلمي المزعوم،بالرفض ثم الاعتراض، والحوار المتكرربهدف تغيير تلك القناعات المترسبة خلال الأعوام، يتوجه إلى العمل الفردي الذي يظل في مساحة أصغر إلا أنه يلفت الانتباه ويدفع العزائم، ويحرك تلك القناعات للتفكر، بعد أن يجهز على الضابط الصهيوني بخنجره، مُلثم المعالم وسط ازدحام السوق بالناس، وأم صابر تحيي عمله: "تسلم إيدك يا بطل"[46] ويقطع الخطى متواريا في أزقة المدينة، في حين يتجه عادل الذي يبقى مصر على أن هناك أبعادا أخرى في التعايش مع الآخر، بإسعاف ابنة الضابط وقد أسقطتها ووالدتها الصدمة، يقتلع النجوم التي يتقلدها الضابط ويلقيها أرضا، تلك النجوم التي غالبا مانالها على دماء أبناء شعبه وقتل المناضلين، حين يتردد إلى سمعه من يعاتبه: "الدورية. سبيك منه الخنزير مش شايف نجومه! ومدَّ عادل يده نحو النجوم. انتزعها. ألقى بها على الأرض. حمل الصبية على كتفه. ومشى في عرض الشارع الخالي والمرأة الباكية تتبعه بصمت"[47]،وصراع الآخر ينازع ذات عادل بين إنسانيته التي تغلب عليه، والثأر للوطن والمقاومين وأرواح لا حصر لها،وتعود رمزية الشوك من خلال هذا العمل لتظهر في حوار يسائل فيه عادل زهدي: "هل باستطاعتي أن أستخرج من الشوك وردا؟!"[48] ويجيب زهدي كما يرى الشعب هو ما يجب أن يتمثل الشوك، هو المسؤول عن حماية المقاومين، ف"الشوك لا يصنع الورد لكنه يحميه"[49].

ويعمل باسل جنبا إلى أسامة، يعينه هاني ولينا في الإعداد لمهمة قادمة، يخرج من سرداب منزل باسل، يوصيه بعدم الثقة بأحد في هذه الدار أو الجوار، ويختفي بين الجبال وتضاريسها، يعيد حساباته منفردا بهذه الذات التي حملته لأبعد من إرادته، إلى عدم رغبته بتلويث يديه بالدماء، إلا أنها ثمن الحرية والخلاص..

---

[46] سحر خليفة، **الصبَّار**، ص132

[47] المصدر نفسه، ص134.

[48] المصدر نفسه، ص149.

[49] المصدر نفسه، ص149.

يلتحق أسامة برفاق في المقاومة بقيادة أبي رعد الذي يؤكد لهم أهمية استمرار العمليات ومواجهة الاحتلال بكل وسيلة ممكنة مُقترنة بالعمل المقاوم هي الحق المشروع والسبيل الوحيد لاستعادة الأرض من المغتصبين، وأنها لن تعود إلا بالنضال والعمل المقاوم: "هذه الأرض لكم. استرجعوها بقرار من هيئة الأمم. استرجعوها بأبيات الشعر وأغاني العودة، وصلّوا لله مليون ركعة بدون مبرر. فلن ينصر الله إلا اليد المشدودة على الزناد. لا تقل لي إنسانية، لا تقُل محبة. مات الحب يا أخي. وعليك أن تتسلح بأنياب الذئاب كي لا تظل حملا وديعا يحلل الطغيان سلخه"[50]

ينطلق المقاومون إلى ثغورهم، ووخريطة العملية القادمة ترتب مسار العمل لاستهداف الباصات القادمة من إسرائيل، لردع أولئك العمال، وإعطاب مواصلات الاحتلال. تنجح العملية ملحقة الضرر باثنتين من الحافلات، ويتساقط العمال من الحافلات، يلحق زهدي بأسامة وقد نفذ إلى مسامعه صوته موجها المقاومين باتجاه الجبال بعد قدوم دوريات الاحتلال، يلحق به انتقاما لإصابته، إلا ان انفتاح النار على كلا الجانبين يوقظ زهدي على حقيقة النزاع والمواجهة بين المقاومين وجنود الاحتلال، معيدا توجيه ذاته للانتقام من جنود الاحتلال، ليُسقِط الجندي القادم لملاحقة المقاومين بضربة من مفكّه، ويحمل رشاش الجندي مخاطبا ذاته: "اقشعرّ بدنه.. لا حول ولا قوة إلا بالله. قتلت رجلا يازهدي. ماذا إذن؟ يضرِب أسامة والرجال من فوق رأسك وتسكت؟ أنت شوكة يا زهدي يا أبوحمادة. شوكة رغم أنفك وأنف الجميع. ثم.. احمل الرشاش. واضرب. اضرب"[51]، وموجها الرشاش باتجاه دوريات جنود الاحتلال، تنجلي غمامة التردد عن زهدي، وقد حمل السلاح بين يديه وفتح الرصاص على الجنود، ويرى أسامة يسقط من موضعه إلى جواره شهيدا ممزق الأحشاء، وقد انتشرت دماءه على جسد زهدي وأغرقت الأرض حمرة الدماء، وينفجر زهدي غضبا ويستمر في إطلاق الرصاص حتى تضاعف أعداد الجنود بأسلحتهم، ويقتل زهدي إلى جانب أسامة، وهو يحامي عنه حتى اللحظة الأخيرة.

---

[50] سحر خليفة، **الصبَّار**، ص150-151.

[51] المصدر نفسه، 153.

وتبقى نهاية الأحداث معلقة بباسل الذي يحمي مخططات العمل، ويعمل على إتلاف جميع الأدلة التي قد تقود إليه ورفاقه وتكشف أمر القبو، متحذرا من عائلته كما نبهه أسامة، العائلة التي بات يمقتها ويمقت الجبن الذي يحيط بها ويداخلها في شؤون حياتها، يرغب في ثورة حقيقية على هذه العائلة وعاداتها، على هذا المجتمع الذي يعيش في مواراة وخوف تجاه كل شئ، على عادل الذي يواري عمله في إسرائيل، ورهنه للمزرعة، نوار وحبها للأسير المقاوم صالح وعدم رغبتها في الارتباط بالطبيب القادم أو أسامة وعدم رغبتها بالجهر بوضوح بهذا الاختيار، والده الذي يفرض أوامره على الأبناء دون اعتبار لآراءهم وحرية اختيارهم لمساراتهم الخاصة في الحياة، مبتزا بحالته الصحية، مشيرا إلى أسامة بطريد للعادلة، ويجيب في وضوح وإصرار دفاعا عنه: "أسامة ليس طريد عدالة، أسامة أشرف منا جميعا"[52] فلم تعد في هذا الوطن عدالة وهو يدافع عن أسامة بعيدا عن ما تعنيه القرابة والنسب لهذه العائلة وهي عار على الإسم الذي ورثته، يتولى عن هذه العائلة التي يرى اغترابه عنها وعن أفعالها يزداد كل يوم أكثر، وهو يشعر بالقرف من شبكة الأكاذيب والخذاع التي تتعايش بها هذه العائلة[53]:"وقف في الباب يرقبهم وهم ما زالوا يأكلون. أحس بالحقد تجاه كل واحد منهم. وبدأ يتفحص رؤوسهم والدموع الجامدة تقف في مآقيه.. هذا الأب أكرهه لأنه يجسد المرض. هذهالأم أكرهها لأنها تجسد الخنوع. هذه العجوز أكرهها لأنها تجسد تداعي الإنسان أمام الزمن. ونوار هذه أكرهها لأنها مائعة ولا تصلح للقيام بالدور المطلوب. وعادل هذا أكرهه لأنه ليس كصالح وأسامة. هؤلاء الأطفال لا أحس بوجودهم. لا أحس بوجود أحد. أنا غريب عن هذه الدار. هذه الدار. هذه الدار.. آهٍ، اللعنة"[54]، ويقرر فضح سر كل واحد منهم، يكشف سر نوار ومنها سر عادل، فتجهر حينها نوار رغم الخوف على صحة والدها بأنها تحب صالح ولن تتزوج بغيره ولو بعد مئة عام. وهنا يحقق باسل صورة المقاوم الثوري المتكامل الذي تسعى الكاتبة لبناءها، فالثورة التي ستأتي عقب أعوام في الأرض المحتلة تتطلب

---

[52] سحر خليفة، **الصبَّار**، ص168.

[53] انظر: بشير أبو منّة، **الرواية الفلسطينية من سنة 1948 حتى الحاضر**، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، 2020م)، ص218.

[54] سحر خليفة، المصدر نفسه، ص169.

ثورة اجتماعية، وهي في صورة الرجل الذي يعيش مواقفه الثورية تلك بمصداقية غير مجزءة، بما في ذلك مواقفه من المرأة وتوجهاتها، ووقوفه إلى جانب أخته نوار بكل جرأة[55]، فالكاتبة تهديه هذه الكتابة وتهدي كل شخصية تتبعه وتمضي على نهجه، بعكس ما تمثله شخصية عادل فهو يضمر تلك المواقف رغم انحيازه إليها، ويلتزم الصمت أمام والده، في اللحظة التي يقتحم فيها جنود الاحتلال دار الكرمي العتيقة، بأوامر لنسفها، بعد العثور على القبو أسفل المنزل والأسلحة المخبأة فيه. وهو ما يمثل رغبة في الانعتاق من ذلك الماضي وأعباءه، وتصفية لكل حساباته لبناء مستقبل جديد يستند إلى أسس حقيقية وصلبة، تشكل فيها نهاية الرواية بداية جديدة[56]، وامتدادا لجزءها الثاني. فالواقع الكائن الذي يمثله الجزء الأول من العمل والمرحلة الأولى: مرحلة الصبَّار لم يكن ليُعبِّر عن الثبات بقدر ما يُعبِّر عن التحولإلى واقع آخر، هو الواقع الحيّ، والتحول من الواقع السائد إلى الواقع الممكن، وهو ما يأتي بتأكيد أكثر في الجزء الثاني: عبّاد الشمس[57].

بعد أن ينطلق باسل باتجاه السطح تاركا تلك الدار بماضيها وما تحمله وراءه، متجها إلى رفاق المقاومة يقتفي آثار أسامة..

المبحث الثالث: الاغتراب والشتات (رأيت رام الله)

في سرد ذاتي لسيرته التي تمثل أحد أرفع أشكال كتابة التجربة الوجودية للشتات الفلسطيني في الحاضر كما يشير إليها إدوارد سعيد[58]، واعتمادا على نسق رواية تيّار الوعي التي تمثل أحد اتجاهات الروايات الصادرة في مرحلة ما بعد أوسلو، والمسرودة عبر الاسترجاع والتذكر

---

[55] انظر: حسان رشاد الشامي، **المرأة في الرواية الفلسطينية 1965-1985**، دراسة منشورة بصيغة مجلد Word، (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، د.ط، 1998م)، ص40.

[56] انظر، بشير أبومنّة، **الرواية الفلسطينية من سنة 1948 حتى الحاضر**، ص218.

[57] انظر: مصطفى عبدالغني، **الغيم والمطر: الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة**، ص83.

[58] كما يصفها إدوارد سعيد في مقدمته لرواية رأ ي انظر: مقدمة إدوارد سعيد لرواية مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، (بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط4، 2011م)، ص أ.

والتأملات التي تُبرِز ذات الكاتب السارد مهيمنة على النصّ، سردا يسعى لحفظ موروث الهويّة الوطنية، وتوثيقا لجرائم منازعتها من قبل الآخر[59]..

يسرد مريد البرغوثي قصة اغترابه لثلاثين عاما في المنفى، بعد محاولاته وأخيه مُنيف لإيجاد طريق للعودة إلى فلسطين، وقد مُنع الشبان والرجال الفلسطينيون من العودة إليها بعد حرب ال67، واحتلال مدن الضفة وقطاع غزة، وعملت على عرقلة طلبات لمّ الشمل تلك وتسجيل المواليد الفلسطينيين دعما وإمعانا بسياسة التهجير القسري التي اترفعت بوتيرتها رغم تطبيع اتفاقية أوسلو[60]. تلك المحاولات التي مزقت روحه بالشتات والاغتراب وسلبت روح أخيه حتى وصوله إلى اللحظة، لحظة جلاء حالة النفي ولقاءه بالوطن، حين يعبر الجسر الذي امتد في وجهه بمسافة الأبد. المكان الذي يمثل حدا فاصلا بين عالمين ويصل إلى ضدّين لا يجتمعان، عالم الفلسطيني المحاصر في الداخل وعالم الخارج، يحاول عودة لانتماء لا يكتمل في ظل قيد الاحتلال..

تأتي رحلة مريد خلال الأعوام التي تلت تطبيع اتفاقية أوسلو والسماح بعودة بعض الفلسطينيين من أهالي المناطق المحتلة عام 1967م إلى منازلهم[61]، وبتفعيله لتقنية الاسترجاع يعود مريد عبر ذاكرته لزمان اللحظة الأخيرة التي غادر فيها الجسر، إلى ثلاثين عاما مضت، حين خرج لإتمام دراسته في مصر، وحتى إعلان سقوط مُدن الضفة وقطاع غزة مع حرب ال 67م، وسقوط مدينته رام الله التي هي بمثابة منزله في أيدي قوات الاحتلال، لحظات تنامت فيها حالة الاغتراب في ذات الكاتب عن محيطه وعن العالم، فهو الصيف الذي يتخرج فيه من جامعته ويفقد فيه هذه المنزل المتمثل في الوطن، هذا السقوط الذي يعرف الكاتب أبعاده، فهو ما واجهته عائلته عام ال48، ومدرك لما ترنوا إليه مخططات الاحتلال لنزع انتماء

---

[59] انظر: زين العابدين محمود العواودة، "البُنية الدلالية لخِطاب السيرة الروائية الفلسطينية المنجز بعد أوسلو: سردية رأيت رام الله وولدت هناك ولدت هنا للأديب مريد البرغوثي نموذجا"، فلسطين: جامعة بيت لحم، **مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية**، المجلد العشرين، العدد1، (2012م)، ص127.

[60] انظر: مروة أسامة المشهداني، **تماثُل البنى الدالة وتجليات الوعي الذاتي في (السيرواية) (رأيت رام الله) لمريد البرغوثي نموذجا**، (رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة قطر، 2022م)، ص71.

[61] انظر: مقدمة إدوارد سعيد لرواية **رأيت رام الله**، ص ج.

الذات الفلسطينية عن المكان، وتبديل هويَّته، والاستبداد على سيادته، هنا يُصبح غريبا موسوما بالنازح، ولا يجد جدارا يعلق عليها شهادته.

يستغرق الكاتب في وصف اللحظات التي أخذت منه عُمرا، وحوَّلته إلى حال المغترب، لتمتد لحظة إيقافه من قبل الجنود عند الجسر كزمان سرمدي يأخذ بذاكرة الكاتب، ويحيل بها القارئ إلى أزمنة وأمكنة متعددة مُتباعدة، يختزلها في أعوام صِباه وأعوام إقامته المؤقتة وشتاته بمُدن المنافي المتعددة: عمّان، الكويت، بيروت، القاهرة وبودابست[62]، تأتي كنتاج جدل مستمر لشبكة من العلاقات القائمة بين عالميّ المنفيّ وعائلته التي باعدت بينها كذلك دروب المنافي. فذاكرة رُواة المنفى وشخصياتهم تظهر غالبا كذاكرة مُمزَّقة، مُشتتة، غير مُرتبة، مُبعثرة الأحداث والمشاهد، ذاكرة تعمل على محيط دائري يُحيل كل لاحقٍ من الأحداث أو المواقف أو المشاهدات أو الرؤى أو الصور أو الأسماء أو الكلمات إلى سابق، قديم، أصيل، متكرر؛ لذلك فقد تشكل النص بناءا على العديد من الحقول الزمانية والمكانية لأغلب سرديات المنافي العربية عند التخوم، والحدود الفاصلة بين العوالم والكيانات المتمايزة جغرافيا وتاريخيا وثقافيا وسايكولوجيا، حيث تنشأ هنالك الكينونات المزدوجة للمنفيين والمشتتين والمطرودين والمهمَّشين، فتتضام مكونات هويَّاتهم المتمايزة ذاتيا ووطنيا وقوميا إلى جوار تلك التخوم التي تأخذ تجليات عدَّة، قد تتمثَّل في فاصل مائي بين يابستين كالنهر أو البحر، أو حدٍّ بين موضعيين صحراويين، أو معبر كالجسر بين بلدتين، كما نجد في عمل الكاتب، وقد تأتي كمسافة متخيلة في الذهن بين عالمين: ماضٍ وحاضر، أو موضع يلتقي فيه المنفيون، كل بإرثهم الثقافي والتاريخي المتباين، المثقل بسنوات وطَبقات من الشتات والإبعاد والنَبذ واللجوء والمطاردة: المدينة، المقهى، البيت أو المأوى، الفندق، العربة أو القطار، المخيّم أو المعسكر، تمثل فيه هذه الحقول زمكان المنفى تمثيلا ثقافيا عميق الدلالة؛ لأنها تتشبع بالكثير من قيم الرواة والشخصيات والأحداث، وتتبدى فيها أو عليها أو من خلالها كل التغيّرات التي لحقت بالمنافي، وكذلك جُلّ الصور التمثيلية المتخيلة للأوطان المفقودة والهويّات الضائعة في عالم ما بعد الاستعمار، فمحمول زمكان المنفى من الدلالة والقيم الفكرية والثقافية يكاد يُماثل رؤية

---

[62] انظر: محمد الشحّات، **سرديات المنفى: الرواية العربية بعد عام 1967م**، (عمّان: دار أزمنة للنشر والتوزيع، ط1، 2006م)، ص178.

العالم عند المنفيين، تلك الرؤية التي تتوزع مفرداتها وتتناثر دلالاتها وقيمُها عبر النص الروائي ككل[63].

وكما يبدو واضحا مع ذات الكاتب فالجسر هنا هو الحد الفاصل لماضيه عن حاضره، هو الذي أصيب قبل الوصول لمرآةُ بالغُربة والموت الذي خطف العديد من أفراد عائلته ورفاقه في المنافي، الغَربة التي عرفها ووصفها بأحوالها الدقيقة، فالغريبُ: "هو الشخص الذي يُجدِّد تَصريحَ إقامَته. هو الذي يملأ النَّماذِج ويَشترَي الدمغَات والطوابع. هو الذي عليه أن يُقدِّم البَراهين والإثباتات. هو الذي يسألونه دائما: (من وين الأخ؟) أو يسألونه: (هل الصيف عندكم حار؟) لا تَعنيه التفاصيل الصغيرة في شؤون القَوم أو سياستهم الداخلية لكنه أول من تَقع عليه عواقِبُها. قد لا يُفرحه ما يفرحهم لكنه دائما يخاف عندما يخافون. هو دائما (العُنصُر المندَّس) في المظاهرة إذا تظاهروا، حتى لو لم يُغادر بيته في ذلك اليوم. هو الذي تَنعطِبُ علاقته بالأمكنة.."[64]. حاملا وعي الغريب الذي لا انفكاك منه، فقد انقضت اللحظات والأعوام دون اندماج عفويّ في المكان، وبات التشوه في ذاته حقيقة لا يمكنه مغالبتها، كما هو لمن اعترتهم آلام الاغتراب والتشظي الداخلي، والتفتت بين وعي العيش في مكان ولادته، والزمان الممتد في اقتلاعه عنه، وقد عاد ليجده بتغيراته مكانا آخر، لا يُماثل ما رآه[65].

الغربة تتجلى أمامه كذلك في ملامح الوطن بعد أعوام الاحتلال، فهو على أرض وطنه، إلا أن سلطة المكان تعود إلى آخر محتل متفشٍ بلا حد، وهناك آخرون يرضخون لهذا المحتل، ضباط أردنيون ينتظرون إذنا، يُرتهن بتصريح "لم الشمل"[66] ولأقرباء من الدرجة الأولى. وكما يذكر أبو شهاب، ف"لم الشمل" لفظ تمركز في الوعي الفلسطيني بوصفه خطاب مقاومة لفعل التبعثر على مستوى الإنسان والثقافة، في حين أن قيمة الاقتلاع لا

---

[63] محمد الشحّات، **سرديات المنفى: الرواية العربية بعد عام 1967م**، ص104.

[64] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص7.

[65] انظر: رامي أبوشهاب، **فلسطين كما يراها مريد البرغوثي: من يجرؤ على تجريدها الآن وقد تجلّت جسدا أما الحواس**، (مقال منشور على موقع القدس العربي بتاريخ 19- فبراير-2021)، ص5.

[66] مريد البرغوثي، المصدر نفسه، ص9.

تتجلى فقط ببُعد الفلسطيني عن وطنه، ومُعاناته من الحيرة في المكان، أو الثقافة، ولكنها تعاني من حيث انسجامها مع ذاتها، ويتحول الازدواج على مستوى الأرض الفلسطينية التي أصبحت تراوح بين الهويَّة الإسرائيلية والأردنية[67].

فالمفارقة لدى الكاتب تتمثل في وجود أولئك الضباط على حدودهم الفاصلة إلا أن الجنود والمجندات الإسرائيليين تخضع لسيطرتهم زمام الأمور، وكما يُلاحظ فالآخرون هم أسياد المكان[68]، وهي النقطة الأخيرة التي يُسمح لحاملي التصاريح فقط عُبورها، والسارد يُعبِّر عن وجودهم بضمير هُم ومنهُم، يمارس به إبعادا لهؤلاء المغتصبين عن فضاءه الخاص المنتزع عنه، فهُم فيزيائيا حاضرون ولكنهم لا ينتمون إلى المكان، وفي المقابل فإن الذات الفلسطينية الغائبة تبدو هي الحاضرة، والقائمة في المكان، لذلك يلجأ إلى ضمير المتكلم[69]، يستوعب حقيقة هذا الآخر ويرفضها، يُسائل ذاته عنها، ويُدِينُها :"المرور على هذا الجسر ظل مُتاحا دائما للمقيمين تحت الاحتلال، وللمُغتربين الذين يحملون تصاريح لمّ الشمل. طوال السنوات الثلاثين، فشلتُ في الحصول على أيٍّ من التصريحَين. من أين له أن يَعرف ذلك؟ ولماذا أريده أن يعرف؟"[70]، فلا شئ جليّ وواضح، وهويَّة الوطن تحت النزاع، والحقيقة مرتهنة بانتصار لم يتحقق: "الآن أمُرُّ من غُربتي إلى.. وطنهم؟ وطني؟ الضفة وغزة؟ الأراضي المحتلة؟ المناطق؟ يهودا والسامرة؟ الحكم الذاتيّ؟ إسرائيل؟ فلسطين؟ هل في هذا العالم كله بلد واحد يحار الناس في تسميته هكذا؟ في المرة الماضية كُنتُ واضحا والأمور كانت واضحة. الآن أنا غامضٌ ملتبس والأمور كلها غامضةٌ ملتبسة"[71]، مُسائلا ذاته عن الآخر الذي يقف على حدود بلاده، يفرض أحقيةً مُكتسبة بتهديد السلاح: "بُندقيته هي تاريخي الشخصيّ. هي تاريخ غُربتي. بُندقيته هي التي أخذت منّا أرض القصيدة وتركت لنا قصيدة الأرض. في

---

[67] انظر: رامي أبوشهاب، **متشائل إيميل حبيبي: نتاج الصدمة، خطاب متشكك محموم**، (مقال منشور على موقع القدس العربي بتاريخ 19-فبراير-2017)، ص3.

[68] انظر: مقدمة إدوارد سعيد لرواية مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص د.

[69] انظر: رامي أبوشهاب، **فلسطين كما يراها مريد البرغوثي: من يجرؤ على تجريدها الآن وقد تجلّت جسدا أما الحواس**، ص5.

[70] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص18.

[71] المصدر نفسه، 19.

قبضتِه تراب. وفي قبضتنا سراب"[72] وتفاصيل هذا الزمان وسابقه تُغرقه لأبعد من ذلك، لأبعاد يحتملها وجود هذا الجندي، أبعاد إنسانية واجتماعية وسياسية فرضت عليه كما فُرضت على النازح الفلسطيني، ولكن هو يحمل أسلحته وعتاده وازدراءه لمن؟ ويحرس المكان محاصرا ممن؟ "الحارس فيها يحرسُ وطننا.. منّا!"[73].

وتبرز معالم الاغتراب واضحة مع التعمق في بُنية المكان القائمة، من خلال النهر وقد تبدلت معالمه، وأجدب في حالٍ مُقاربة لغُربة الكاتب، وقد "أصبح بعد هذه السنين الطوال نهرا بلا ماء. الطبيعة اشتركت مع إسرائيل في نهب مياهه. كان لَمجراهُ صوت. هو الآن نهر ساكت. كأنه سيارة واقفة في مِرآب"[74]، فالفكرة التي طالما تمثلها هذا النهر في ذاكرة النازحين، هي فكرة التحول من منفى داخل الوطن حيث ضغوط الحرب وصَلَف المستعمِر الذي يمارس استراتيجياته الاستعمارية في تفكيك وبتر شعبٍ بأكمله في الضفة الغربية للنهر إلى منفَى خارج الوطن، حيث الإقصاء عن الوطن والانقطاع عن الأهل وكل علامات الطفولة التي شكلت الوعي القديم والبدايات الأولى، يقف على حدوده جنود إسرائيليون مدججون بالأسلحة، تخلوا وجوههم الجامدة من أي تعبيرات، إنها وجوه تمتلئ بالجمود والفراغ وتُصدِّر للناظرين حسّاً مُتعاليا ومنقوشا بالنصر إذ لا أحد من مكان آخر يمكنه العُبور[75]..

وهنا تتقاذفه لحظات أخرى تأسر ذاكرة الماضي في الحاضر، ولحظات العبور بين يقينها ووهمها. يُمثل فيها فعل العبور الفيزيائي عبور أزمنة ممتدة تَشَكلَ فيها وعيه وذاكرته بعيدا عن رام الله طوال الثلاثين عاما، تعمل فيها ذاكرة الرواي المؤلف على استرجاع هذه المشاهد مرات عدة بطرائق سردية مختلفة مبنية على وجهات نظر متعددة، وفي مواضع مختلفة من مرويته وخصوصا في الفصل الأول المعنون بالجسر[76]، وباتجاه آخر لحظة شارف فيها حدود

---

[72] المصدر نفسه، ص19

[73] المصدر نفسه، ص20.

[74] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص9.

[75] انظر: محمد الشحّات، **سرديات المنفى: الرواية العربية بعد عام 1967م**، ص105-106.

[76] المرجع نفسه، ص178.

هذا الوطن في رحلته إلى دمشق، واقترابه حينها من حدود الجولان المحتل، حدود الآخر المختَلقَة والمتسلطة على حدود المكان المتاخم للوطن والمحاصر خلف الأسلاك والقيود والحدود الخانقة..

تسؤلات عدة، ذكريات تموج لا تَكُفُّ التدافع والحضور في ذاكرة الكاتب بين هذا المؤقت واليقين، بين الاغتراب والوطن، والانتماء لتلك الذكرى، ذكرى الغائبين من عائلته ورفاقه، أبناء الوطن الخلصين، الذين ناضلوا عُمرا وقُتلوا دون الحُلم المنتظر. واضطراب في اللحظة يطغى، هذه التفاصيل تترائى أكثر وضوحا في غرفة الجندي الذي يُجبر مريد على الانتظار يواجه ملصقا يترجم وجه عملية التزوير التاريخية لحقيقة أرض فلسطين، وقد دُمغت معالمها باسم إسرائيل، استقطابا للسياح، وتعبُر الكاتبَ مُفارقة أخرى بين عالمين متناقضين: فهنا جندي مراهق يقف أمامه في غرفة أُوجدت بفعل الاحتلال، وهناك في منفى آخر في بيروت ملصقات أخرى تمثل وجه الحقيقة الغائب، وفي زمان آخر مضى يذكر صديقا وفيا عرفه لأعوام، غسان كنفاني الصديق الذي لم يكلّ يوما عن فِكره وكتاباته المقاوِمة رغم مرضه، ومكتبه الذي طالما حفل فيه بمريد وزوجته رضوى، المكتب الممتلئ بصور المناضلين والثوار، صُورٌ للوحات أخرى حملها إليه يوما صديق مخلص آخر هو ناجي العلي رسّام فلسطين الأشهر الذي قضى بعيدا في غربته، الذي عشق الحريَّة وطالما حلم اشتاقها في وطنه، المحبّ للسماء والفضاء، أصدقاء غادروه مبكرا وتركوا برحيلهم غصة فقد لم تغادره..

مقطتفات من ذكريات فقد أخرى يعود لها الكاتب في توالٍ، فقد تركت آثارها البالغة على ذاته وعائلته، ذكرى جدته وأبيه وأخيه منيف الذي يقضي قهرا بعد نفيِه ومنعه من العودة إلى الوطن، وبحادث مجهول تنتزع روحه بين شوارع باريس، فالشتات فرّق العائلة إلى أجزاء مبعثرة في دول الجوار، بجزء في رام الله، وآخر في الأردن، والكويت وقطر، تجمعهم لقاءات متقطعة يحدّها الزمان والمكان، يذكر عنها: "كُنا ننظُر إلى بعضنا كأن الواحد منا يَكتَشِف وجود الآخر لأول مرة في نفس المكان. كاننا نستعيد في كل يوم أمومة أمِّنا وأبوَّة أبينا، وأُخوَّة الأخوة وبنوَّة الأبناء.. فكرة الفُندق بحد ذاتها، كانت تحمل معها اليقين بأن اللقاء عابر، مؤقت، ويوشك على الانتهاء، منذ الليلة الأولى تحول اللقاء إلى ذعر من

الانفصال الأكيد"[77]، هالة الاغتراب تلك أحاطت بعائلة الكاتب ورفاقه بحالة من رمادية المؤقت وعدم الاستقرار..

وهو الآن يقطع هذه الحدود وحيدا، يشهد مفارقاتٍ تطبق على مداخل وملامح الوطن، هويَّة مُغايرة تجتاح تفاصيل المكان، غريب المعالم غير الذي غادره، وأعاد الآخر صياغة حدوده وتفاصيل بُنيانه بما جاء به من رؤية واضحة لتدمير وإعادة تشكيل البُنيان وفق رؤيته وهدفٍ إستيطاني إحلالي تفشى بتعاقُب الأعوام، مأخوذا في طريق العودة إلى قريته دير غسانة بأعداد المستوطنات وقد اجتاحت تضاريس المدينة وشوارعها، مسائلا ذاته عن أيّ عبث يتسلّى به المفاوضون في كل حديث يجمعهم عن تفكيك تلك المستوطنات، وقد تجلت واقعا على الأرض لا تغيبه الحقائق: "إذا سَمعتَ من خطيب على مِنبر كلمة تفكيك مستوطنات فاضحك واضحك كما تشتهي. إنها ليست قلاعا من الليجو أو الميكانو التي يلهو بها الأطفال. إنها إسرائيل ذاتها. إنها إسرائيل الفكرة والأيديولوجيا والجغرافيا والحيلة والذريعة. إنها المكان الذي لنا وقد جعَلوه لهم. المستوطنات هي كتابهم. شكلهم الأول. هي الميعاد اليهودي على هذه الأرض. هي غِيابُنا. المستوطنات هي التّيه الفلسطيني ذاته"[78]، هذا المدّ الاستيطاني المتسارع بالتوغل على أراضٍ فلسطينية سُرقت من أصحابها متصل بشوارع مهدت إليها في نسق واتساع مُحسن البنية، مخصصة للآخر اليهودي والصهيوني، مقطوعة الوصول عن الذات الفلسطينية المقصورة في انحياز عنصري على الطرق العامة المتهالكة المحاصرة والمقطعة بعشرات الحواجز، وشحّ الخَضار عن المدينة والجفاف وقد اجتاح المدينة وقد كانت جنة خضراء، بفعل نهب المياه الجائر من قبل الاحتلال، والقيد الممتد على المكان متصلا إلى مدينة القدس المحرَّمة على أبناءها، والمحاصرة بأشد أنواع الحراسة، بأعداد الجنود الهائلة واليهود والغرباء، بالطرق المستحدثة، في محاولة مستمرة لانتزاع سيادتها الفلسطينية، ومُلكية أراضيها التاريخية المجاورة لها والبلدات والأحياء المطلة عليها، كجبل الطور، وحيّ الشيخ جراح الواقع في الجانب الشرقي من البلدة القديمة في مدينة القدس، الحي سكنه

[77] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص32

[78] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص37.

الكاتب في صباه[79]، والذي يحمل عراقة وأصالة تاريخية، حاول الاحتلال الاستيلاء على هذا الحي خلال عام النكبة وفشل في ذلك، ليعود إلى تكرار هذه المحاولات خلال حرب النكسة عام 1967م، وإدخال المستوطنات ومحاولة تقسيم الحي وفصله عن أحياء مدينة القدس عن طريق التوسع في بناءها وتهجير العديد من العائلات من منازلهم، وأعادت محاولة احتلال هذا الحي خلال العام 2021م، ومحاولة تهجير العديد من العائلات الفلسطينية التي سكنت الحي منذ نشأته، ومحاولة نسبها لمستوطني الاحتلال الإسرائيلي، مما دفع بالحراك الفلسطيني المقاوم لاتخاذ إجراءات رادعة لإيقاف هذا العدوان وما تلاه من عدوان على المصلين في المسجد الأقصى..

من خلال أحداث الفصل الثاني ينقل الكاتب تفاصيل وصوله إلى مدينة رام الله، المدينة الثقافية العتيقة الزاخرة بإرثها التاريخي وملامح الريف الفلسطيني، المدينة التي استعصت على الغُزاة وفتكت بالأعداء، العزيزة على من غادرها والقريبة للقادمين بسكانها وأحياءها، هنا يشرد الكاتب في ذكرى الزمان المقتطع من أعوام حياته عن هذا المكان، ويترائى طيف أخيه الراحل منيف في ذكرياته، ووجوه الأفراد الذين عرفوهم معا، في صورته المعلقة في أول منزل يصل إليه، منزل أبي حازم الذي يستقبله في رام الله، أثر هذه الذكرى بارز بوضوح لم يغادر ذاكرة الكاتب وعائلته وأصدقاءه ومعارف عدة من أطياف المجتمع، فيبرز الأثر الإيجابي الذي تركته شخصية منيف في هذا المحيط، والصدمة التي خلفها فقده المفاجئ، يصفه الكاتب بالأخ العطوف الذي طالما رعى أفراد العائلة، القريب لوالديه، الذي ينفق على مريد مُساندا خلال أعوام دراسته، ويرعى العديد من الطلبة الجامعيين دون أن يعرفوه سوى بعد وفاته، إلى جانب ما يساهم به من إنشاء قاعات للدراسة في إحدى الجامعات، هذه الصفات أبرزت ملامح شخصية الأخ الأكبر المسؤول، فرغم النفي والإبعاد، وحرمانه من العودة في أكثر من مرة إلا أنه واضح الحضور والأثر في المكان، ملاصق لعائلته التي تُفجع بموته المفاجئ: "موته المباغت هو الدويّ الأعظم في حياة الأسرة كلّها. كان وصل إلى هذه البوابة الأخيرة لكنها لم تنفتح له أبدا"[80]، فالمحاولات المتكررة، والإرجاع المتكرر للعديد من

---

[79] المصدر نفسه، ص172.

[80] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص45.

العائلات وأبناء المهجرين عن الجسر وإبعادهم، هو ما تقاسيه والدة الكاتب في سبيل رؤية أبناءها، وما يواجهه عند استخراجه تصريحا لعبور ابنه تميم، وما يقاسيه أهالي الضفة وقطاع غزة من صعوبات جمّة، طالما عرقلت أمامهم حرية العودة والعبور ، وتطفلت على كل تفصيل من حياتهم لعرقلة وتيرتها الطبيعة عن الوجود، فالخروج: ذهاب بلا عودة، والعودة: مقترنة بشروط رفض أو موافقة..

طيف منيف يلازمه في شوارع هذه المدينة التي عرفا تفاصيلها وشهدا أحداثها معا، يسرد الكاتب تلك التفاصيل حين خرج برفقة أخيه في مظاهرات ضد حلف بغداد، الذي اعتاد إخفاء المنشورات السرية في حذائه لنقلها من مكان لآخر، يحدق الكاتب في المكان وقد غدى أشبه بالفراغ الذي يستحيل ردمه، فالهوَّة عميقة بين زمانين: زمن غياب الكاتب، ومرور الزمان بالمكان الحاضر، والوجوه التي عرفاها صغارا، صارت إلى نهايات الأعمار أو عِداد الفقد: "أتسائل إن كنتُ قادرا على الإرتقاء بارتباطي بالوطن، بحيث يرقى إلى أغنيتي عنه. هل الشاعر يعيش في المكان أم في الوقت؟ وطننا هو شكل أوقاتنا فيه"[81]، فذكرى الزمان الأول متصلة بشكل عميق ومباشر بالمكان وشخوصه، والمكان يتجلى في الزمان السردي مُضاعف الاستيطان، يزداد توغل الاحتلال فيه لتشديد الحصار على مُدنه وحدودها، وشوارعها وقد غُيِّبت معالم المدينة للاندثار، وتضائلت ثرواتها الطبيعية وتدنى ازدهارها الاقتصادي والعمراني والثقافي وقد هاجر العديد من الأفراد وقتل آخرون..

إلا أن ما يجد فيه شيئا من تلك الذكرى، هو منزل العائلة العتيق الذي نشأت فيه عائلة الكاتب، وفرقها اضطرار النزوح، والبحث عن مصادر الدخل، والعمل في دول الجوار..

"دار رعد" منزل الكاتب، الذي حفظ جزءا من ذكرى الزمان، وغدت موحشة المعالم، فانمحت آثار ألفتها، فجذع التينة العملاقة التي طالما ظللت عتبات المنزل وذكراه، واغتنت الدار بثمارها، وتشبث الأطفال بأفرعها متسابقين لثمارها، قطّعت وخلا منها المكان، وهنا تأريخ للمكان الفلسطيني الذي كان يوما عامرا بأهله وحقوله الزراعية الخصبة قبل وقوعه بأيدِ الاحتلال وانقلابه إلى النقيض وانقطاع خصوبته، وتبدل الحال وما آل إليه

[81] المصدر نفسه، ص51.

بفعل الاحتلال وقتله وتهجيره لآلآف الأبرياء[82]، تصمد الآن هنا أرملة وحيدة هي عمته أم طلال، وقد خلا المكان من ساكنيه، بعد ازدهار البُنيان اجتماعي الحميميّ الذي جمع أبناء المجتمع الفلسطيني الواحد ببُنية مُتماسكة بددها الاحتلال[83]، إلا أن نساء القرية آثرن الصمود وهو ما يتجلى في تشبثهن بالمكان، والحفاظ على بقاء المكان وتأكيد ارتباطهن به، قاومنَ محاولات الاقتلاع والتهجير، فتساند أم طلال تسع وأربعون أرملة أخرى من جيل النكبة من القرية، يعملن كعناصر دعم ومقاومة للتهجير وحفاظ على الوحدة الجمعية..

إلا أن تبعات المأساة التي خلقها الاحتلال، وتعطيله لحركة الحياة الطبيعية في المدن المحتلة، وفرض السيطرة على مواردها، والتضيق على فتح المعاصر وجلب الأدوات الصناعية والتعمير، وعدم القدرة العديد من فئات المجتمع على الحفاظ على العديد من أراضيهم بفعل التهجير وصعوبة الاعتناء بها و الحفاظ عليها، ساهمت تلك العوامل في الركود والتدهور الزراعي الاقتصادي الذي انعكس بتبعاته على النتاج الأفراد والمجتمع، فكما أشار الكاتب إلى صورة التينة العِملاقة وتدهور حالها، أتبع ذلك بمقارنة ما طال نتاج الزيتون وموارده وتقلص إنتاجه عن معدله الطبيعي في انحدار هائل، فزيت الزيتون الذي عمل كمصدر لثروة القرية الزراعية وممثلا لهويَّتها الثقافية، في الداخل والخارج، غدى مصدرا شحيحا، بعد أن فاضت المنازل بمخزونه: "كنا نفتح أعيننا على الحياة، وزيت الزيتون موجود في بيوتنا. لا أحد يشتري زيتاً أو زيتوناً للأكل اليوميّ. القرية تبيعهما لرام الله أو عمّان أو الخليج. لكن أهلها يجلبونه من الحقول والمعصرة إلى الجِرار والبراميل المنزلية التي لا تنفذ محتوياتها إلا بحلول الموسم التالي. زيت الزيتون بالنسبة للفلسطيني هو هديَّة المسافر. اطمئنان العروس. مكافأة الخريف. ثروة العائلة عبر القرون. زَهو الفلاحات في مساء السنة. وغرور الجرار. في القاهرة كنت لا أُدخل زيت الزيتون إلى بيتي لأنني كنت أرفض أن أشتريه بالكيلو. نحن نزِن الزيت بالجرّة!"[84]

---

[82] انظر: زين العابدين محمود العواودة، **البُنية الدلالية لخِطاب السيرة الروائية الفلسطينية المُنجز بعد أوسلو: سردية رأيت رام الله وولدت هناك ولدت هنا للأديب مريد البرغوثي نموذجا**، ص164، 165.

[83] المصدر نفسه، ص165.

[84] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص70.

هذه المعالم التي استحال استيعابها في الماضي، تتحول في الذاكرة الحاضرة إلى ملمح اغتراب لدى الذات المقترنة الماضي والمكان، فهي كما يذكر أبوشهاب أشبه بملامح الصدمة التي نتجت عن محاولات الاحتلال لنزع الذات عن كيانها وهويَّتها الموغلة في القدم، فيتحقق التغريب المعنوي للذات عن أرضها، فمن أهم ملامح الصدمة هنا تباين جغرافية فلسطين، التي تتحول بفعل الاحتلال إلى منفى آخر، والإحساس النفسي يفوق النفي في بلدان الاغتراب المجاورة أو البعيدة، فأن تتحول إلى غريب في وطنك فهذا يفوق في ارتطامه الشعوري أي حدود أخرى، فالأمكنة تحولت أمام أعين سكانها الأصليين إلى نموذج للاغتراب، فالأمكنة تحمل أسماء عبرية، وهو ما يحيل إلى الجغرافيا الكولونيالية التي استهدفت إقصاء الذاكرة الثقافية للمكان عبر محوه دلاليا وعلميا، فهو بناء متخيل ثقافي جديد من خلال نفي الفلسطينيين عن أمكنة ألفوها[85] وهو ما يبرز من خلال ذاكرة الكاتب حيث ارتبطت قداسة المكان بالذهن والوجدان، وهو كما يصوره أشبه بحبيب مجهول لدى المغتربين وأبناء الشتات: "نعم. الإحتلال خلق أجيالا بلا مكان تتذكر ألوانه ورائحته وأصواته. بلا مكان أوّل خاص بها، تتذكره وهي في إقامتها الملفقة. ولا تتذكر فيه سريرا كانت الطفولة تبلله هناك. ولم ينسوا على ملاءته دمية من القطن الملون الطريّ. ولم يتقاذفوا إذ يخرج الأهل للسهر، مخدّاته البيضاء، يضربون بها بعضهم ضاحكين من القلب. خلص! الأحتلال الطويل خلق منا أجيالا عليها أن تحب الحبيب المجهول. النائي. العسير، المحاط بالحراسة، وبالأسوار، وبالرؤوس النووية، وبالرعب الأملس.."[86]

هذه المحاولات المتكررة للمحو تصادمت بمزيد من الرفض المعاند والمقاوم لدى الأهالي بالاستمرار، في محاولة للاستعادتها من محاولات التهويد والتغييب، وتتمثل الفعل من خلال شخصية السيدة فاطمة ابنة أبي سيف وهي امرأة في السبعين، تُعيد فتح معصرة الزيتون الموقوفة منذ أعوام ليعود أهالي لقرية إلى عَصر محاصيلهم فيها..

---

[85] انظر: رامي أبو شهاب، **متشائل إيميل حبيبي: نتاج الصدمة خطاب متشكك محموم**، (مقال منشور على موقع القدس العربي، بتاريخ 19-فبراير2017م)، ص3.

[86] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص74-75.

وتتمثل معالم الإصرار تلك أيضا في محاولات الارتقاء بصرح التعليم الذي يأخذ العديد من أهالي المدينة والمساهمين من أبناء الشتات مسؤوليته على عاتقهم كما يظهر في ارتقاءهم بمدرسة بيرزيت إلى صرح جامعي متميز، والتفصيل المكاني وملامح صمود قريته دير غسانة طوال أعوام الحرب ببيوتها الحجرية السميكة، وأشجارها المتجَذرة الغنّاء..

عودة الكاتب إلى المكان تستدعي الذاكرة إلى عودة أخرى، إلى أرض الاغتراب التي نفي منها، فالعودة مُشابهة لعودته إلى مصر بعد نفيه عنها وغيابه ل17 عاما، وارتبط الفقد فيها بفقد رفقة عائلته: زوجته رضوى وابنه تميم، وهو يعود إلى دير غسانة وقد واجه فقدا آخر أبديّ والده وأخاه منيف وأصدقاء وأهلا آخرين، جميعها أخذت من حياة الكاتب وتركت في شخصه ثقلا وانتماء للمكان لا يكتمل:"كان علينا أن نتحمل وُضُوح الغُربة وعلينا أن نتحمل غُموض العودة أيضا"[87]، تلك المقارنة التي جمعت ماضيين من الفقد لدى كاتب كشخص مثقل بسنوات النفي والفقد والاغتراب، يتمثل الأضرار التي لحقت بالبنية الاجتماعية، وما آلت إليه من صدمات وصعوبات نفسية وفقد لذاته يحضر في صمت مُتبلد شخصا تسكنه حالة الاغتراب ولاانتماء مع المكان: "أنت لاتصل إلأى نقطة البهجة المحلوم بها طويلا عبر السنوات وأنت أنت، إن السنوات محمولة على كتفيك. تفعل فعلها البطئ دون أن تقرع لك أية أجراس"[88]، واعيا لهذه العلاقة المضطربة بالأمكنة، يلتمس العُذر لزمانين خرجا عن إرادته، وسكنا ذاته، في رفض للاندماج بالأمكنة بتوارد أزمنة الاغتراب، يعبرها الكاتب في صمت، فهي علاقة مجزءة في الذاكرة تتمظهر في انقطاع واتصال بين الحاضر والماضي الذي يعترضه: "إنها المسألة نفسها دائماً، مسألة رَتق زَمنَين بالإبرة والخيط. ولكن هيهات. الزمن ليس خرقةً من الكتّان والصوف! الزمن قطعة من الغيمِ لا تكفُّ عن الحركة، وأطرافها غائمة مثلها"[89]، وتظهر معالم اغتراب أخرى عن المكان كذلك مع اتجاهه للساحة العامة، الساحة التي تحمل إرثا ثقافيا وامتدادا تاريخيا إلى العام 1949 يشير إليها الكاتب، فالعديد من الأفراد بذلوا أموالهم في الحفاظ على هذا الإرث والمعالم الثقافية وإبقائها قائمة،

[87] المصدر نفسه، ص88.

[88] المصدر نفسه، ص77.

[89] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص91.

ووقد تكاتف الأهالي لحمايتها وإعادة إحياءها، وترميم العديد منها محافظين على مختلف صروحها وخدماتها التي حاول الاحتلال محاربتها وطمسها أو تدميرها، وقد أصبح العديد منها ركاما بفعل تدمير الاحتلال خلال حرب ال67، وجُرِّفت العديد من الحقول، كحقل أم نظمي الغني بأشجار اللوز الذي يصير إلى مقبَرة، كما في شعارات الانتفاضة الأولى من معالم صامدة للمقاومة التي يصورها الكاتب وهي تغطي جدران البيوت والمنازل وتتوسع في انتشارها وحداثتها مع السنوات رغم مرور أحداث اتفاقية أوسلو، وتهتف ولاءاً لحركة المقاومة الإسلامية حماس، تلك الأعلام والشعارات الفلسطينية التي كلفت رافعيها قبل الانتفاضة الأولى حياتهم، وأطلق الاحتلال على مؤيديها رصاصهم[90]، تُرفع الآن خفاقة في حرية حققتها الذات الفلسطينية بكل الدماء والأرواح التي بذلتها، وأعادت تثبيت هويَّتها في مكانها.

يضع الكاتب تلك المقارنات في حالة من الصُلح الذاتيّ مع زمن الغياب المفقود، فعلاقته المؤقتة بالأمكنة المفتقرة إلى الثبات، أُسقطت على العديد من العلاقات الإنسانية الناشئة في حياته، وهذا المجتمع أخذ تشكيلته مندمجا مع عدم حضوره في المكان، فلم يعرفه بتفاصيله وأحواله المتشعبة، كما فاتته تفاصيل حياتهم المكتملة من دونه، وتأخذ رؤيته لتلك المراحل وجه المفارقة فهي بالنسبة إليه أمكنة محددة بأزمنة سكَنَها في الماضي، وافتُطِعت حياته عنها في زمن الاغتراب عن المكان، فهو في حالة تأرجح وخدرٍ تجاه الأماكن، ووجوه عرفته وأخرى جهلته بمرور الأعوام يحمل ثقل ذكراها دون انتماء، "أنا أعيش في بُقعٍ من الوقت، بعضُها فَقدتُه وبعضها أملكه لبُرهةٍ ثم أفقِده لأنني دائما بلا مكان. إنني أحاول استعادَة زمنٍ شخصي ولّى. لا غائِب يعودُ كاملا. لا شئ يُستعاد كما هو. عين الدير ليست مكانا. إنها زمن. وقت."[91]

وكما يصف في أول أمسية شعرية ينظمها أهالي القرية للقاءه، فالكاتب يأتي أولا برثاء أخيه مُنيف، حاضرا معه في ذكرى المكان الذي طالما حلم بإعادة ترميمه، وإحياء هذه

[90] انظر: المصدر نفسه، ص168.

[91] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص104.

الساحة التراثية وآثارها، وإعمارها بالعديد من المراكز والمؤسسات الثقافية والفنية، راغبا باستعادته من ذكرى الماضي:"أردت أن أعيده معي إلى هذه الساحة"[92].

وعن معالم أخرى تحمل صورة الذكرى المغربة للمكان المغرّبة وقد طالها التدمير وتلاشت، يذكر الكاتب تفاصيل العين الدير التي عمَرها عمه الفلاح أبو مطيع الذي طالما هندس تفاصيل قنوات المياه حول السفح ووديانه، وشق قنواتها في انتظام إلى"سطور مستوية تسمح باستقرار الماء وتمنع انجراف التربة"[93] فهو أشهر الفلاحين، وعاصري الزيتون، سيِّد الماء وداهية علوم الزراعة رغم كونه أُميّا، هو يرويها بتوزيع منتظم للمياه كخبير في علم الزراعة. كلها أضحت ذكرى وقد رحل العم أبومطيع، وجفت الأرض وانطلقت النباتات العشوائية في كل اتجاه، تمر كبريق للحظة الماضي يرغب الكاتب الاحتفاظ بها في ذاكرته، وقد آثر بعدها عدم المرور بعين الدير.

وكما هو منزله "دار رعد" الذي يعود إليه وقد أضحى جزءا من ذكريات خلت، واقفة عند باب الطفولة والصبا، ذكريات حملت إليه عبق خبز الطابون الطازج كل صباح، وجرار الزيتون القادمة من المعصرة، وتناول ثمار التينة العملاقة، التوجه للمدرسة بصحبة العديد من الرفاق كلها لحظات اتسمت بالثبات والأمان لدى الكاتب: "أماكننا المشتهاة ليست إلا أوقاتا. أجل إنها أوقات. ولكن مهلا، في الصراع تكون المسألة هي المكان. نعم المكان. كل القصة في المكان. يَمنعونك من امتلاكه فيأخذون من عُمرك ما يأخذون"[94]، هذه الصورة التي تتصادم غالبا في ذاكرة الكاتب وأخيه بقرار منع العودة للغالبية الكبرى من الفلسطينيين المهجرين من العودة في أعقاب حرب ال67، وتحول بينهم كتهديد يواجه هذا الانتماء..

إلى جانب المنفى الذي دُفع إليه وامتدت آثاره لعائلته الصغيرة بعد قرار آخر بنفيه وضرورة ترحيله من مصر بفعل معارضة مريد لتوقيع الرئيس أنور السادات اتفاقية كامب ديفيد وزيارته إسرائيل، والغدر الذي يتعرض له مريد من أحد زملاء اتحاد الكتاب الفلسطينيين

---

[92] المصدر نفسه، 97.

[93] المصدر نفسه، ص103.

[94] المصدر نفسه، ص106.

الذي يشي به إلى السلطات، ويتعرض لإبعاد إلى جانب 1535 رجل وامرأة، ويُفصل العديد من أعمالهم، كما تلاقي زوجته رضوى التي تُنقل للعمل في وزارة أخرى، ويعودون لأعمالهم وحياتهم الطبيعية عقب اغتيال السادات.[95]

غياب مريد عن مصر الذي امتد ل17عاما، أعاد تشكيل فصل الشتات في حياته بعُنف مُضطرب، وقد أخذت الأحداث أبعادا من التغريب القسري، والحرمان الإجباري عن المكان والعائلة: زوجته وابنه تميم الذي يكمل شهره الخامس حينها،

وتسقط تداعيات استقرار الكاتب في حياة من الترحال وعدم الانتماء على ذاته وارتباطه بالأماكن فيفقد اتصاله العفويّ بها، ويلازمه اضطراب البقاء في الطارئ ليظهر بعدة صور: اعتياد حياة الفنادق وتحوّله إلى مكان أُلفة بزمانه المؤقت، بعد كونه مكان وحشة، وقد رَوضّته المغادرة واضطرار الرحيل عن خلق رابطة بالمكان، على عدم اقتناء ممتلكات خاصة، على فناجين قهوة ومُلاءات مُؤقتة، وتحوُّلها عن أحلام سَكنته: برغبة في امتلاك منزل، وإكمال مكتبة، بإحاطتها بالعديد من النباتات التي طالما أنِس الكاتب باعتناءه الفائق بها في غُربته، واضطرَه كل رَحيلٍ لتركها في أغلب الأحيان، وقد ابتلعته حالة النفي وأقصاه اضطراب الشتات: "أنا ابن جبل واستقرار. ومنذُ تَذكر يهودُ القرن العشرين كتابهم المقدس، أصابني الرحيل البدويّ. وما أنا ببدويّ"[96]، وهو ما يستمر بإعادته لذاكرة الشتات الأولى التي خلقها الاحتلال وشهدها الكاتب، والتي فرضت على الفلسطيني ضرورة الهجرة القسرية وضياع أعمار كاملة كلاجئين في اعتراب أبدي، فرض استقدام آلآف اليهود، التي كلفت الشعب الفلسطيني أعمارا كاملة في الشتات، ودفعت الكاتب للتنقل والعيش بين ما يقارب الثلاثين منزلا كما يذكرها، وهي انعكاس لأهم مميزات لأدب الشتات كما يشير إليها أبوشهاب، والذي يتسم غالبا بعدم القدرة على تأسيس علاقة بالأمكنة الطارئة، والبقاء في حالة قائمة من الحنين للوطن الأول، ومحاولة استرداده، والاستغراق في ذكرياته، والتأمل فيه نتيجة فقدان الذات لسكونية الحياة ومعناها وقد أصبحت ذاتا مقتلعة من وطنها، بعد أن أحدث الشتات اغترابا جمعيا نتيجة فصل الذات عن وعيها القائم في الماضي، فاعتمدت على استحضاره

---

[95] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص153.

[96] المصدر نفسه، ص110.

غالبا بتفعيل تقنية الاسترجاع[97]. السمات انعكست على العديد من قصائد الكاتب ومن تلك التي يدرجها في سرده، والتقنية التي يبني عليها العمل، فعملية الاسترجاع في تكرار لذكريات سالفة وفعل التذكر حاضر لتلك الأزمة والأمكنة التي أقصي عنها بعيدا إلى الاغتراب وأراض الشتات، وبرزت كذلك فيما تقدم في: "زمن الخيول البيضاء" و"أنين القصب"، و"الشوك والقُرنفل" وقد أسقط الكتّاب تجارب غُربتهم الذاتية في إبداع شخصيات كخالد، وشتيوي وإبراهيم.

أما المجتمع الحاضر أمامه فهو ينتمي إليه في ذاكرة الماضي، يعرف تاريخه كما يعرف مآثره ومآخذه، يعرف ما يخفيه أفراده من تعالٍ طبقي وقبلي إلى جانب ما يعرفون به من فضائل، عن أفراد قدموا أرواحهم دفاعا عن الدين والوطن، وآخرون فرطوا به خيانة وعمالة، عن إيجابياته وسلبياته، وكيف أصبحت السياسة جزءا أتقنه الغالبية بفعل الحروب التي خاضها منذ النكبة وما بعدها، وكيف أسهم اشتعال أحداث الانتفاضة الأولى في بعث الأمل بالتحرير في النفوس وما أعاده من اعتزاز بالحركة المقاومة والثبات عليها من قبل كافة أبناء الشعب رجالا ونساءا وأبناءا، عن العنصرية التي تعرضت لها نساء العائلة ودفعت ثمنها جدته، ووالدته التي حُرمت من إكمال تعليمها، إلا أنها أصرت إتمامه بعد سن الخمسين، عن نساء صمدن خلال تلك الحروب وعملن في الكفاح الوطني وسعين للارتقاء بالوطن والمجتمع ومجاوزة الصعوبات التي يستمر الإحتلال بإيجادها، فهناك أم خليل شخصية اجتماعية مرموقة تتحدى المجتمع في إصرار على الترشح للرئاسة إلى جانب ياسر عرفات، وإنشاء جمعية إنعاش الأسرة في رام الله قبل أحداث حرب نكسة ال67[98]، الجمعية التي سعت من خلالها لخدمة المجتمع بإعمال أصحاب الدخل المحدود، وأبناء وبنات الشهداء والأسرى والمحتاجين، والعمل على تنمية مواهبهم الفنية والأدبية وإعمالها في الصناعات، واستمرت في الحفاظ على الإرث التاريخي والثقافي والصناعي، وتطويره وإبرازه في مختلف المناسبات والفعاليات، في تفصيل وتطريز الأثواب التقليدية وتصديرها، في النحت، والزجاج، والفضة، في رعاية الفقراء وتقديم

---

[97] انظر: رامي أبوشهاب، **في الممر الأخير: سرديَّة الشتات الفلسطيني، منظور ما بعد كولونيالي**، ص117-118.

[98] انظر: مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص139.

الوجبات، في رعاية الأنشطة والفعاليات الثقافية، ومساهمة رجال الأعمال والأثرياء من العديد من الدول في دعمها كذلك ليتم توسيعها ودوام استمرارها ل30 عاما، حتى عودة الكاتب.. دعم النساء لمسيرة الكفاح والنضال الوطني وتضحياتهن شهد اقتحامهن لميادين المقاومة إلى جانب الرجال، إلا أن قصصهن لم تنل حقها في الطرح ونُسيت العديد منها، ومن ذلك ما يظهرن من بطولة كما يذكر الكاتب في دفاعهن عن الشبان والمقاومين الذين يتعرضون للملاحقة والاختطاف من قبل جنود الاحتلال فتندفع النساء في وجوه الجنود معا ويصرخن جميعا "إبني إبني، اتركوا إبني"[99] فيصدم الجنود دهشة منهن فالواحد منهم إبن لهن جميعا، وعن نساء سعين لحماية المقاومين في منازلهن من أعين الاحتلال، وعملن على خدمتهم وتوفير احتياجاتهم خلال حروب الانتفاضة والاجتياح، وغيرهن الكثير: "ظاهرة المرأة الفلسطينية في الانتفاضة تستحق التمجيد بلا تردد. لكن قصَّتها الكاملة لم تُكتب بعد"[100]، يذكر الكاتب آثار الانتفاضة الأولى وهو يُعلي ما أصاب شعبه ووطنه، فهو جلي أمام مُصابه في النفي والاغتراب..

وكيف أضحت من بعد الانتفاضة أشد وحضورا ووضوحا تضاعفت أعداد رموزها الثقافية المرتبط بالسياسة، وجمعت الكاتب بالعديد من طلائع الرموز الثقافية كالشاعر محمود درويش في رام الله، والذي سعى جاهدا إلى جانب العديد من المثقفين لإعادة تصدير مجلة الكرمل الفلسطينية الثقافية من رام الله، ودفع الحركة الثقافية الفلسطينية لحراك أكبر، كما يسعى الكاتب للحصول على إصدار لأعماله من الداخل الفلسطيني، وتنجح وزراة الثقافة في افتتاح مركز خليل السكاكيني الثقافي في أحد البيوت العتيقة المرممة كمقر لفرق مسرحية وفنية، ومنتدى للكتاب، ومقرا لمجلة الكرمل[101] رغم ما تواجهه هذه الأماكن الثقافية من تهديد بالإغلاق والمصادرة، كدور السينما العتيقة والعديد من المكتبات، ومحاولة العديد من الفئات المثقفة والمهتمة في المجتمع بإعادة إحياءها، إلا أن هناك ما يشوب المجتمع الثقافي وتحول العديد منهم عن رسالته العادلة وهو ما ينأى الكاتب بنفسه عن الانخراط فيه ويرفض

---

[99] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص142.

[100] المصدر نفسه، 143.

[101] انظر: مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص145.

العمل السياسي الذي لا يرى له مبادئ ثابتة بجانب ما يتسلل إليها من استبداد وفساد، وتمثل في منظوره علاقة جدليّة مفصلية تتمحور حول علاقة المثقف بالسلطة، فالعديد من مثقفي المنفى الذين واكبوا الثورة الفلسطينية ونادوا بمبادئها ومُثلها الثورية تحولوا عنها بانضمامهم إلى السلطة المتكيّفة مع شروط وإملاءات فرضها الاحتلال والرباعية الدولية، وتماهوا معها، وأصبحوا جزءا من دائرة الفساد[102]، منتقدا الانجرار الأعمى خلف السلطة، فهي خيانة للمبادئ الفلسطيني وتاريخ نضاله، فهذا الفساد مدخل يسهل إيجاد ثغرات ووصول السلطة الفاسدة إلى جانب قوات الاحتلال إلى فرض النفوذ على الضفة وغزة وتفكيك وحدة الشعب الفلسطيني وإضعافها عن مبادئ المواجهة والاشتباك مع سلطات الإحتلال.

برغم التحديات التي تواجهها الضفة وقطاع غزة، وإلى جانب الشخصية المثقلة التي بات يحملها الكاتب إلا أنه يسعى لتمكين ابنه تميم من الحصول على حقه في المكان وحفظ هويّته الأولى وتاريخه، والحصول على تصريح لم الشمل لمرافقته إلى وطنه الذي يرث حرمانه من أبيه، وتنعكس آثار النفي ذاتها التي انعكست على حياته، وحرمانه من حياة العائلة الطبيعية برفقة والديه، فينشأ غريبا مُبعدا عن والده مريد، الذي يبني معه علاقة تعتمد على اتصالات هاتفية وإجازات شتوية أو صيفية، وفي أول لقاء يجمعه به في المنفى بناديه ب"عمّو"[103]، ويكبر تميم حاملا لقصص داخلت نفسه من ذكرى والده عن دير غسانة ولهجتها الفلاحية وعائلته الفلسطينية الممتدة، وترتسم في قصائد شعره الغنائي الشعبي والتراثي التي يُتقنها قبل أن يُبصر المكان: "هذا الذي وُلد على نهر النيل في مستشفى الدكتور شريف جوهر في القاهرة لأب فلسطيني بجواز سفر أردني وأم مصرية، لم ير من فلسطين إلا غيابها الكامل وقصتها الكاملة"[104]..

---

[102] انظر: زين العابدين محمود العواودة، **البُنية الدلالية لخِطاب السيرة الروائية الفلسطينية المُنجز بعد أوسلو: سردية رأيت رام الله وولدت هناك ولدت هنا للأديب مريد البرغوثي نموذجا**، ص178.

[103] مريد البرغوثي، المصدر نفسه، ص156.

[104] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص156.

ومع كون تلك الاتصالات ملاذا شخصيا للكاتب في اغترابه، ولبناء علاقته المتباعدة بابنه وعائلته، إلا أن الهاتف يشكل هاجس خوف لديه بعد تلقي خبر وفاة والده وأخيه منيف، وعدم قدرته على اللحاق بالعديد من الجنازات في العديد من الأحيان، وبفعل ما يتعرض له بفعل هويّته الفلسطينية من تمييز عنصري، وإجراءات مطولة، وتقييد في العديد من الأماكن: "يرن هاتفك ذات ليلة ليقول لك الصوت المتلعثم إن فلان توفي قبل نصف ساعة. تكتشف أنك لا تستطيع المشاركة في تشييعه إلى القبر. لأنك بلا جواز سفر أو بلا فيزا أو بلا إقامة. أو لأنك ممنوع من الدخول"[105]، فهي كما يذكر أبوشهاب حالة من المأزق الذي يضطر الفلسطيني غالبا لاختبارها تبعا لإشكالية الحسم حول هويّته، نتيجة للنفي والتشتيت القسري عن الجماعة، ومحاولة من قبل سلطات الاحتلال لسلخه عن جغرافيته ومحيطه الثقافي والقومي والتاريخي، وعزله بعيدا عنها، وحتى عن إدراك الذات الفلسطينية لوحدتها الداخلية كدولة قائمة، فهي في حالة إرجاء دائم، يبقى الفلسطيني معها ملفُوظا، وعرضة لأبعاد أخرى من التشكيك العنصريّ، محاصرا بأوراقٍ مرفوضة، كوثائق السفر التي يحملها إلى جهات متعددة، وحتى مع حمله لجواز سفر غربي، فهو في موضع تذكير بهويّته وعدم انتمائه[106]..

الهويَّة التي يؤكد للكاتب جاره أبو محمد ضرورة ثباته في الحفاظ عليها أمام عرقلة الاحتلال بكل طريقة ممكنة والإصرار على مرافقة ابنه تميم تأكيدا لحضور الذات واستعادة لهويتها المستلبة وإرثها المستحق في المكان، وعدم التنازل عنها أمام عبث السلطات، التي تسعى في هدم الذات الفلسطينية وتفكيك وحدتها كما سعت دوما في هدم معالم حضارتها التاريخية ومعالمها القائمة، التي ظل الركب عن تطويرها وإعادة إعمارها بفعل الاحتلال متأخرا، متراجعا، في ظل القتل والنسف والتدمير والحصار المطبق، كمدينته رام الله، التي تحرم رغم تاريخ ازدهارها الثقافي والتجاري من التقدم الاقتصادي والعمراني، فيجد الكاتب سوق الحسبة في رام الله والمباني المطلة على الشارع الرئيسي على حاله التي غادرها منذ 30 عاما، والمكتبة العامة التي عرفها في صباه وأحب القراءة في أروقتها، لم تحظ بتطوير أو صيانة أو بناء مكتبات أخرى بجانبها، أو مسارح أو جامعات أخرى عدى المتواجدة بالفعل. عن هذا

---

[105] المصدر نفسه، ص161.

[106] انظر: رامي أبوشهاب، **في الممر الأخير: سردية الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي**، ص89-92.

الكمون يتحدث، وعن كبح جماح أي محاولات للدفع بالتطوير من قبل سلطات الاحتلال، عن وضعه لكل عرقلة ممكنة، تُبقى وضع المدينة في وضع مترد، في حين يقابله إزدهار وتطوير اقتصادي وعمراني وثقافي في المدن الفلسطينية المحتلة من قبل الاحتلال، وهو ما يأتي متعمدا بهدف نزع صورة الحضارة والإعمار واحتكارها في المناطق الخاضعة لسيطرة الاحتلال: "إننا لا نبكي على طابون القرية بل على مكتبة المدينة. ولا نريد استرداد الماضي بل استرداد المستقبل ودَفعَ الغَدِ إلى بعدِ غَدِه. اندفاع فلسطين في طرقات مستقبلها الطبيعي أُعيق بفعل فاعل، كأن إسرائيل تريد أن تجعل الجماعة الفلسطينية كلها ريفا لمدينة إسرائيل. بل إنها تخطط لردّ المدن العربية كلها إلى ريف مؤبد للدولة العبرية"[107]، في توارد اللحظة تعود معالم غُربة الداخل لتتضح لدى الذات، في انفصال حاضر المكان عن مستقبل مأمول، بأوصال ممزقة، ووحدة تجمع أبناء الداخل بالمهجّرين، الذين تعددت بهم المنافي وانفصلوا عن وحدة المكان والمجتمع، كعائلته التي فرقتها متاهات الشتات، وفُجعت بفقدين متلاحقين لأقرب أفرادها، وحرمها الاحتلال أبسط حقوقها بمساحة للدفن في الوطن: "لقد تبعثر موتانا في كل الأرض. وفي أحيان لم نكن ندري أين نذهب بجثثهم والعواصم ترفض استقبالنا جُثثا كما ترفض استقبالنا أحياء"[108]، إنها أقرب ما تبدو إلى (بينيَّة المنفى المزدوج) التي يشير إليها محمد الشحّات، والتي يدرك معها المنفي في الخارج أنه منفيّ وحسب، في حين يشعر المنفي في الداخل أنه مقيم ومنفيّ في آن معا، بل قد يشعر أنه ليس مقيما أو منفيا، والمثقف هنا منفيّ داخل وطن هو منفي عنه كذلك، وعندما يعود إلى ما يتيسر من وطنه يجد صورة المنفى تنتحل مواصفات الوطن وتحمل أسماءها وعلاماتها وشوارعها وبيوتها دون هويَّة، فيضع الكاتب نصه السردي متصلا بالشعر في مقاطع واضحة من حيث الشكل الطباعي أشبه بوقفات أو دفعات شعرية تجمد الزمان ليتدخل صوت الراوي كمعلق ومتأمل، مستعينا بمقاطع يقتبسها من دواوينه الشعرية، يستحضر من خلالها ذكرياته القديمة، أو صورة الوطن بعاطفة متوَهجّة دون مرارة، أو يرثي عالما من الراحلين من أصدقاء ومقربين، إلى جانب تلك المشاهدات والمرويات والتخيلات وأحيانا الأحلام التي تحركها أنا السارد، والتي جعلت من نص الكاتب

---

[107] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص176.

[108] المصدر نفسه، ص192.

نصّا شبه رحليّ لا يخلو فيه مشهد من سرد ووصف وتعليق، وهو ما يجعله نصا منفتحا على احتمالات التنويع ما بين السيرة والتاريخ والجغرافيا والسجلّ الاجتماعي والشعر والمذكرات واليوميات. فالرحلة إحدى الأشكال الأم الكبرى للأدب، مثلها في ذلك مثل النصوص السردية الطويلة التي شكلت إرثا ممتلئا بالخيال، وبصمات الواقع، وثقافة العين، ووجهات نظر مشتتة حول الآخر، وإضاءات للأنا (الذات ونحن)، من أجل معرفة الذات باعتبارها الوسيلة المثلى لمعرفة الآخر وباباً للانفتاح على العالم[109]، من تلك اللحظات تمر ذاكرة الكاتب ومضات عابرة، للحظات وجد فيها بضع انتماءات صادقة حين طاردته أعوام النفي والاغتراب، برفقة زوجته رضوى وابنه تميم ورفاق درب أوفياء، عن ذاك الرفيق المخلص يوسف إدريس يحكي، حين خرج برفقته في وقفة سلمية أيام تشييع غسان كنفاني وعقب اغتياله، ومع قدوم ضباط الأمن لتفرقة المتظاهرين، عن موقف هذا الصديق الشهم ووقوفه بوجه رجال الأمن لحماية رفاقه المتظاهرين من شبهة قد تلاحقهم أو استجواب، وحيث يجري اعتبار غير المصريين في التظاهرات عُملاء أو مندسّين، فيُبلغ الضابط أن الخمسين رجلا في التظاهر كلهم يوسف إدريس. على تلك اللحظات يستند الكاتب كإيجابيات حظيت بها أمكان الاغتراب وأكسبتها قيما حقيقية، إلا أن هوّة الفقد والاغتراب التي سقط بها الكاتب، لم يعُد منها يوما إلا رجلا مثقلا، متبلد المشاعر في العديد من الأحيان، يوقن أن علاقته بهذه الأماكن وأفرادها ترجمة لشتاته الذاتي، والتشظي الذي أصاب عمق روحه، مُعلقة في الوقت، مُتسمة بعدم الثبات، معلقة في الوقت، بين ذكرى الأماكن..

بين ذكرى تلك الأماكن، يُسائل ذاته، عاجزا عن إجابتها: "الليلة، وكُلّ من في البيت نائم، والصباح وشيك، أسأل سؤالا لم تجد لي الأيام جوابا عليه حتى هذا المساء. ما الذي يَسلبُ الرّوح ألوانها؟ مالذي، غير قَصفِ الغُزاةِ، أصاب الجَسَد؟"[110] تساؤل يدفعه بين الأعوام، ومستقبل بين آمال وحسرات يدفعها عن وطن لم يتحقق له ولعائلته، والإمكانية الوحيدة المتاحة لديه ليكون جزءا من معادلة التغيير ومقاومة الواقع الذي فرضه الاحتلال، في

---

[109] انظر: محمد الشحّات، **سرديات المنفى: الرواية العربية بعد عام 1967**، (عمّان: دار أزمنة للنشر والتوزيع، ط1، 2006م)، ص188.

[110] مريد البرغوثي، **رأيت رام الله**، ص220.

ظل الحصار المتزايد، بضرورة البدء بإثبات هويّة ابنه، وحفظ إرثه في المكان الذي ارتسم في خياله دون صور حقيقية، يتوق الكاتب شوقا للحظات يحفل فيها بالمكان الفلسطيني برفقة ابنه، وأن يحفظ التاريخ هذا اللقاء، والذي يتحقق للكاتب بعد عامين، ويفصل جزءا آخر للعمل لسرد تفاصيل تلك الرحلة..

الفصل الخامس

الذات المُقاومة والاغتراب في أعمال سوزان أبو الهوى

تزامن ظهور صور المقاومة والاغتراب، بحضورها في التاريخ والأدب والذاكرة، فلا تكاد تنفصل إحداها عن الأخرى، سواء في المنفى أو على أرض الوطن، فبفعل المآسي التي تتابعت منذ عام النكبة، وكنتيجة حتمية لعملية الاقتلاع والتهجير القسري التي خلفتها جرائم العصابات الصهيونية، وما خلفته من آثار وتبعات، أتت على الذات الفلسطينية وأحبائها وأرضها وممتلكاتها، برزت ملامح الاغتراب كأحد أهم الملامح التي رافقت الذات في رحلة النفي، في الداخل وفي دول الشتات، حملت الشخصيات والأفراد آثارها في ذواتها، فتولد الفعل المقاوم كرد فعل ناتج عن عُنف هذه التجربة التي أُجبرت على خوضها مرغمة.

وتُصنف أعمال الكاتبة سوزان أبوالهوى ضمن نطاق السرد الفلسطيني المقاوم، لما تتضمنه من صور واقعية وأحداث تاريخية تدور حول النضال الفلسطيني ومقاومته، وما تضيفه الشخصيات الرئيسية من دور فاعل للفعل المقاوم بشكل مباشر ومدى ارتباطها به من خلال الأعمال الروائية الثلاثة للكاتبة، حيث تظهر انعكاسات من ذات المؤلفة على الذات المقاومة في شخصياتها الرئيسية وتكوينها، إلى جانب أحداث خيالية، تراجيدية في العديد من أجزاءها.

تتخذ الكاتبة من هذه الأعمال مرويات مضادة للرواية الصهيونية، وسردا يحفظ التاريخ والذاكرة الفلسطينية، منها تأتي أهمية التعمق في دراسة هاتين الصورتين في الأعمال السردية للكاتبة، فيتضمن الفصل الآتي دراسة لصورة الذات المقاومة ومراحل تشكلها بمرور أحداث النكبة الفلسطينية وخلال رحلة التهجير والشتات التي حملت الذات بعيدا، في اغترابها عن وطنها في الداخل والمنافي، من خلال الأعمال الروائية الثلاثة الأولى لسوزان أبو الهوى.

المبحث الأول: سوزان أبو الهوى، حياتها وإسهاماتها في الأدب الفلسطيني

ولدت سوزان أبو الهوى في الكويت لأُسرة من ضحايا لاجئي نكسة 1967م، عندما استولت جماعات صهيونية على أراضي أُسرتها، ضمن ما ابتلعتها من أراض أخرى في

فلسطين. أمضت سوزان فترة قصيرة من حياتها في القدس، وانتقلت بعدها خلال سن المراهقة للعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث حصلت على شهادة في علم الطب الحيوي، وبدأت حياتها المهنية في مجال العلوم الطبية، وفي تموز (يوليو) 2001م، أَسَّست سوزان أبو الهوى (مَلاعب من أجل فلسطين)[1] وهي مؤسسة تُكرِّس عملها لدعم الأطفال الفلسطينيين وحقهم في اللعب الآمن. تعيش سوزان أبو الهوى حاليا في ولاية "بنسلفانيا" مع ابنتها.[2]

سوزان أبو الهوى روائية وشاعرة وعالمة أحياء وأم، وهي كذلك محللة سياسية وناشطة في مجال حقوق الإنسان[3]، ومعلقة على الشؤون السياسية في العديد من المواقع والمحطات الإخبارية[4].

صدر للكاتبة مجموعة شعرية بعنوان: (My Voice Sought the wind)[5] "سَعى صوتي للريح"، ولها حتى العام الحالي ثلاثة أعمال روائية:

1. (Mornings in Jenin)[6] تمت ترجمتها إلى اللغة العربية تحت عنوان: "**بينما ينام العالم**"[7].
2. (The Blue Between Sky and Water)[8] تُرجمت إلى اللغة العربية بعنوان: "**الأزرق بين السماء والماء**"[9]

---

[1] https://playgroundsforpalestine.org/meet-us/

[2] انظر: سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ترجمة: سامية شنان تميمي، (قطر: دار بلومزبري- مؤسسة قطر للنشر، ط1، 2012م)، ص479.

[3] انظر: سوزان أبوالهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ترجمة: محمد عصفور، (الدوحة: دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، ط1، 2018م)، ص306.

[4] المصدر نفسه، ص303.

[5] Abulhawa, Susan. *My voice sought the wind*. (Just World Books, 2013).

[6] Abulhawa, Susan. *Mornings in Jenin*. (Bloomsbury Publishing, 2010).

[7] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، المصدر نفسه.

[8] Abulhawa, Susan. *The blue between sky and water*. (Bloomsbury Publishing, 2015).

[9] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ترجمة: محمد عصفور، (قطر: دار جامعة حمد بن خليفة للنشر، ط1، 2018م).

3. (Against the Loveless World)[10] تُرجمت إلى اللغة السويدية والألمانية[11] ولم تُترجم إلى اللغة العربية بعد، وهو العمل الأخير للكاتبة حتى العام 2025م، صدرت النسخة الأولى منها باللغة الانجليزية عام 2020م.

بدأت سوزان أبو الهوى طريقها إلى العمل السرديّ عن طريق المعاناة التي تكبدتها عائلتها من خلال حرب النكبة واضطرت معها إلى النزوح عن مدينة القدس، إلى الجانب المعاناة لازمت رحلتها من تبعات الشتات والاغتراب في دول الشتات، والتي ظلت ملازمة لها ولعائلتها وأبناء شعبها بمرور الأعوام، ومع اتصالها بمجزرة مخيم جنين عام 2002م، وزيارتها للمخيم. بعد استقرار الكاتبة في الولايات المتحدة الأمريكية واتصالها بالجالية الفلسطينية الأمريكية، وكتابها، وأدباءها المقيمين في الولايات؛ تشير سوزان إلى ضرورة العمل على هدف نشر الوعي بالقضية الفلسطينية وحقيقتها، والتركيز على الجانب الحقيقي للقصة الفلسطينية: "لقد تم سرد القصة الفلسطينية وحتى وقت متأخر على ألسن غير فلسطينية، على ألسن إسرائيلية وغربية، وقد استغرق الأمر ولادة جيل كامل من الفلسطينيية المهجّرين إلى دول الغرب، ليتمكنوا من سرد قصصهم الحقيقية بالكامل، بأصواتهم، وباللغة الأجنبية، وقد أوجدت هذه السرديات مساحات مكّنت المجتمعات من الالتقاء في مواطن إنسانية مجرّدة وهو ما يميز هذه السردية"[12]، وتأتي على وصف عملها الأول بينما ينام العالم فهي: "قصة فقد عظيم كما هي قصة حب عظيم"[13]. وقد جمعت أعمالها القيمة الإنسانية الحقيقية بانتصارها للعديد من القضايا الإنسانية مع ما تشترك به القضايا النضالية الأخرى، حيث تسقط الكاتبة، وتحقيقا لذاتها ككاتبة ومفكرة ومناضلة فلسطينية، بإسقاطها لأجزاءا تحاكي سيرتها الذاتية على حياة شخصياتها في أعمالها، وطرح العديد من الإشكاليات التي تواجه المضطهدين والمهمشين بشكل عام والفلسطينيّ بشكل خاص كالحياة في الحرب واللجوء في المجتمعات الغربية التي سكنتها.

---

[10] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World: A Novel*. Simon and Schuster, 2020.

[11] المصدر نفسه، ص293.

[12] شاهد مقطع فيديو مُصوّر للكاتبة سوزان أبوالهوى على منصة يوتيوب: https://www.youtube.com/watch?v=SD3yR_C9nYQ

[13] مقطع مُصور للكاتبة سوزان أبو الهوى على منصة اليوتيوب: https://www.youtube.com/watch?v=nD51BtVr1rY

المبحث الثاني: الذات المُقاومة والاغتراب في رواية "بينما ينام العالم"

"بينما ينام العالم" هي الترجمة العربية لسامية شنان تميمي، للعمل الروائي الأول للكاتبة سوزان أبو الهوى (Mornings In Jenin). صدر العمل بداية بعنوان: (The Scar of David) "نُدبة داود"، نسبة لشخصية ثانوية تدور حولها أحداث العمل، وهو"إسماعيل" الحفيد الأصغر لعائلة أبو الهيجا الذي يُختطف من قِبل عائلة صهيونية خلال الأحداث الصادمة لنكبة 1948م وهو طفل صغير وتطلق عليه العائلة اسم "دافيد إبرام". في الطبعات اللاحقة تم تغيير العنوان إلى: (Mornings in Jenin) (صباحات في جنين)، تَيَمُّناً بأوقات الصباح الباكر التي تقضيها بطلة الرواية: الحفيدة "آمال" برفقة أبيها في القراءة.

عُدت رواية "بينما ينام العالم"، من أكثر الكتب مبيعا على نطاق دولي، والتي لاقت ترحيبا واسعا من القراء، وترجمت إلى 28 لغة،[14] ونشرت في تسعة عشر بلدا.[15]

تجمع سردية "بينما ينام العالم" ما بين السيرة الذاتية للكاتبة؛ بكونه مستلهما في العديد من أجزاءه من الواقع الذي عاشته المؤلفة، ويمتزج في أحداث أخرى بأفكار مقتبسة عن رواية عائد إلى حيفا لغسان كنفاني التي تأثرت بها الكاتبة[16]، وأخرى من صور تعود إلى خيال المؤلفة، إلى جانب تتبعها للأحداث التاريخية في فلسطين قبل قيام النكبة وانتهاءا بالعام 2002، لتصوغ أحداثا واقعية عن أحوال اجتماعية، وساسية وعلاقات اجتماعية وإنسانية، عن مأساة شعب كامل. ما يجعله عملا غنيا نسجت منه عملها الروائي والأعمال التي تلتها..

تنطلق أحداث الرواية من العام 1941م، من عُمق الريف الفلسطينيّ في قرية عين حوض، وترتكز أحداث العمل الروائي على العائلة الفلسطينية العريقة: "أبو الهيجا"، متتبعة قصة أربعة أجيال متلاحقة: بدءاً من الجد (يحيى أبو الهيجا) وزوجته باسمة، وهم أصحاب

---

[14] انظر: سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص303-304.

[15] انظر: سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص479.

[16] انظر: المصدر نفسه، ص474.

أرض وزرع وبساتين ومنزل عامر في القرية. ليحيى وباسمة ابنان: حسن ودرويش، ولهما أحفاد: أبناء حسن: يوسف، وإسماعيل "ديفيد"، وآمال.

يكسب حسن الابن الأصغر ليحيى خلال مرحلة الدراسة المبكرة في عمر الثانية عشر صداقة آري بيرلشتاين وهو ابن لبروفيسور يهودي ألماني يستأجر منزلا ويستقر في القدس هربا من النازية[17] وتمتد يد الصداقة بينهما قرب باب العمود –بوابة دمشق– وتقارب بينهما براءة العمر الصغير وحب القراءة والاستطلاع والظروف الصحية المتماثلة، فيتجاوزان حدود الاختلافات، وتسقط بينهما الفوارق الدينية والعرقية والسياسية، ويمضيان الساعات معا، حسن يقرأ الشعر العربي لآري، ويعلم أحدهما الآخر مفردات وعبارات في اللغات العربية العربية والانجليزية والألمانية، ويعودان أثناء الدراسة لمكتبة السيد بيرلشتاين —والد آري–. الصداقة بين آري وحسن وعائلتيهما تعكس البُعد الإنساني الذي يميِّز هذه الشخصيات، ويرسم التداخل بينهما في هذا الجانب ومن خلال المرحلة الزمنية جزءا مغايرا عن تلك الصورة التي حملها الآخر الصهيوني، الصورة المليئة بالغضب والحقد والرغبة في تجريد الذات الفلسطينية من أملاكها وحقوقها.

إضافة إلى ما تحمله العلاقة القائمة على التداخل بين العائلتين الفلسطينية واليهودية من انعكاس لمرحلة تاريخية سابقة، وفي تداخل واضح يصوِّر مرحلة زمنية حظي فيها اليهود الذين أتوا إلى فلسطين هربا من الاضطهاد الأوروبي بقدر عال من الطمأنينة والأمن والترحيب الأخوي بين الفلسطينيين، وجمعها الأرض ذاتها، حتى أخذت طبيعة الوجود اليهودي في فلسطين تتحول من الطابع الديني والمعايشة إلى الطابع الاستعماري الاستيطاني بوحي من الأفكار الصهيونية وجشعها لفرض السيطرة في مرحلة سبقت مرحلة التطرف والعدوان الصهيوني، الأمر الذي أحدث تغيرا تلقائيا جذريا في المواقف وأجج نار الصراع بين العرب واليهود.[18]

---

[17] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص25.

[18] انظر: إبراهيم عبدالكريم، **تهويد الأرض وأسماء المعالم الفلسطينية دراسة ودليل**، (دمشق: من منشورات اتحاد الكتّاب العرب، 2001م)، ص34-35.

في سن الثالثة عشر ومع نهاية التعليم الإلزامي يطلب حسن من والده إذنا ليلتحق مع آري بالدراسة في القدس، فيرفض يحيى مُؤثرا أن يبقى ابنه ليرعى الأرض ويرثها من بعده، وخوفا من أن يحمله التعليم بعيدا عنه، وهو قرار يأسف عليه يحيى ويلوم نفسه عليه لاحقا، ويطلب الصفح من ابنه حسن قبل وفاته، وبفعل القرار ذاته يأخذ حسن على نفسه عهدا بأن يقدم التعليم الجيد لأبناءه.

يكسب حسن عطف السيدة بيرلشتاين —والدة آري– التي ترى منه رغبة صادقة في إقباله على العلم فتقدم إليه دروسا خاصة، ويواصل معها التعليم بكتب ودروس وواجبات منزلية تشرف عليها، وترافق حسن صداقة آري أياما وأسابيع تمتد لما بعد وفاة حسن بأعوام، حيث يلتقي آري بابنة حسن — آمال– وهو أستاذ في الجامعة العبرية، ويحكي لها ما جمعه بأبيها من قصص وذكريات. يتخرج حسن وآري في العام ذاته، ويُبعِد مفترق الطريق كلاهما عن الآخر.

مخالفا عادات قبيلته وتقاليدها، وعلى الرغم من اعتراض والدته يرتبط حسن بداليا الفتاة التي أحبها من بادية الريف، في حين يغادر آري ليلتحق بكلية الطب.[19]

ينجب حسن طفله الأول يوسف، وبعدها بخمسة أعوام، وعلى إثر قنبلة تطلقها عصابات الجيش الصهيوني على مقربة من منزله يفقد حسن والدته –باسمة–، حين يَشلّ الرعب قواها وتنهار في حديقة منزلها مفارقة الحياة، يعود آري في إجازة ليُشارك حسن حزنه على وفاة والدته، وخلال أيام العزاء يُحذِّر آري في حوار خاص يجمع الصديقين وسط بساتين الزيتون صديقه حسن من أحداث مُرعبة على وشك الوقوع، ومخاوف تأخذه تجاه فلسطين،"الوضع سيِّئ جدًّا يا حسن! لدى الصهاينة كميَّات كبيرة من الأسلحة لقد جنَّدوا جيشا هائلا من اليهود الذين يَصِلون على متن السفن كل يوم. أنت لا تعرف كل شئ يا حسن. لديهم عربات مدرّعة، بل طائرات!"[20]

إلا أن آري ومع تحذيره لحسن يحمل شعورا متناقضا، فهو يتعاطف في الوقت ذاته مع الضحايا من أبناء قومه محاولا تبرير موقفهم في تردد حول نويا المستَعمِر القادم هربا من

---

[19] إبراهيم عبدالكريم، **تهويد الأرض وأسماء المعالم الفلسطينية دراسة ودليل**، ص45.

[20] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص45.

الموت: "أنا يهودي. أقصد، أعتقد أنه خطأ. ولكن أنت لا تعرف كيف كانت الأمور من قبل"[21]، "لقد قَتَلنا ما حدث، على الرغم من أننا لُذنا بالفِرار"[22]، "إنهم مصممون على أن تصبح هذه الأرض دولة يهودية، ولكنني أعتقد أن العرب إذا قبلوا ذلك ببساطة، فستكون كل الأمور جيدة ويُمكننا العيش معا".[23] وعلى الرغم من التفهم الذي يقدمه حسن لصديقه آري، إلا أنه يُظهر موقفا حازما يؤكد صدق انتماءه ووقوفه إلى جانب شعبه وأحقيتهم في أرضهم التي يتم التخطيط لنهبها، موضحا لآري في غير حياد كيف أن العذاب الذي لاحق اليهود لا يفرض الذنب على أبناء شعبه كذلك، ولا مبررا للعدوان القادم إليهم، ومن خلال الحوار تتضح مقدرة سوزان في مد عوالم شخصياتها وتقمص مشاعرها، وقدرتها على بسط مساحة الحوار لتتضح من خلاله للقارئ ملامح شخصية آري فهو الصديق المخلص لحسن إلا أنه مشتت الذهن والكيان بين الولاء لصديقه والشعب الفلسطيني الذي احتواهم من وحشية ظلم النازية، وبين الدعوات التي يدعو إليها المتطرفون من أبناء عقيدته: "لكنك قُلت من هُنيهةٍ أنهم يريدون دولة يهودية!"[24]

- "نعم، ولكنني أعتقد أنهم سوف يسمحون للعرب بالبقاء.
- ارتفع صوت حسن: إذا، هؤلاء المهاجرون سيسمحون لي بالبقاء على أرضي أنا؟!!
- حسن، ليس هذا ما قصدته.أنت مثل أخ لي.أنا مُستعد لفعل كل شئ من أجلك، أو من أجل عائلتك، لكن ما حدث في أوروبا..

تلاشت كلمات آري في صُور معسكرات الموت المروِّعة التي كان قد شاهدها، عصَر حسن حبة زيتون أخرى، كما لو كان يحاول عصر كلمات آري المتعلقة في الهواء والأشبه بالخيانة، وقال: بالضبط آري. ما فعلته أوروبا، لا العرب! لقد عاش اليهود هنا دائما. هذا هو سبب التزايد الكبير جدا في أعداد الموجودين منهم هنا الآن، أليس كذلك؟ وبينما

---

[21] المصدر نفسه، ص 47.

[22] المصدر نفسه، 47.

[23] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص47.

[24] المصدر نفسه، ص47.

اعتقدنا أنهم يسعون فقط إلى الحصول على ملاذ... أشخاص مساكين يريدون فقط أن يعيشوا، كانوا يكدِّسون الأسلحة لطردنا من بيوتنا!"[25]

كما يعكس الحوار الذي يمثِّل المواجهة الذهنية بين الصديقين، بين الذات الفلسطينية والآخر اليهودي نُسقا من أنساق مقاومة الشتات الذي ينحو منحى المقاومة، ولكن بتوصيف تأملي[26]، فيختصر آري لحسن وجهة نظره في كلمات لما يتحول خلال أيام لواقع مرعب وما يراه الفلسطينيون من اليهود القادمين من البعيد لانتزاع أرضهم منهم، بخلق ذريعة تقوم بشكل أساسي على لعب دور الضحية بشكل دائم، وسعيا لتشريع الجرائم القادمة ضد الفلسطينيين وانتقالا إلى جيرانهم العرب باتخاذ التطرف منهجا في خلق محيط خاص بدعوى حمايتهم[27]، إلا أن حسن يبقى محافظا على صداقته بآري، ويمدُّ له يد العون على الرغم من الأحداث السياسية المتقلبة من حولهما، "إذا كانت الغَلبة للعرب في البلدة القديمة، فاذهبوا إلى منزل عمتي سلمى. أنت تعرف مكانه. لديها منزل كبير ويمكنكم الاختباء هناك"[28]، ومع ازدياد حدة الصراع القائم بين الفلسطينيين واليهود وقدوم أحداث النكبة، تضطر عائلة آري للمغادرة إلى الجانب الآخر من الخط الفاصل في القدس، ويخرج حسن مجازفا بحياته، مُقدما مبادئه الأخلاقية والإنسانية في مساعدة آري وعائلته على الهرب في ظُلمة الليل، في عربة يقوم حسن بتغطيها بعلم، مصنوع من ملاءة سرير تغطيها نجمة داود يرسمها بيده، ويلوح بها للجانب الاسرائيلي أثناء عبورهم للخط الفاصل وقاية من التعرض لاطلاق النار، في لقاء أخير يجمع بين الصديقين.

في الأشهر التي تليها يرزق حسن وداليا بابنهما الثاني إسماعيل؛ والذي يُشكِّل شخصية محورية مُهمة في صلب أحداث العمل، فمع وصوله إلى الشهر السادس من عمره في أحد الأيام يسقط من بين يدي أخيه يوسف الذي يحاول تهدئته، ويرتطم وجهه بأحد

---

[25] المصدر نفسه، ص47-48.

[26] انظر: رامي أبو شهاب، **في الممر الأخير:سرديَّة الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونياليّ**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2017م)، ص319.

[27] انظر: نورمن فنكلستين، **إسرائيل، فلسطين، لبنان: رحلة أمريكي يهودي بحثا عن الحقيقة والعدالة**، ترجمة: سماح إدريس، (بيروت، دار الآداب، ط1، 2008م)، ص15.

[28] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص48.

المسامير البارزة من السرير، ويتمزق جلده على شكل خط يمتد من وسط خدِّه إلى محيط عينه اليمنى لتُشكِّل معالم ندبة مميزة، تخلق لإسماعيل هويةً خاصة يُعرف بها، ويَعود بفضلها مستقبلا بعد اكتشافه للحقيقة إلى ذاته الأولى.

بانتقال المشهد من خلال السرد إلى العام 1948م، ، تتصاعد الأحداث في العمل الروائي كما تصاعدت مع قدوم أحداث النكبة إلى التاريخ الفلسطيني، وتتجلى الأفعال العدائية للآخر الصهيوني بصورة بالغة مع تقدم عصابات الأرغون والهاجاناة وشتيرن[29] باتجاه مختلف القرى الفلسطينية إثارة الذعر في أنحاءها، بتصفية القوات البريطانية والعربية التي وقفت عائقا أمام مخططاتها معا، وتفجيرات وإعدامات ومجازر امتدت على خارطة وجودها الدموي، فخلال عامَيّ 1947 و1948 يتم مهاجمة قرية عين حوض أَربع مرات على أقل تقدير وتحت أنظار الانتداب البريطاني ترتفع أعمِدة الدُّخان من قرية "الطيرة" والقُرى المجاورة لها في ظل الهجمات الصهيونية المتواصلة التي تركت أهالي القُرى في حالة من الذعر الشديد.[30]

تبدأ المأساة الفلسطينية مرتكزة من خلال تصوير الكاتبة في الأحداث المتتابعة في أعقاب العدوان الصهيوني، إلا أن قرية عين حوض والقرى المجاورة تتصدى لها، وتتصدر المشهد عائلة أبو الهيجا حيث تجتمع العائلة في أعقاب العدوان في منزل يحيى، ومع فقد السلاح والذخيرة اللازمة التي ظلت ولا تزال تشكل السند الأساس للذات الفلسطينية المقاومة عبر تاريخها النضالي الطويل في مواجهة الاحتلال الصهيوني وملاذا للتحرير. ومع تنامي الاحتياج إليه وبدء نفاذه يتشكل الإحباط لدى الذات المقاومة، فيُندد يحيى في غضب، يجهر بتلك اللعنات تجاه الاحتلال الذي يواصل إلقاء القنابل في أنحاء القرى المجاورة، والخيبة الجليّة تجاه الدول العربية المجاورة التي تتقاعس عن النجدة العاجلة: "نحن

---

[29] الأرجون: منظمة عسكرية قومية يهودية أنشأها اليهودي "جابوت سكيب"، وهي منظمة انشقت عن الهاجاناة، والهاجاناة هو اسم للقوات المسلحة العسكرية اليهودية التي شكلها ودعمها الإنجليز، غير أن هذه المنظمة كانت أكثر تطرفا وتعصبا. انظر: طارق سويدان، **فلسطين التاريخ المصور**، (الكويت، شركة الإبداع الفكري، د.ط، د.ت)، ص243.

[30] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص49.

بحاجة إلى السلاح! أين هي الجيوش العربية وهذه الكلابُ تُبيد بلدة بعد أخرى؟"[31]، وتأخذ يحيى لحظات من العجز، يقطع الغرفة جيئة وذهابا، يهزمه الانتظار، ويفوض أمره لله تعالى.

تتسارع الأحداث مع وقوع مجزرة أخرى خلال أسبوعين في قرية بلد الشيخ، وتزداد حالة الفزع بين الأهالي مع توغل القوات الصهيونية إلى داخل الأراضي، ومهاجمتها للقوات البريطانية والعربية معا لإجبارها على المغادرة، وفتح الأبواب لهجرة اليهود على مصراعيها فتتدافع وفودهم كالسيل إلى أرض فلسطين في اجتياح للقرى والمدن، مُستولين ومُبدلين اسم الأراضي المنهُوبة من فلسطين إلى إسرائيل.

وهنا يتشبث أهالي القرى بالبقاء في أراضيهم ويظهرون صلابة وصمودا في مواجهة العدوان، مُتحدِّين لصدِّ الهجمات عنها لأيام طوال، وكحل أخير في محاولةٍ منهم للبقاء في سلام في قريتهم يدعوا يحيى نيابةً عن مجلس شيوخ القرية إلى هُدنة بين الطرفين، فيُقبل الجُنود على القرية وقد أوهموا الأهالي بالموافقة على الهُدنة، ويبرز الظهور الأول لشخصية "موشيه" قائد القوات الصهيونية في المنطقة الذي يلمح ابن حسن –إسماعيل– ويضعه نصب أفكاره وأطماعه، فيما تصدق ظنون أهالي القرية بعدم الاطمئنان حين تُصبح القرية في اليوم التالي على قصفٍ مدفعي متَّسع النطاق، وأمطار من القنابل، يخرج الأهالي بفعلها ذعرا، وتركض داليا في رعب وقد قُتل والدها وأفراد عائلتها، ودُمِّرت أراض القرية وانتُزعت منها الحياة.

تعقب مطاردة الأهالي أوامر صارمة يتلقَّاها حسن ودرويش وأبناءٌ من القرية من جنود الاحتلال، بضرورة رَدم التراب على مقبرة جماعية لإخفاء آثار الجريمة لثلاثين جثة أُخرى، وفي ذهول صامت وخوف صادم من المجزرة الواقعة أمامهم ينصاع الأهالي، إلا أن العدوان يستمر ويتوالى ويفرض الجنود إخلاء ما تبقى من المنازل، وقد أشهروا أسلحةً فاقت عتاد أهالي القرى في النوع والعدد والقوى، بأوامر أخرى تفرض التجمع أسفل التل وتتردد في تكرار يعمق صورة العدو المتغطرسة: "كأنه إله خفيّ يوزِّع المصائر"[32]ومدى سَطوته في الحكم وتقرير مصير الأهالي، فهو وصف يؤكد ما عُرفت به الشخصية الصهيونية من عدائية وعُنصرية مُتعمِّقة تجاه الذات الفلسطينية وتجاه العرب بشكل عام، إضافة إلى ما يميز هذه الشخصية من شعورٍ

[31] المصدر نفسه، ص51.

[32] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص57.

بالفوقية ونظرة الاستعلاء على باقي الديانات والأعراق ورغبتها الدائمة في الانتقام منهم والتنكيل بهم.[33]

التجمع الذي يدفع إليه الأهالي يتمثل في ذهن يحيى أشبه بأيام موسم الحصاد التي اعتادها، حين يقبل ابنه درويش بفرسه الأصيل "فطُّومة" التي تنجو من عدوان الاحتلال، وقد فقد خلال الهجمة والتفجيرات الماضية صديقه المخلص وحصانه الأصيل الآخر "غنُّوش"، بينما يعود الجنود لدَفع من تبقى من الأهالي بعنف واعتداء جسدي ولفظيّ، يتمثّل من خلال المشهد بضرب الهراوات، وعنفٍ ولَفظي، ويعود في سياق المشهد تكرار لفظ الإله، إله يصرخ من مكبرات الصوت "تحرَّك، تحرَّك!"[34]، يَأمر أهالي القرية بالوقوف وترك أَمتعتهم الثمينة مُهَدَّدِين بالقَتل، "اترُك الحِصان!"[35] أمر صارم وصادم ينفذ إلى سماعِ درويش، يأمره بترك فَرسه، تُرعبه فكرة فقد فرسه الأخير، وهي في تلك اللحظة أعز عليه من كرامته، فيتوسل درويش الجندي من أجلها، ويُلحُّ عليه: "أرجوك!"،[36] لكن التَوسُّلَ في قاموس الصهيونية لم يكن ليُترجم إلا باحتقارٍ متزايد تجاه الذات الفلسطينية، كانتصار له حين تَسقط فطُّومة ميتَّة برصاصة وحشية تخترق جبهتها، وأخرى تخترق صدر درويش لتصل إلى عموده الفقري وتُقعده لما تبقى من عمره.

يبكي يحيى ابنه "الفارس الذي طالما أثار الإعجاب!"[37]، ويُسرع الناس لإبعاده. وهنا يتجلى العنف الوحشي الذي تتلقاه الذات الفلسطينية من الآخر الصهيوني منذ بداية الغزو

---

[33] انظر: رشاد عبدالله الشامي، **الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية**، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 102)، ص131.

[34] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص58.

[35] المصدر نفسه، ص59.

[36] المصدر نفسه، ص58-59.

[37] المصدر نفسه، ص60.

بلا هوادة، ومن خلال المشهد يتجاوز حدود الاعتداء على كرامة الذات الفلسطينية إلى هدرها وهدر أملاكها باستخفاف ساديّ لإلحاق العجز الدائم بها.[38]

في مشهد محوري آخر وأثناء تدافع الأهالي والحشود المذعورة هربا من قُراهم تنفصل داليا عن زوجها حسن، وتذهل في لحظة فاصلة من حياتها، وتنتزعها لحظة اختفاء مفاجئ من بين ذراعيها لابنها إسماعيل، وتدفع بها نحو كابوس مرعب، فتصرخ داليا "من أعمق لوعة يُمكِن أن تشعُر بها أم"[39]، ويهرع حسن مفتشا بين الحشود عن ابنه، مُحاولا في الوقت نفسه أن يجتَرَّ عزيمته للوصول إلى بر الأمان بمن تبقى من أفراد عائلة كان الشتات لها حتما، والنُزوح بين الجَمعِ قدرا، و"لكن من دون إسماعيل".[40]

وتتدرج المأساة في الأحداث التالية تِباعاً، فلم يَعُد بالإمكان تعزية أحدٍ من أهالي القرية، ولم تجدي مواساة داليا نفعا، وقد فاض ألم التشريد والعذاب على المشهد، حيث يفترش حسن الأرض بين الجموع مُستسلما لشُعور الخيبة والإرهاق، وتبقى داليا ذاهلة في جنون لا تَكُفَّ البحث في الواقع والخيال عن رضيعها باسترجاع زمان الحادثة: "تدُور في أسًى هائج، تستجوِبُ الناس، وتَرفعُ الأغطية عن الأطفال الرضَّع للنساء الأُخريات، آملة العُثور على صَبي له نُدبةٌ أسفل خدِّه الأيمن قُرب عَينيه"[41]، مُقاومة في نفسها حقيقة اختِطافه، وكل فرضية تُخبرها باستحالةِ أن يَعود، مع ذلك تُجبر على المضي قدما، فرارا من القتل وعدوان الجنود على العائدين، اللحظة التي تشكل ضربة حقيقية وصدمة لذات شخصية داليا، وقد ألحق الفقد ضرره البالغ بها، فلا تعود شخصية مستقرة، وتستحيل إلى شخصية مضطربة، منفصلة عن الواقع مستقرة في عالم الاغتراب.

يضطر الأهالي لمواصلة المسير لثلاثة أيام طوال عَبر التلال صعودا ونزولا وقد أغلقت عليهم منافذ العودة بالألغام والرصاص، ولم يعد لهم من مَفرٍ سوى الهروب من موت، والتوجُّه

---

[38] انظر: وداد عبدالفتاح خليفة، **التراجيديا الانسانية في روايتي قصة عن الحب والظلام لعاموس عوز وبينما ينام العالم لسوزان أبو الهوى: دراسة مقارنة**، ص854.

[39] سوزان أبو الهوى، المصدر نفسه، ص61.

[40] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص61

[41] المصدر نفسه، ص61.

لآخر، فهي مرحلة الاقتلاع التي شكلت صدمة لم ينجو منها أحد من الأهالي وسقط العديد منهم صرعى رحلة الفِرار، وآخرين: ألما، وخوفا، جوعا وضعفا، ورغم المساعدات التي يقدمها أهالي البلدات الأخرى، إلا أن مدينة جنين هي أقصى ما يتمكن أهالي القرية من النزوح إليه من القُرى، وتكتفي الدول المجاورة لفلسطين بتقديد الخيام التي لا تقي من الموت، "برز منها مخيم للآجئين في جنين إلى الوجود"[42]، "حيث أمكن القرويين من عين حوض الوقوف على التلال والنظر إلى الوراء، إلى البيوت التي لن يعودوا إليها أبدا".[43]

في فصل آخر من فصول الرواية يكبر إسماعيل في عائلة مُختطِفه "موشيه" الذي يأخذه ناقما على ظُلم القدر الذي حرمه وزوجته "يولاتنا" من الإنجاب، على الآلام التي هربا من ظِلها من معسكرات الموت النازية في ألمانيا، حاقدا على كل ما حوله، على البريطانيين الذين أُجبروا على الرضوخ لمطالب العرب وتحديد هجرة اليهود القادمين إلى فلسطين، على العرب والفلسطينيين، وهو الحقد الذي يتشكل عن نفس الآخر الذي يرى أحقّيته بالأرض والعيش في ممتلكاتها، فأثناء محاولات الهُدنة التي جرت في قرية عين حوض، تقع عينا موشيه على داليا وهي تحمل أطفالها يوسف وإسماعيل، يُساءل موشيه نفسه وقد أضمر حقدا دفيناعلى العرب أمامه، فكيف يكون لهم كل هذا العدد من الأطفال الأصحاء، ويُحرمان هو ويولانتا؟، رآه "ظُلما مجحفا أمدَّه بالعزم"[44]، ومُبررا بفعل ما تعرضا له أخذ ما عدّه حقَّه، فيدفع موشيه القوات للاعتداء على الأهالي، وطردهم من منازلهم، ومصادرة أراضيهم بعد سحق ممتلكاتها، ومع تدافع الأهالي وازدياد القصف على القرى، يلمح داليا وقد تشبث بأحضانها طفلها الرضيع إسماعيل، فيقتحم الجموع المتدافعة، ويسحب إسماعيل ويلقي به في كيسٍ عسكري، ويُسرع دون إلتفات، لسيارته العسكرية، ويخدّره بالكحول، ويقدِّمه هديةً ليولانتا التي تطلق عليه "دافيد" إحياءا لذكرى أبيها.

يُكثف المشهد السابق وصف ما يحمله الآخر الصهيوني من رغبات انتقامية وحقدٍ دفين من خلال شخصية موشيه، التي تدفعه للإلحاق الضرر المتواصل بالذات الفلسطينية دون

---

[42] انظر: المصدر نفسه، ص62.

[43] المصدر نفسه، 63.

[44] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص67.

حد أو اكتفاء، بعد غزو القرى وتدمير ممتلكاتها وقتل أصحاب الأراضي وسرقتهم، اختطاف الأطفال وانتزاعهم من عائلاتهم، والاعتداء عليهم كما يتمثل في مشهد اختطاف إسماعيل وتجريعه الكحول. هي جزء من جرائم ملأت قاموس تاريخها الأسود.

بعودة الأحداث إلى مخيم جنين يُقاوم الرجال اليأس الذي أحاط بحياتهم في كلَّ صَباح، مجددين آمالهم بالعودة إلى قُراهم، وقد وجدوا العزاء في الصلوات، وحب عائلاتهم، وجلسات الرفاق، وقد أصبح التجمع في كل صباح للاستماع إلى حسن وهو يقرأ الأخبار للأهالي تقليدا يوميا، إلا أن يحيى يرفض الرضوخ للواقع الجديد ويبقى مُصرا على العَودة إلى أرضه وتفقد منزله، ويطمئن في كل يوم إلى أن بقاءه في خَيمةٍ من الشَّعر ومسكنٍ من الصَّفيح، وسقفٍ يُسرِّبُ الماء وأرضيةٍ موحلة، يعني أن منفاه مؤقت لا أكثر، ولا يمكن له أن يستسلم ليصبح لاجئا في وطنه، ومُفتقِدا للعلاقة المتينة التي جمعتهُ في كل صباح، "طوال حياته التي امتدَّت إلى أكثر من ستِّين سنة"[45] بأرضه وللاستعداد السنوي لموسم القطاف، يعزم يحيى على العَودة للاطمئنان على أرضه، ولا تُفلِح نداءات صديقه الحاج سالم، أو ابنه حسن، وما يحذِّره الرفقاء من عَواقِب، عن ثَنيه عن القرار الذي يعزم عليه، فيخَرج غير آبهٍ، عابرا التلال، مُجاوِزا الحدود المصطنعة التي خلقها الاحتلال لأرضه "إلى مَنظرٍ ريفيّ طبيعي عرفه أكثر من مما عرف خُطوط كفَّيه حتى وصل أخيرا إلى وجهته"[46].

يخرج يحيى لِيَعود عقب ستة عشر يوما، بثيابٍ متسِّخة وروحٍ مُشعَّة، فرحا باستغفاله لقوة عسكرية لا تَرحم: "تضاريسُ تلك المِنطقة في دمي! أعرف كل شجرة وكلَّ طير. الجنود لا يعرفون".[47] العمل البطولي الذي يشكل إلهاما لحفيده يوسف الصغير الذي يكبر بذهنٍ واعٍ يستحضر ذكرى صمود جدِّه وروحه التي تحدت الاحتلال، وقد فعلها عائدا في وقارٍ عنيد، حاملا من الفاكهة والزيتون يملأ أرواح اللاجئين المرهقة بالعزم، فيحفلون به ويُقاسمهم ثمار انتصاره ويزداد معهم إصرارا، على العَودة مجددا والاطمئنان على أرضه، متأكدا من أنها قد تكلِّفه حياته، يخرُج يحيى وتكون بالفعل رحلته الأخيرة: "عاد لكي يموت حيث كان عليه

---

[45] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص74.

[46] المصدر نفسه، ص76.

[47] المصدر نفسه، ص77.

أن يموت: على أرضه"[48]، يُقتل شامخا وقد أعلن رفضه لذُلِّ حياة اللجوء، وفرض مُلكية أرضه التي سُلبت منه، ظلّ مقتل يحيى مجهولا، عدى أنه قُتل بطلق ناري بحجة اعتداءه على أملاك المستوطنين الجدد، ومع استرداد جُثته من سلطات الاحتلال، توجد كفُّه مُطبِقة على ثلاث حبَّات زيتون وبعض أكواز التين في جيوبه، وهي دليل انتصاره وانتماءه، فمجده الذاتيّ بين يَديه كان دليلا أعز عليه من الخوف وهيبة الموت.

يدفع ذلك العزم بالأهالي ويحرِّك مقتل يحيى في أنفسهم مشاعر الثأر والغضب، وتبعث فيهم رغبة أقوى للعودة واسترداد أملاكهم وأراضيهم وتغيير حالهم إلى الأفضل، فيسعون في التفاوض مع مسؤولي الأمم المتحدة لأخذ حقوقهم الأساسية، منظمين الحملات معا لإعادة الطابع المؤسسي للتعليم، وخلال سنة واحدة يبنون ثلاثة مدارس ومسجدا، رافضين تقبُّل نظرات الازدراء وأن يُعاملوا في وطنهم كلاجئين.

الأحداث التي تقارب بين أهالي المخيم وعائلة يحيى، تدفعهم إلى الاستعانة بحسن في مهام كتابة الرسائل والتفاوض مع مسؤولي الأمم المتحدة في الحصول على ضروراتهم الأساسية لكونه أكثرهم ثقافة بين أهالي المخيمات، إلا أن حسن مع اغتيال أبيه، وفقده لإسماعيل تغلب على شخصيته سمات الانعزال فيخفى آلامه بأعمال يضاعفها في قائمة مهامه، وقد أصرّ على كسب ما يكفي ليمنح ابنه يوسف التعليم الجامعي، ويعمل أيضا كحارس لمدرسة جنين، مُنطلقا في كل صباح قبل استيقاظ عائلته إلى العمل، ويعود منها إلى التلال برفقة كُتبه، وإلى المخيم مساءا بعد أن تكون عائلته قد نامت، محرجا من أجره الزهيد، وبعد أربعة سنوات يُرزق وداليا بابنتهما الصغيرة "آمال".

مع فقدها لابنها إسماعيل، تظهر أيضا حالة الاغتراب التي تستلب شخصية داليا عن الواقع، وتكبر آمال ليكون حظها مع والدتها في الغالب الكثير من الأمومة الصامتة، فتنشأ متعلقة بأبيها وأوقات الصباح الباكرة التي تجمعهما معا، يحمل حسن فيها آمال لقراءة نصوص الشعر العربي الأصيل قبل المغادرة لأعمالٍ تمتد لساعات لطويلة، اللحظات التي تحملها آمال لغربتها اللاحقة، وتظل الأكثر تأثيرا على حياتها حتى آخر أيامها، ويبقى حسن

[48] المصدر نفسه، ص82.

مثلها الأعلى الذي طالما ذكّرها بأهمية العِلم: "الأرض، وكُل ما عليها، يمكن أن تُسلب، ولكن لا أحد يمكنه أن يأخذ منك معرفتك أو الشهادات التي تحصلين عليها!"[49].

تكبر آمال متفوقة على أقرانها في مراحل التعليم المبكرة بفضل الدعم الذي يقدِّمه حسن وفي سبيل الحصول على رضاه، ومع تطور الأحداث باتجاه حرب عام 1967م – حرب الأيام الستة–، تتخذ المقاومة الفلسطينية دورا بارزا في التصدِّي لعدوان الاحتلال على الأهالي في المخيمات، ويطرأ التغيير الجذري خلال هذه المرحلة على حياة الشخصيات بتسارع مجريات الأحداث، فيستعد الرجال في المخيم للردِّ بما تبقى لديهم من أسلحة مخبأة، ترقبهم من بعيد عينُ الصغيرة آمال وقد انقلبوا في وصفها من خلال المشهد، من آباء وأشقاء وأزواج إلى مُقاتلين، يُدفعهم في صمودهم الرغبة الصادقة في الدفاع عن عائلاتهم وايقاف العدوان المتواصل، وعدم تسليم الأرض للاحتلال، والرغبة في استرجاع حياتهم السابقة، والحلم الأوحد بالعودة إلى قُراهم، فيُخرِج حسن أكثر من 20 بندقية كان قد خَبأها على مدار الأيام في حفرة بأرضية مطبخه ليومٍ يظهر أنه كان مُرتقبا ومُعدا من قبل الأهالي، وقد "وزَّع الأسلحة على المقاتلين"[50]، "بينما شئ جبَّار في داخله كان يجعله يشُق طريقه عنوة إلى السطح"[51]، فحادثة الاقتلاع من الأرض والقرى، فقدهم لبيوتهم وممتلكاتهم، مقتل أمه وأبيه واختطاف إسماعيل، أرقت حياة حسن كل ما تراءت له الأحداث التي لم تفارقه، ودفعت به في إصرار ذاتيّ إلى درب الثأر والمقاومة، ليمضي إلى موقع يختفي عن أعين الأعداء، ويتخذ المقاتلون إلى جانبه مواضع دفاعية أخرى، إلا أن القوة المضاعفة تباغتهم بقصفٍ عنيف، تلحقها العصابات الصهيونية بعمليات خطف واغتيال لأيام متتالية، وتفجيرات مدويَّة تسوِّي المخيم بالأرض، وتترك الأطفال أيتاما، والنساء أرامل، واللاجئين إلى لاجئين مرَّة أخرى، ويبقى حسن حاضرا في حياة عائلته رغم اختفاءه عن المخيم، إلا أن غيابه يشكل حالة فقد صادمة لذات آمال المغتربة عن والدتها، والتي تتباعد في انتظار والدها وعودته كهاجس يوميّ، فتسعى آمال للالتحاق بركب المقاومة إلا أن عمرها الصغير يحول دون ذلك، في حين يحمل

---

[49] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص98.

[50] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص106.

[51] المصدر نفسه، ص106-107.

يوسف سلاح أبيه وإرثه الوحيد، ويترك حياته الأكاديمية في جامعة بيت لحم مع سماعه لإعلان قيام الحرب عام 1967م، مُسرعا باتجاه المخيم يدافع الحشود العائدة، لا يُبصر سوى نجدة عائلته، وحاجة أهالي المخيم إليه، وعلى الرغم من ما يحمله إعلان الحرب من فَزع ثقيل يعيده إلى ذكريات الخامسة من عمره والعام 1948م، إلا أنه يعزم العَودة والانضمام إلى صفوف المقاتلين، حيث يستلم بنادق أبيه ويَحملها لأول مرة في حياته، وهو ما يشكل توارث الأجيال الإلتزام بطريق الثأر والمقاومة.

وأيام الحصار والمجزرة القادمة إلى مخيم جنين، تملأ المكان رعبا فتُخبئ الأمهات الأطفال خوفا من وحشية جنود الاحتلال، كما تفعل داليا وتخبئ آمال وصديقتها هدى في حفرة الأسلحة بالمطبخ وتأمرهما بعدم المغادرة، وتتشبث الصديقتان ببعضهما خوفا من الموت القادم، وتسرد شخصية آمال من خلال ذكرياتها: "مرَّ الوقت بعد ذلك كجدول متدفِّق، لا يميزه نهار أو ليل. لم نتمكن من رؤية وجه الأعداء، لكننا سمعنا أصواتهم: طائرات كثيرة حلَّقت منخفضة وألقت قنابلها على الناس أينما كانوا. أدخلتنا ماما على عجل الحفرة في المطبخ، وقد أصبحت الآن خالية من السلاح"[52] تعُود داليا وتخبئ مع الطفلتين رضيعة أخرى يتَّمتها الحرب، مُغلقة غطاء الحفرة، لكن أصوات الصراخ، والدمار تجتاز الظلام إلى الأطفال، وتخترق رائحة النباتات واللحوم البشرية المحترقة الغطاء والأسماع، حين يبدو الموت أشبه بيوم القيامة في الحفرة التي ينهال عليها، وهي اللحظة التي تسرد عنها آمال: "صمَّ أذني انفجار مدوٍّ نسَفَ بلاطة الغطاء، وسطع الضوء، وكنا مغطَّيات بالغبار والحطام. كنت أصرخ وأبكي، لكنني لم أستطع أن أسمع نفسي"[53]، تفتح آمال عينيها المغمضتين ذعرا بشظية صغيرة اخترقت جسد الرضيعة بين يديها وتركتها قتيلة، تلجأ الطفلتان المذعورتان لدفن جثة الرضيعة في حفرة أخرى داخل حفرتهما، وتجد آمال أثناء محاولتها الخروج ومجاوزة الحفرة الموت والدمار وأن المطبخ كُله كان قد اختفى، وتجد في الطرف الآخر جثة الجار أبا سميح وقد أردَاه الجنود

[52] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص108.

[53] المصدر نفسه، ص112.

قتيلا، وقد رفض الاستسلام في تحدٍ: "رأيت أبا سميح ملقًى على الأرض ومسدَّس في يده وابنه الميت على ذراعه الأخرى. استَلقى هناك، عيناهُ فارِغتان، تحدِّقان باستنكار أبدي"[54]..

على الطرف الآخر، ومع الجرءة والشجاعة التي يقدم عليها يوسف في مواجهة الأعداء إلا أن تعاطفه الإنساني يمنعه سلب الآخر حياته، وهو ما يؤدي إلى وقوعه أسرَ سجون الاحتلال، حيث يخبر الجندي "يرئيل" صديقه دافيد –إسماعيل– عن شاب فلسطيني يماثله في الصورة والملامح، الفضول الذي يدفع دافيد نحو المعتقلات، حيث يلتقي الشقيقان وكل منهما بهويَّة مغايرة للآخر، إلا أن الفارق يكمن في معرفة يوسف باختفاء أخيه إسماعيل وأمر الندبة، بينما يجهل إسماعيل حقيقته التي بناها مختطفوه على الأكاذيب، وتتأكد الحقيقة ليوسف بالشبه الكبير الذي يجمعهما والندبة الواضحة في وجه أخيه، إلا أن الصدمة في واقع كونه من جنود الأعداء.

أما دافيد فيحتقر هذا الشبه الذي يجمعه بشاب عربي أمامه، بفعل المبادئ التي يتربَّى عليها وسط أفراد عائلة صهيونية، وبفعل ما يتلاقه خلال مرحلة التجنيد الإجباري من تعليمات بالتحقير للذات الفلسطينية والحقد على العرب، فيُعرِّض يوسف للضرب والتعذيب، إلا أن شعورا غير مفهوم يداخله مع اكتشافه حقيقة كونه ابنا لغير موشيه، الأمر الذي يدفعه للبحث عن إجابات لأسئلة كثيرة تحيط بماضيه، وقد اتضح له صدق الشبه القائم بينه وبين يوسف.

تتشكل الفاجعة كمأساة جماعية في مخيم جنين بعد تدميره، وبأحداث القتل التي عقبتها والاقتلاع المتكرر الذي لاحق الأهالي، وتبرز كأحداث محورية في التحوُّل الذي يطرأ من بعدها على الشخصيات: داليا وآمال بعد اختفاء حسن الذي لا يُعرف مصيره ولا يعود من الغياب، أسر يوسف وتعذيبه في سجون الاحتلال، وعودته بعد إطلاق سراحه شخصا معذبا صامتا منعزلا غيَّرته رحلة العذاب ورِفاقُه الناجين منها، فهو فاقد الحس، هزيل، واهن، أكبر من عمره بعشر سنوات، يخفي لقاءه بأخيه إسماعيل..

[54] المصدر نفسه، ص114.

كلها تحضر كرغبة جامحة للانتقام من الاحتلال الذي دمَّر حياته وحياة شعبه وأرضه وتدفع يوسف مجددا باتجاه المقاومة وحلم التحرير، فيغادر المخيم للالتحاق بالمقاومة كحلٍ أول وأخير للخلاص من ذلِّ العدوان، واستردادا لحقه وحق عائلته وأبناء شعبه، إلا أن هذا الرحيل يلقي بظلاله على شخصية آمال وداليا، فالحزن المسيطر على عالم والدته يتعمَّق وتزداد حدَّة الاغتراب وانفصالها عن العالم الخارجي، ويترك آمال بشعور أشبه بالخيانة بعد اختفاء والدها وغياب أمها عن الواقع وتخلي يوسف عنها، فالعزلة تلاحق أيضا شخصية آمال وتدفعها بعيدا باتجاه تلال جنين حيث تختفي بين أشجار الخوخ وتنفرد بذكريات الفجر التي جمعتها بأبيها،

من تلك التلال ترقب آمال الروح الحية للتفاصيل التاريخية للمكان الزاخر بإرث حضاري وثقافي ومعالم تاريخية، طَغت على كل محاولات التهويد وتغيير المعالم، الصورة التي تتضح لآمال في وحدتها على أعتاب موطنها، فهذه الأرض التي زرعها أجدادها وكان لهم الفضل في إعمارها وأحقيَّة البقاء فيها، الأرض ذاتها التي كلفتهم كلَّ ما ملكوا، ودفعت بهم تجاه الغربة والرحيل، إلا أن هذه الأرض ملك لهم، مؤكدة لذاتها في حوار داخلي: "هؤلاء الذين أخذوا الأرض المجيدة التي كانت تتلألأ بالخَضار، إلى جانب المياه الزرق للبحر المتوسِّط منذ ما قبل زمن موسى، يدَّعون أنها كانت كالصحراء، وأنهم هم الذين جعلوها تزدهر وتخضرّ. سكبت شمس رائعة ضوءها على التلال مثل الطلاء الأصفر، وأضاءت البيوت العربية القديمة التي تقاوم مخاطر الهجر."[55]

فالفكرة الأساسية التي تحيل إليها الكاتبة من خلال المشهد، هي التي ميزّت الرواية التي تبنَّتها الحركة الصهيونية، والتي كان من أهمها اضفاء سمات دعائية في إعمارها لأرض فلسطين محاولة لإخضاع الحقائق بأي ثمن لخدمة موقفها السياسي، وتشويه المعطيات التاريخية في ادّعاء أن أرض فلسطين المضاعة كانت تستلقي بانتظار اليهود ليعودوا ويُصلحوها ويسكنوها، وهي مزاعم كاذبة تبعد تمام البُعد عن حقيقة ما خلفته الصهيونية من دمار على أرض فلسطين شهد عليه التاريخ والبشر، ومن تشريدٍ لشعبها المتجذر بها منذ القِدم رغم

[55] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص179-180.

الإبادة والمجازر المتواصلة تجاه حقّهم في حريّة البقاء ودفع العدوان، وهي في الحقيقة ادّعاءات تسخرها الحركة الصهيونية لضبط وقع خطواتها بدقة -كما أشار كنفاني- مع برنامجها الصهيوني السياسي، والذي يصبح كل يوم مع كثرة إلحاحه أكثر عرضة للتناقض[56]..

من خلال شخصية آمال تعود الكاتبة إلى مشارف جنين حيث تقطع خُطى العودة باتجاه المخيم ويُطلق عليها الجنود النار من مسافة قريبة، الجرح البالغ الذي يُمزّق أجزء من بطن آمال، ويبقي جسدها الصغير مشوها بندبة لا تزول، وتوجد في ذاتها شعورا دائما بالتشوّه والنقص وانعدام الثقة، وهي ترجمة لمعالم التشويه النفسي والجسدي الذي لحق بها وبالذات الفلسطينية وقد تجرَّعت مرَارَة الحروب منذ أمد الاحتلال، كما لاحقت حياة الأفراد جراء أفعال الآخر الصهيوني العدائية والمتوحشة والتي تفشت في الضفة وقطاع غزة حتى اليوم، فلم تعبأ أو تميز يوما بين الضحايا حتى مع كونهم أطفالا.

بمرور عام على أحداث حرب النكسة والتحاق يوسف بصفوف المقاتلين في منظمة التحرير الفلسطينية وقد اتَّخذ أفرادها موقعا مُجاورا لحدود بلدة الكرامة الأردنية التي ضمت مجموعة من المخيمات الفلسطينية للاجئين، يتصدَّى يوسف والمقاتلون لهجومٍ شرس من القوات الصهيونية يستهدف القاعدة المقاتِلة للمُنظمة، ويظهر المقاومون خلال أيام المعركة وأمام عدوهم شجاعةً لا تقهر، يحقق يوسف ورفاقه فيها انتصاراتهم بأسلحةٍ خفيفة أجبَرت جنود الاحتلال على التراجع والفرار، يُتَوَّج يوسف فيها كأحد أهم أبطال معركة الكرامة عام 1968م.

أما آمال فبفقد جميع أفراد عائلتها تنتقل للعيش في مدرسة داخلية للأيتام في القدس، ويبقى حُلم والدها حسن وذكرى تشجيعه دافعها الأول لمواصلة التعليم، فتحصل بتفوقٍ على بعثة تؤهلها للدراسة في الولايات المتحدة. وتُغادر آمال في سبيل الحصول على فرصة لتعليم أفضل، وتستقر حتى مراحل دراساتها العليا في الولايات المتحدة، حيث تجتاز مراحل التعليم بإرادة صلبة، إلا أن مشاعر الاغتراب الداخلي المضطربة واهتزاز الثقة تلازم هذه الشخصية وتتركها في شتات بين عالمين، فتندفع تارة نحو رغبة الاندماج، وتبقى في العديد من الأحيان

---

[56] انظر: غسان كنفاني، **في الأدب الصهيوني**، (جمهورية مصر العربية: القليوبية، دار الوطن للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 2016م)، ص94-96-97.

رهن حالة الاغتراب وأسر الماضي الذي انفتح من القَيد إلى عالم لا حدود له، فتفرض عزلتها الذاتية على محيطها الدراسي وهي تتخطى الأعوام بنجاح.

والشتات الذي لاحق عائلة أبو الهيجا بفعل التشريد الصهيوني للذات الفلسطينية ظل متواصلا حتى منعطفات حياتهم، يوسف الذي يُرحَّل مع أفراد منظمة التحرير الفلسطينية من الأردن في أعقاب حادثة أيلول الأسود يضطر للرحيل والعيش في لبنان، مع مسيره النضالي الذي يُكتب له النجاح، ويرتقي برُتبته كقائد بين أفراد المنظمة، مُرتبطا بفاطمة التي عرفها وأحبها وهو يكبر في المخيمات. تلتقي آمال بيوسف وزوجته وابنته فلسطين، وترتبط في قصة حب تجمعها بصديق أخيها ماجد.

الأحداث التي تأخذها الكاتبة تجاه العام 1982م، حيث يعود الاحتلال الصهيوني مع تنامي رغباته العدائية والمتلازمة بدوافع الحقد والانتقام لملاحقة أفراد المقاومة بهدف تصفيتهم والقضاء على مُنظمة التحرير على جميع حدود الدولة الفلسطينية وتحطيم فكرة المقاومة، فتمُدُّ أذرعها الخبيثة لتجاوز خريطة المكان الفلسطيني، وتوغل بعصاباتها المتطرفة في التوسُّع لاجتياح أرض لبنان، وقد عقدت صفقاتٍ مع الميليشيات المسيحية المتطرفة.

يصدق ظن يوسف في استقراءه لخلق الجيش الصهيوني لأسباب وهمية لأهداف التوغل للغزو، وليحفظ أمن عائلته يسعى وماجد لعودة آمال إلى الولايات المتحدة لتنضم إليها لاحقا فاطمة وفلسطين، في حين يبقى الصديقان مع أفراد المقاومة، تُغادر آمال لطلب اللجوء، الأمر الذي يتطلَّب ما لا يقل عن الشهر لاستخراجه، وهو زمن لم يكن العدو ليغفل عنه، فيروغ بدعوى حِفظ السلام، والقضاء على الإرهاب ويجتاح بالقصف والقذائف أرض لبنان ممتدا على طول ساحلها بجيش خلَّفَ معه الموت والدّمار، حين ينخرط يوسف وماجد في العمل على إسعاف الضحايا ونقل الجثث، يقرر ماجد عندها اللحاق بآمال لاطمئنان على ابنته التي لم يرغب لها أن تولد يتيمة حال فقده، ومع عودته إلى شقَّته استعداد للمغادرة يتلقى المبنى السكني قاذفة تنهار به، حيث يُقتل الأفراد كما يُقتل ماجد.

تعصف أيام الحرب العاتية بلبنان، وتستدعي الاتفاقات الدولية إنهاء الحرب بترحيل أفراد منظمة التحرير الفلسطينية منها، معها ينتقل المقاومون إلى تونس ويُجبر يوسف على الرحيل القسري مرة أخرى، وقد ترك فاطمة وابنته فلسطين في عهدة ضمانات قدمتها الدول

الغربية بحفظ أمن العائلات في المخيمات، وقبلت بها السياسات العربية. اللحظة التي انتهزتها العصابات الصهيونية والميلشيات اللبنانية المتطرفة للقضاء على الوجود الفلسطيني المتبَقي من المدنيين والنساء والأطفال، فتعطي العصابات الصهيونية بقيادة شارون الضوء الأخضر للميليشيا المتطرفة بمحاصرة المخيم، ويتم سحق الوجود البشري في واحدة من أبشع المجازر التي عرف التاريخ وحشيتها في مخيمات صبرا وشاتيلا.

الصور التي حملتها الأخبار إلى يوسف وآمال، بتمثيلٍ كان الأكثر إجراما وتنكيلا بالجثث، وقد تكدست الأشلاء واختلطت ببعضها بعد الذبح والرمي بالرصاص. بين تلك الأشلاء يجد يوسف عائلته: فاطمة وقد شُقَّ بطنها بعد اعتداء وحشيّ وقتل الجنين في رحمها، وابنته الصغيرة فلسطين وقد ذبحت ولآذ المجرمون بالفرار. هذه الطعنات لاحقت مجازا أرض فلسطين وقد تعاقبت عليها مخذولة طوال أعوام الاحتلال، وتركت لأيدي المجرمين وأصحاب المصالح دون محاسبة أو عقوبة رادعة، وهي المذبحة التي تحدث تغييرا جذريا على ذوات الشخصيات المحورية: يوسف وآمال، بعد الفقد المتكرر لعائلتيهما، وتكرار الدفع بهما نحو منفى آخر، تتعاظم فيه المشاعر الحدَّية، وتنهار في نظرهما قيمة الحياة، ويبقى الاتصال الأكبر لهذه الشخصيات بالواقع قائما على اغتراب داخلي يلازمها، وتفصلها بعمق مع ذواتها وآلامها بعيدا عن حدود العالم الخارجي، فتنقلب شخصية يوسف المحبة الوادعة بتَغيير يطغى على حس المقاومة لديه ليتحول من مُقاوم بطولي، إلى مُنتقم عدائيّ يتطرف في رغبة الانتقام ويتجاوز معها كل حدّ التي يمكن أن تبلغها، حين يتعهد برَدٍّ ساحق على المجرمين بمشاعر الغضب المشتعلة في ذاته، وقد رأى خذلان القيادة التي آمن بها للمقاومة وأبناء الوطن، وصمت العالم تواطئا لا يُغتفر: "لَعَن يوسف إسرائيلَ والأمريكيين، ورونالد ريغان، وعرفات، والعالم، لم يُوَفِّر زعيمًا ولا إلهًا ولا شيطانًا"[57]، هنا تتحوَّل الرغبة الكاملة للذات لهدف واحد هو تجريع العدو ذات حِدَّة الألم الذي دمَّر حياته: "لقد حُرم، وسُجن، وعُذِّب، وأُهين، ونُفي؛ بسبب الرَّغبة في أن يتملَّك نفسه، وأن يرث الميراث الذي ورَّثه إياه التاريخ"[58]، وتتعاقب الصور المظلمة على الذات قاتمة، مليئة بانعكاس وحشية الإجرام الذي مزَّق أهالي

[57] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص336.

[58] المصدر نفسه، ص354.

المخيم إلى أشلاء، وتحلّ مشاهد تقطيع الجثث محل أجمل الذكريات التي عرفها يوسف، محلّ الحب الذي عاش أيامه الأخيرة عليه، على حُلم بحياة هانئة، وصديق وفيّ، برفقة ابنته فلسطين، وطفل لم يُترك لاكتمال نمو، أو قدوم طبيعي إلى العالم، والحب حياته فاطمة التي فقدها مع حرب ال67، وفي أعقاب مجزرة صبرا وشاتيلا إلى الأبد، تحاصر هذه المشاهد شخصية يوسف والوحشية التي خرجت من المخيمات وسافرت لتحط على أسماع عالم أصم: "أنا رجل مسكون، تمتلكني الآن جثثهم. العاصفة تتكوَّن في داخلي. لا أنام ولا أستطيع رؤية الشمس. حنقٌ شيطانيٌّ يفور في عروقي، لعله يكمن بعد رحيلي. لعلكم تتذوَّقون مرارته. أسعى للانتقام، لا أكثر. لا أقل. وسوف أحصل عليه. ولن ترَوا أيَّ رحمة"[59]، هي رسالة أخيرة يتركها يوسف قبل التوجه لبيروت، تسرد عنه آمال: "ذهب أخي إلى غير رجعة. اجتاز الهاوية الملتهبة التي مازلتُ أَجتُم أمامها، وهبط على شاطئ الانتقام الهادئ الطليق. لقد تَرك روحه تهيم في صبرا وشاتيلا، حيث تمدَّدت زوجته وابنته في مقبرة جماعية تحت أكوام القمامة، في ظلِّ حصانة قاتليهم، في إطار الوعود الزائفة للقوى العُظمى، وتحت لامُبالاة العالم تجاه الدم العربي المسفوك".[60]

شخصية آمال التي تُطفَئُ رغبةُ البقاء على قيد الحياة في عينيها بعد مقتل ماجد وفاطمة وفلسطين ورحيل يوسف الأخير لأخذ ثأره، بعد أن سُحقت تلك الأحلام، وأصحابها، وعوائلها، وهُدرت دماؤها، وهُتكت أعراضها في ظُلمٍ آثم، هنا تحاصر آمال أيضا مشاعر الألم الحادّ، بعزلة والانفصال عن الواقع، يماثل انفصال والدتها داليا عن واقعها من قبل، وقد توارثت هذه الأجيال أقدار آباءها، فتسرد مع ولادة ابنتها سارة: "أبقيتُ مسافة ما بيننا، فرضَت عليَّ هذه الرضيعةُ الرقيقة إرادة الحياة، وأنا استأتُ منها لأجل ذلك، لأن كُل ما رغبتُه حقًّا في ذلك الوقت، هو أن أموت"[61]، مرحلة من الاغتراب الذاتيّ المطلق تتراجع فيها مقدرة آمال كأُم على التقرب من ابنتها إلا بإيجاد مسافة بينهما، تدافعها في أحيان نادرة لإحياء الذكرى القديمة للصباحات التي جمعتها بأبيها حسن فيما مضى، وتقرأ لسارة في

---

[59] المصدر نفسه، ص357.

[60] المصدر نفسه، ص344.

[61] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص354.

ساعات الفجر التي لم تغادرها: "هزَزتُها على صدري، وأنا أقرأ لها عند الفجر، كما كان يقرأ لي والدي في أيام الحب التي ولَّت منذ زمن بعيد"[62].

الأيام التي تدفع بيوسف إلى واجهة الصحف المحلية بتهمة التفجير الانتحاري لمبنى السفارة الأمريكية في بيروت، تُستدعى آمال على خلفيتها وترفض التهم الموجهة إلى يوسف مع الرهبة بأن تكون هي الحقيقة، والتهمة التي تضع آمال تحت مراقبة دائمة من قِبل الشرطة الأمريكية، وهي صورة عن الملاحقة التي تعرضت لها الذات الفلسطينية في الخارج والداخل ولازمتها كشخص مُلتبس الوجود مشكوك الهويَّة، مُصنّف في مرتبة أدنى بتكرار التهم الموجهة إليه في أراض الشتات.

العزلة التي تفرضها آمال على نفسها، تدفع بابنتها لمعرفة الحقيقة عن أصول والديها وخلفياتهم التي غُيِّبت عنها، فتتطوع في مرحلة دراستها الجامعية مع جماعة منظمة العفو الدولية المحلية، ومجموعة ناشطة: "طلاب من أجل العدالة في فلسطين".[63]

وتعود الكاتبة بفصل آخر من فصول الرواية، إلى عائلة موشيه الذي يعترف قبل وفاته لدافيد بحقيقة كونه ابنا مختطفا من عائلة فلسطينية، السر الذي شكَّل بمرور الأعوام عبئا ثقيلا على موشيه، بفعل الأشباح التي طاردته عن صورة داليا صارخة تبحث عن ابنها، والصَّدمة التي تأخذ بشخصية دافيد بعيدا وقد كُشفت له الأكاذيب: "ألقت هذه المعرفة بدافيد في هوَّة واسعة بين الحقيقة والأكاذيب، بين العربي والإسرائيلي، بين المسلم واليهودي"[64]، هوَّية تُمزِّقه بين عالمين، ويؤثر الرحيل والبحث عن هويَّة العائلة التي انتُزع منها.

تقدم يولانتا اعتذارها عن خداع دافيد، إلا أنه اعتذار يأتي بدع الخوف من فقد الطفل الذي أحبته وربته، وتترك لحرية الاختيار بعد انقضاء الأعوام للبحث عن عائلته الفلسطينية، فالتناقض يظهر واضحا في شخصية يولانتا وأفعالها، فاعتذارها يتوارى بهدف عدم الخسارة، واللحظات التي كانت لتُقدَّر"لإسماعيل" وسط أفراد عائلته، وآلام الفقد التي مزَّقت واقعهم بغيابه، وتركت حسن للأسى وداليا للجنون لم تكن لتعوض باعتذار.

---

[62] المصدر نفسه، ص364.

[63] المصدر نفسه، ص378.

[64] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص375.

كشف دافيد للحقيقة يجمعه بآمال في لقائهما الأول في أرض الاغتراب –أميركا– منها يقطعان طريق العودة إلى وطنهما الأول فلسطين، إلى هويَّتهما وتاريخها الأصيل إلى إرث أجدادهما والعائلة، يعود الأخوان برفقة أبناءهما، وقد تمثلا الجيل الرابع الذي يحقق حلم العودة.

تقطع آمال الحواجز المصطنعة التي تضاعفت في وطن غُيّرت معالمه في غيابها، مرورا بالقدس والمخيمات حيث التغيير شوَّه معالمها كما شوَّه حياة الأفراد، ملامحهم وذكرياتهم، وحيث المدن مقطّعة الأوصال والحدود، الملامح ذاتها التي وجدها مُريد وفصّلها في عودته ومروره بمدينة القُدس التي باتت شبه مُحرَّمة، حيث تلتقي آمال بآري صديق والدها حسن، أستاذا في الجامعة العبرية، مُحتفظا بفكر حيادي، ينبذ العنف والظلم السياسي، يحسن الترحيب، مندهشا بأبناء صديقه الوفي وأحفاده: آمال ودافيد وسارة ويعقوب، ويعيد إليهما ذكريات الطفولة وماض بعيد جمعه بصديقٍ نادر، رغم كونه مقاوما صلبا إلا أنه لم يفقد جزءا من إنسانيته العالية التي ميزته، وغَامَر بها في سبيل إنقاذه وعائلته.

بالعودة إلى مخيم جنين تلتقي آمال بعمها درويش وصديقتها هدى التي تُمضي الأيام في منزلها، حين يُفرض الحصار لتسعة أيام أخرى، يُهاجم فيها جنود الاحتلال المخيم، ويُعتقل أصغر أبناء هدى "منصور" مجددا بعد اعتقاله السابق في السادسة من عمره، انتهاكا صارخا عُرفت به جرائم الاحتلال حتى يومنا باعتقالها المتواصل والمتكرر لأطفالٍ قُصَّر، ويعود باستنزاف يُكبّد العائلة وأقاربها فدية خمسمائة دولار، وفاقدا للقدرة على الكلام.

خلال الحصار المشدد الذي يفرضه الآخر الصهيوني في مُحاولة لإخضاع المكان ومحاولة نسف وجودها المقاوم وكما يتكرر أيضا خلال الأعوام، فرض مستوى عالٍ من الحصار يحيط بمدينة جنين، تتمثل

معركة وجود للذات الفلسطينية المقاومة وفكرها المسلح، المواجه للآخر الصهيوني الفارض للموت بكل أساليبه: بقطع وصول الماء والطعام، وتصفية الشبَّان المقاومين وأفراد من عائلاتهم وهدم منازلهم واختطاف العديد من الأطفال إلى السجون ومواقع مجهولة..

نفاذ الماء والطعام يدفع بآمال للخروج والتقصّي في لحظات الفجر الساكنة لليوم التاسع من فرض حظر التجوال، في ظنٍّ بأن الخطر توارى بُعادا عن المخيم، حين تُذهل بشاحنة معبأة بالجثث، وجثّة جمال الإبن المنتظر الآخر لهدى، مُشوَّهة المعالم: "كان معلَّقاً

ميتا على وتدٍ معدني ناتئ على جانب مبنى مهدَّم جزئيًّا. كانت عصابة رأسٍ ذات تربيعات سودٍ وبيض لا تزال تتشبَّث برأسه"[65]، ترفع آمال عينيها لتجد قناصة جندي على بعد مصوبة تجاهها، وتلتقي عيناها بمسدس آخر يُصَوَّب إلى جبهتها، هي لحظة تُقبل فيها آمال مستسلمة إلى الموت بلا خوف، إلى لحظة انتظرتها: "أشعر بصفاءٍ لا يُمكن تفسيره. الموت يَغمُرني في يقينه واحترامه وسكينته المستحقة قبل أن يأخذ بيدي"[66]، تحمل تلك الإنسانية المبررة التي عُرف بها حسن، فهي مُشفقة على خلفية هذا القاتل الذي يبدوا أصغر سنا من أن يكرس حياته لمثل هذه المهمة، مقاربةً صورة دافيد التآئه بهويَّة صهيونية فُرضت عليه، وضياع أغرقه في تجنيدٍ إجباري، وفهم لحقيقة اغتراب هذه الذوات عن إنسانيتها وهويّتها الأولى، بتفعيل تقنية الحوار الداخلي –المونولوج– يتعمق صوت الساردة: آمال في وصف خلفية الآخر المواجِه لها، وفهم محايدٍ لدوافع النفس الكامنة للجندي الشاب الذي سخّر ذاته لسلوك الإجرام، وسهل إعماله لحساب الأجندة صهيونية، كآلة قتل عدوانية، فهي أصغر من أن تكريسها لحياة الإجرام: "أشعر بالحزن لأجله. لأجل الصبي المكبَّل إلى القاتل. أنا حزينة لأجل الشباب الذين يخونهم قادتُهم من أجل رموز وأعلام وحرب ونفوذ"[67]، وهو مشهد يُحيل إلى الحقيقة التي تفرضها الأجندة الصهيونية الإسرائيلية من مبادئ متطرفة في دعم غاياتها، حيث يُقدم الشباب على اعتناق أفكار تدعوهم منذ مراحل عمرية مبكرة إلى البقاء في حالة من التأهب لحرب دائمة، والحثّ على الانضمام لوحدات التجنيد الإجباري، فهو ما تبرزه الأحداث المتتابعة للنشأة التي تتلقاها شخصية دافيد ورفاقه في مرحلة لاحقة في الجيش؛ حيث أصبحت الحروب بالنسبة لوجدان الآخر الصهيوني الإسرائيلي حالة حرب دائم كدائرة مُغلقة لا فكاك منها، وبناءا عليها تحول المجتمع الإسرائيلي إلى ثكنة عسكرية تحيا على قيمٍ عسكرية متطرفة، على رأسها النزعة العدوانية تجاه العربيُّ، وفكرة كونه هو العدو اللدود.[68]

---

[65] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص447-448.

[66] المصدر نفسه، ص448.

[67] المصدر نفسه، ص449.

[68] رشاد عبدالله الشامي، **الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية**، ص211.

وفي مشهد مأساوي يأتي اندفاع سارة لمنع الجندي من قتل أمها، وقد أصبحت كذلك هدفا لقناصة أخرى، تدفعها آمال مُرعبةً من فكرة فقدٍ آخر، لتفتدي ابنتها وقد أطلق الجندي رصاصه لتسقط آمال قتيلة، وقد حال الموت دون حلمها الأخير بالبقاء بعد العَودة في الوطن. ظلت آمال متمسكة في صورتها الأخيرة بمعالم المقاومة الذاتية، لم تَجبُن فيها أمام الموت عن حماية عائلتها: ابنتها التي وجدت في رفقتها وفي أيامهما الأخيرة معا في جنين الحب المماثل للوطن "سارة. أجمل أغنية في حياتي. سارة هي وطني"[69]، محافظة على حسّها الإنساني لآخر لحظاتها رغم كونها ضحيّة مباشرة لعدوان الكيان، إلا أن حياتها تُنهى في مقبرة جماعية تضم ثلاث وخمسين جثة، وقصة أخرى، في مُحاولة لطيّ تاريخ مجزرة أخرى مُلئ بالقتل والإجرام للنسيان، وقد تلاشت معاني الحيادية التي قدمتها الشخصية بتطلع صادق إلى خلفية الجندي ودوافعه العدوانية للحظات بلا معنى، أمام قرار خالص بالاندفاع في طريق الإجرام لتصفية أكبر قدر من الضحايا دون اعتبار أخلاقي أو إنسانيّ، حين يُلحظ في استنتاج صحف غربية أن ما وقع لم يكن مذبحة وإنما "مسلَّحون فقط هم من قُتلوا في جنين"[70]، وقد أفلتت القوات الصهيونية في اعتياد دون محاسبة أو جزاء، وبقي للتاريخ ولأبنائه بالثأر، لما ألحقته بالمخيم وضحاياه من قتل ودمار، حيث تمضي سارة أيامها الأخيرة، وقد ظلت على عهد والدتها وعائلتها تكتب للعالم عبر شبكات التواصل عن أمها والأرواح التي أُزهقت منها الحياة.

بعودة سارة إلى الولايات المتحدة إلى منزل والدتها الذي كبرت فيه ينضم إليها منصور ابن هدى ويعقوب ابن خالها دافيد حيث يستقر الجيل الرابع معا، في صورة أخيرة تشكل تطرح من خلالها الكاتبة مفارقة التعايش السلمي بين هذه الشخصيات كأمر ممكن في حال نبذ أسباب النزاع، حيث يجتمع أفراد بهويَّات ومعتقدات متعددة تحت سقف واحد، مؤثرين العيش معا رغم الفوراق، بعيدا عن عالم الحرب السياسية والعنف: "بالأمس كنتُ هناك،

---

[69] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص451.

[70] المصدر نفسه، ص463.

وعلَّق أسامة على كيفية عَيشِ أولادنا معا مثل الأشقاء في بيتكِ في بنسلفانيا. أمريكي وإسرائيلي وفلسطيني. قالت هدى: كم هو رائع ذلك!".[71]

فلعل ما تراه الكاتبة من خلال تلك الصورة احتمالا قائما هو أمر ممكن، لكن على خارطة أخرى لم تعرف المجازر والقتل والعدوان، أو دائرة تكون هي الأبعد عن الصراع اليومي القائم على حرب متواصلة، أو على أرض أخرى لم تُنهب من أبناءها، فقد تتمثل "الفضاء البيني المحايد"[72] الذي يخلوا تاريخه من انتزاع قائم على احتلال عسكري استعماري، وجرائم عصابات وتطهير عرقي على امتداد أعوام لا يُسقط حقها التقادم.

ويكشف الفصل الأخير من العمل عن سرٍ تسرده الكاتبة على لسان شخصية يوسف، فقد آثر الرحيل على الانتقام، والبقاء لإعداد آخر في منفى مجهول: "أعلم أنه لا يُمكنني تدنيس حب فاطمة بالانتقام. وعلى قدر ما أريدهم أن ينزفوا، لن ألطِّخ اسم والدي بالأكاذيب التي سوف يقولونها. لا أستطيع أن أترك آمال وحيدة في العالم"[73]، فيجمع آلامه مغادرا أرض لبنان، منتصرا على رغبته المعجلة في الانتقام والرد المماثل، "سوف أعيش هذا الألم، ولكني لن أتسبب فيه. سوف أبتلع غيظي وأسمح له بحرق أحشائي، لكن الموت لن يكون إرثي"[74]، وبعيدا عن ما يُلفَّق باسمه من تُهم، وما تحاوله إحدى الجماعات المتطرفة من تغرير به، إلا أنه يرفض مقابلة الإجرام المرتكب في حق عائلته بجُرم آخر في حق أفراد أبرياء، ويؤثر الرحيل والتواري المؤقت عن أنظار أعداءه.

المبحث الثالث: الذات المُقاومة والاغتراب في رواية "الأزرق بين السماء والماء"

في عملها السردي الثاني: "الأزرق بين السماء والماء" تصوغ الكاتبة أحداث قرية أخرى من قُرى الريف الفلسطيني وهي قرية بيت دراس حيث تسكن العديد من القبائل المتجذرة كما سكنت عائلة بركة قبل العام 1945م، وتمتد الأحداث كذلك عبر أربعة أجيال من العائلة، وهي عائلة ذات أصول متواضعة، يمثل الجيل الأول من هذه العائلة الأرملة أم ممدوح، والجيل

---

[71] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص468.

[72] انظر: رامي أبو شهاب، **في الممر الأخير: سرديَّة الشتات الفلسطيني منظور ما بعد الكولونيالي**، ص319.

[73] المصدر نفسه، ص469.

[74] المصدر نفسه، ص470.

الثاني من أبناءها الثلاثة: نظمية وممدوح ومريم، والجيل الثالث من الأبناء، والرابع من أحفادهم، تجمع الأحداث بين الوقائع التاريخية، والخيالية والدراما الإجتماعية.

الابنة الصُغرى للأرملة أم ممدوح مريم تحمل في طفولتها إحدى الهِبات التي تمكنها من رؤية الهالات المحيطة بأرواح الناس وتنكشف لها حقيقة نواياهم، تميزها عينان متضاربتا اللون، بُنيّة وأخرى خضراء، مريم التي تحلم في عمر مبكرة بالدراسة في مدارس القرية المخصصة حينها للأولاد فقط، "لطالما راقَبت مريم بحَسرة أخاها وغيره من التلاميذ أثناء سيرهم نحو قِمَّة التّل بزِيهم الموحد، كل منهم يَحمل كتابا وقلما، يَقصِدون ذلك المبنى الساحر بغرفتيه ومعلميه الأربعة وأقلامه الكثيرة"[75] راقبت مريم التلاميذ وأخاها ممدوح من بعيد وتدعوا الله أن يرزقها "قلما حقيقيا"[76] فتتخذ العزلة بأحلامها إلى جانب النهر في القرية، حيث يترائى لها طيف خالد الحفيد الأصغر الذي لم يقدم إلى العائلة بعد كطيف خيالي، يعلمها القراءة والكتابة.

تبرز شخصية والدتها: "أم ممدوح" التي تُعرف بمرافقة للجنِّي سليمان والذي يتلبسها في العديد من الأحيان، ويكسبها شخصيةً مُهابة بين أفراد القرية، تُسخِّر أم ممدوح قوى سليمان لمحاربة الغزاة من اليهود القادمين، فمع قدوم الأحداث الدموية لعام النكبة، يتوجه مخاتير القرية إلى أم ممدوح لقطع الشك عن ظنونهم حول اليهود القادمين إلى أرضهم والتعرف من خلال الجنيّ سليمان على حقيقة نواياهم، فتحذرهم من الشر القادم للوطن والقرى وما يضمره اليهود من كيد وعداء: "سيأتي جيراننا ومعهم أُناس آخرون، ويُسيلون دَم البدرواسيين من بيت دراس. ستنتصر بيت دراس. وأنتم ستقاتلون وتعيشون إن شاء الله، لكن لكم إخوة وأولادا سيُقتلون. وهذه لن تكون آخر مرة تقاتلون فيها لأن اليهود سيرجعون بعدد أكبر ويجعلون السماء تمطر موتا. لكن البدرواسيين رؤوسهم يابسة ولن يتنازلوا، مرة بعد مرة سيظلون يواجهون العدو. لكن شر العدو سيكون أقوى منهم، سيسيل دم أهل بيت دراس من التل ويجري في النهر، وننهزم"[77]، يداخل الفزع أهالي القرية، ومع انطلاق العدوان والقتل في القرى والمدن يتشكّل هاجس ما قبل الصدمة الذي يصاحب عملية الاقتلاع لدى

---

[75] سوزان أبوالهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص12.

[76] المصدر نفسه، ص12.

[77] سوزان أبوالهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص27.

المجتمعات الفلسطينية، إلا أن أم ممدوح تَبُثُّ الأمل في أبناء قريتها، مؤكدة أن الحق حيّ كالروح، والأرض باقية لأبنائها مهما طال الزمان: "هذه الأرض ستَرجع فلسطينية وستَعمر من جديد حتى لو انهزمنا، توكَّل على الله يا أبا نِضال. أنا لا أَقبَلُ نقودا، الله يرزق ويحفظ الجميع. أنتم قاتلوا ونحن وراءكم، وابني ممدوح على رأس الكل، وأنا سأظل هنا أيضا ليساعدنا سليمان ويجب أن تعرف أن العدوَّ سيحضر معه عفاريت إبليس من جهنم. الله يطول عمركم ويحفظ بيت دراس وكل أهلها"[78].

أيام الغزو الهادرة تداهم قرية بيت دراس، وتسود ربوعها والقرى المجاورة لها حالة من الذعر والفوضى، وتنقطع تفاصيل الحياة الطبيعية، وتُحرم أم ممدوح وابنتها نظمية حفل زفافها، على أمل انقضاء الحرب التي يطمح الأهالي بنهايتها القريبة، فيُفرغون القرية من النساء والأطفال إلى بَرّ آمن باتجاه مدينة غزَّة، فيما يسخّرون أنفسهم للتحصن بالقرية والتصدي للغزو والعدوان والاستعداد للدفاع عنها، وبالفعل فهم يدفعون الأعداء القادمين إلى أعتابها إلى التراجع رغم أعدادهم وعتادهم القليل، فتعود العصابات الصهيونية حاقدة إلى القرية بدعم غربي، بمدرعات وذخائر وعساكر بأعداد هائلة، وتُصرُّ أم ممدوح على البقاء بجانب رجال القرية واستدعاء الجني سليمان لمساعدتهم. تُدمَّر قرية بيت دراس بعد حصار يمتد لأيام ويدفع بمن تبقى من الأهالي للنزوح، وقد سلبت منهم حياتهم وأملاكهم، تتوجّه أم ممدوح وابنها عطيَّة إلى الجموع المهجَّرة من القرية، وتُلاحق تلك الطوابير والعائدين منها بالقناصات وتُسقطهم قتلى، تخترق إحدى الرصاصات ساق ممدوح ويبقى بعرج دائم، وتشتعل أم ممدوح غضبا يستدعي سليمان، فيَحرِق أجساد الجنود، وتتفحَّم حول المكان، ويُرعب الجنود ويفتحون النيران على أم ممدوح: "إستدارت وصوَّبت نحوهم بياض عينيها، فأشعل الخوف في أحشائهم جهنما. ضغط أحدهم على الزناد، فخرجت مضرجة بدمائها وانطرح ابنها الجريح أرضا. تسمَّر الجنود في أماكنهم، تآكلت عظامهم وتجمَّدت قلوبهم، امتقعت وجوههم ببياض الموت، ثم تفلَّقت عن لهيب التهمها وتركها متفحِّمة"[79] قتل الجنود لأم ممدوح يشعل النار في أجساد من تبقى من الجنود حولها، يحرق سُليمان اثني عشر منهم ويتركهم جثثا متفحمة.

---

[78] المصدر نفسه، ص28.

[79] سوزان أبوالهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص37.

يتلخص حضور شخصية أم ممدوح في الفصل الأول من العمل، وكونها شخصية ثانوية، تبقى لعائلتها جزءا من ذكرى مأساة النكبة وقد اغتالتها العصابات في طريق العبور بين "سيل عريض من بؤسٍ إنساني تدفَّق من شرايين القُرى المنكوبة"[80]، إلا أنَّ ذكرها يخلّد كامرأة شجاعة باسلة وقفت إلى جانب رجال القرية في الحرب المستعرة، وسخرت ذاتها وقوى العالم الآخر لمحاربة اليهود المعتدين. تكريما لذكراها يحمل أحد الرجال جثة أم ممدوح التي صمدت طويلا إلى جانبهم لدفنها: "تَناقل الناس قصتها مرات ومرات، ومع تكرار الحكاية ما عادت تعرف بأم ممدوح، بل أصبحت أم سليمان، المرأة الباسلة من بيت دراس"[81].

الأيام الأشد قتامة تمر على نظمية بعد مقتل والدتها وإصابة شقيقها وفقدان مريم أثناء اضطرار الفرار بين جموع النازحين، تعود نظمية أدراجها، من طريق غزة إلى بيت دراس بحثا عن أختها، رغم طلقات الرصاص التي تغلق طريق الرجوع، والذعر الذي يداخل قلبها تستجمع الشخصية قواها، وتقدم ذاتها رغم الأخطار من أجل العائلة، تقطع الطريق الصحراوي في جنح الظلام، تصلي وتستجير الله في الليل المظلم أن يمد لها يد الشجاعة وتُكمل الطريق للعودة بمريم. مريم التي تحمي ذاتها في بئر القرية خوفا من القتل والدمار القادم برفقة العصابات الصهيونية، ومن البئر تعدو باتجاه منزل العائلة تختبئ بين الجدران.

مع طلوع الفجر وقد أسرعت نظمية خُطاها إلى القرية في حذر تجد مريم، إلا أن جنود الاحتلال القادمين لسرقة المنازل يباغتون الشقيقتين، تتصدى لهم نظمية في غضب: "الشرر الذي يقدح من عينيها أرغم الجنديَّين على التقهقر إلى الوراء"[82] الجندي الذي يهزأ من نظمية احتقارا ويعرضها للضرب المبرح، في لحظة تصورها الكاتبة وقد أظهرت معالم وحش بشريّ يحمل رغبة إنتقاميّة، ساديَّة مَرضية تتملك العصابات الصهيونية، وتظهر الحقد الدفين الموجَّه للذات الفلسطينية لإلحاق أكبر قدر ممكن من الأذى بهم كأفراد، ومَدِّ آثاره لتطال المجتمع، وما تخلل هذه الصورة المرضية من رغبة التسلّي بالعدوان، خلال تلك المجازر، ذكرها

[80] المصدر نفسه، ص36.

[81] المصدر نفسه، ص34.

[82] المصدر نفسه، 41.

التاريخ، وشهدها الحاضر خلال مجزرة طوفان الأقصى والتباهِ المقيت لهذه العصابات بالانتقام والتنكيل واستعراضه في مواقع التواصل الاجتماعي.

ينتقم الجنود من نظمية بالعُنف والاغتصاب الجماعي، بقصد الإذلال وتحقيرا لها ولمبادئها، وإجبارها على الحمل بطريقة غير شرعية. هي المأساة التي لم يقلّ دمارها ألما على الذات بمرور أيام النكبة التي عرضّت العديد من النساء لاغتصاب والاختطاف والقتل الوحشيّ. تسقط نظمية ومريم وقد أعدمت منهما الحياة، كما سقطت عن صورتهنّ قرية بيت دراس في أيدي المغتصبين الإجراميين من عصابات جنود الاحتلال.

يتراءى لنظمية طيف مريم الخارج من جثتها، تدفعها لضرورة ترك جثتها في القرية والمغادرة، تحمل نظمية من تساقط من الذكرى الأخيرة لمريم: صندوقها، أقلامها المفضلة، وترحل عن القرية حيث تحرق جثة مريم مع جثث الأهالي الأخرى.

في غزة تعود نظمية إلى جموع اللاجئين في المخيمات، ويبقى طيف مريم حاضرا يُلازم نظمية خلال أيامها، ويعينها على مجاوزة تلك الأيام تمسك عطيَّة بحبِّه تجاهها رغم ما يواجهه من رفض عائلته وازدراء المجتمع لها، مُصرا على تربية الطفل الذي أجبرت نظمية على حمله من مُغتصبها، طفل تمقته نظمية، ويملؤها الكره تجاه الطفل الذي قدم من صُلب الشر، بعنين رماديتين تماثل لون عيني الجندي الأقرب للشيطان. يعطف عطيَّة على الطفل ويربيه بين أبناءه ويعطيه اسم مازن، تعكس شخصية عطيّة قيما عليا، ويتمثل أهمية دوره في حياة العائلة التي تستند عليه وتتعافى بجانبه فهو زوج مخلص وأب محب حنون، تنجح نظمية برفقته في كسر ومجاوزة حاجز الصدمة التي خلفها الاحتلال، وتجاوزها لمحبّة مازن.

ممدوح الذي يبقى أعرجا بفعل طلقات عصابات الاحتلال على ساقه، يسعى للخروج من دائرة عجزه، والحصول على فرصة أفضل لمواصلة حياته، فالفُرص تتضائل أمام حالته، ما يدفعه للرحيل بحثا عن مستقبل أفضل يصنعه لذاته ومساندة عائلته، فيتجه للقاهرة بعد ارتباطه بياسمين، ومنها تتوالى محطات الاغتراب التي يتنقل بينها، وتحمله طُرق الرحيل إلى أماكن أبعد في أراض الاغتراب، مُتنقلا من القاهرة إلى الكويت مع زوجته وابنه محمد، ليستقر بعدها بثلاث أعوام في أميركا.

يكبر مازن ابن نظمية وتَكشف له الأيام حقيقة كونه ابنا غير شرعي لصهيوني اعتدى على والدته، فتعزله مشاعر الغضب التي تتعاظم في قلبه إلى اغتراب داخليّ عن الواقع والمحيط الذي ينتمي إليه، ويسعى للانتقام لوالدته، وسحق أيّ ارتباط قد يتمثّل له بهويّة الآخر الصهيونيّ، فيبرز كعلامة فارقة خلال العمل تتضح في كونه الشخصية المقاومة الأبرز. مُنخرطا في صفوف المقاومين حتى يبلغ رتبة قائد قسم العمليات السرية، ومطلوبا لدى سلطة الاحتلال التي تصل إليه في إحدى الليالي التي تجمعه بعائلته على شاطئ غزة، عناصر المخابرات التي تندفع لأخذ مازن تواجه ردا مماثلا بالعُنف من رفاقه واخوته، فيقتل العديد منهم رفضا لتسليم مازن، الذي يتحدى الجنود في جُرأة بدفع من تبقى منهم: "عندئذٍ ومن بين الفوضى انبثق تَحَدٍّ ملؤه عزم وتصميم. كان ذلك مازن، فقد قفز لحماية أبيه في المشاجرة. وضع أحد الصهاينة مسدسا على رأسه، فخمد الضجيج وتسمَّر الجميع في أماكنهم تحسبا. أما مازن فلم يجد الخوف سبيلا إلى قلبه، فشعر بامتلاء صدره بشجاعة طالما اشتهى أن يكون من أصحابها، أو لعلها مثَّلت ضعف تعلقه بالحياة وقبوله المتهور للموت"[83]، يرفض مازن التراجع أو تسليم نفسه متحديا محاولة الاعتقال بمقاومة شرسة، يتأكد منها للقوات أنه القائد المطلوب، فيتمكن الجنود بفضل الأسلحة وحسب من اعتقالهم والتنكيل به ورفاقه، والدفع بهم إلى زنازين سجن رامون حيث يحكم على مازن بالمؤبد.

ممدوح الذي يستقر في الولايات المتحدة للبحث عن حياة أفضل إلا أن حياة الاغتراب البعيدة تسلبه زوجته ياسمين التي تصاب بمرض مزمن، وابنه في حادث سير، وتأخذ نور حفيدته مجرى الأحداث والشخصية الرئيسية في العمل، ترث نور مميزات أخت جدها مريم في الهيئة فهي ذات عينين متضاربتيّ اللون خضراء وأخرى عسلية، وإمكانية لقراءة الهالة المحيطة بالأشخاص ونواياهم، علامة ترثها ودليل يقودها بعد أعوام إلى عائلتها الأولى في فلسطين.

يُحارب ممدوح من أجل استرداد حفيدته عن طريق المحكمة من زوجة ابنه الطامعة، ويفقد ما يجمعه من أموال، ويكتفي بحضانة نور، فيسكنان معا، وتكبر نور برفقة جدها،

[83] سوزان أبوالهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص65.

يقضيان الأيام سوية، يعطف على حفيدته ويقدم لها الرعاية ويلقنها أهمية القراءة والكتابة والتعليم كما يفعل حسن برفقة آمال، غير أن المرض يداهم ممدوح أثناء رغبته بالتوجّه معها إلى فلسطين، ويبقى أسير المستشفى حيث يُقدَّر له الرحيل عن العالم في أيامه الأخيرة في أرض الاغتراب.

الفقد الأول الذي تعرفه نور في عمر صغيرة هو فقد جدها ممدوح الرجل الوحيد الذي عطف عليها رغم من كونها يتيمة الأب إلا أن صدمة وفاة ممدوح تحمل أثرها البالغ على ذات نور، بفقدها لمصدر الدعم الوحيد الذي عرفته للاهتمام والأمن والاستقرار.

عن طريق مركز الخدمات الاجتماعية تُقيّد نور كطفلة للسكن في بيت رعاية آخر، حيث تبدأ رحلتها الخاصّة في الشتات وعدم الاستقرار، وتعرضها الدائم للعُنف والتنمر، ما يُبقيها كذلك في عمر صغير أسيرة للفقد المتكرر ولجدها ممدوح: "كانت تشعر بأن أحشاءها تتقطَّع وتتناثر في داخلها، مثل انفراط حبَّات العقد إذا ما انقطع الخيط الذي ينظمها. لعلَّها إن جمدَت في مكانها بلا حِراك، فإن جدها، الخَيط الذي ينظم كل قطعة فيها، لا ينقطع تماما. كانت تدري أن تلك البنت اللئيمة مُحقَّة، أن جدَّها قد مات"[84]، ويسرد عنها الحفيد الأصغر للعائلة خالد من العالم الآخر: "أبعَدنا التاريخ عن مَصيرِنا الشرعي.أما نور فقَذفت بها الحياة إلى بعيدٍ لا يُشبه كلُّ ما فيه أيَّ شئ فلسطيني. لا يُشبه حتى حياة اللجوء في الشتات. لذلك فإن من سخرية القدر أن تكون حياة نور تعكس الحقيقة الأساسية لمِعنى أن تكون فلسطينيًّا، منفِيًا، مَحروما من أرضك وممتلكاتك، وممنوعًا من ميراثك. أن تكون وحيدًا في هذا العالم بلا عائلة أو عشيرة أو أرضٍ أو وطن"[85]. فهو الشتات الذي ترثه نور عن موطنها وشعبها، ويدفع بها لنشأةٍ وحيدة بعيدة بلا عائلة أو انتماء، وسط مشاعر العزلة والصمت والاغتراب عن الأفراد والمجتمع، وتزداد حدَّة بعودة والدتها للظهور في حياتها من أجل الحصول على أموال تأمين جد نور، حين تقع نور ضحية لأمٍ قاسية متحجِّرة القلب تهمل رعايتها، وتتركها عرضة للاستغلال والتحرش الجنسي من قِبل زوجها المنحرف. وتعود

[84] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص48.

[85] المصدر نفسه، ص95.

موظفة مركز الرعاية الاجتماعية لنقلها إلى طريق آخر تبقى فيه نور تحت وصاية المحكمة، وتمضي بها الحياة من دار رعاية إلى آخر.

وفي العالم الآخر، عالم الحصار البعيد في غزة، تبقى نظمية في سعي لمحاولة للوصول إلى حفيدة أخيها في أميركا، فيترائى لنظمية طيف ممدوح ومريم في أحلامها يخبرونها بضرورة البحث عن نور وتعقُّب طريق عودتها إلى غزة بعد فقد نظمية جميع طُرق الوصول إليها. وقد واصلت نور طريقها في عُزلة عالمها الذاتيّ لتجاوز واقع الاغتراب، وتُبقيها أطياف مريم وخالد أيضا على اتصال ضبابيّ غير واضح المعالم مع عائلتها الفلسطينية في البعيد.

وتواصل نظمية إلى جانب ذلك مقارعة سلطات الاحتلال مُصرّة على حق زيارتها لمازن في الأسر، رغم محدودية الزمن الذي يقيّده الاحتلال، ولأسرى محددين فقط، وأمد يقتصر إلى 30 دقيقة، ومرتين خلال العام، إلا أن نظمية تقطع المسافات إليه فجرا، يَسرد عنها حفيدها خالد: "ثلاث سنوات برمتها قضتها ستّي نظميَّة في مُناكفة الإسرائيليين للتمكن من رؤية خالو مازن مرة أخرى. بعدها أصبح وقع حياتها كله ينضبط وفق مواعيد زياراتها لسجن رامون، بل باتت تربط زمن كل ما يجري حسب قربه أو بعده من تلك الزيارات"[86]. ورُغم بعد المسافة وقسوة الظروف التي يُوجدها الاحتلال، بمراكمة هذه العقبات وغيرها أمام الذات الفلسطينية المتمثلة في الأسرى وأمهاتهم وأهاليهم لكسر إرادتهم، وإيجاد اليأس في قلوبهم وإجبارهم على الاستسلام لواقع السيطرة المتغطرسة للاحتلال، تواصل نظمية العمل في إصرار مع الأهالي وكتابة الرسائل لهيئات الأسرى، غير آبِهةٍ بجنود الاحتلال، تواجههم بالنزاع في أحيان، والسخرية في أحيان أخرى، مُفاخرة النساء وجنود الاحتلال بابنها، أسير المقاومة البطل.

نظمية التي تواصل التضحية وتستمر في رعاية الأبناء والأحفاد وجمع العائلة، تواصل البحث عن حفيدة أخيها نور، وتقاوم مختلف العراقيل التي يفرضها الاحتلال في كل يوم لتضييق الخناق على الحياة في غزة، ووجوه أمهات الأسرى بإطلاق الإهانات ومحاولات إذلال متعمد عند نقاط التفتيش، تركز الكاتبة على أحوالهن المجهولة، والمنفصلة عن العالم بصورتها،

[86] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص119.

وقد واصلن النضال من أجل أبناءهن وأزواجهن الأسرى: "جنودٌ في مقتبل العمر يحملون بنادق كبيرة، يصعدون إلى الحافلة ثم يخرجون منها، يأمرون الجميع بإخراج بطاقات الهويَّة، وأحيانا يأمرونهم بالنزول والاصطفاف. انتظار يعقبه انتظار. افتحْ. انتظرْ. أَرني هويَّتك. انتظرْ. تصبَّب عرقا أو ارتعش بردا. انتظرْ. أجيبي على الأسئلة: لماذا تغطين شعرك؟ لم تضيعين وقتك وتأتين للزيارة؟"[87]، الاحتلال المستبد يضاعف أعباء الوقت بتحقير الأمهات والتفتيش العُدوانيّ المهين، والذ يتمثل كذلك من خلال النص الذي يليه، حين يفرغ الجنود الحافلات بلا معنى، رغبة في فرض التسلط على الذات وامتهان كرامتها: "انتظَروا جميعا. ثم أعادوهم إلى الحافلة، لكن خاطر رؤية أحبائهم من الرجال أنساهم إلى حينٍ ما تعرضوا له من ذلٍّ ومهانة. إلا نظمية، التي راحت تنصب ألواحا من الكراهية في داخلها وتبني في مراح أفكارها سجونا تحشر فيها هؤلاء الجنود وأمهاتهم حتى يعيشوا في ظلمات إلى الأبد".[88] كما تركز على حقيقة ما تلاقيه الأمهات من إذلال بإجبارهن على التعري والإهانة اللفظية والجسدية، فيفرغن آلآمهن في سيل من الدموع، وتطلق أخريات اللعنات والدعوات في وجه الاحتلال، إلا أن لقاء أحبتهن يهون عليهن ما يقاسينه: "فتش الجنود النسوة ثانية قبل خروجهن من السجن. تكرَّر العُري، وصندوق الملابس، والحواجز المعدنية، والقضبان الحديدية، والأبواب، والجدران والوقت المهدور. لكن المهانة لم تجد لها من سبيل إليهنّ هذه المرّة. انسربن بصمت داخل أنفسهن، جللتهن بالعزة والكرامة تلك الغرف الصغيرة التي حملنها في قلوبهنّ، بكراسيها البلاستيكية وزجاجها المتسخ، ونبضها بأنغام الحب. ويقين في تلك الغرف الساحرة طيلة ساعات من طريق العودة، عبر نقاط التفتيش والسماء التي خفَتَ بصيص نورها".

يتحدى هذا الاستبداد إصرار الأمهات على الوصول إلى الأسرى من عوائلهن، ومساندتهم وشد أزرهم، أمام التعذيب الذي يواجههم في السجون الاحتلال، فيخلقن أردة فعل موحدَّة ومعاكسة بفرض حضورهن، وحقهن، وقدرتهن على الاحتفاظ بالحب والوفاء والقوة ودفعها لأحبابهم من الأسرى، عزما على تحريرهم يوما، وثباتا في مواجهة الاحتلال.

---

[87] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص120-121.

[88] المصدر نفسه، ص121.

التضييق الذي تتعاقب فصوله وتتضاعف مساحاته على الأراضي المحتلة مع تعاقب الأجيال كمصير محتوم، يدفع بالذات الفلسطينية لخلق ملاذ التحرير من العَدم، سعيا لكسر هذا القيد عن حياتها، والحفر بيدين خاويتين في المساحات المحاصرة والأجواء الخانقة التي فرضها الاحتلال الاستعماري على أرض غزة برًّا وبحرا وجوا، عن مكامن الحريَّة، لإنها العنصرية التي اجترَّت البطالة، واحتضرت خلفها آمال الشباب في العيش الكريم وإعمار الوطن، ودفعت بالموت البطيء في حصار المكان المتبقي، وتحرم الأرزاق والسعي لتحصيله في أوسع مصادرها: البحر الذي يفرض عليهم الموت في حال تجاوز أميالٍ ثلاثة: حيث يخرج عبدالقادر –زوج الابنة الوحيدة لنظمية ألوان– ورفاقه للصيد: "ودَّع عبدالقادر البحر وداعا مُقتضبا لا حَفاوة فيه ولا يَليق بما للبحر من مقام في نفسه. في ذلك اليوم، كان البحر المتوسط هادئا يُعانق سماء بلا نهاية. ولما وصَل مع رفاقه حدود الأميال البحرية الثلاثة التي تمنع إسرائيل تجاوزها استَنشقوا جميعا عبير المدى الحرام. أقصى حدٍّ يُسمح لهم ببلوغه وإلا فإن الزوارق الحربية تطلق عليهم النار"[89]، ومع الإلتزام بعدم العبور إلا أن الاحتلال يُداهم الرزق الوفير الذي يحصل عليه الصيادون بعُدوان: "تبخرت الفرحة فجأة بتسارع زوارق البحرية الإسرائيلية نحو أسطول مراكب الصيد الصغيرة التي تتناثر قرب ساحل غزة.. صاح عبدالقادر: لم نتجاوز الأميال الثلاثة. ضحك الجنود وأطلقوا نيرانهم على المركب فأحدثوا فيه خرقا، هرع الصيادون لسدِّه. قال أحد الجنود مقهقها من الضحك: أنتم تقولون إنكم تريدون الحريَّة، ولكنكم تضطهدون السمك. ما قولكم لو وضعناكم في الشباك لتجربوا ما يشعر به هذا السمك المسكين"[90] نبرة الاستعلاء والاستخفاف تتجسد من خلال مشهد يجمع الذات بالآخر مليئا بالتحقير، ورغبة الإذلال، وفرض الانصياع للقوة الغير متكآفئة والمندفعة في وجهها بآلآت حربية، تدفع بعبدالقادر ورفاقه للرضوخ أمام الموت الذي يُشهر في وجوههم أمام أبسط المطالبات بحقوقهم اليومية، والاستهانة بها، وتحقيرها، فيجبرهم الجنود على رمي الصيد، ونزع ملابسهم والقفز إلى البحر. يقفز عبدالقادر ورفاقه حيث لا مَفرَّ، وحيث يستمر الجنود بالاستخفاف بقيمة حياة الذات الفلسطينية والرغبة اللامبالية بالتخلص

---

[89] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص138.

[90] المصدر نفسه، ص139.

منها، ويمثل في وضوح في إجبار الشخصيات على العدَّ في الماء للمئة والمئتين والرهان على من يَغرق أولا، حيث يحاول عبدالقادر ورفاقه الثبات بأنفاسهم الأخيرة. يغرق اثنين من الرفاق الأربعة ويفتح الجنود النار على الرفيق "أبو ميشيل" ويغادرون مع تحطيم القارب، إلا أن الصديقان يتمسكان ببعضهما ويعودان إلى الشاطئ.

يصوّر المشهد أيديولوجية الاستعلاء والعنصرية التي ورثتها الصهيونية للأبناءها، وجاهرت بشعاراتها في مجتمعاتها للحطِّ من قدر الذات الفلسطينية، إلا أنها تُواجه بالبسالة والصمود التي تقلدتها الذات الفلسطينية كذلك، وتمسكت بها في مواجه عدوها لفرض حقوقها وحريَّتها على المحتل في كلّ مرة. وتتجلى في مواقف الجيل الرابع في العمل، والذي يكبر على شجاعة مواجهة الأعداء وعدم الرضوخ لعنصريته واستعلاءه، يتمثَّل ذلك في شخصية خالد حفيد العائلة الذي يكبر أيضا متعرضا ورفاقه لهذه العنصرية من قبل الآخر الصهيوني وأبناءه وقد نشؤوا على تعاليم العداء الموروث.

الاحتلال الصهيوني وبعد عزله لقطاع غزة وحصاره عبر السنوات وتحويله إلى أكبر سجن مفتوح في العالم[91]، وإحكام الحواجز على حدوده وإغلاق معابره، يدفع بهذا الجيل الذي يتمثله خالد ورفاقه، لمواجهة تحديات هذا الحصار ومحاولة الخلاص منه..

ففي عمر السادسة يدخل خالد في أول حالة لإصابته بمتلازمة المنحبس، حالة تُبقِي وَعيه أسير جسده غير قادر على الحركة، فيغادر تلك اللحظات متنقلا بروحه وخياله إلى عالمٍ من الأزرق الفسيح يتنقل فيه بين الماضي والحاضر ويلتقي فيه الشهداء والراحلين، يدخل في أولى حالته، أثناء تعرضه ورفاقه للاعتداء من قبل أطفال يهوديين: "تفرقنا في كل اتجاه حتى نختبئ عندما راح أبناء المستوطنين، تحت بصر أمهاتهم يقذفوننا بالحجارة والقناني المكسورة. وقبيل أن يسربلني العالم بالأزرق الساكن شعرتُ ببولي الساخن ينساب من فوق فخذي. كلُّ ما أتذكَّره بعدها هو ابن خالي وهو يوبِّخني بينما نحن نختبئ خلف صخرة: "المرة القادمة لا تتنّح مثل التيس. لو لم أسحبك من طريقهم لأجهز اليهود عليك"[92] وسط أجواء تشحنها العنصرية وتوجّه العداء والتحقير إلى الذات الفلسطينية من الآخر الصهيوني، يكبر الأطفال

---

[91] انظر: إدوارد سعيد، **الثقافة والمقاومة**، المرجع ص121.

[92] سوزان أبوالهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص135.

وفي أنفسهم الصغيرة بأس تجاه هذا التحدي، وعنفوان تجاه الكرامة والذات، رغبة في الوصول بها وبذويهم إلى الخلاص من الظلم، فيتضاءل الخوف وقد أصبح اعتياديا، ويعتاد في وطنه غير المعتاد، رافضا الانكسار أو الإنحناء لطغيان أعداءه، ويكبر ليُبصر انتصاراته الصغيرة تصنع دروبا للمقاومة والانتصار، فيتسلل خالد ورفاقه خلال أيام المدرسة للمشاركة في حفر الأنفاق، التي يسهل مرورهم من خلالها بأجسادهم الصغيرة، والتي تدر عليهم القليل من المال والكثير من الاعتزاز والفخر، وفي أحيان أخرى للبحث قربها عن قطع الخُردة وبيعها من أجل المال القليل: "لو لم يكن لديه عمل لأغرته الأنفاق، فهي من الأعمال القليلة في غزة التي تدرُّ أجرا حسنا. كما أن أصحابها عادة ما يشغِّلون الصبيان واليافعين. فأحجام هؤلاء صغيرة تناسب الزحف في الدهاليز الضيِّقة جيئة وذهابًا. وهم يدفعون أو يسحبون السِلال أو يعيدون الحاويات الفارغة لإعادة ملئها بالبضائع المهرَّبة"[93].

متلازمة المنحبس تُقعِد خالد في سنواته القادمة ويبقى عاجزا عن الحركة لأيام متواصلة بعد تزايد النوبات وحِرمانه من الحصول على علاجٍ يُناسب حالته، وسط الفقر والحصار المفروض على القطاع، وأيام القصف التي تُحيل أرض غزة رمادا، ويقتل فيها والده – عبدالقادر– ويُدمَّر بيت جدَّته نظمية، التي تعيدها الأحداث لأيام النكبة التي لاحقت عائلتها وأهالي قريتها بالقتل والتهجير، إلى زمانٍ لم يُغادر نظمية، فيدفعها عزم غاضب لرفض خيام الأونروا، مستندة في عمل دؤوب على أبناءها في إعادة إعمار بيتها من جديد: "أعطَتهم الأونروا خياما هم وأربع عشرة عائلة أخرى قُصِفت بيوتها.كانت الخِيام مزوَّدة بفوانيس وأسرَّة زرقاء مدموغة بصورة للكرة الأرضية، شعار الأمم المتحدة. لكن الحجَّة نظمية لم تلجأ إلى الخيمة، ولاذت بحمى أحد أبناءها في تلك الليلة الأولى. بينما عمل أولادها على انتشال جثة عبدالقادر. وهكذا تماسك الحُزن وتصاعدت قراءات القرآن من كل مكبر صوت، من كل منارة، من كل نفس وقلب"[94]، كما اعتمدت نظمية على أبناءها، اعتمد أبناء غزة على بعضهم وذواتهم في النهوض من الدمار، ونفض رماد المجزرة، لإعادة إعمارها جنبا إلى جنب في تحد شامخٍ للعدو، يعيدون الحياة إلى أرضهم المعزولة في البعيد:"سطحيًّا

---

[93] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص150.

[94] المصدر نفسه، ص161.

بدت الحياة وكأنها تعفَّنت. دمار المباني والبُنية التحتيَّة صبَغَ الهواء بغبارٍ رمادي طيلة الأيام. احترقت خضرة الأرض وانطمرت تحت طبقات من الحطام والأشلاء والموت. ولكن بعد دفن الشهداء وسكب ما سكب عليهم من الدموع، أصبحت غِلظة الوقت أكثر سلاسة، وراح يجري في غزة مثل جدول يتَدفَّق فوق الصخور، يُنعِّم نتوء حوافها ويكسوها بطحلب الحياة من جديد. كما أن فيلق الأجساد التي تصدَّت للأنقاض وإعادة البناء والطبخ وتدوير الأشياء نفخ الحياة بين الأهالي من جديد"[95].

يَعلقُ خالد أثناء القصف في إحدى نوباته، ويصل السرطان إلى والدته ألوان –الابنة الوحيدة لنظمية–. قصة خالد تتناقلها القنوات كحالة نادرة يحتار بها الأطباء، وتصل إلى نور وقد أصبحت طبيبة مختصة في علم النفس متطوعة لخدمات الدعم المقدمة للمجتمع الفلسطيني. الحالة التي تَجمع العديد من الأطباء، تسعى معهم نور للتعرف عن قرب على حالة خالد، ولقاء الأطباء القادمين من غزة، لتأخذها الأقدار إلى المكان الذي لم تعرف عنه سوى أنه وطن جدها، وتكشف لها الأيام أن عائلة خالد هي عائلتها، فتتعرف نظمية إلى تلك الأعيُن المتضاربة اللون، إرث أختها مريم.

تعجز نور والأطباء عن شفاء خالد ووالدته مع حرمانهما والعديد من الأفراد للعلاج الذي يُمنع عن القطاع المعزول بقوى الظلم والعدوان، إلا أن عائلته المحبة تلازم رعايته، وتلبية احتياجات جسده الجامد. الأخت الصغرى لخالد رِتشل التي تحمل اسم المناضلة الأمريكية ريتشل كوري، التي تغتالتها القوات الصهيونية في دفاعها عن أحد المنازل المعرضة للتدمير في غزة كان، أعطت العديد من العائلات بناتها اسم ريتشل تكريما لها. العالم البريئ الصغير لرِتشل التي تعتني بأخيها خالد وتفاصيله، تصل إلى طريقة للتخاطب مع جسده، بحساب أعداد رمشات عينيه أثناء دخوله في المنحبس، وتتابع لغته الصامتة في سعادة بالغة، متخذة لوحة للأحرف تدلها على الحرف المناسب برمشات عيني خالد، الذي يسرد حينها عن عائلته: "أحيانا لا أحتاجه. أعود إلى البيت لأن ماما تجذبني جذبا، مثلما فعلت عندما شعرت بالإهانة. يُمكنني أن أراها، تجلس إلى مائدة تلك المرأة، تعتني بمتطلبات ذلك الجسد

[95] المصدر نفسه، ص163.

حبيس الكرسي ذي العجلات، جسدي، لكنني لم أعد أشعر بأنه أنا. لقد أصبحت ذلك الولد لأجل أختي فقط، لأنها تعتمد عليَّ حتى أرمِشَ لها بعيوني. عالمها ينبض بحسب عدد المرات التي أرمِش فيها. رِتشل كثيرة التململ، تتشبث بأمي تارة ثم بجسدي، ثم بنور تارة أخرى. وأنا أشعر بالهوَّة بيني وبينهم تزداد اتساعا"[96].

أم خالد التي تحرم بفعل الحصار الذي يفرضه الاحتلال من علاج السرطان الذي يفتك بها، تشتد عليها قساوة المرض ووضع خالد الصحيّ والفقر في غزة، ويتركها فقد زوجها مستسلمة وقانعة لتلك الأقدار، ترفض نظمية هذا الاستسلام من ابنتها لفكرة الموت، وتفرض البحث عن علاج بديل في كل طريق ممكنة: "توقَّفت نظميَّة عن هدهدة نفسها. انتصب جِذعها واشرأب عُنقها في تحدٍ عنيد لكل تلك الرزايا التي لا تنفكُّ تعبث بمصائرهم. استَعرَت جحيما ثائرا بعنادٍ ضد القدر، ضد ما كُتب عليهم من حياة أشبه بحُفرة مِرحاض يقعي فيها الموت ويفرغ أمعاءه بلا هَوادة. قالت: كلام فارغ! لا يوجد قوة في الدنيا تستطيع أن تأخذكِ مني. أنا الحجَّة نظمية، ولن أسمح لأحدٍ أن يقترب منك"، فتدفع أيام المرض عن ابنتها في سعي دؤوب مع الصديقة المخلصة أرملة النحال، يبحثن إعداد صنوف الأدوية من مختلف أعشاب الأرض الطبية، الأرض التي تشبثوا بها ووهبتهم الحياة، حيث يجد الشفاء طريقه إلى جسد ألوان رويدا.

يغادر خالد جسده للمرة الأخيرة وقد أثقله البقاء فيه بعد احتراق إحدى عينيه أحد أيام الحصار، وعدم قدرته على تحريك جفنيه، وقد وقع ورفاقه في مصيدة للاحتلال قرب منطقة عازلة، وهم يجمعون الخردة للحصول على القليل من المال، ويقتل توفيق صديق خالد برصاص الجنود، فيضيق عليه فضاء الواقع في جسده، ويجد الرحابة في مساحة الأزرق حُرا طليقا بين الشهداء والراحلين حيث اعتاد الذهاب. إلى الحريَّة بين الحاضر والماضي التي ترمز إلى غزة محررة دون حصار وحشيّ قمعيّ، إلى زمن في البعيد الجميل يتمثل ما قبل عام النكبة الذي لم يشهده خالد، ودون احتلال، إلى عالم الأزرق حيث الأحباب والماضي وقرية بيت دراس: "بَقيتُ من أجل رِتشل. كم آلمني عجزي عن نفخ الحياة في جسدي لأجلها. بل كم

[96] سوزان أبوالهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص200-201.

تألَّمت لأنها كانت تقنَعُ برمشة من عيني. لكن الوقت حَان. كنت إلى جانب نهر سُكرير مع جِّدو عطيَّة عندما أتت مريم مع ممدوح وهي تحمل شمعة. عرفتُ أن إطفاء الشعلة قد آن أوانه، فأَخذتُ نفسا عميقًا، ونَفخت"[97]، وتأتي وفاة خالد كفقد آخر يضرب حياة نظمية وألوان وعائلتهما، إلا أن العائلة تسند بعضها وتقف في وجه الحياة من جديد، وتجد نور الاستقرار الذي طالما افتقدته كفتاة شريدة تاهت بها الدروب وتعرضت للاستغلال المتواصل في رفقة نساء عائلتها نظمية وألوان وأرملة النحال ورتشل، اللواتي يقفن إلى جانبها رغم تعرضها للاستغلال من قبل الطبيب جمال وحملها بطفل غير شرعي، تؤثر نور الاحتفاظ به ومواصلة العمل في الطب النفسي على قضايا النساء والأطفال المتضررين من الحروب..

في الانتصار الذي حققته المقاومة الفلسطينية في غزة، بإجبار سلطات الاحتلال على الإفراج عن ألف وسبع وعشرين أسيرا فلسطينيا في صفقة وفاء الأحرار، مقابل الجندي جلعاد شاليط الذي فشلت في استرداده، مع تدميرها لثلاثة أشهر متواصلة بالقصف لقطاع غزة، إلا أنها تحقق انتصارا وتعيد الحريّة للأسرى الفلسطينيين الذين توعدتهم سلطات الاحتلال بعدّة مؤبدات. تَعمُّ إثر هذا الانتصار الأفراح التي تطغى على الأجواء في غزة رغم الخسائر البشرية والمادية، وترقب نظمية عودة مازن برفقة الأسرى المحررين..

وهناك على رمال الشاطئ في غزة تفترش العائلة على عدة آمال وانتظار، انتظار نظمية لمازن، وانتظار ألوان شفاءها، وانتظار نور رغم الظلم لطفل برئ آثرت الاحتفاظ به لعله يأتي بأيام أجمل، كانتظار أهالي قطاع غزة لغدٍ آخر، ينعمون فيه بوطنهم، مُحررا من أسر الظلم والعدوان، ب"آمال" أخرى حلمت بها يوما عائلة أبو الهيجا..

المبحث الرابع: الذات المُقاومة والاغتراب في رواية:

"ضد عالم بلا حُب" Against the loveless world[98]

تبدأ الأحداث بسرد الشخصية الرئيسية "نهر" لقصتها من زِنزانة المكعب التابعة لمركز الاستخبارات الصهيوني حيث تُسجن كأسيرةٍ مُقاوِمة، وزوجة لأحد أهم قادة المقاومة

[97] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص241.

[98] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World: A Novel*. (Simon and Schuster, 2020).

المطلوبين في مدينة الخليل. زِنزانة العَزل الانفِرادي ذات المميزات الحداثية في التصميم والتركيب، حيث تتخذ نهر زواياها المتعددة مَسردا لمختلف المشاهد والفصول التي مرت بحياتها للقارئ.

في العُزلة ومع منع الزيارات عنها تُعرَّض نهر للاستجواب المتكرر، ورغبة في عدم تحقيق تصور واضح لدى قوات الاحتلال تناور أسئلة التحقيق، وتنجح في فرض إرادتها للحصول على أبسط مُقومات الحياة التي يُطالِب بها الأسير المعتقل في زنازين الاحتلال، باستمرارها في إزعاج سلطات الاحتلال، بمحاولات التخريب للزنزانة، الحفر في جدرانها، نشر أغاني الثورة الفلسطينية. تنجح نهر بتكرار تلك المحاولات والحصول بعد عناء على بضع دفاتر وأقلام تعمل من خلالها على تدوين قصتها للقارئ. بتفعيل تقنية الاسترجاع التي اعتمدها الكاتبة كذلك في سرد الأعمال السابقة، تعود نهر لأيام عمرها المبكِّرة، لذكريات عائلتها التي تشهد تجربة الطرد القسري من قرية عين السلطان في حيفا خلال قيام أحداث النكبة الفلسطينية، خلال رحلة الفرار باتجاه الجسر تولد نهر، الذكريات التي ظلت حاضرة رغم تعاقب الأعوام بما خلفته من مآسي.

تعود لحكاية والدتها عن مشاهد الأعداد المهولة التي أُجبرت حينها على النزوح وقد إنهار الجسر من ثقله، واضطرت عائلتها للعبور متمسكة ببقايا الجسر، حيث تتعهد والدتها بتسميتها بنهر حال نجاتهم بالعبور: (قطعوا مسافةً تزيد عن ثمان كيلومترات مشيا على الأقدام ليعبروا نهر الأردن عبر جسر اللنبي، عند وصولهم كان الجسر ممتلئا بالأجساد، وانهار في نهاية الأمر، سقط العديد من الناس حالما أرادت ماما العُبور. لم ينجُ العديد منهم. إلا أن الأفواج استمرت بالاندفاع عبر الجسر المنهار، متمسكين بأسلاكه وبقاياه المتكسرة، متقدمين بصعوبة عبر المياه. أخبرتني ماما: حَمدتُ الله حالما عبرنا، وقطعت وعدا للنهر بتسميتك تيمنا به في حال لم يبتلع أيا منا)[99].

تحفظ نهر بإعادة التدوين دور والدها البطولي الذي يعود أدراجه إلى القرية مُخاطرا بعد عبور عائلته ويتمسك بالبقاء في منزل العائلة بعد إخلاء القرية لأشهر متتالية رغم العدوان وحظر التجوال مصرا على استرجاع هويَّته الفلسطينية، إلا أنه يحرم من الاعتراف ويُمنح هويَّة

[99] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p: 33.

مقيم أجنبي، وهو ما يؤثره حينها على الرحيل كلاجئ في وطن آخر، إلا أن بقاء العائلة بعيدا في غير استقرار يدفعه إلى طريق الاغتراب عن الوطن، وهو ما يولد الصدمات في ذاته، ويتركه شخصيته مضطربة الأفعال بعد فقدان الوطن وتعدد اتجاهات الشتات، إلا أن دوره كمقاوم وأب محب يبقى معلقا في ذاكرة نهر، فتسرد عنه في كتابتها: (انضم إلينا والدي حالما استطاع. إلا أن غيابه الطويل أوجد صدعا في عائلتنا، وبعد أن ولدت، كانت عائلتي قد قطعت طريقها باتجاه الكويت).[100]

الكويت كمحطة أخيرة تتوقف عندها العائلة، حيث تنشأ نهر في منطقة الحولّي، المنطقة المكتظة بأُسر اللاجئين الفلسطينيين، وأشبه ما تصِفه بجيتو مخصص لهم. تستقر العائلة التي تضم ثلاثة أجيال: جدتها لأبيها –الستّ وصفية- الجدة القاسية والمحبة في أحيان. والد نهر المحب لعائلته، إلا أن عدم الاتزان الذي يلاحقه كأثر للاغتراب في المنفى يتركه أسير العلاقات العابرة، والتي تترك بدورها أثرا بالغا على نهر ووالدتها بحياة غير مُستقرة. أم نهر – الأم المحبة العطوفة– وجهاد الأخ الأصغر لنهر.

تعود نهر بالسرد لأيام نشأتها الأولى في الكويت، حيث يرتبط الزمان بالتهميش الذي تواجهه كطفلة لاجئة تتشكل ملامح صدماتها حاضرة في وعي العمر المبكر، وحتى نهاياته، بعد وفاة والدها، وخلال مراحل الدراسة الأولى، وبالتمييز الذي يلاحق نهر وأخوها الأصغر جهاد، ترفض نهر أي معاملة دونية، وتندفع في شجارت في المدرسة لحماية جهاد، وتكبر في تصادم مع واقعها تجاه الوطن الذي أحبته، ولم يكن ليقبلها لكونها لآجئة صنفتها الدولة في مرتبة أدنى في أرض الاغتراب، تسرد نهر عن واقع مجتمعها الفلسطيني المنفي: (الفلسطينيون الذين طُردوا من منازلهم من القدس، وحيفا، يافا، جنين، بيت لحم، غزة، نابلس، الناصرة، المجدل، وأهم المدن الفلسطينية وجدوا ملجئا في الكويت. حُقول النفط وفَّرت فُرص بِناء حياةٍ جديدة هناك، مع أن الكويت لم تمنحنا يوما أكثر من إقامة مؤقتة —موضحة أننا ضيوف دائمون– إلا أن الفلسطينيين وكما يعرف العالم اليوم، كان لهم دور أساسي في المساهمة ببناء الكويت، لقد شاركنا وساهمنا في جميع المجالات، إلا أننا بقينا أدنى منزلة. كُنت

[100] المصدر نفسه، ص34.

أدرِك ذلك، لكني لم أكُن أهتم. لقد أحببت الكويت. كان وطني، وكنت مخلصةً له. وقفتُ كل صباح في أيام المدرسة مع الطلبة أُردد النشيد الوطني، غَنَّيتُ بكل ولاءٍ وشَغف لأمراء الكويت الناجحين. حَزنت يوم وفاة الأمير صباح سالم آل صباح عام 1977، وفي كل عام في الخامس والعشرين من شهر فبراير، احتفلنا بجنون بيوم استقلال الكويت وكأنه كان يوم استقلالنا)[101].

ملامح الاغتراب لتلك الأيام ربطت شخصيتها بانتماء مُتذبذب غير قادر على الاكتمال، في ظل عائلة مشتتة غير مستقرة، أضاف عبئ كونها لاجئة لأبناء مُهجَّرين فلسطينيين، دفعتها بعيدا مع اغترابها الذاتي عن المجتمعات المحيطة بها؛ تتدافع معها مشاعر اللاإنتماء والاضطراب والغضب، ورغم الذكاء الذي يميِّز شخصية نهر إلا أنها تتجه لإثارة الفوضى والشغب في مراحل الدراسة للتهرّب منها، وترتبط نهر بأحد أفراد المقاومة الفلسطينية المنفيين إلى الكويت، إلا أنه سرعان ما يكشف عن كونه متواطئا مع رفيق إسرائيلي متخليا عنها، فتبدأ حدَّة الصدمات بالتصاعد في حياة الشخصيّة مجددا، تحاصرها حالة من الخذلان تجاه العائلة والمجتمع، أفكار اللامبالاة والعبث تدفع نهر في طريق مظلم بعد التعرف على أم براق، وهي شخصية ثانوية الحضور، مُتناقضة المبادئ، تَكشف أيضا عن وجهٍ قبيح في استغلال الفتيات اللاجئات لكسب الأموال، بدفعهن تجاه عالم المادة وأعمال الدعارة، مع اضطراب حياة الشتات الذي يَتعاظم بتبِعاته ويحرم نهر وعائتها من الفرص العلمية والعملية المتاحة، واستعصاء سقف الأحلام عليهم في حياة اللجوء، وانغلاق الأبواب في وجوههم في عالم طبقيّ، عنصريّ، رأس مالي، تتخلى نهر عن ذاتها في طريق العلاقات العابرة، والدعارة المظلم لمحاولة انتشال عائلتها من الفقر، وضمان حصول أخيها الأصغر جهاد على مستقبل أفضل، ومقعد دراسة في جامعة مرموقة، بعد تميزه ضمن الطلبة الخمسة الأوائل في مرحلة الثانوية العامة، إلا أن الفرص تبقى معلقَّة أمامه: (أَردتُ أن يُصبح جِهاد الجَراح الذي طالما تمنى أن يكونه، وأَردتُ أن أكونَ من يحقق له هذا الحُلم، أن أكون مُنقِذة عائلتي وحَاميتها، لكنَّ ما اقترحته أم براق جعل أمعائي تتقلب مرة أخرى)[102]، تضحي نهر بذاتها ومستقبلها

[101] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p: 36.
[102] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p: 62.

الذي لم يعد ذا أهمية مُقارنةً بتحقيق مستقبل أخيها الواعد، الانحدار في العلاقات المتعددة العابرة، يُبقيها أسيرة للانتهاك وعرضة لضرر النفسي والجسدي البالغ في عالم المادة والمال، لتمر بلحظات الموت الوشيك، ودوامة من الاكتئاب، وتحقير للذات، للتخلي عنها وعن مبادئها، فتعزم الاستقرار في حياة بسيطة بين أعمال متعددة، إلا أن التفوق الذي يظهره جهاد في دراسته وعدم قدرة العائلة على توفير الدعم المادي الذي يستحقه، يعيدها للدروب المظلمة التي تدر عليها أموالا طائلة بطرق مختصرة، فتعود كراقصة، محاولة التمسك بعدم الانجراف في أوحال الدعارة إلا أن الطريق يدفعها مجددا للاضطهاد من طبقات النفوذ العسكري والمالي في الدولة، في الليلة التي يداهم العراق فيها الكويت بالغزو عام 1990م، تنجو نهر، وتأخذ التغيرات الجذرية منعطفات في المنطقة وحياتها.

دخول الغزو العراقي يصحب معه الدمار للكويت، ويحيل الحياة إلى منزلة أدنى تتساوى فيه العديد من العائلات مع طبقات الفقراء واللاجئين. تجد نهر معاملة أخرى لم تعهدها كلاجئة في أرض الكويت. فهناك دعم وتقدير لم يعهده العديد من الفلسطيين من الجنود العراقيين على خلفية الدعم الذي يقدمه الرئيس ياسر عرفات لصدام حسين أثناء غزو الكويت.

التحرر من الطبقية والدونية التي تجدها نهر حينها والتي طالما وقفت بوجه أحلامها، تعيدها للانطلاق في حياة اعتيادية، للمُضي بلا حدود أو قيود دون رغبة في العودة إلى حضيض العلاقات العابرة: (حاول جهاد أن يشرح لي عدم الشرعية واللاإنسانية التي جلبها غزو العراق للكويت، لكني لم أرغب في الاستماع لذلك. لم أهتم إن كان من حق العراق غزو الكويت، سواء تجاوزت الكويت حدودها في سحب مخزونات النفط عند الحدود، أو إن عُدَّ ياسر عرفات وَغدًا لوقوفه مع صدام حسين أثناء عملية الغزو، كل ما عرفته أن غزو صدام حسين أنقذني تلك الليلة، وفي المدة التي كان العراق فيها حاضرا في الكويت، كنت حُرَّة، وامرأة سعيدة. لطالما نظر الكويتيون إلينا نحن الغرباء باستعلاء)[103]، المشاعر المنعكسة من ذات نهر مقابل ما لاقته في حياتها السابقة للغزو، تطغى كرغبة حقيقية في رد الاعتبار بلا حدود، إلا أن التمييز في الدعم المقدم يخلق الفُرقة والعداء، وتتصاعد مشاعر الكراهية

[103] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p: 80.

والتحقير العنصري بين فئات المجتمع، فالتعاطف الذي يقدمه العديد من الجنود العراقيون للفلسطينيين يعود عليهم بالويلات في أعقاب جلاء الغزو واستقلال الكويت ويتم تهجرير آلاف الفلسطينيين اللاجئين مجددا من الكويت باتجاه الأردن، (لم أفهم المعنى الحقيقي لوجودنا في الهامش، لوجودنا في مرتبة أدنى، حتى عرفتُ معنى أن يكون المرء مُقدرا ومحترما. ليس بسبب كوننا فلسطينيين ولكن تحديدا من أجل ذلك. شعرنا جميعا بذلك وكان من الصعب أن لا نستمتع به، لقد أحببنا الكويت واستأنا منها في الوقت ذاته، تماما كما أحبتنا الكويت واستاءت منا)[104].

إثر المرحلة التاريخية الانتقالية والتدمير الواقع في الكويت تفقد المادة قيمتها وتزيح عبئها عن طبقات الفقراء واللاجئين وعن عائلة نهر، المادة التي طالما شكلت حاجزا في طريق حياتهم البسيطة، جعل فقدانها المكان أرحب، وغير متطلبٍ لإثبات قيمة الإنسان مقابل مصلحة أو مادة، فتبقى عائلة نهر في الكويت حين تغادر العديد من العائلات، إلا أن أيام الهدوء تمضي مُسرعة، وجلاء الغزو العراقي عن الكويت يعيد الحياة في تدرج إلى سابق عهدها.

مع الاستقلال يعود العديد من جنود الكويت للتنكيل بمن بقي من اللاجئين بتهمة التآمر مع قوات الغزو العراقي، التآمر الذي تتبَّعه شخصية جهاد والذي يتمثل الذات الفلسطينية المثقفة والمتوازنة، ويتعمق في معانِ الدمار الذي تسوقه الحروب معها وتدفع الشعوب أثمانها، بمُراقبته الدقيقة للأحداث ومعرفته السياسية، يلحظ جهاد النزاع الذي يحضر رغم الاستقلال: (أراد جهاد أن ينتصر المقاومون الكويتيون، لكنه أشفق على الجنود العراقيين أيضا. لم يتمنى أن يلحق الضرر بهم، ولعن صدام حسين لزرعه مثل هذه الفُرقة بين الإخوة)،[105] مشاعر الكراهية والطبقية والتهميش التي تتسارع في الظهور بين أفراد المجتمع والعُنف الذي تعرض له العديد من الفلسطينيون بشكل خاص وفي قساوة بالغة تنعكس سلبا على مشاعر الانتماء، كما يظهر مع شخصية نهر، مع اقتحام الجنود الكويتيين لمنزل عائلتها ومُصادرة الممتلكات وتدميرها: (صرخت أمي: نحن لسنا متآمرين، أنتم مخطئون. لقد عشنا

[104] المصدر نفسه، ص80.

[105] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World: A Novel*. p87.

هنا لخمسة وعشرين عاما. نحن نحب الكويت. لقد آلمني أن أرى أمي وهي تتوسل. كرهت أولئك الرجال. والآن كرهت الكويت. كرهت أمراءهم ومجتمعهم. كرهت أني تعهدت لهم بالولاء أيام المدرسة. وأني انضممت لرقصات أيام الاستقلال).[106]

تُعتقل عائلة نهر وتعذَّب بتهمة التآمر. جهاد الذي يقضي أطول مدة في السجن يفقد جراء التعذيب أحدى عينيه وتكسر ذراعه. تُكسر أضلاع نهر، وتنحدر الأوضاع بعائلتها للأسوأ، معها يجبرون على إخلاء منزلهم أو دفع المال مقابل بقاءهم أيام الغزو العراقي، ويَبقى الخيار الوحيد أمام العائلة هو الفِرار، كما يجبر العديد من الفلسطينيين على النزوح بعد طردهم مُجددا باتجاه منفى آخر، تُغادر عائلة نهر برفقة عوائل فلسطينية أخرى عودةً باتجاه ملجئها السابق في الأردن. مرحلة التعذيب والفِرار والنفي تلقي بثقلها على حياة نهر التي تعايش انتزاع منشأها الأول: (كُنت بعيدة جدا عن شواطئ الكويت التي حملت العالم الوحيد الذي عَرفتُه، لم أستطع أن أتخيل مُستقبلي بعد أن شعرت بطريقةٍ ما أنه كان قد خرج عن مَساره. كان كُل حُلمٍ رَغبت يوما في تحقيقه يحيط به إطار وطني الكويت. الآن وقد تم سحب الأرض من تحت قدمي عُنوةً، أتخبط في التضاريس المهزوزة لعوالم اللاجئين، أُعاني من أجل أن أمضي).[107]

تصبح الحياة أثقل وتيرة، ويحيط الاغتراب والعُزلة شخصية نهر التي تواجه الاقتلاع والتهجير للمرة الأولى، الأمر الذي يتشكل مع انفصال الذات وحالة التشظي بمغادرة المكان الوطن الأول الذي عرِفته، في حين يحمل آثارا أقل حِدَّة مع الجيل الأول الذي خبِر أزمة الشتات والتهجير في عدة منافي[108] والمتمثل في شخصية الست وصفية، وأم نهر، بعودتهن للجوء الثالث في الأردن، بعد الفرار من حيفا، ومخيم عين السلطان، وتراه أمرا قد اعتادته والدتها وجدتها وصفية: (لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى ماما أو ستِّي وصفيَّة التي أقسمت أنها لن تتعافى يوما من تحولها إلى لاجئة لمرة أخرى. لقد أذهلتني السرعة التي استطعن بها الاستقرار والتأقلم في شقة جديدة مع روتين جديد، وكأن حياتهن استُأصلت وزُرعت في

---

[106] المصدر نفسه، ص90.

[107] المصدر نفسه، ص105.

[108] انظر: رامي أبوشهاب، **في الممر الأخير سردية الشتات الفلسطيني منظور مابعد كولونيالي**، ص99.

مكان آخر، بمجرد نَفضهن الأسى وعودتهن إلى الشؤون الطبيعية للحياة. لربما كان الأمر أسهل بالنسبة إليهن، فقد خَبرن صدمة التهجير القسري، وفهمن معنى انعدام الرغبة والهدف التي تُخدر العقل، وتُرخي جفن العينين، وتدفع بالنوم اليائس إلى باقي ساعات اليوم. كانتا لاجئتين خبيرتين مجهزتين لتحمل الصدمات المتكررة)[109]، في حين تطغى معالم الاغتراب وفقدان الاستقرار ظاهرا على ذات نهر وحياتها بعد التهجير الأول الذي تشهده، كما يحدث مع العديد من اللاجئين، فالعودة لم تتحقق بالرجوع إلى الوطن فلسطين، إنما بانتقال آخر إلى قيمة طارئة ومؤقتة، وهو ما يحيل القارئ إلى الأثر السلبي والعميق الذي يطلق عليه أبوشهاب "الشتات الفلسطيني المركَّب" حيث اضطر العديد من الفلسطينيين لهجرة من الدول العربية المستضيفة نتيجة ظرف ما للخروج والبحث عن أوطان بديلة، كما حصل في الكويت، والعراق، وسوريا التي عُدت للبعض الفلسطيني البلد أو الوطن الوحيد الذي عرفوه، كما حمل الارتحال إلى الأردن لفلسطيني الكويت -لاسيما أبناء دول الشتات- إحساسا مضاعفا بالشتات، بأن يبقوا على هامش الأشياء، من مؤقت مألوف إلى مؤقت جديد[110].

وهو ما يتطابق في الظهور مع حال نهر، وانقضاء الأيام في ثقل شديد، بفُقدان المعنى الحقيقي للوجود والحياة في أرض المنفى. الأيام التي تسند العائلة فيها بعضها بالأعمال المتفرقة، وتعود أم نهر للعمل في تطريز الأثواب التقليدية التي تحمل ثقافة هَويَّتها الأولى وتدعم نشرها: تطريز الأثواب الفلسطينية التقليدية، والتي سرعان ما تشتهر ببراعتها ويزدهر عملها لإتقانها تفاصيل تطريز الأثواب. أما العجز الذي يلحق بعين جهاد وذراعه يدفعه للتنازل عن دراسته والعمل في هندسة مِساحات البساتين والمنازل، حين تُقاسي نهر محاولات النهوض بأعمال بسيطة تختص بالتجميل. المرحلة الزمانية التي توافق توقيع اتفاقية أوسلو، ويُسمح معها للعديد من الفلسطينيين بالعودة واستعادة هوياتهم الفلسطينية، يعود جهاد بِرفقة والدته لتجديد هويات العائلة، فيما ترفض الجدَّة وصفية العودة كضيفة إلى وطنها: (كانت أمي وستِّي وصفية سعيدتان للغاية، وكان العالم كله كذلك، لقد حصل ياسر عرفات على جائزة

---

[109] المصدر نفسه، ص105.

[110] انظر: رامي أبو شهاب، **رواية قبل أن تنام الملكة لحزامة حبايب: الشتات الفلسطيني الوعي المركَّب**، (مقال في جريدة القدس العربي، 10 يوليو 2018م)، ص4.

نوبل للسلام، وكان يتم بناء مطار حقيقي في غزة، كما تم اصدار جوازات سفر فلسطينية حقيقية. لم أتوقع أن تُبصر عيناي هذا اليوم، قالت ستِّي وصفية وعيناها تدمعان، لقد صبَرتُ كثيرا وسأصبر قليلا بعد حتى أتمكن من العودة إلى وطني كمُواطنة أصيلة، لن أطلب إذنا من هؤلاء الأوغاد للذهاب إلى وطني. أحمِل ثيابا هي أقدم من كيانهم الصهيوني! رافِضةً التقديم على تاشيرة زائر عن طريق السفارة الإسرائيلية).[111]

تمضي نهر في زيارتها أولى إلى فلسطين بعد عودة والدتها وأخيها، في سعي للحصول على وثيقة طلاقها السابق. رحلة العودة التي تعبر من خلالها جسر نهر الأردن هي محطة تتراءى فيها ذكريات سرد والدتها، والحنين الذي يعيد ذكرى والدها وجدتها إلى النهر الذي هُجِّرت عبره عائلتها عام النكبة، وحُرمت العودة إليه، ومع حملها للهويَّة إلا أنها تُمنع الدخول إلا بتأشيرة سائح، وإذلال عملية التفتيش أثناء العبور، الأمر الذي يتراكم في ذات الشخصية كحالة من الغضب والنفور، التي تستمدها في الأيام اللاحقة، في لحظات العمل المقاوم.

ومع العودة يبقى هاجس الاغتراب ملازما لشخصية نهر، متتابعا في الظهور، يُشكل حاجزا بين الذات والانتماء وقدرة الارتباط الحقيقية بالمكان، فتسرد عن أيامها الأولى في فلسطين: (المساحات الواسعة التي سكنت ذكرى وقلب أمي وستِّي وصفية كانت آسِرةً، إلا أنِّي لم أشعر أنها وطني)[112]، مع فقد الانتماء إلا أن المكان يحمل سمات مكان الأُلفة التي تجدها مع عائلة زوجها السابق، فهم يعطفون على نهر، وتجد السكينة في هدوء الطبيعة الريفية لتِلال مدينة الخليل، ومساحات الأراضي التي تمتد من منزل عائلة بلال وتستعمر أطرافها جماعات يهودية، تستولي على مساحاتٍ تتضاعف في كل مرة.

تبرز شخصية بلال كقائد لإحدى حركات المقاومة وأسير سابق، يُحرر في أعقاب اتفاقية أوسلو. إلا أنه تحت المراقبة، ممنوع من مزاولة عمله في الكيمياء أو تعليمه، أو نشر مواضيع تتعلق بالسياسة أو المرور إلى مدينة القُدس، فيعمل في الرعي إلى جانب الصديق جندل وفي المخبز مع غسان يديرون في سريّة فريق عمليات مقاومة، تدعمها مجموعة من الطلبة والطالبات، وتنضم نهر إليهم في مرحلة لاحقة.

---

[111] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p: 114-115.
[112] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p: 135.

في زيارة لمنزل والدتها للتعرف على تفاصيل المكان الذي انتزع من عائلتها تعبر نهر مدينة حيفا، موطن والدتها وجدها الأكبر، المكان الذي ارتسم من خلال الصور التي حملتها والدتها باللون الأبيض والأسود، عن حياة والدتها وجدتها قبل النزوح القسري عنها، وعبر الطرق التي غزتها نقاط التفتيش، تصل نهر إلى المنزل القديم لجدها الأكبر، حيث المعالم صامدة بذكريات الماضي، والتِينَة العملاقة شاهدةٌ على إرث نهر وأخيها المسروق، المنزل الذي تستولي عليه امرأة يهودية تندفع عبر المدخل باتجاه نهر للاعتداء عليها، فتجتاح نهر مشاعر الثأر والغضب على مصيرها بالتهجير والحِرمان والشتات، وترد عدوان المرأة بلكمات إلى وجهها: (أرَدتُ ضربها بشكل دامٍ، لسَرقتها أَشجار عائلتي، لسَحبهم الأرض من تحتِ أقدامنا)[113]، تسارع المستوطنة بطلب نجدة الجنود وقد أبلغت عن نهر وامرأة أخرى "إرهابية" سبقتها قبل شهرين بالدخول إلى المنزل دون إذن مُسبق، فيتأكد لنهر أنها والدتها التي مرت بالمنزل في زيارتها الأخيرها وقد أَخذها الحنين إلى منزل طفولتها الأول الذي سُرق أيضا من عائلتها: (لقد تأكدت أنها كانت أمي. وقد فهمت الآن سبب رفضها الحديث عن الموضوع عندما سألتها ونحن في الأردن، كان الأمر مؤلما بالنسبة لها. تمنيت لو أني ضَربت المرأة المستوطنة أكثر. تمنيت لو أني مشيت في فناء المنزل وشاهدت المدخل الرئيسي، أن أختلس نظرةً إلى التلال وأشاهد البحر كما كانت أمي لتفعل في كل يوم من أيام طفولتها، تساءلتُ إن كانت أمي تمكنت من فعل ذلك عندما أتت لزيارة منزلها، أم أنها لم تتمكن من مجاوزة حديقة المنزل)[114]، هنا يزداد وعي الذات ويتسارع في الحضور مع المستَعمَر في المكان، مع اتضاح حقيقة العدوان كواقع، وانكشاف نهب الموارد الطبيعية والأراضي كحقيقة واضحة أمام الذات، ورغم ما شملته مزاعم اتفاقية أوسلو وتوثيقها للتنازل للاحتلال عن 80% من الأراضي الفلسطينية، الا أن حملات النهب تسارعت من بعدها، إلى جانب تفشي عمليات القتل في الضفة وقطاع غزة. الامتداد الذي يرصده بلال في كل صباح، وقد تضاعف عبر مساحة أرض عائلته، وامتدت معه أنابيب مياه المستوطنين لنهب أكبر قدر ممكن من مخزون المياه، هنا يعزم بلال التدخل إلى جانب نهر وقطع الطريق على امتداد مستعمرات الاحتلال.

---

[113] المصدر نفسه، ص139، 140.

[114] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p: 141.

يحضر ضمن فريق العمل مجموعة من الشباب والأصدقاء لوضع مخططات تنفيذ عدة عمليات تستهدف المستوطنين وقطع إمداداتهم عن ما تبقى من أراضيهم، وقد سلب المستوطنون أمن أيامهم، وقتلوا الآباء والاخوة وأودِعوا إلى ظلمات السجون. يجمع فريق بلال المتشكِل آلآم الوطن الواحد، وهدف التصدي للاحتلال وعدوانه: (نَمت صداقتُهم وتجذَّرت في منطقة الأَسى الخاصة بالشهداء، حيث تختلط معاناة الفقد بالفَخر، والرغبة بأخذ الثأر، والصداقة الحميمة)[115]، جمعت غسان صديق بلال في المخبز، وأحد الأسرى السابقين لدى الاحتلال، وسامر طالب في جامعة بيرزيت يُقتل أخاه وتغلق جامعته في إحدى المراحل، التوأم فيصل ووديع وأختهم جمانة، يقتل والدهم ويقعون أسر التعذيب في سجون الاحتلال، جمانة التي تدير صالونا تجميليا، تسخر المكان كمخبأ يضم أسفل الأرض نفقا لحماية الأسلحة وتخزينها، ومقر اجتماع لوضع خطط تختص بالعمليات الجماعية.

العلاقات العميقة التي تربط أعضاء الفريق تستدعي مساحات الاغتراب القائمة في ذات نهر الغريبة عن المجتمع والمكان الذي نشأت بعيدا عنه، عن ما فاتها من حياة كاملة في أرض الاغتراب: (عدم شعوري بالأمان أو غيرتي منهم في الغالب تحولت إلى نفاذ صبر. النظرات التي تبادلوها كانت مليئة بالصداقة وصلة القرابة، بتاريخ العائلة، بتداخل المجتمع، بالخبرة الطويلة عن الوضع السياسي، بالطموح الوطني المشترك والأسرار. كلما تحدثوا ازددت ضيقا وتردد السؤال في رأسي: ماذا أفعل هنا؟! وقد تناقلوا حكايات المقاومين الذين اعتُقِلوا بتهمة حيازة السلاح. شعرت بالضيق والرغبة في المغادرة. واندفع عقلي باتجاه عمَّان، تسائلت عن ما كانت تفعله أمي؟ وكيف كانت صحة ستِّي وصفية؟ ولماذا لم يخبرني جهاد أنه على تواصل بمحمد. اشتقت إلى أخي. إحساس أني شخص دخيل وسط هؤلاء الناس جعلني في شوق إلى عائلتي)[116]، مع انكشاف حقيقة عملها السابق في الدعارة واطلاق الأحكام القاسية تجاه ماضيها المظلم تتشكل معالم صدمة أخرى تدفعها للرحيل، مع عدم الرغبة في العَودة إلى المنفى إلى أن العائلة ظلت أمان نهر الوحيد: (كنت لا أزال غَير مُحبة للأُردن. لقد أبقتنا هُناك كلاجئين. وظللت حاملة ذلك الشعور في قلبي تجاه تلك الدولة،

[115] المصدر نفسه، ص151.

[116] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p153.

وتسائلت إن كانت المشاعر نفسها التي حملتها عائلتي وجدتي تجاه الكويت أيضا)[117]، تخلوا تلك العودة إلى المنفى من أي معنى للحياة، حين يأتي خبر مقتل صديق العائلة الراعي جندل برصاص قوات الاحتلال حقدا على مجاوزته اليومية للأراضي الزراعية، كهدفا للقضاء على معالم الحياة الريفية والطبيعية في القُرى الفلسطينية وأطرافها، تأتي الحادثة كدافعٍ لنهر للعودة والمشاركة في أخذ ثأر جندل، وافتقادا لحياة ذات هدف ومعنى: (كنت قد ذهبت إلى فلسطين بهدف حصولي على الطلاق، لكني غادرت مع شعور بقيمتي كامرأة قادرة على التواصل الفكري مع العالم، قادرة على أن أُحِب وأُحَب، امرأة قادرة على فهم أن العالم المتسع بالحرية كان دائما أجمل من أي شئ آخر تمكن البشر من صناعته. تَجرأت على الحلم بأن أكون جزءا من موضوع مهم كالمقاومة، وحركة تحريرٍ وَطني. فكرة نقل الأسلحة المهرَّبة سكنَتني وسرعات ما تحولت إلى خطة)[118]، هنا تتأكد لنهر رغبة في العودة والانخراط في عمليات المقاومة ومواجهة جرائم الاحتلال، ويظهر التغيير واضحا على شخصية نهر التي تعود إلى فلسطين مجددا بوعي سياسي، وشخصية أقوى، وتخرج من ظل امرأة مُضطهدة فقدت قيمة ذاتها، إلى امرأة ذات وعي سياسي، واثقة بأهمية دورها في العمل المقاوم، وفي تكبيد الاحتلال ثمن آلآمهم، وجرائمه عبر التاريخ.

بعودة نهر يضع الفريق أول خطة لعملية تهريب جماعية لمجموعة من الأسلحة، والتي تنقسم بدورها إلى عدة عمليات، اعتمادا على حرية التنقل التي تملكها نهر بين المدن بتأشيرتها السياحية، والاتفاق مع جندي إسرائيلي من أصل روسي لشراء الأسلحة، ومرشد سياحي يعمل في مدينة الناصرة على نقل الأسلحة المهرَّبة في عربة نقل السياح، ومحاولة قطع نقاط التفتيش والحواجز الاسرائيلية، حيث تعمل نهر برفقة جمانة في التمويه والتضليل عن العملية مع قيادة المركبة، وقدوم فيصل ووديع وغسان لتحميل تلك الأسلحة وتعبأتها في شاحنة لإخفائها ضمن قطع أثاث، وتفريغها في المخبأ الأرضي.

الخطوات التي يكتب لتفاصيلها النجاح، إلا أن العديد من قطع الأسلحة تصل غير صالحة للاستعمال، ما يولّد لحظة من الإحباط حينها، إلا أن سرعة البحث عن الحلول

---

[117] المصدر نفسه، ص169.

[118] المصدر نفسه، ص175.

ووضع الخطط البديلة توجد آمالا بفرص أخرى، هو ما يميز عملهم الجماعي المقاوم: (مع أن بلال وغسان كانا غاضبين بعد أن تم خداعهما، إلا أنهما عادا في اللقاء الثاني بمظهر بدا أكثر تفاؤلا. أفترض أن هذا ما جعل منهما مُقاومين حقيقيين. كانا دائما حاضرين بشكل كامل وبكل ما يملكانه، وكان ذلك يعني أيضا تجاوز لحظات خيبة الأمل والهزيمة والبحث عن سبب للأمل وخطط جديدة).[119]

العمل الذي يجمع المصير الفردي والجمعي يُجدد بالقسم والولاء للفكر المقاوم ووحدة الجماعة في مواجهة العدو، والحفاظ على سر المخبأ مهما كلف الاعتقال والتعذيب حال الوقوع فيه، فهو ما قد يؤدي إلى نسف المنطقة بالكامل، وتظهر تضحية بلال وغسان بتقديم أنفسهم في حال انكشاف العملية القادمة، والتي تستهدف مواقع تضمن الحصول على عتاد أكبر من الذخائر والأسلحة.

الاندماج للفكر المقاوم ووحدة العمل الجماعي والقيم المشتركة هو ما يوجد نوعا من التقارب بين الأصدقاء وذات نهر، التي تجد تجد الغاية الأسمى بالانخراط في العمل المقاوم وتقدم فكرتها الخاصة عن خلق فوضى مُباغتة وسط مساحات النظام لإرباك الاحتلال، في مكان وزمان يغفل عنه، كحرب عصابات مُفاجئة، في ظل الصعوبات التي قد يواجهها التنظيم لعمليات تتحرك في جماعات منظمة، في ظل انتشار الخونة والعملاء في الأرجاء، والقمع الذي تمارسه السلطة متواطئةً مع الاحتلال.

تُعتمد الفكرة، وتدمج في تفاصيل مهمة قادمة، وكنظرية تتفرع عنها عدة مقالات، في الموقع الخاص بالعمل المقاوم، والتي يُشارك جهاد في إنشاءها وإدارة صفحاتها الرسمية من الخارج، وإلى جانب نشر مواضيع تختص بالمقاومة والثورة والأحداث التاريخية، والمراسلات الداخلية والخارجية والمراسلات بين أفراد المقاومة، غير قابلة للتبع.

تستمر العمليات المقاومة ويواصل بلال ونهر العمل على دفع المستوطنين القادمين لمغادرة المنطقة الزراعية لأرض عائلة بلال، حيث قُتل الصديق الراعي جندل، وحيث يقوم المستوطنون بسحب غالبية المياه عن المزارعيين وأراضيهم الزراعية بصورة جائرة، هدرا لتلك

[119] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p197.

المصادر وهدفا للقضاء على محاصيلها ومساحاتها الممتدة، ومُصادرتها لاحقا بزعم الاهمال وهجرة المزارعين عنها.

مخطط العملية الثالثة يهدف لمحاولة استرداد المياه المنهوبة عن أرض بلال وتمريرها لإنقاذ أشجار اللوز الموشكة على الجفاف التام، بوصوله إلى العامل الأجير لدى المستعمرات ينحج في ثقب الأنابيب الرئيسية، وتوصيلها بأنابيب تمتد لأطراف الحقل، حيث تعمل نهر على توصيلها في ظلمة الليل مع إطلاق إشارة البدء من الفريق المترقب حول المنطقة: (كنتُ هناك. وثبتُ بخطواتي حالما انطلقت المفرقعات أشبه بآلاف من الأعين النارية وسط الظلام الدامس. قلبي كان يقفز في صدري، وقد قمت بتشغيل العداد، حملت الأنابيب، وحسبت مسافة 40 خطوة من شجرة اللوز التي حددها بلال، نزلت إلى الأرض أتلمس كومة الصخور اللتي أخبرني عنها، أتفحص المؤقت في ذُعر، كنت قد تأخرت جدا. بحثت عنها في اضطراب دون حظ، وحالما فكرت بالاستسلام وجدتها. حفرت حتى وجدت موقع الأنبوب الذي اتصل بسهولة..)[120]، تنجح نهر في تصريف المياه باتجاه الأشجار وإعادة إخفاءها تحت التراب في المنطقة المحظورة، إلا أن العملية تُكشف وتندفع قوات الاحتلال لاعتقال نهر وبلال في اليوم التالي.

المشهد الذي تتسارع فيه وتيرة الأحداث باندفاع الأصدقاء والجيران في وجه الاحتلال للدفاع عن بلال ونهر، حيث تبرز قوة التلاحم والترابط المجتمعي في الدفاع عن بعضه، وكحاضنة شعبية مخلصة في حماية مقاوميها، فتندفع أم بلال لحماية ابنها، حاضرة بهيبة الأم الفلسطينية الشامخة في وجه جنود الاحتلال ودفعهم عنه، إلا أن العصابات تسقطها أرضا فتعود للدفاع عنه وتنهال عليهم بقطع الأثاث، وسيل اللعنات والشتائم مع اعتداءهم على بلال بالضرب وسحبه للاعتقال، ومواصلتهم العدوان بتخريب المنزل وتدمير ممتلكاته الذي تواجهه أم بلال في قوة وثبات، رغم ضعفها الجسدي: (كل خزانات المنزل كانت مفتوحة ومرمية. بعضها قد تكسر، محتوياتها قد تناثرت على الأرض، فوج من الجيران والأقارب أحاطوا بالحجّة أم محمد التي اندفعت باللعنات على الجنود، حتى تواروا عن الأنظار. رأيت حينها امرأة عظيمة قاسَت الحياة بنشأة الاحتلال العسكري إلى جانب الترمل والمعاناة.

[120] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p207.

تعاقبت على لسانها اللعنات والتضرعات إلى الله بأن يضرب الاحتلال، أن يهوي بالأشرار أرضا راكعين. كما ينبغي؛ للضحيا أن يُنجدوا، والظالمين أن ينالوا الجزاء. لم تذرف دمعةً واحدة. كانت صخرةً. جِداراً. كانت امرأة)[121]. يُطلق سراح نهر ويُمضي غسان وبلال في السجن عامين من الإعتقال إداري، دون تهمة محددة، حتى يطلق سراح بلال، ويعاد اعتقاله خلال موسم قطاف الزيتون الذي تهاجمه القوات الصهيونية بحرائق تستهدف المحاصيل الزراعية، وقطع للأشجار وتدمير يستهدف البنية الأساسية للطبيعة الريفية الفلسطينية، وتحطيم الذات معنويا: (كُنا نعلم أن الإسرائيليين يتعمدون الاعتداءات خلال موسم الحصاد، هُم يعلمون جيدا أن الزيتون يشكِّل الدُّعامة الأساسية لحياتنا الاجتماعية، والاقتصادية، وواجهة لثقافتنا لآلاف الأعوام، وهو ما يغيظهم —ولا يزال– أن يشاهدوا تواصل عاداتنا الريفية، غيرَ قابلةٍ للانقطاعِ أو الكَسر. لذلك هم دائما يعودون، ببنادقهم الكبيرة، وحجج استعمارية لمتطفِّلين غير قادرين على تحمُّل فرحتنا أو حضورنا)[122]، يمتد الحريق في تسارع لأطراف البساتين ويجتاح مساحات الأراضي والمزارع وينقلب المشهد إلى مأساة رعب لفقدان تلك المساحات الشاسعة من الأراضي، وتنقطع معها عملية الحصاد المنتظمة من الأهالي في محاولة إخماد الحرائق، تسرد نهر عن ذكرى ذلك اليوم: (أعادتني الجَلبة إلى حواسي، تَعالي النحيب والنار والدخان، المستوطنون الذين ركضوا بعيدا وهم يضحكون، الجنود الذين منعوا سيارة الإسعاف الوحيدة من الوصول إلينا، شاهدت أولئك الجنود من بعيد، مع وضعهم اللامبالي بدا وكأنهم يشعرون بالملل من الذعر المبالغ فيه أثناء انتشار الحريق الهائل. تجمع القرويون من كل مكان لإطفاء النيران، سَحبنا أنا وجمانة دلاءنا وركضنا لملئها بالتراب وألقينا بها في وجه الجحيم. كانت أشبه بمحاولة مسح مياه البحر بإسفنجة، لكن الوقوف في عجز، والاكتفاء بمشاهدة الأرض وهي تحترق كان أسوأ من آلآم التي أحرقت جلودنا والدخان الذي ملأ رئاتنا).[123] يعيد المشهد إلى الواجهة صورة الترابط الذي طالما جمعت الذوات الفلسطينية بأرضها وشعبها في مأساتها، وأمام ما تواجهه مرارا من جور

[121] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p210.

[122] المصدر نفسه، ص217.

[123] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p: 218.

حملات الحرق العدوانية للأرض الفلسطينية، وبنيتها، وثروتها الزراعية وتفاخر المستعمرين الصهاينة بالتدمير الهادف للإخلائها وتغيير معالمها الجغرافية.

كما تبرز صور الإصرار في الحفاظ على الأرض ونِعمها التي يحفل بها الفلسطينيون كل عام، يحفلون بجهدهم وحصادهم ونبات غرسهم، ويحفلون بالزيتون الأخضر والحفاظ عليه كممثل للهويَّة، ومصدر للثروة الزراعية لغالبية المزارعين وأهالي الريف، مقدسين تفاصيل نماءه وما تحمله من قيمة وبركة في ثمارها.

كما تتضح معالم حالة الذعر التي يسعى الاحتلال لإبقاءها قائمة في محاولة انتزاع المكان وسيطرته، وهو ما أبقى الذات الفلسطينية في حالة الترقب القائم في ذعر وشتات روحي ومعنوي متواصل، ومواجهة دائمة مع حضور عدوان الآخر الصهيوني في المكان، فهي بين مواجهة العدوان وبين حماية الأرض والضحايا، تخرج الذات منها في العديد من الأحيان لتفاوت ميزان القوى ودعم السلطة لقوات الاحتلال غالبا بخسائر بالغة بشهداء وأسرى ومنازل مهدمة انتقاما من الحراك المقاوم. ومن خلال المشهد حيث تسيل دماء الشبان والأطفال من أعلى التل، ويبتلع الحريق الهائل المساحات الزراعية التي جمعت الأهالي في وحدة، وقد لاذ المجرمون في كل يوم وعبر التاريخ بالفرار، وتترك الذات أمام خيارها الوحيد: أخذ الثأر بيديها من أولئك المجرمين وإن كلفتها الحياة.

تعود الكاتبة من خلال شخصية بلال لإعادة قضية الأسرى في سجون الاحتلال إلى الواجهة، وما تلاقيه الذات الفلسطينية وغالب أُسرها من عنف وتعذيب في السجون دون جرم مرتكب، مجسدة من خلال الأعمال السابقة بشخصية يوسف ومازن صور المعتقل السياسي، والأسير الفلسطيني، والتي شغل بها السرد الفلسطيني المقاوم، وركزت عليها الأعمال الصادرة فيما بعد حرب النكسة، غير منفصلة عن رؤى التحرير الوطني بجميع تبعاته وارتباطاته الإنسانية، وحيث رصدت معاناة شريحة واسعة من أبناء الشعب في مواجهته للعدوان الإسرائيلي وممارساته التي تهدف لإخضاع شريحة واسعة من الفلسطينيين وكسر الذات عن فكرة المقاومة[124]، وهو ما يدفع الأسرى الفلسطينيين لمواجهة وصمود أكبر في

[124] انظر: محمود موسى محمود زياد، **الأدب الفلسطيني في سجون الاحتلال الاسرائيلي 1987–2000**، (رسالة ماجستير في الدراسات العربية المعاصرة، فلسطين: جامعة بيرزيت، 2006)، ص34.

وجه التعذيب في تلك الزنازين والثبات أمامه، فالصراع ما بين السجان الصهيوني والمناضل الفلسطيني أضحى صراع إرادات، في سجن لم يختره لكن أرغم عليه بعذاباته وآلامه، وكان لزاما أن يقف منها الأسرى وقفة تحدٍ، رغم التعذيب الوحشي والتنكيل والقمع الممارس، رغم سنوات العذاب الطويلة، عودة للغاية الأسمى للثبات على مبدأ الحق والمقاومة واسترداد الوطن، الذي يزداد يقينا مع صمود الأسرى في السجن ليصبح شكلا من أشكال مقاومة الجماهير في الوطن المحتل وفي المنافي[125]، تجسده شخصية بلال في ظل ما يتعرض له مع إعادة اعتقاله، ويواجهه مع إعلانه للإضراب لأربعة أشهر متواصلة، الأمر الذي يحشد المجتماعات والرأي العام تجاه قضيته، ويشكل ضغطا على الأنظمة الصهيونية وصورتها المتحضرة الزائفة، مطالبين بإطلاق سراحه، ومع إصراره ينجح بلال في فرض مطالبه وتحقيق الحريّة لذاته، رغم خروجه بأضرار دائمة مع التعذيب الذي لآقاه في السجن، إلا أنه يعود للانخراط سرا في العمل المقاوم وتتبع حركة الأعداء، والإعداد لعملية قادمة.

خط الزمان الذي يصحب معه أحداث اشتعال الانتفاضة الثانية، حيث يتضاعف أعداد القتلى الأبرياء، ضحيا المجازر اليومية والعدوان في الضفة وامتدادا إلى مختلف القرى والمدن، ومحاولة قمع لحركة المجتمع بفرض حظر التجوال، وتدمير الاحتلال للعديد من المناطق وبنيتها التحتية وارتكاب الجرائم فيها، ما يشكل عامل ضغط ويولد انفجارا للأوضاع، وتصعيد اشتعال الانتفاضة الثانية وسط الجماهير الشعبية في الأراضي المحتلة، يخرج الشعب في وجه هذا العدوان مقاتلا بأسلحةٍ بسيطة وإرادة جبارة، ومع بقاءه تحت المراقبة المشددة يبقى بلال مصرا على موصلة العمل المقاوم والإعداد في مرحلة حظر التجوال للعمليات، والانخراط في دراسة النصوص المختصة بالمقاومة، والانشغال بالهم الجمعي للوطن، حيث تظهر أهمية العودة إلى عملية التعليم والثقافة المقاومة مع الإعداد العملي لها، مع النصوص التي توردها الكاتبة، وتحيل إلى أهمية النضال الفكري والعودة إلى التطوير الذاتي للنهوض بالفكر المقاوم، ويستمر في الإعداد للنيل من المستعمرين القادمين لأرضه، والوقوف بوجه تحقيق مآربها في مَد المستعمرات في سعار لابتلاع المزيد من الأراضي، أيام حضر التجوال

[125] المصدر نفسه، ص43.

تمتد إلى شهر، تُحاصر فيها القرى والمدن الفلسطينية وترتكب العديد من المجازر في المدن ومدينة جنين، ويخرج الشبان لمواجهة العدوان محتشدين بما يملكون من أسلحة في جنين ونابلس وباقي مدن الضفة حيث تتصاعد الأحداث، وتستند الكاتبة إلى أحداث تاريخية واقعية، حين يرتكز حصار آخر إلى جانب مدينة جنين، في مدينة رام الله لمحاصرة ياسر عرفات: (سكان مدينة نابلس كانوا أول من خرجوا من منازلهم في جماعات. يومَ الإثنين، التاسع والعشرون من شهر يوليو، عام 2002م. وفي اليوم الأربعين من حظر التجوال، خرج آلاف من الرجال والنساء إلى الشوارع للانتفاضة ورمي قوات الاحتلال بالحجارة، سددوا ضربات وألحقوا إصابات بالقوات الإسرائيلية المسلحة. تحدَّت نابلس في جرأة بالغة قوانين حظر التجوال، ورفض المقاتلون في بيت لحم الاستسلام رغم الحصار المشدد من حولهم. قاست رام الله الحضور الأكبر لقوات الاحتلال المسلحة حيث تم محاصرة مقر الرئيس ياسر عرفات. حَملت كل مدينة قصتها لما كان في حقيقته مُعَبِّراً عن ستين يوما شاقا من الحبس، حُولت فيها المدن والمنازل إلى سجون)[126]، وحيث تنال قوات الاحتلال من العديد من شبَّان المقاومة، ويواصل بلال تسخير دراسته المتخصصة في الكيمياء للإعداد لعملية قادمة، تضمن محاولة طرد المستعمرين القادمين إلى أرضه، بالعمل على تصريف محاليل خاصة بمنسوبات عالية، تعمل على الإضرار بالجسد البشري والجهاز التنفسي، وتمريرها للمياه المنهوبة.

خلال بقاءه تحت مراقبة مشددة في ساعات رفع حظر التجوال القليلة، تمضي نهر لإسناد المهمة، موثقة لمشاهد العدوان، وتصوير حجم الدمار الهائل، التي تمدُّها بغضب وإصرار على المضي قدما في تنفيذ العملية باتجاه الحقول، وإتمام سير المهمَّة، وضخّ المياه المنهوبة بالمحاليل باتجاه المستوطنات، والتي تحقق نجاحا يظهر في أعقاب خمسة شهور تواصلة من ضخ المحاليل قبل اكتشافها من قبل المستوطنين، مشددين إلى جانب رفقاء العمل فريق على مراقبة البلاغات القادمة ومواقع التواصل الإسرائيلية، وسرعة العمل على مواراة العمل القائم حال صدور الخبر عن وجود آثار جانبية وقدوم وفد من وزارة الصحة من خلال جريدة إسرائيلية محلية تعود نهر لضخ المياه النظيفة وتمريرها، فتنجح العملية ببث الذعر في العوائل

[126] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p255.

المستوطنة، وعزمهم على مغادرة المكان بانتهاءهم إلى أن المنطقة تحت تأثير لعنة ما، وأن هؤلاء العرب ألقوا عليهم تعاويذ السحر الأسود، ويحقق هروبهم من المكان النتائج المرجوة بنجاح المهمة.

تنتقل الأحداث إلى العام الثالث للانتفاضة الثانية حيث يواصل المقاومون مطاردة جنود الاحتلال في مواجهات مباشرة وغير المباشرة، ويتم الاعداد لتنفيذ إحدى أكبر العمليات لإيقاع جنود الاحتلال، وتُحفظ في سريَّة بالغة حتى موعد تنفيذها ب5دقائق، المرحلة التي يسعى فيها بلال لحماية نهر وعودتها لعائلتها في الأردن مع وفاة جدتها وصفية. ترفض نهر فكرة الرجوع التي تجدها بمثابة إقصاء عن غايتها الأسمى، وتقطع طريق العودة إلى في إصرار لإتمام العمل المقاوم وحماية زوجها بلال، مع مهاجمة قوات الاحتلال لسكان الضفة الغربية وانطلاق القوات في مطاردة المقاومين، ومنهم محترف القناصة الفلسطيني "ثائر حمَّاد" الذي يسقط مجموعة من الجنود الإسرائيليين عند إحدى نقاط التفتيش في منطقة عيون الحرامية، العملية التي تتبعها إقتداءا العديد منها على ذات الطريق مستهدفة نقاط تفتيش الاحتلال، حين تعج الطرقات محاصرة بسيارات الاحتلال، والطائرات المحلقة، تقع نهر رهينة بعد تدمير سيارتها ومحاصرتها وسط الطريق، وجرِّها للاعتقال، لدى الاحتلال لاستدراج بلال وتتبع أثره، إلا أنها تُفشل تلك المحاولات وتبتلع آخر رسالة كتبها أثناء اعتقالها، لتواجِه ضربا مبرحا حتى الوصول إلى زنزانة العزل.

متمسكة بالقسم والولاء الجماعي وعدم التسليم بأي من أسرار العمليات، والرغم من الضرب المبرح والتعذيب، تُظهر نهر كمناورة للجنود فقدان الذاكرة، إثر دخولها في غيبوبة من الضرب المتواصل ليومين، تجبر نهر على التوقيع على اعتراف مجهول وتحاكم بتهم موجهة إليها باللغة العبرية، إلا أنها تبقى محافظة على سرية المعلومات، وأمن العمليات، ومستودع الذخيرة، صامدة في وجه التعذيب والضرب والتحقير من قبل السجينات الاسرائيليات، ومحاولاتهن المتكررة لاستدراجها في الحديث عن ما تخفيه، وإجبارها تارة أخرى، رافضة الانصياع لمنظومة الاحتلال ومقاومة لمحاولة التحطيم في الأسر، تتمرد نهر على الاعتقال وترفض المحاكمة الاسرائيلية والاعتراف بها، تصدح أثناء المحاكمة بشخصية تبدوا أكثر ثقة وثباتا بأغاني المقاومة الشعبية الفلسطينية، ساخرة من وجه أعداءها أمام وسائل الإعلام

ومحكمة الاحتلال، وانتصارا للمقاومة، ورسالة لزوجها المحب بلال، لتسرد في زنزانتها عن تلك اللحظات: (لقد فعلتُ تماما ما كان بلال ليفعله. أردت أن أجعله فخورا بي أينما كان، فقد يراني أو يقرأ عني في نشرات الأخبار، وقد تجرأتُ على الإقدام، على مزيد من التحدي)[127]، وتنجح نهر في استفزاز المحاكمة وتنال الطرد حتى جلسة مؤجلة، وتعرض للانتقام والتنكيل بالضرب المبرح في الزنزانة، إلا أنه يمثل انتصارا لذات الشخصية وفكرها: (نجحت في استعمار مساحة سُلطة المستَعمِر. حررت نفسي وأنا في قيودي، وكانت غرفة المحاكمة رهن حريتي)[128]، تحال إلى زنزانة العزل الإنفرادي بتهمة الضلوع في العمليات الإرهابية المتكررة، وعن طريق الأخبار المهرَّبة إلى السجن والمقابلات التي تفرض عليها مع الصحفيين، تصل الأنباء عن استهداف منزل بلال والمزارع المحيطة بها، وتظل قوات الاحتلال عاجزة عن الوصول إليه.

تتواصل العمليات التي تستهدف الجنود الاسرائيليين عقب اعتقال نهر، حيث يتمكن بلال ورفاقه من النيل من 24 جنديا وجرح 11 من خلال اتباعهم لنهج حرب العصابات بأسلحتهم البسيطة من السهام والمبيدات، والتوزع في مختلف نقاط التفتيش لأربع عمليات، يساندهم العديد من الشبان لقطع الطريق عن الدعم الموجه لتعزيز قوات الاحتلال، ما يدفع الجنود لشن حرب مفتوحة النطاق وممارسة القتل الحُر تجاه الفلسطينيين في مختلف مناطق الضفة وغزة وتدمير المدارس والمساجد والبنية التحتية للأراضي، موغلة في الانتقام والتشفي لإخفاء الفشل في الوصول إلى المقاومين، يتم اغتيال رفيق بلال في المقاومة والعمليات "غسان" بتهمة التخطيط لهجمات إرهابية، وتعتقل "جمانة" التي تعرض للتعذيب الجسدي والاغتصاب من قبل جنود الاحتلال، الأحداث التي تتحطم لأجلها ذات نهر أسىً على الرفاق. تُترجمه بتدوين ثلاثة آلاف ورقة موزعة على جدران الزنزانة بلغة الرموز التي اعتمدها الفريق في تواصلهم السري الدائم.

---

[127] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p271.

[128] المصدر نفسه، ص271.

وتستمر عمليات المقاومة ثأرا في الانتشار بشكل متسع ومتسارع، ويرضخ الاحتلال بفعل الخسائر التي تطال جنوده، على اتفاق مبادلة نهر و600 من الأسرى الفلسطينيين، مقابل 4 جنود اسرائيليين، شرط ترحيلها إلى الاردن.

تنفى نهر مجددا باتجاه عائلتها، ويجد بلال طريقا لرسالة يبعثها في سرية إليها، حين تفطن نهر إلى كون عملية الإفراج، طُعما لمحاولة استدراج بلال والوصول إليه، فتتحفظ عن الرد أو لقاءه، وقد حالت بينهما مسافات وطنهما المحتلّ..

لقد فرضت هذه الذات ورفاقها إلى جانب المقاومة الشعبية والجماهيرية، شروطها الخاصة في فرض البقاء، وأنهاء الاستيطان عن أرضها، بثباتها القائم على تحدي ومواجهة الكيان الصهيوني الجائر، وقد رهنت حريتها وبقاءها وإن ظلت مهمشة في واقعها، وحصر نطاق محدود، من أجل هدف التحرير واستعادة الأراضي الفلسطينية التاريخية المحتلة وإعادتها لشعبها في الشتات والداخل.

تأتي السردية على نهاية غير محددة، كالأعمال السابقة تستقبل خيال القارئ، أمام انتظار الأفراد لنضال قائم لم ينتهي، وترقب للاكتمال النصر وعودة اللاجئين، لحظة التحرير واستقبال الأحبة في الوطن..

نجحت الكاتبة من خلال سردها نقل تفاصيل الواقع الفلسطيني وتاريخه، وأخذت بالسرد الفلسطيني المقاوم إلى أعتاب من الحداثة، فجمعت من خلال السرد المقاوم أبعادا تعددت لدى الشخصيات بين إنسانية وثقافية واجتماعية إلى جانب خوضها المقاومة المسلحة. الحالة المقاومة التي لازمت الذات الفلسطينية ولم يخلو منها واقعها اليومي المعاش في أبسط تحدياته، وما تواجهه من عنصرية وعدوانية استيطانية استعمارية، وتهديد متواصل للهويّة والوجود، مكبل بحصار وتتبع دائم به من قبل قوات الاحتلال الصهيوني وقياداتها المتطرفة، منذ تشريده الأول في المنافي وحتى اليوم، إلى جانب التواطؤ والدعم الذي تقدمه السلطة الفلسطينية لهذا الاحتلال. إلى جانب تسليطها الضوء على قضايا النفي والشتات والاغتراب المنعكسة من سيرتها، وكيف مزقت الذات أحوال هذا النفي والشتات بعُنف أحوالها في العديد من الأحيان ورغم وما حملته من الظروف المطابقة اليوم لمئات الآلاف من المنفيين واللاجئين والمهمشين في العالم، ومن صنفهم العالم في مرتبة أدنى من البشر..

الفصل السادس

البنية الفنية في أعمال سوزان أبو الهوى

تسعى الدراسة من خلال هذا الفصل للتعرف على الجانب الفني لأعمال الكاتبة سوزان أبوالهوى، والتعرف على أهم التقنيات وعناصر البناء الفني المتبعة في إنتاج أعمالها السردية الأولى..

تستلهم الكاتبة أبوالهوى إتمام عملها الروائي الأول بينما ينام العالم من زيارة قامت بها إلى فلسطين عقب وقوع أحداث مجزرة جنين، واستماعها لقصص شهود وناجيين من المجزرة، إلى جانب ما انطبع في ذاكرتها من قراءة لرواية "عائد إلى حيفا" لغسان كنفاني، في هذا العمل تورد الكاتبة نصوصا مقتبسة لصحفيين وآدباء، منها أشعار لجلال الدين الرومي، ومحمود درويش، وجبران خليل جبران واقتباسات من مقالات للكاتب الصحفي البريطاني روبرت فيسك، والباحث الأمريكي اليهودي نورمان فينكلشتاين، إضافة إلى أناشيد شعبية وقصائد وطنية لشعراء كتوفيق زياد، إلى جانب اقتباسات لكُتَّاب آخرين كإدوارد سعيد، ونعوم تشومسكي، ويأتي توظيف سوزان أبو الهوى لهذه النصوص استعانة في تعميق الصورة وتكثيف الحالة الشعورية لدى القارئ، وبناء الشخصيات الرئيسة لأعمالها إسقاطا لحياتها الخاصة في سردياتها، في صور تكشف حضورها من خلال ما ترويه على لسان هذه الشخصيات، تعمل سوزان أبو الهوى على طرح العديد من القضايا من خلال هذه الأعمال إلى جانب مقاومة الاحتلال، فهناك دعوة لمقاومة الظلم الواقع على مختلف الشعوب كالطبقية العرقية، التي يتعرض لها أصحاب البشرة السمراء وما يجمعها بالقضية الفلسطينية من صور وتشابه في النضال المستمر، والإذلال والتمييز العنصري الذي تتعرض له الشخصيات تجاه أصولها، الاستغلال الذي تتعرض له الفئات المهمشة، وغيرها ما تبحر فيه الكاتبة بسرد أعمالها، ومساندة أصوات المظلومين في العالم، ودراستها دراسة فنية تعين على فهم غايات الأعمال بفهم عناصر بنائها.

المبحث الأول: المعطيات التاريخية ودورها في رسم الأحداث

تعد الرواية التاريخية عملا سرديا يرمي لإعادة بناء حقبة من الماضي بطريقة تخييلية تتداخل فيها شخصيات تاريخية مع شخصيات متخيلة، ونجد في الرواية التاريخية حضورا للمادة التاريخية مُقدَّمة بطريقة إبداعية وتخييلية، وهو الفرق بينها وبين السرد التاريخي، فكلما كان السرد التاريخي ميالا إلى الحقيقة وسرد الأحداث التي يمكن التحقق من واقعيتها -أي مطابقتها للوقائع-، كانت الرواية التاريخية ألصق بالتخييل وبالإبداع السردي[1]، في كونها تستمد أحداثها من التاريخ لتجعله نواة للرواية التي تعيد بناء الحدث التاريخي بأسلوب خيالي فني، فيغدوا الحدث التاريخي، جزءا من الأحداث الخيالية[2].

وقد تعددت تعريفات الرواية، كلٌ حسب مميزاتها وأسلوبها ومبناها، إلا أن الغالب يعدها عملا خياليا مهما اختلفت التسميات والأساليب والدوافع والصنف الذي تندرج في نطاقه، وذلك لا يتنافى ولا يتناقض مع ما صرح به الكثير من الروائيين، وبالذات كُتَّاب الرواية الواقعية، بأنهم استلهموا نواة بعض رواياتهم من خبر سمعوه، أو مشهد رأوه، أو من خبر قرأوه، أو من حدث تاريخي ما، أو من وثائق تاريخية[3]، وقد وظف الروائي الفلسطيني التاريخ في غالبا بهدف ترسيخه وإثبات مصداقيته في حواره مع الذات أو الآخر، لذلك يلجأ الروائي الفلسطيني غالبا إلى كتابة رواية ذات بعد ايديولوجي، فليس من باب الصدفة أن معظم أبطال الروايات والقصص الفلسطينية هم فلاحون وقرويون ومُهجَّرون يتعرضون للغبن والظلم والتشريد والضياع، فيرتبط معظمها بحدث تاريخي هام كان له أبعاده وتأثيراته على مصير الفلسطينيين عامة[4].

وهي التعريفات التي تحيلنا إلى التجربة الإبداعية في النتاج السردي لسوزان أبو الهوى من أعمالها الروائية من دمج للأحداث تاريخية بأخرى خيالية، وما تعتمد إحياءه من مادة ثرية

---

[1] انظر: سعيد يقطين، **قضايا الرواية العربية الجديدة الوجود والحدود**، (القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2010م)، ص227.

[2] انظر: رياض كامل، **دراسات في الأدب الفلسطيني**، (مكتبة الرمحي أحمد، مكتبة كل شئ، ط1، 2017م)، ص13.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص13.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص15.

وغنية بتفاصيل التاريخ الفلسطيني، قرَّبت للقارئ معالم تلك البيئة، ثراثها، وقصص نضال أبناء الشعب الفلسطيني، وصوَّرت عن قرب حقيقة مأساة شعب كامل. وهو ما رَمت إليه الكاتبة بنقلها للأحداث التاريخية بحقيقتها الكاملة إلى العالم وإلى الغرب بلغتهم، بعيدا عن القصص التي مثَّلَت انتصار الآخر، وحملت تحريفا للحقائق التاريخية؛ لذلك تكسب الأحداث التاريخية أهمية بمكان، لما لها من قوة في إثبات الحقيقة عن إسلامية وعروبة أرض فلسطين التاريخية السليبة وتأكيد هويتها، فضلا عن دحض مفتريات العدو والتلفيقات التي تملأ سردياته.

فتأتي الأحداث التاريخية التي تقتبستها سوزان في صياغة الحدث، كبداية واقعية لتصوير أحداث النكبة الفلسطينية، وسردا لتبِعاتها ونتائجها على المجتمع الفلسطيني، كبداية رحلة الشتات والاغتراب وأهمية ظهور دور المقاومة في التصدي للعدوان والتهجير القائم.

تتصل الأحداث بتتابع متسق النظام من خلال الأعمال الروائية الثلاثة للكاتبة، ففي العمل الروائي الأول "بينما ينام العالم" تعود الأحداث إلى عام النكبة 1948م، والتهجير القسري الذي يلحق بأهالي القرى الفلسطينية جراء القتل والمجازر التي تدعمها القوى الغربية والانتداب البريطاني ونشأة الحركة الصهيونية بشكل أساسي، ومنها قرية عين حوض التاريخية الأثرية التي يُقتلع منها الوجود الفلسطيني وقد رفض تسليم وطنه وأراضيه بسهولة فكان ندا غير سهل للعصابات الصهيونية، إلا أن اندفاع الغزو المسلح بأعداد وعتاد أكبر وأعتى يُلحق الدَّمار بالأراضي الزراعية والقُرى، وتقع في الضوحيها المختلفة وما يجاورها من قرى عدة مجازر، ويقتل العديد منهم ويجبر البقية على النزوح، ليُصبحوا لاجئين ومنفيين ومطاردين، وسط انتشار المخيمات التي شكَّلت تجمعات في الداخل الفلسطيني، وعلى الحدود مع الدول الأخرى وفي المنافي، تسلط الكاتبة من خلال عملها "بينما ينام العالم" الضوء على مخيم جنين وبداية ظهوره كأحد أهم المخيمات التي أصبحت معقلا لعقيدة القتال والمقاومة المسلحة في الضفة، رغم المجازر التي تخللت نشأتها، ممتدة حتى يومنا. تمر الأحداث بتسلسل زماني يضم أبرز الأحداث التاريخية للقضية الفلسطينية: من أحداث حرب النكسة 1967م، ومعركة الكرامة 1971، الغزو الإسرائيلي للبنان، مجزرة صبرا وشاتيلا، مجزرة جنين عام 2002.

وفي سرديتها الثانية: "الأزرق بين السماء والماء" تمتد كذلك الأحداث في ما بعد النكبة، من تهجير لأهالي قرى دُمِّرت منها قرية بيت دراس التاريخية، ونزوح أهلها طردا وقسرا إلى قُرى مجاورة، والعديد منهم إلى المخيمات، يركز العمل على إبراز أحد أهم مخيمات اللجوء في قطاع غزة: مخيم النصيرات، والحصار الذي يأتي لعدة مخططات هدفت لعزل قطاع غزة عن باقي المدن، وفصلها عن الضفة الضفة الغربية وباقي المدن وبناء الجدار العازل، بروز دور المقاومة كذلك، وصمود الأهالي وتكاتفهم في مواجهة العدوان بعدم تسليم أراضيهم والتشبث بالقُرى والمدن، البدء بحفر الأنفاق وأهمية دورها كجزء بارز في مواجهة الحصار والحرمان وخلق طريق للحماية والمقاومة وهدف التحرير، العدوان على قطاع غزة عام 2008م الذي قصفت فيه المدارس والمساجد والجامعات، وعمد الاحتلال فيه إلى استخدام أسلحة محرمة دوليا كالفسفور الأبيض واليورانيوم على غزة، وتواصل العدوان على القطاع بتهديدات إزالته عن الخارطة وإنهاء قوى المقاومة. كما تتطرق إلى أحداث اشتعال الانتفاضة الفلسطينية الثانية، وأسر الجندي جلعاد شاليط.

وفي أهم الأحداث التي تسردها من خلال عملها الثالث: "ضد عالم بلا حب" تمر بأحداث النكبة والعدوان الذي ينزل حينها بمدينة حيفا، ونزوح العديد من العائلات بعد فقدهم لأملاكهم بفعل العدوان الصهيوني إلى مخيم عين السلطان، ومنها إلى الأردن، والكويت، تليها أحداث غزو العراق للكويت، وطرد العديد من الفلسطينيين إلى الأردن كلاجئين، اتفاقية أوسلو، أحداث من الانتفاضة الثانية.

تتعدد فيها صور المقاومة المرتبطة بالفعل المقاوم المسلح في مواجهة العدو بشكل مباشر والوقوف في مواجهة عدوانه، وتتخذ صور أخرى معالم المقاومة في الواقع اليومي، رغم الحصار والفقد والموت، والإصرار على العيش بحياة كريمة، ومناهضة لمحاولة تشتيت هويَّة الذات الفلسطينية، ومحو وجودها عن أرضها ووطنها الأول وإقصاءها بعيدا تجاه المنفى والشتات، وتوثيقا تلك التفاصيل الدقيقة التي داخلت تكوين هذه الشخصيات وأخذت بها للإلتزام بقرار المقاومة والثبات في وجه الاحتلال الصهيوني العدواني.

يأتي تدوين الكاتبة لتلك الأحداث التاريخية بحلول العام السابق لأحداث النكبة الفلسطينية، حين تتصاعد الأحداث باقتحام العصابات الصهيونية من الأرغون والهاجاناة

وشتيرن مختلف القرى الفلسطينية وإثارة الذعر فيها وتصفية القوات البريطانية والعربية معا، تلك التي وقفت عائقا أمام مخططاتها[5]، ف"خلال عامَيّ 1947 و1948 هُوجمت قرية عين حوض أَربع مرات على الأقل وتحت أنظار الانتداب البريطاني ارتفعت أعمِدة الدُّخان من قرية "الطيرة" والقُرى المجاورة لها في ظل الهجمات الصهيونية المتواصلة التي تركت أهالي القُرى في حالة من الذعر الشديد"[6] هنا تستند الكاتبة إلى أحداث حقيقية وقعت في تلك القرى وقرية عين حوض فبعد ظهر يوم الرابع عشر من أيار/ مايو 1949، تم تهجير 212 قرية و5 مدن كبرى: حيفا ويافا وطبرية وبيسان والقدس الغربية؛ حيث تم طرد أكثر من نصف اللاجئين الفلسطينيين (55%) أو تم إجبارهم على الرحيل من قبل الميليشيات الصهيونية المسلحة: عصابات الهاغانا، وإرغون، وشتيرن في فترة أراد فيها "بن غوريون" دولة خالية من العرب، بناءا على هذا القرار سعى في التهجير والتطهير العرقي؛ بهدف تخليص الدولة الجديدة من المواطنين العرب.[7]

عن حقيقة ما ورد حول هذه الأحداث، يوثق المؤرخ اليهودي بيني موريس حقيقة الفكرة التي حملها الفِكر الصهيوني، والتي صاحبت عمليات الإخلاء والنقل والتهجير القسري –الترانسفير– التي فرضتها على نطاق متسع على القوات، فيذكر عن ذلك: في الرابع والعشرين من أبريل أصدر جيش الإنقاذ أوامره لسكان قرية الفريديس جنوب حيفا بإجلاء نساءهم وأطفالهم والاستعداد لإجلاء القرية بالكامل، وعلى بُعد عدة كيلومترات إلى الشمال تم إجلاء نساء وأطفال قرية الطيرة المجاورة لقرية عين حوض[8]، كما هُوجمت قرية الطيرة خلال اليومين التاليين من قبل قوات الهاغاناة[9]، وفي فجر الخامس والعشرين من أبريل قَصفت الهاغاناه الطيرة فترة قصيرة، وشَنت في الساعات الأولى من اليوم التالي هُجوما كبيرا،

---

[5] رياض كامل، **دراسات في الأدب الفلسطيني**، ص49.

[6] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص49.

[7] انظر: سلمان حسين أبو سته، **أطلس فلسطين 1917–1966**. (لندن: هيئة أرض فلسطين، ط1، 2011م، ص116.

[8] انظر: بيني موريس، **مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين**، ترجمة: عماد عواد، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، د.ط، ع406، 2013م)، ج1، ص229.

[9] انظر: المرجع نفسه، ص275.

باستخدام قذائف الهاون والمدفعية، هَدف بشكل واضح للاستيلاء عليها، وتمكنت وحدة مشاة من الوصول إلى الأطراف الشرقية والاستيلاء على مواقع على مُنحدرات الكرمل المطلة على القرية، وفي مطلع شهر مايو رتب البريطانيون لعملية إجلاء منظم أخرى من الطيرة شملت ستمائة شخص باتجاه جنين ونابلس، وبقي مئات الرجال الذين نجحوا في الدفاع عن القرية حتى شهر يوليو، عندما سقطت في أيدي جيش الدفاع الاسرائيلي، وتم إجلاؤهم بالكامل[10]، إلى جانب قرية قرية بلد الشيخ التي ضمنت الكاتبة أحداثها في "بينما ينام العالم"[11]، ففي صيف 1948 هرع اليهود منتشرين في أنحاءها والقُرى المجاورة لها للقتل ونهب ونقل محتوياتها، وبعد تشريد أهاليها أسكنت الوكالة اليهودية المهاجرين اليهود الجدد في المنازل العربية[12]، كما تم تصفية الأهالي وتهجيرهم قسرا عن قرة عين حوض، التي حُوِّلت إلى عين هود، كمستعمرة للفنانين دون أية إشارة إلى معالم ماضيها العربي الفلسطيني القديم، وحيث تم دمج طواحين الدقيق أو طواحين الماء الفلسطينية القديمة، والمصاطب الحجرية، والمنازل الحجرية ضمن المعالم الطبيعية الجديدة للإيحاء بأنها جزء من التاريخ الإسرائيلي، وتمت عملية نهب شاملة للقطع الأثرية التي لم تُسرق ولم تُدمَّر؛ مما أدى إلى تخريب المعالم الفلسطينية الطبيعية وإلحاق دمار كبير بالتراث التاريخي الفلسطيني.[13]

فيأتي السرد واقعيا لأحداث عبرت التاريخ الفلسطيني بذات التفاصيل:"توقفوا هنا!الحقائب هُنا. غدًا تأتون وتأخذونها. اتركوا كُلَّ شيء، المجوهرات والمال. سأُطلق النار. أتَفهمون؟" حين يُلقي أهالي القرية أمتعتهم "بحسب أوامر الإله من مُكبِّر الصوت: المجوهرات الذهبية التي أثقلت داليا يوم زِفافها، والطعام، والثياب، البطانيات، والمقص الذي كانت باسمة تشذب به الأشجار"، ورغم محاولة العديد منهم للعودة والتسلل إلى تلك الديار وحُطامها، يقف جنود الاحتلال لهم بالقتل والمرصاد:"حاولوا العَودة في اليوم التالي، لكن البنادق من

---

[10] انظر: بيني موريس، **مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين**، ص277.

[11] انظر: سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص52.

[12] انظر: سلمان حسين أبوستّه، **أطلس فلسطين 1917–1966**، (لندن: هيئة أرض فلسطين، ط1، 2011م)، ص128.

[13] انظر: المرجع نفسه، ص127.

خَلفهم حظرت العَودة إلى الديار"[14]، هنا عمَّقت الكاتبة من خلال السرد ربط التفاصيل الدقيقة للمأساة الحقيقية، بما واجه الفلسطينيي حينها مع الإخراج القسري من المنازل والقرى، وما وقع من حقيقته، ف"بعد الهُجوم على قرية ما واحتلالها، سواء أقاومت أم استسلمت، كان يُفرض عليها مَنعُ التجول.أحيانا تغادر القُوة المهاجمة وتأتي قوة أخرى للسيطرة. في وقت لاحق، وغالبا في الصباح التالي، كان يجري جمع القرويين في ساحة القرية الرئيسة أو في حقل مُجاور في مجموعتين منفصلتين: الرجال ضمن الأعمار 15-50 عاماً، والنساء والأطفال والمسنون. كان الجُنود يحيطون بالقرية من ثلاثة اتجاهات تاركين الاتجاه الرابع مفتوحاً للهرب أو للطرد. وكانت الفتحة المتروكة باتجاه لبنان وسوريا في منطقة الجليل، وباتجاه الضفة الغربية والأردن في وسط فلسطين، وباتجاه غزة ومصر في الجنوب"[15]. كما "كان يجري تجريدُ النساء من حُليِّهن ومقتنياتهن الثمينة، ومن ثم يؤمرن بالسير باتجاه الفُتحة أو البوابة دون الالتفات إلى الخلف. وكانت النيران تُطلق فوق رؤوسهن لحثّهن على الإسراع في الهرب. وقد ذكر بعضهم حدوث حالات اغتصاب واستعباد وقتل"[16]، "أما الرجال، فكان يجري إيقافهم في صف ليستعرضهم رجل مغطى الرأس، وغالباً ما كانت تؤخذ مجموعات مؤلفة من أربعة شبان، ويُؤمَرون بحفر قبورهم، ومن ثم تُطلق النار عليهم ويُرمون في الحُفَر".[17]*

ووفق شهادات حية جمعها باحثون من جامعة بيرزيت وآخرون، أن القرويين خلال التهجير وأثناء تعرضهم للهجوم، كانوا يلجؤون إلى قريةٍ مجاورة، وعندما تتعرض هذه القرية للهجوم، كان سُكان القريتين يلجؤون إلى مكان ثالث آمن لا يبعد عن القرية الأم، حيث ينتهي الأمر بهم لاجئين في مأوى أو في مخيم بعد رحلة طويلة على دروب متعرجة؛ حيث

---

[14] سوزان أبوالهوى، المصدر نفسه، ص62.

[15] سلمان حسين أبوستّه، **أطلس فلسطين 1917-1966**، ص121.

[16] المرجع نفسه، ص121.

[17] انظر: المرجع نفسه، ص121.

* وهي أوصاف دقيقة لما لاقاه اليهود من الجنود النازيين في الحرب العالمية الثانية، وأعاوا تكراره انتقاما من الفلسطينيين مع قدومهم للاحتلال. انظر: سلمان حسين أبوستّه، المرجع نفسه، ص121.

كانوا يحاولون العودة دائما إلى ديارهم؛ ولذلك لم يصل أي منهم إلى المخيمات في رحلة واحدة مباشرة.[18]

شق أهالي القرية طريقهم صعودا ونزولا عبر التلال التي لا ترحم وقد كانت القذائف والألغام والرصاص لمن أراد العودة وكان اللاجئون الذين يجرؤون على العودة إلى بيوتهم أو حقولهم يتعرضون لإطلاق النار عليهم فوراً باعتبارهم "مُتسَلِّلين"، وإذا تمكنوا من الاختفاء عن الأنظار، كانوا يلقون مصرعهم بواسطة الأفخاخ الملغُومة التي زرعتها العصابات الصهيونية قُرب منازلهم أوآبارهم أو مِضخاتهم أو متاجرهم، أو أي مكانٍ يحتمل أن يعودوا إليه إضافة إلى إطلاق النار العشوائي على المدنيين خارج فترات الحرب[19]، ويأتي التركيز على تصوير هذه الأحداث بصور مفصلة لتوثيف عُنف المجازر القائمة حينها، وسقوط أعداد هائلة من الضحايا خلال هذا الترحيل والهروب من الموت، كما تقف الكاتبة في الفصل الذي يليه عند لدى أحد أبرز انتصارات التي خلدها تاريخ المقاومة الفلسطينية في المنفى، في معركة الكرامة التي ينتصر فيها يوسف ورفاقه. المعركة الواقعة في ال 21 من مارس في العام 1968م، التي أثبتت المقاومة الفلسطينية فيها حضورا مهيبا ألحقت بالعدوان الذي توغل عبر الضفة الشرقية لنهر الأردن إلى بلدة الكرامة بهدف القضاء على المقاومة والفدائيين في المخيمات التي ضمت آلاف اللاجئين الفلسطينيين، الفشل الذريع، وقد دفعتها إلى التراجع.

كما أظهر أهالي مخيمات شاتيلا في لبنان خلال أعوام الحصار الممتدة بين 1984-1987 في أعقاب المجزرة بثلاثة سنوات، ومن خلال التكاتف الذي جمع بينهم بسالة وصمودا حقيقيين في وجه العدوان الصهيوني والميلشيات الحزبية المعارضة، حيث قاتل الجميع من أجل بعضهم ومخيماتهم، وأسَهم المدنيون بدور أساسي في الدفاع عن المخَيم، شأنهم شأن لآجئي المخيمات الأخرى في أزمنة الحصار، فلم يتوقعوا مثل هذا الهجوم العسكري، ولم يتلقوا أي إنذار مسبق، وفي الوقت الذي لم يكن في المخيمات أي أسلحة متوسطة أو ثقيلة، عمل أبناء المخيم على استخدام سائل الغاز وفتيل الذخائر المصنوعة يدويا في المنازل، إضافة إلى توظيفهم لأسلحة انتزعوها من العدو، وإعمالهم لفتيل القذائف غَيرِ المنفجرة من قصف

[18] انظر: المرجع نفسه، ص116.

[19] انظر: سلمان حسين أبوستّه، **أطلس فلسطين 1917-1966**، ص122.

العدوان، في الوقت الذي ألقيت فيه مهمة الدفاع عن المخيم على كاهل السكان أنفسهم وعدد قليل من المدنيين الذين تلقوا تدريبا محدودا على حمل السلاح، شارك الرجال والنساء والشيوخ والشباب بشكل شبه كامل في حفر الأنفاق، وتعبئة أكياس الرمل، وتزويد المقاتلين بالطعام حين خلى المخيم من مخزونات الغذاء والدواء، بتوزيع ما تبقى بالتساوي، والعناية بالجرحى، وأظهرت الشابات دور فاعل بشكل خاص، في حفر الخنادق بشكل أساسي، استشهدت فيها عشرون امرأة وأصيب العديد منهن، وبرز دورهن كذلك في العمل الاجتماعي، لقد نجحت المعركة بشكل خاص في توحيد صفوف أبناء المخيم دون تمييز، وأصبحت جميع المؤسسات العامة والخاصة منذ اليوم الأول للحصار جماعية.[20]

ويظهر التوثيق التاريخي لأحداث المقاومة الجمعية في نضال المخيمات، كذلك في طرح وقائع معركة مخيم جنين التي تستعرضها رواية "بينما ينام العالم"، المخيم الصامد رغم اجتياحه المتكرر وحتى هذا العام[21]. وخلال حصار عام 2022م رغم ارتكاب قوات الاحتلال للمجزرة والقتل العشوائي، إلا أنه ظل قائما بمُقاتليه الأحرار، بقاء عزة وكبرياء لم يهتز بتصفية عِدّة مقاومين في أرجاءه بتواطؤ السلطة الفلسطينية وعدوه العابر، وظل قائما على رفاته صامدا برجاله ونساءه وأبناءه الشجعان، رغم محاولة نسفه وابادته ل22 عاما.

ومن خلال عملها الثاني "الأزرق بين السماء والماء" تورد الكاتبة أحداثا تاريخية واقعية ذات أهمية جرت في قرية بيت دراس. تعود إلى حقيقة غزو اليهود للقرية في الخامس من حزيران عام 1948م، بعد أن قتلوا من قتلوا من سكانها وهدموا بيوتها ومدرستها انسحبوا منها[22]، فقد تعرضت قرية بيت دراس لعدة اعتداءات من قبل مستوطني المستعمرات المجاورة لوقوعها على طريق المواصلات التي تربط بين هذه المستعمرات، وقدرتها على عرقلة التحركات

---

[20] انظر: روزماري صايغ، **تجسيدات الهوية لدى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين رؤية جديدة للمحلي والوطني**، (فلسطين: بيت لحم، مركز بديل، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، ط1، 2009م)، ص15-17.

[21] خلال الهدنة التي فرضتها المقاومة الفلسطينية في غزة إبان معركة طوفان الأقصى، انتهزت قوات الاحتلال لمهاجمة مخيم جنين الذي الخاضع لحصار مطبق من قبل السلطة الفلسطينية قاطعة عن المخيم وصول الامدادات أو الكهرباء، ولمدة تجاوزت الأربعين يوما، اقتحمت عقبها قوات الاحتلال في يوم 21من شهر يناير 2025م، المخيم واغتالت عشرة من شبان المخيم.

[22] انظر: مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، (كفرقرع: دار الهدى، د.ط، 1991م)، ج1، ص310.

فيما بينها. هاجمها الصهاينة لأول مرة يوم ال16 من مارس، عام 1948م بقوة كبيرة، إلا أن صمود الأهالي في وجه العدوان المطلق يخلد في ذاكرة البطولة الفلسطينية التاريخية، فقد مني هذا الهجوم بفشل ذريع حين تصدَّى له مناضلوا القرية رغم قلَّة العدد والأسلحة بعنفٍ وتصميم، وأوقعوا خسائر عديدة بين المهاجمين الذين فضلوا الانسحاب بعد نسف منزلين من القرية. وفي ال13 من شهر أبريل عاود الصهيونيون هجومهم على القرية بقوة أكبر معَززة بأربع مصفحات، لكنهم اكتفوا بقصف المنازل بالمدفعية من بُعد متراجعين إلى مستعمراتهم[23]، وقد تضمنت الأوامر أثناء استهداف العدوان لقرية بيت دراس، أن يتم محاصرة القرية والقرية المجاورة لها ومُطالبتها بالاستسلام والتخلي عن أسلحتها، وفي حال عدم امتثالها يتم قصفها بالهاون والهجوم عليها، وفي حالة المقاومة يلزم تدميرها والتعامل معها بسياسة الأرض المحروقة، أسفرت الهجمات عن تحقيق النزوح الجماعي المرغوب فيه، وسبق كل هجوم أرضي عملية قصف بقذائف الهاون على القُرى، وكان قد سبق لقرية بيت دراس أن تلقت ضربة قاسية خلال عملية انتقامية قامت بها الهاغاناه ليلة 20-21 أبريل، سقط خلالها ما يقارب من مائة قرويٍّ بين قتيل وجريح، وفرَّ العديد من السكان إلى مجدل.[24]

وفي فجر الأول من شهر مايو هاجمت العصابات الصهيونية القرية مرة أخرى، ووصلت قوة كبيرة من المستعمرات المجاورة للقرية وبدأت بقصف القرية بمدافع الهاون تمهيدا لمهاجمتها، ثم تحركت قوة من المشاة وهاجمت القرية من الجانب الغربي حيث المدرسة، فاحتلتها وتابعت تقدمها نحو قلب القرية في الوقت الذي كانت قذائف الهاون تمطر الجانب الشرقي من القرية. خاض المناضلون من سكان القرية معركة عنيفة ضد المعتدين، وتمكنوا من إيقاف الهجوم، ثم شنوا هجوما معاكسا واستردوا المدرسة، فانسحبت الموجة الأولى من الهجوم بعد أن تكبَّدت الخسائر ولم يبق في القرية عند الظهر أي صهيوني، بعد هذا النجاح بدأ المناضلون يجمعون صفوفهم ووصلتهم النجدات من القُرى المجاورة، وحاولوا مُطاردة المعتدين الهاربين إلا أن القائد الصهيوني استنجد بالجيش البريطاني الذي أرسل ثلاث

---

[23] انظر: أحمد المرعشلي، عبدالهادي هاشم، أنيس الصايغ، وآخرون..، **الموسوعة الفلسطينية**، (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ط1، 1984م)، المجلد الأول أ-ث، ص448.

[24] انظر: بيني موريس، **مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين**، ص344-345.

مصفحات منعت العرب من المطاردة[25]، وفي ال10إلى ال11 من مايو، هوجمت القرية مرة أخرى؛ حيث واجه العدوان مُقاومة كبيرة من قِبل القرويين الذين خسروا 50 فردا في المعركة، وفي أعقاب ذلك تم تفجير العديد من المنازل وإحراقها، وتخريب الآبار ومخازن الحبوب، أسفر كل ذلك عن عملية نزوح جماعي في كل أرجاء المنطقة[26]، ورغم تفجير العصابات الصهيونية للعديد من المنازل عاد القرويون وأطلقوا النار على القوافل الصهيونية، مما أدى إلى تراجع الاحتلال عن تلك المناطق والعودة بعدوان أكبر، بالوقود والمتفجرات، وفي نهاية شهر مايو كان أن عادت القرى مثل السوافير الغربية والسوافير الشرقية ممتلئة مجددا بالفلسطينيين، وتضمن تقرير للإدارة السياسية لجهاز استخبارات الهاغاناه أن فلاحي السوافير والقرى المجاورة لها ومنها بيت دراس قد قضوا الليل في الحقول وعادوا إلى قُراهم للعمل نهارا[27]، زاد هذا الفشل حقد الصهاينة على سكان القرية فحشدوا بعد ثلاثة أسابيع أعدادا كبيرة من القوات معززة بالمصفحات، وأعادوا الهجوم على القرية فجر يوم ال21 من مايو، مطوقين القرية من جهاتها الأربع في آنٍ واحد؛ لمنع وصول النجدة إليها، وبدأت بقصفها بالمدفعيات والهاونات بغزارة كبيرة، شعر المناضلون عندها بحرج الموقف، وقرروا الصمود والدفاع عن منازلهم مهما كلف الأمر، وطلبوا من النساء والشيوخ والأطفال مغادرة القرية بهدف تخفيف الخسائر بين العزَّل، تحرك هؤلاء عبر الجانب الجنوبي من القرية، ولم يكونوا على علم بأن القرية مطوقة من مختلف الجهات، وما إن بلغوا مشارف القرية الخارجية حتى تصدَّى لهم الصهاينة بالنيران رغم كونهم نساءا وشيوخا وأطفالا عُزلا. فقتلوا عددا كبيرا منهم في مذبحة لا تقل فظاعة عن مذبحة دير ياسين وسواها، وأحرقوا بيادر القرية ومنازلها، ونسفوا بعضها الآخر مُستغلين انشغال المناضلين بالمذبحة التي حلَّت بعائلاتهم، وأدَّى هذا العمل الوحشي إلى زيادة اندفاع المناضلين للقتال أخذا للثأر، وكبَّدوا الصهاينة خسائر كبيرة وأجبروهم على التراجع، وقد سلمت القرية من الاحتلال. إلا أن الخسائر المادية والبشرية الهائلة ووقعها الأليم على

---

[25] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ص449.

[26] انظر: بيني موريس، **مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين**، ترجمة: عماد عواد، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ج1، د.ط، العدد 406، 2013م)، ص344-345.

[27] انظر: المرجع نفسه، ص347.

المناضلين أثَّر في المعنويات، إضافة إلى انقطاع الأمل في الحصول على الأسلحة والذخيرة بعد نفاذها. فبدأ العديد من السكان بالنزوح عن منازلهم ولم يبق إلا عدد قليل منهم، رغم ذلك لم يتجرأ الصهاينة على الدخول إلى القرية إلا في الشهر التالي[28].

– "وجد الفلسطينيون أنفسهم في صدمة اللجوء، يستثيرون الشفقة والاستغلال في أرجاء العالم العربي، حيث أخذت أبدع العقول الفلسطينية تعطي ثمارها للدول الأخرى. وبعد أن كانوا فلاحين، أهل عزة وكرامة، تحولوا إلى عمال يطاردون لقمة الخبز في بلاد بعيدة عن وطنهم. جَرف سيل العمالة الرخيص هذا جدّو ممدوح، أخو ستّي نظمية، وظلَّ يأخذه أبعد وأبعد"[29]، يأتي هذا النص مؤكدا لحقيقة الخناق الذي ضُيِّق على أهالي القرى وأصحاب الأراضي بعد تشريدهم وطردهم، واضطرارهم إلى النزوح في القرى والبلدات المجاورة، وتوزع أعداد هائلة منهم في الأوطان المحيطة بفلسطين، ومغادرة العديد منهم إلى أراضي الشتات الأخرى حلما بتحسين أوضاع عائلاتهم، بحثا عن واقع أفضل، بعد أن فرض الحصار ترديا في الأوضاع الثقافية والاقتصادية، محاولة لتملك السيطرة الكاملة على الأرض وتمهيدا للاستيلاء عليها.

المبحث الثاني: الزمان والمكان

تتطلب الكتابة الروائية من الكاتب ترتيب الوقائع تتابعيا، فهو لا يستطيع أن يروي عددا من الوقائع في آن واحد؛ لذا فإن هناك مفارقة ما بين زمن الوقائع وزمن سردها، وزمن الوقائع هو زمن ما تحكي الرواية عنه، ينفتح باتجاه الماضي ليروي أحداثا تاريخية أو أحداثا ذاتية، أما زمن السرد أو القصّ فهو زمن الحاضر الروائي أو الزمن الذي ينهض فيه السرد، يعمد المؤلف فيه إلى ترتيب أحداث الرواية زمانا ومكانا، اعتمادا على تصور جمالي يلغي تتابع أحداث القصة وتسلسلها التقليدي، مُستعيضاً بالتحريف الزمني الذي لا يلزمه التتابع الطبيعي بين أحداث الماضي والحاضر والمستقبل، ويتصرف في ترتيبها تبعا لغايات فنية يقتضيها البناء الروائي،

---

[28] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ص449.

[29] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص55.

ويؤدي عدم التطابق الزماني بين زمان القصة وزمان السرد لإحداث ما يسمى بالمفارقات الزمانية، فتُستَرجع بموجبها أحداث أو تُستَبق[30].

ونتيجة لما تعرضت له الذات الفلسطينية من تهجير وتشريد وضياع، كان من أهم ما ميز الأدب الفلسطيني عامةً ميله لتوثيق اللحظة وأحداث الزمان والمكان، لحفظ تاريخه الذي أخذ منه، ومحاولة محوه وتهويده، فأخذت مأساته الخاصة دورا في توجيه الأديب الفلسطيني لمعاناته إلى جانب نضاله، لتنعكس على معظم نتاج ما نشره أدباؤها حول المكان والزمان الفلسطيني[31]، وهو ما ظل مرافقا لكتاب الشتات الفلسطيني في الخارج والداخل وحتى الحاضر. يتسع الأفق الزماني في الأعمال الروائية لسوزان على عقود تلاحقت منذ بدأ النكبة، وتقوم بنية الزمان الأساسية في أعمالها على بناء ذاكرة الارتجاع لدى شخصيات الساردة، عودةً لتوثيق أهم الأحداث التاريخية والواقعية للزمان والمكان الفلسطيني، تلك التي شكلت فوارق في حياة شعبها، ولتبحر في سرد تفاصيل قصة المأساة والشتات القائمة على قسوة الإزاحة والاقتلاع عن المكان، التي تسبب بها الإحتلال لصهيوني. وقد أحالت معاناتها الذاتية في الشتات والاغتراب إلى العديد من الأحداث وأماكن الشتات إلى حياتها الشخصية، والأحداث التي مرت بها عائلتها وشعبها، في مقاربة للزمان والمكان واللأحداث والعديد من الأحداث تعيد القارئ إلى ذاكرة مُسترجعة أو أحداث مُستَبقة خارج لحظة الحاضر، أثناء مُضي الأحداث في سياق زماني متصل يتسارع فيه إيقاع السرد ويتباطأ بوتيرة مختلفة، فيمتد الشريط الزماني للأحداث في تصاعد من خلال الأعمال الثلاثة بدءا بعام النكبة الفلسطينية، وانتهاءا بأزمنة مختلفة.

من الريف في قرية عين حوض إلى المخيمات مخيم جنين، والأردن حيث يلتحق حفيد العائلة يوسف بالمقاومة، ومنها إلى لبنان، وتونس، والولايات الأمريكية المتحدة حيث تنتقل الشخصية الرئيسية آمال، بينما يُفرَّق زمان النكبة الفاصل خط مكان عائلة بركة في

---

[30] انظر: عدوان نمر عدوان، **المكان في الرواية الفلسطينية بعد أوسلو1993**، (أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، 2005م)، ص56.

[31] انظر: رياض كامل، **دراسات في الأدب الفلسطيني**، ص7.

"الأزرق بين السماء والماء" بعد طردهم من قرية "بيت دراس" ما بين مخيم النصيرات في غزة، وانتقال ممدوح إلى أميركا حيث تولد في أرض الاغتراب الشخصية الرئيسية نور.

كما تتعدد أماكن النفي في "ضد عالم بلا حب" مع الشخصية الرئيسية "نهر" وعائلتها بين دول متعددة، فبعد نفي العائلة من حيفا تتجه إلى مخيم عين السلطان ومنها باتجاه الأردن والكويت وبعدها في عودة متراجعة باتجاه الأردن وفلسطين.

المكان الذي يتصدر المشاهد في "بينما ينام العالم" وتدور حولها الأحداث هي قرية فلسطينية ذات ارتباط وثيق الصلة بأفرادها قرية "عين حوض"[32] ذات التاريخ العريق، تكثفت مشاهد الطرد والتهجير القسري منها، وتستحضر الذاكرة المسترجعة طرح حقيقة مرحلة التهجير لأهالي قرية عين حوض إلى رحلة الشتات الممتدة في أبد الذاكرة لدى الذات، لاستحضار المأساة والصدمة الجماعية: "وهكذا كان -بعد ثمانية قرون من إنشائها على يد أحد قادة جيش صلاح الدين عام 1189م- إخلاء عين حوض من أبنائها الفلسطينيين! حاوَل يحيى أن يُحصي عدد الأجيال التي عاشت وماتت في تلك القرية. تتبَّع سلسلة الأسماء والأنساب، فأحصى أربعين جيلا"[33] وتصير إلى ميراثٍ لليهود الغُرباء الذين استولوا عليها، فكانت مأساة تاريخية لذكرى الزمان، سقطت معها أمجاد قادة عِظام بعد تشريد أصحابها الأصليين إلى المخيمات، ومن قسوة آلام النفي من قُرى الداخل إلى مكان لا يصلح للعيش: "في محنة تاريخ دُفن حيًّا، سَقَط العام 1948 في فلسطين من الرزنامة إلى المنفى، مُتوقِّفًا عن حساب العد السائر للأيام والشهور والسنوات ليُصبح بدلا من ذلك ضبابا لا نهاية له ! الشهور الاثنا عشر لتِلكَ السنة أعادَت ترتيب نفسها، والتفَّت كالدوَّامة بلا هَدف في قلب

---

[32] تقع قرية عين حوض على إحدى التلال المرتفعة في سفوح جبال الكرمل وإلى الجنوب من مدينة حيفا، تطل على البحر المتوسط، تم استبدال اسم القرية وأصبحت تُعرف باسم "كفار أومنيم" أي "بلدة الفنانين"، وقد سميت بهذا الاسم بعد أن سكن فيها عدد كبير من الفنانين اليهود بعد العام 1948، وفي شرق مركز بلدة عين حوض الأصلية أقام اليهود مركزا للسياحة أطلق عليه بالعبرية اسم "نير عتصون". انظر: شريف كناعنة، بسَّام الكعبي، **القُرى الفِلسطينية المُدمَّرة– عين حوض–**، (عمَّان: جامعة بيرزيت، مركز الوثائق والأبحاث، د.ط، د.ت)، ج1، ص7-10.

[33] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص63.

فلسطين!""[34] وحيث يضيع معنى الزمان لأهلها الذين يهيمون بلا وطن ولا مأوى، إلى مكان انتزعت هويَّته، وهوّدت لتاريخ لصوص آخرين، وتظل ذاكرة المأساة الأولى للنكبة الفلسطينية معها حاضرة. عام تاريخ فاصل انبثق فيه الشتات الفلسطيني كواقع غير قابل للطيّ أو التجاوز، أهم ما اكتنفه هو البُعد المتمثل بتداعيات العملية وتعقيدها، فيبرز الشتات في العديد من الكتابات مُتخيلا بوَصفه محاولة لفهم حقيقة ما جرى في الزمان والمكان، فالاختبار كان خلطا من مشاعر طارئة على الذات التي كان دافعها الأول أو مُحرِّكها الصَّدمة مما جرى، وواكَب فعل الارتحال القسري قلق تحدد بتداعيات الموت والتدمير والتصفية عبر المجازر التي ارتكبتها العصابات الصهيونية في المدن والقُرى الفلسطينية، والتي ظلَّت تداعياتها عميقة في الذاكرة، فكان لابد من تفعيل قيم التذكر، وسرد فعل الخروج والوقوف طويلا لتوثيق هذا الحدث على أكثر من مستوى، ومنه الوثائقي، وما يتصل بالإبداع والنص التخيلي.[35] وهو ما يتجلى من خلال أعمال سوزان أبوالهوى حيث تحضر النكبة كعنصر أساسي، ويحضر ماضي الإخراج القسري من القرية، فهي في استعادة لفضاء حقيقي عرفته الذات الفلسطينية، حملت علاقتها بمكانها في ذاتها، حتى زمان ما بعد النفي والطرد القسري عن موطنها الأول، فكان لابد من مواجهة حتمية واتخاذ رد فعل مناب تجاه العدو المجرم في أنحاء القُرى، منها برزت شخصية يحيى الجد الأكبر للعائلة الي تفرض حق التمسك بالقرية، واسترداد الأرض، والتشبث بالمكان، والعودة إليه، فظلت رغم مرور الأعوام، ورعايته الدائمة جزءا منه، لا يمكن له أن يفقدها دون أن يفقد ذاته، والتي ترجمت علاقة الفلاح الفلسطيني اللَّصيقة والمتزامنة بالمكان الذي يتمثل في قريته وأرضه التي يُقدم لها العناية والرعاية في كل يوم، فتجذَّرت في أعماقه وعاداته اليومية وعليها اعتمد كمصدر للدخل والحياة، فتُظهر تفاصيل الاعتناء مدى علاقة القرب، والتواجد الغير قابل للانفصال متباينا في نتائج المأساة النهائية للاقتلاع، ظهرت شخصيات غير قابلة للابتعاد والتمسك الأعمق بأرضها متمثلة في يحيى الذي يستمر بالعودة إلى أرضه ورفض التخلي عنها متحديا الحصار والموت، ومواصلا رغم الاخطار التي تحدق بالمكان والزمان، لا يرى سوى حقه وأرضه يَعدوا إليها في كل مرة،

---

[34] المصدر نفسه، ص63.

[35] انظر: رامي أبو شهاب، **في الممر الأخير: سرديَّة الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي**، ص97.

مجنونا بحبِّ أرضه، متخطيا مساحات الحظر التام، والخوف، غير عابئ بالموت. هي العلاقة التي عاد إليها غسان كنفاني في تفصيله لعلاقة الذات الفلسطينية بأرضها، والظلم الذي قاست أعباءه الغالبية من طبقات الفلاحين والعمال من جور الانتداب البريطاني والغزو اليهودي وسيطرة الاقطاعيين على الأراضي الريفية وبيعها وفرض الضرائب عليهم وزيادة معاناتهم بشكل جائر[36] في أحداث ما قبل النكبة الفلسطينية وهي ما دفعت بالأوضاع حينها باتجاه الثورة الكُبرى.

وتعود أيضا إلى حقيقة إسهَام الفلسطينيين قبل العام 1948م بشكل كبير في تطوير الزراعة والاقتصاد الزراعي وانتماءهم لهويَّة الأرض، فكانت علاقتهم لصيقة بها، وعليها اعتمدوا للبقاء[37]، في حين اعتمدت أقلية من اليهود المهاجرين إلى فلسطين على الزراعة، ومن باب مصلحة الأمن الغذائي، ونتيجة لافتقار العديد منهم إلى الخبرة في المجال الزراعي وتفضيلهم العيش في رفاهية المدن، هَجَر العديد منهم المواقع التي تم توطينهم بها[38]، [39]، [40].

---

[36] انظر: غسان كنفاني، **ثورة 36-39 في فلسطين: خلفيات وتفاصيل وتحليل**، (جمهورية مصر العربية: دار الوطن للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 2016م)، ص31-43.

[37] انظر: سلمان حسين أبوستّه، **أطلس فلسطين 1917-1966**، (لندن: هيئة أرض فلسطين، ط1، 2011م)، ص142.

[38] انظر: بيني موريس، **مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين**، ترجمة: عماد عواد، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، د.ط، 407، 2013م)، ج2، ص123.

[39] وقد اتضح أنه مع مصادرة اليهود لكميات كبيرة من موارد المياه الفلسطينية والعربية، إلا أن استعمالهم لكميات كبيرة من الماء كان لري مساحات صغيرة، ومع ذلك لم يتجاوز مُعدل إسهامهم في القطاع الزراعي من أي أرض، سواء أكانت مَروِية أم لا، أو من أي منتوج زراعي، في الناتج المحلي الإجمالي في الحدود التي أسموها إسرائيل نسبة 1.8%، ورغم المساحة الكبيرة المخصصة نسبيا للزراعة، إلا أن باقي الأرض لم يتم استغلالها لهذا الغرض، بل تمت مصادرتها لأغراض آلة الحرب العسكرية، وكاحتياط استراتيجي، وكحواجز لإعاقة عودة اللاجئين إلى أرضهم وديارهم الأولى. انظر: سلمان حسين أبوستّه، المصدر نفسه، ص147.

[40] كما اتضح أيضا مع دحض ادعاءات اليهود الكاذبة بأن أراضي منطقة بئر السبع كانت منطقة قاحلة غير مأهولة، وأنهم حولوا الصحراء تلك الصحراء إلى جنَّة. والواقع يكذِّب ذلك. وما اتضح من خلال الوثائق التاريخية أن كل دونم كان مزروعا وأن وراء كل كل زراعة مزارع يفلح الأرض ويعيش عليها، ومن المفارقات أن الفلسطينيين في بئر السبع وحتى 1948م فلحوا (5000000) دونم كحد أقصى اعتمادا على مياه الأمطار، بينما يفلح اليهود الآن (800000) دونم فقط، اعتمادا على المياه التي تسلبها من بحيرة طبرية، ما يظهر عدم تقديرهم للموارد الطبيعية وعدم

تجذر هذه العلاقة بين الذات ومكانها، لتبرز في العديد من المشاهد المتلاحقة بمرور رحلة التهجير والاغتراب وتعاقب الأعوام عليها، وتأكيدا من الكاتبة على أحقية الشعب بميراث أرضه التي انتزعت منه.

وتبرز تقنية الاسترجاع في الزمان كذلك مع عودة آمال إلى المكان القديم، إلى تِلال مدينة جنين العريقة موطنها الثاني بعد النزوح وأرض أجدادها الأوائل، فقد نشأت على مجازر الغزو الصهيوني، وتدمير الأرض الممنهج، وحقيقة الاستيلاء الاستعماري الممتد، وقبل رحيل آمال إلى دار الأيتام في القدس تتراءى التفاصيل الحيَّة لروح المكان وهي تُقاوِم الاستعمار الجائر على الطبيعة ومَواردها ومَعالمها، التهويد ومحاولات طَمس المعالم بامتدادها الشاسع وتجذر معالمها الأصيلة في القِدم: "لا أذكُر كيف أثَّر المشهد الذي فَتحتُ عيني عليه في نفسي؛ لكن **عندما أستحضر الآن ذلك المنظر** الطبيعي في ذلك الصباح النَّقِي تتقطع أنفاسي. **كانت** هذه الخلفية الخَلاَّبة لحياة والديَّ- كيلومترات كثيرة من المراعي تمتد كالسِّجاد في الوديان وسط حقول أمواج الزيتون. أشجار مثل الأجداد، عُمرها مئات السنين، تنحدر وتنحني متجعِّدة وأذرعها الثقيلة تمتد في كل الاتجاهات، كما لو كانت في صلاة. هؤلاء الذين أخذوا الأرض المجيدة التي كانت تتلألأ بالخضار، إلى جانب المياه الزرق للبحر المتوسِّط منذ ما قبل زمن موسى، يدَّعون أنها كانت كالصحراء، وأنهم هم الذين جعلوها تزدهر وتخضرّ. سكبت شمس رائعة ضوءها على التلال مثل الطلاء الأصفر، وأضاءت البيوت العربية القديمة التي تقاوم مخاطر الهجر."[41] فقد تعددت المفارقات الزمانية التي لجأت إليها الكاتبة، باستباق الزمان وتوقع الأحداث قادمة في حياة الشخصيات مستقبلا، فيلحظ القارئ تسريعا في وتيرة العديد من المواضع وتفعيلا لتقنية الخُلاصة التي تختصر أحداثا ووقائع قد تجري في مُدَّة زمنية طويلة، سنوات أو أشهر في جملة واحدة أو كلمات قليلة فيظهر في حكي مُوجز وسريع عابر للأحداث دون التعرض لتفاصيلها الدقيقة، بل بتقديم خلاصة لها[42]: "**بعد بضع سنوات،**

القدرة على إدارتها باهتمام ورعاية أو ذكاء. انظر: سلمان أبو ستّة، **حق العودة**، (المركز القومي للدراسات والتوثيق، د.ط، 1999)، ص28.

[41] انظر: سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص179-180.

[42] انظر: محمد بو عزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص92-93.

كانت آمال تتذكَّر ذلك الجمال الأخَّاذ الذي كانت تعدّه من المسلَّمات، ولم تكن تتخيَّل أن شيئا بتلك الروعة والجلال، يُمكن مَسحُه من الوجود، أو يمكان أن يرغب أيُّ شخص في القَضاء عليه"،[43] فظلَّت ذكريات الذات معلقة بتفاصيل المكان بعد رحيلها الأول عن المخيم، واستقرارها في دار الأيتام لأعوام قادمة في مدينة القدس، المكان الذي يُمثل معلما دينيا وإرثا ثقافيا غنيا بالتفاصيل التاريخية والمعالم الأثرية، والوصف الذي تُسقطه سوزان أبو الهوى من ذكرياتها الخاصة على شخصية آمال، فهي ابنة القُدس العالمة بتفاصيل المكان الذي قضت في ضواحيه العديد من أيام الطفولة المبكرة[44]، الحاضرة في ذاكرتها ووصفها رغم اغترابها عن المكان: "ها هي هُناك. قُبَّة الصخرة والمسجد الأقصى، موضع الإسراء والمعراج؛ **كانت في ذهني ذِكرى الوُقوف داخل القُبَّة** بجانب واحد من الاثني عشر عمود من الرخام الصلب، والتي تحيط بصخرة الإسراء. صورة تلك الدعامة الضخمة التي وصلت أعلى مما يُمكن لعَقلي ابن السنوات الخمس أن يستوعب، **كانت هي ما بقي معي من الرحلة العائلية التي قُمنا بها إل القُدس عام 1960**، قبل أن تَغزوها إسرائيل وتحتلها"[45]، ورغم كون دار الأيتام في القدس محطة لإقامة إجبارية حملت تقاطبات المكان الثقافي والاجتماعي[46] التي تفرض على شخصية آمال، إلا أنه بتعاقب الأعوام يغدو منطقة ألفة ومحطة ذكريات سعيدة في ذاكرة الذات المرتحلة آمال، كبيتهم في مخيم جنين الذي يتمثل بعد تحقق العودة مصدر أمانٍ أول لذكرى العائلة ووالدها حسن، والذي يتكرر عبر الارتجاع في الذاكرة وحتى عودتها الأخيرة إلى مخيم جنين، كموطن الذات الأزلي، ومكان ألفتها الأول. إنه كما يشير غاستون باشلار، حيث يُعدّ البيت أكثر من شئ أو مكان هندسي مُجرد، فهو عالم الانسان الأول قبل انطلاقه إلى العالم[47]، والمكان الذي يعود إليه، ومن خلاله إلى أقدم منطقة لذكرياته

---

[43] انظر: سوزان أبو الهوى، المصدر نفسه، ص173.

[44] تابع: لقاء للكاتبة سوزان أبو الهوى على منصة اليوتيوب، قناة afikra، تاريخ الاطلاع الأخير: 2022/10/30م: https://www.youtube.com/watch?v=VrbDNE70pZY

[45] انظر: سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص212.

[46] انظر: محمد بو عزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**.

[47] انظر: غاستون باشلار، **جماليات المكان**، ترجمة: غالب هلسا، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 1984م)، ص35.

الانسانية في مراحل من التاريخ البعيدة جدا وفي أحلام يقظته التي تقوده إليه، وفي مقصوراته المغلقة التي لا حصر لها، يحتوي على الزمان مكثفا[48] وتبقى راسخة في ذاكرة الانسان لأنه يرغب أن تبقى ذكرياته عنها كذلك، فسِمات المأوى تبلغ حدا من البساطة ومن التجذر العميق في اللاوعي يجعلها تُستعاد بمُجرد أن تُعاد من خلال الوصف الدقيق لها[49] وللحظات تستغرق أمامها الشخصيات ويتوقف عندها الزمن حدِّيا كما يقف في حياة داليا "توقَّفت داليا وكذلك فَعَل الزمن"[50].

كما يترجم تسارع الزمن وانعدام الاحساس به وبطئ سيره المرتهن بالحدث في العديد من المواضع حملت آثار انعدام الزمن أمام صعوبته البالغة على الذات الفلسطينية فتمتد عليها اللحظة المشحونة بآثار الاغتراب والألم، فلا معنى أو وجود له، فهي لحظة معبأة بالألم ومشحونة بعدَّة صدمات وآلام متلاحقة، التدمير، الطرد، القتل، الفقد: فقد الأفراد العائلة الممتلكات الذريات الأرض والوطن. لحظات تمتد على الذات بلا نهاية وتمر بلا معنى، يلحظ ذلك أيضا مع والدة نهر في العمل الثالث، ومع مختلف الأجيال التي عبرت مأساة النكبة والشتات، كما يُلحظ في رواية "بينما ينام العالم"، لحظة الخروج والتهجير التي تقتل فيها عائلة داليا أثناء الفرار من اعتداء العصابات الصهيونية في القُرى، ولحظة احتطف إسماعيل التي تغير مجرى حياته وحياة عائلته: "إنَّ لَحظة واحدة لَيُمكنها أن تَسحَق دِماغا وتُغير مجرى الحياة، مسَار التاريخ. لقد كان وَميضا مُتناهي الصغر من الزمن سوف تستعيدها داليا في ذاكرتها، مرات ومرات سنوات جمَّة، باحثة عن مفتاحٍ لمعرفة ما جَرى لابنها. وحتى بعد أن أصبَحت ضائعة في واقعٍ مكسوف، كانت تفتش الحشد المهاجر في مُخيِّلتها بحثا عن إسماعيل"[51] إنه أقرب ما يسقط على الذات كجزء مقتطع عن التاريخ، عند الزمان الفاصل لقصة فاجعتها، وقد عاينت الصدمة النفسية واستقرت في ذاكرتها إلى الأبد، فاستنفذت آخر ما لديها من طاقة ودموع، تعيد أحداث اللحظة، وتسقط في اغترابٍ ذاتي عن الواقع، ذاهلة في جنون الأم

---

[48] انظر: المرجع نفسه، ص38.

[49] انظر: المرجع نفسه، ص42.

[50] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص60-61.

[51] المصدر نفسه، ص60.

على فقد رضيعها واستحالة عودته، يأخذ منها البحث المضني، فتستسلم للاغتراب، حتى تُغادره للموت.

هذا الزمان يأسر الذات في سجن مؤبد من الذكرى الصادمة لتجربة الاقتلاع وما صاحبها، وما مر على وطنها في المكان الفلسطيني، التحول عن المكان الخاص إلى مكان خال ومساحة عامة، الانقلاب الذي يوقعه الإجرام الصهيوني، وحوَّلهم من أصحاب الأرض، إلى مشردين بلا مكان، الإجرام الذي لم يحاكم يوما أو تتم إدانته: "أهل عين حوض الكبار في السِّن سوف يموتون لاجئين في المخيم، مسلِّمين ورَثَتَهم المفاتيح الحديدية الكبيرة لمنازل أجدادهم، وعقود تسجيل الأراضي المتهالكة الصادرة عن العُثمانيين، والصكوك العقارية من الانتداب البريطاني، وذكرياتهم، وحُبهم للأرض، والعَزيمة الباسل على رفض ترك روح الأربعين جيلًا، عالقة تحت الدمار الذي أحدثه اللصوص!"[52]، والزمان الذي قطعه يحيى ببسالة للعودة إلى المكان، إلى المخيم، إلى أرضه للاطمئنان عليها: "كان كمن يَمشي قبل سنوات، بعَزمٍ وتصميم واعتداد بالنفس –وإن كان الآن بمساعدة عُكَّاز– صاعِدا الزقاق المنحدر إلى حافَّة المخيم، عابرًا حُدوده، ومُتَّجها إلى الشمال الغربي، خارج قيد ذلك العام الأبدي 1948م"[53]، "كانوا يُدركون جميعا في المخيم أن يحيى، عندما وضع قدمه خارج حدود ذلك العام الأبدي 1948م، كان يعرف أنه خروج من غير رجعة"[54] الزمان الذي حكم به على الذات الفلسطينية، بلحظة هي الأشد كمصير محتَّم لم يكن الفرار منه ممكنا، والمكان فيه أشبه بقيدٍ آسر.

الزمان الممتد عبر تقنيات المشهد والحوار يقف بين الصديقتين هدى وآمال أيام المجزرة في حفرة المطبخ، وفي الحوار الذاتي لآمال مع دخول جنود الاحتلال للغزو بالقتل والتفجير إلى المخيم، حيث تتابعت أوصاف المشهد للزمان: "مرَّ الوقت بعد ذلك كجدولٍ متدفِّق. لا يميزه نهار أو ليل. لم نتمكن من رؤية وجه الأعداء، لكننا سمعنا أصواتهم: طائرات كثيرة

[52] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص64.

[53] المصدر نفسه، ص76.

[54] المرجع نفسه، ص82.

حلَّقت منخفضة وألقَت قنابلها على الناس أينما كانوا"[55]، فتؤكد في استباق زماني وتسريع لاحق أن الذكرى بقيت حاضرة مع ذات الساردة –آمال– حتى المستقبل: "هذه الهدايا العظيمة من بابا كانت شيئا لا يمكن لأحد أن يسلبني إياه. **وبعد عقود من الزمن**، في الساعات المبكرة الكئيبة من شباط ولاية بنسلفينيا في الولايات المتحدة، ستبقى إيقاعات جبران الشعرية، وذكرى صوت بابا الجهوري الحساس، شعاع سلواني الوحيد في غربتي"[56].

طيف المكان والحياة السابقة في المخيم والقدس في فلسطين تلاحق آمال في لحظات الانفصال والاغتراب عن واقعها الجديد في أميركا، وتبرز مجددا في إعمال الكاتبة لتقنية الاسترجاع للذاكرة، حين تترائى لآمال: "كانت فلسطين تنبعث من عظامي إلى أواسط حياتي الجديدة، ببساطة ومن دون إعلام مُسبق. **في الصف أو في حانة أو في أثناء التجوال عبر المدينة**، من دون سابق إنذار **يتحوَّل شجر الصفصاف المتهدِّل في ميدان ريتنهاوس إلى أشجار تينٍ في جنين**، تنحني لتُقدم لي ثمارها. كان وخزاً متواصلا ينبض في خلايا جسدي، وينادي إلى نفسي، ومن ثمَّ يعود ليَكمن في الأعماق"[57]. فالحضور الأبرز في العمل كما يتبين للقارئ يأتي لمخيم جنين، مع كونه محطة إقامة جبرية فرضت على أهالي القُرى المهجرين إلا أنها استوطنت ذكرياتهم اللاحقة، وحملت الأجيال اللاحقة منها ذكرى المنزل الأول الرابط بين أفراد المجتمع والعائلة، كما رافقت شخصية آمال ذكرى والدها حسن الحاضرة والصباحات التي جمعتهما معا خلال السنوات في أميركا وفي عودتها الأخيرة إلى مخيم جنين، بشكل دائم، المكان الذي ظل مُعلقا بالذاكرة وبعائلتها، ويظهر في تكرار مع استرجاع الذاكرة، ويجمع عدة تقاطبات مكانية متضادة في آن معا، ففي حين أن النمذجة المعتادة للمكان تبنى على مفاهيم مثل التقاطب، يمكن التمييز فيها بين أمكنة انتقال وأمكنة إقامة[58]، فيجمع عدة عناصر متناقضة ويتحول بمرور الأعوام من محطة إقامة جبرية ومَنفى إلى منزل أول وبالأخص للجيل الثالث، منزل مؤقت، فدائم، لحيّ من الأحياء الشعبية المليئة

---

[55] المرجع نفسه، ص108.

[56] المرجع نفسه، ص99.

[57] انظر: سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص260.

[58] انظر: محمد بو عزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص103.

بالمعاناة ولحظات الرعب بالمجازر التي هددت بقاءها، كمواقع غير قابلة للسكنى بفعل الفقر والجوع والتدمير الإقتصادي المتعمد والمتكرر، قضت فيه أعداد هائلة من اللاجئين، والواقع الذي أودى بأهالي قرية عين حوض من مكانهم وأرضهم الهائمة العريقة إلى مخيم لا يصلح لعيش الفئران كما تسرد عنه آمال:"في مُخيمنا، كانت قصَّته هي قصَّة كل واحد منا: حكاية بسيطة عن النهب، عن تجريد المرء حتى العِظام من إنسانيَّته، عن إلقاءنا كالقُمامة في مُخيَّمات للاجئين لا تصلُح حتى للفِئران، عن تَركِنا دون حقوق أو وطنٍ أو دولة، بينما أَدار العالمُ ظهره، شاهد أو يهتف لابتهاج المغتصبين، وهم يعلنون دولة جديدة سُمِّيت إسرائيل"[59]

إن خسارة المكان الأصلي الذي مُنيت بخسارته الذات الفلسطينية لم يُغيّر من توجُّه حياته وقد أضحى لاجئا، فقد أصبحت بحضوره في مكان المخيم أكثر إصرار مع كونه ذي خصوصية عالية لدى الشخصيات وحضور مُكثف في أذهانهم وأصواتهم السردية وذات الكاتبة التي عاينت موقع الحدث، فكوَّنت كِتابتُها المعمَّقة والحية للمشاهد المتعددة وقدمت وصفا ذو دقة وبلاغة للزمان ومكان الحدث، أضفت على صفات المكان الذي أشارت بثينة العيسى مَسحةً حسِّية عالية الخصوصية لدى الكاتب وجعلت العمل الروائي أكثر واقعية وإقناعا[60]، ويميل أيضا إلى كونه الفضاء الذي يحمل دور الصدارة من حيث عدم وروده في الرواية وحسب، بل بحضوره الدائم كأحد أبطال النص[61] كما تعيد استحضاره آمال: "لقد **أرسخت تلك الأيام نفسها في ذاكرتي** كذرَّات غُبار دموي، مع رائحة كريهة لكائنات مُتعفِّنة وتُربة محروقة. لقد انتقلنا، ولكن إلى **لا مكان**. نظرنا، ولكنَّ الواقع أغشى على أبصارنا. لقد شهَقنا وزفرنا غبار الأشلاء فلم نتنفَّس. وبينما أصبح الحشد أكبر، كنت أنا أُراقب من فوق السطح في صمت ارتباكي الشخصي. كنا لاجئين، جميعنا. أولئك الذين هاجروا أصبحوا لاجئين مرة ثانية، في ساحة خرِبة بشرية أخرى على خلفية تاريخ إسرائيل

[59] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص123.

[60] انظر: بثينة العيسى، **الحقيقة والكتابة**، (الكويت: منشورات تكوين، توزيع: الدار العربية للعلوم ناشرون، ط2، 2018م)، ص103

[61] انظر: المرجع نفسه، ص104.

القصير. وأولئك الذين بقوا منا أصبحوا سُجناء **في جنين**"[62]، ومع سمات الرعب والتهديد والنفور لكونه محطة إقامة جبرية وموقع عدوان دائم، إلا أنه بمرور الأعوام يتحول إلى موضع إقامة دائم يحمل سمات العلَم المستقل، ورمزا من رموز المقاومة في التاريخ الفلسطيني، وممثلا أساسيا لصورة المقاومة والصمود في الضفة، يُقدِّم المفهوم الثقافي في وصفه لواقع اجتماعي سياسي للمكان[63].

بعودة آمال الأخيرة إليه عام 2002م، زمان ومكان المقاومة، تبقى معالم المكان قائمة بالنسبة لها رغم التدمير الذي أظهر دلائل صمود المكان وساكنيه، بمنازله الصغيرة وأبناءه البواسل: "في اليوم التالي، كُنا ندخُل جنين، جنين المشغولة، عاقدة العَزم والغاضبة. ليست جنين السلبية، المنتظرة، التي تُسلم أمرها لله، كما كانت في أيام صباي"[64]، فسمات المكان في الحاضر مغايرة لثلاثين عاما مضت، وعن التهجير الأول، والفروقات حاضرة مع المقارنة بزمان الطفولة البعيد: "كانت جنين أعلى بناءً وأكثر ازدحاما من تلك التي كنت قد غادرتها قبل ما يقرب من ثلاثين عاما. أكواخ مبنيَّة فوق أكواخ. الحجر بدلا من الطوب اللبن –النمو العمودي هو المصطلح التقني. كيلو متر مربع واحد من إعانات الأمم المتحدة، حيث يعيش خمسة وأربعون ألفا من السكان، أربعة أجيال من اللاجئين يُحشرون عموديًّا"[65]، وفيما تستحضره كذلك:" لم يكُن هناك –كما **كان في صِباي**- رجال كبار في السِّن يجلِسون على دِلاءٍ مَقلوب، يلعبون طاولة النرد بشيءٍ من الخُمول والتكاسل. شبابٌ غَسلوا أنفسَهم من الأحلام، ركضوا في الأزقَّة ببنادق مثبَّتة إلى أجسادهم. كانوا يَستعدُّون لما هو حَتميّ، فيُخزنون المواد الغِذائية، ويَنصبون دفاعاتٍ، وشِراكًا مُفخَّخة، وأكياس رمل في وجه العاصفة المقبِلة. جعل الغضب والتحدي أيديهم مترابطة، يسيرون في خطوات عسكرية"[66]، فالمساحة اتسعت من حيِّز فردي يُمارس فيه الفرد حياته اليومية، إلى حيِّز جماعي تنظمه

---

[62] المرجع نفسه، ص129-130.

[63] المرجع نفسه، ص102.

[64] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص430.

[65] المصدر نفسه، ص428.

[66] المصدر نفسه، ص428-429.

الجماعة لتُحافظ على تماسكها وتناغمها، خرجت إلى حيِّز قومي[67]، والمكان موقع معاناة الفلسطيني ومنفاه الذي فرضه قهر الاحتلال الصهيوني، إلا أنه نهض من الموت في كل عام برجالٍ وعَتادٍ أقوى ليغدوا اليوم رمز صمود، ومن أعتى المخيمات مواجهة ورعبا لأعداءه، وينتزع سُلطة المكان، ليتملكها ويفرض وجوده في وطنه ومكانه ويعيده رهنا لأبناءه الشجعان: "وَجَدت الصلابة تربة خصبة في قلوب الفلسطينيين، وبُذرت بُذور المقاومة ونَمَت تحت جلودهم.أصبحت القُدرة على الاحتمال السمة المميزة لمجتمع اللاجئين، لكنهم دفعوا الثمن غاليا، لقد ضحُّوا برِقَّة الإحساس. تعلَّموا أن يحتفلوا بالاستشهاد، فالاستشهاد وحده هو الذي يقدِّم الحريَّة. بالموت فقط يُصبحون مُحصَّنين أمام إسرائيل"[68].

سرد آمال عن ليلتها الثانية في مخيم جنين في الثاني من 2002م، يأتي عن زمان واقعي حين فرض فيه الحصار ومنع التجوال، وارتكبت القوات فضائع مروعة واغتيالات، فإنها قطعت الكهرباء عن سبعين ألف نسمة في مدينة جنين ومخيمها والقرى المجاورة لها بضرب محول الكهرباء الرئيسي في المدينة، كما ضُربت خطوط المياه والبنية التحتية من الشوراع وخطوط الصرف الصحي، ومؤسسات ومحلات ومراكز طبية وصحية، تم تدمير ما تبقى من مقرات الأجهزة الأمني الفلسطينية، وقُطعت إمدادات الأدوية والمواد الغذائية والتموينية عن الأهالي، بهدف القضاء على مقاومتها المسلحة، إلا أنها لم تثني الأهالي عن التصدي لشبح العدوان في حدث بطولي لمقاومتها[69]، وفي دراسة مقارنة للحصار الذي فُرض على الفلسطينيين قبل وقوع مجزرتين مختلفتين فالزمان والمكان: مخيم صبرا وشاتيلا في لبنان عام 1982م، ومجزرة جنين عام 2002م، أُطلق على مخيم جنين "**لا عادية المكان**" كسِمةٍ أساسية للمكان: مخيم جنين المحاصر، وقد تمثلت لاعاديته في خروجه من عمق معاناة الحدث، وثباه منتصرا في العمل الجماعي بوحدة أهاليه وأقل إمكانياته،بجمعه لأفراد المجتمع الواحد: أبناء المخيم بأبناء المدينة أثناء الحصار ومواجهة العدو، فلم يكن تاريخ مجزرة عابر، بل جاءت نتيجة معركة متواصلة وتخطيط محكم، ورحلة من الصمود والمقاومة طويلة من أبناء

---

[67] انظر: محمد بو عزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص107.

[68] سوزان أبو الهوى، **بينما ينام العالم**، ص167.

[69] انظر: جمال مصطفى عيسى حويل، **معركة مخيم جنين: التشكيل والأسطورة**، ص70.

المخيم وأهالي مدينة جنين التي واجهت العصابات الصهيونية، في معركة من النضال الباسل استمرت لما قارب ال12 يوما تكاتفت فيها جهود الرجال والنساء جنبا إلى جنب، وأوجد المخيم المهمَّش والمحاصر في بقعة صغيرة لنفسه حضورا، وقدرة على إنتاج "روايات مضادة" ضمن الخطابات الوطنية، أمكن بالاستناد إليها تصور مستقبل يختلف عن الواقع، بمجتمع متضامن تلاشت فيه التباينات الطبقية، والاجتماعية والاقتصادية، وأصبحت النقود في أحلك ظروفه بلا معنى، حيث تساوى الكل في رغبة حقيقية لتحقيق العدالة الاجتماعية بين قطاعات المجتمع الفلسطيني[70]، عُدَّت هذه المرحلة التاريخية زَمناً فاصلا كذلك فيما أطلق عليه بالبطولة الجماعية إلى جانب البطولة الفردية في هذه المرحلة وما بعدها، تم تكوينها خلال الفترة من العام 1965 وحتى العام 1990 وظهرت واضحة في عدة نتاجات أدبية وفي الرواية الفلسطينية الحديثة بشكل أخص، ضمن محوري الزمان والمكان، وما تم تدوينه من أحداثٍ تختص بالقُرى والمدن والمخيمات، داخل الأرض المحتلة، والأراضي الفلسطينية التابعة لإدارة الدول العربية، ودول الشتات قبل النكبة، والنكسة، وضمن التواريخ المهمة التي عقبت تلك المراحل[71]، وتبرز الأهمية التي أولتها الكاتبة لهذه الأحداث التاريخية بينها، فسلطت عليه الضوء كمكان مقاومة جمعية، وكجزء لا يتجزأ من تاريخها وزمانها الحافل، لحفظ بطولة الشعب الفلسطيني كما في المعارك المتعددة من أحداث معركة جنين وحصار معركة الكرامة والانتفاضة التي برزت أيضا من خلال أعمال الكاتبة.

لقد أعان التدقيق في وصف هذا الفضاء القارئ في التعرف على الذات الفلسطينية المقاومة، عن قرب والتعرف إلى البيئة والظروف الذي شكلت من ذاته مُقاوما لا يُقهر، ومؤثرا فعال في الأماكن الأُخرى التي حلّ بها في الداخل، وفي كل مواجهة أُخرى جمعته بالعدو الصهيوني، وكونه المكان الذي يمثل هويَّة الذات فإن التغييرات تنعكس حتما على النص بما يحمله من أبعاد ودلالات، ومعانٍ وجودية أكثر عمقا في حالة تهديد **هذه الهويَّة** والمكان

---

[70] روزماري صايغ، **تجسيدات الهوية لدى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين رؤية جديدة للمحلي والوطني**، (فلسطين: بيت لحم، مركز بديل، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين، ط1، 2009م)، ص19.

[71] انظر: أحلام محمد سليمان بشارات، **البطل في الرواية الفلسطينية في فلسطين من عام 1993-2002**، (رسالة ماجستير، نابلس: جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، 2005م)، ص35.

وهو ما يبرز بوضوح وجلاء في الحياة الفلسطينية ونصوص كتابها[72]، إنها بنية الزمان والتقاطبات المكانية التي تعود أيضا لتتجلى أيضا في عمل الكاتبة الثاني الأزرق بين السماء والماء، باتمادها لتقنية الاسترجاع في الزمن تمد الكاتبة خط العودة إلى البداية الفعلية للحياة الريفية في قريبة بيت دراس عام1945م، باتجاه التفاصيل التاريخية والأثرية للمكان الغائر في القِدم، وهي أول لما يصادف القارئ في الفصل الأول، فمنذ القرن الثالث عشر وهي "على طريق البريد ما بين القاهرة ودمشق، مُحاطة بالجنائن وبساتين الزيتون، تحدُّها من الشمال بحيرة، وفي وسطها خانٌ يخدم سيلا لا ينقطع من المسافرين عبر الطرق التجارية الواصلة بين آسيا وأفريقيا وأوروبا. **شيدها المماليك سنة 1325 للميلاد** إبان حكمهم لفلسطين، **وظلَّت** تُعرف بين القرويّين على مدى قرون باسم "الخان"، كما تطل على القرية بقايا قلعة بناها الصليبيون في أوائل القرن الثاني عشر، التي رُفعت فوق آثار حصنٍ شيَّده الإسكندر الأكبر"[73].

معلومات يلج القارئ منها إلى البُعد التاريخي لقرية بيت دراس القديمة وأهميتها كمكان يحمل العديد من التقاطبات الثقافية[74] والخطورة التي شكلها تدمير المكان الأثري ومحو هويَّته الأولى فقد "كانت محطَّة للأقوياء، وظلَّ ما بقي منها واقفا بحُنوّ؛ مُتشبِّثا بالزمن كلِّه"[75]، وظلَّت أجزاءُها الأخيرة صامدة في حماية الزمان وتعاقبه، وحماية المكان لهذه الذاكرة، تُقاوم تغريب المعالم وحاضرا زائفا لا تنتمي إليه، سرد تفاصيل المكان يرصد معالم قرية بيت دراس من القرُى الفلسطينية التي هُجِّر أهالها كذلك، وتم تدميرها بهدف إخراجهم القسري[76]، حيث تعيد الكاتبة إحياء تلك الأحداث، بمرور العام 1948م كزمان استرجاعي

---

[72] انظر: ليانة عبدالرحيم كمال عبدربه، **المكان وتحولات الهويَّة عند محمود درويش**، (رسالة ماجستير في الدراسات العربية المعاصرة، فلسطين: جامعة بيرزيت، كلية الآداب، 2012م)، ص100.

[73] انظر: سوزان أبوالهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص11.

[74] انظر: محمد بو عزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص102.

[75] المرجع نفسه، ص11.

[76] ضمت القرية ما يقارب ال2750 نسمة، وهي ثالث قرى قضاء غزة المحاصرة، مساحتها 88 دونما، ويُرجح الكاتب أن اسم بيت دراس هو تحريف ل"مَدْرَس" بمعنى مكان دراسة الحنطة أي "بيادر". (انظر: مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج، المرجع نفسه، ص306). تقع في الشمال الشرقي منها وعلى مسافة 46 كم منها، أما من حيث المكان

محوري، تعرضت فيه قرية بيت دراس لهجمات مُدمِّرة من قبل العصابات الصهيونية، وانتهت بعد معارك متعددة إلى احتلال القرية وطرد سكانها منها، ومحوها من الوجود، وأقامت مستعمرتيّ زموروت وجبعاتي فوق أراضيها[77].

يظهر التسريع في وتيرة السرد وإعمال خلاصة الزمان الذي يطول بغربة زمان ممدوح في أميركا، مُختزلا عدَّة أحداث للوصول إلى بداية حضور الشخصية الرئيسة في العمل نور: "**مَضت قرابة ثمانية أعوام** منذ أن رأت نظمية أخاها وزوجته ياسمين"[78]، الزمان الذي يتمثل بمثابة تهديد في وعي الذات "نظمية" إلى جانب ترك الأرض في مرحلة الإخراج القسري والنفي عن المكان، و تفريغ السكان الأصليين من أصحاب الأرض: "رأت ستِّي أن عِقد فلسطين يتبعثَر بينما تتجمَّع أوصال إسرائيل وتتلملم. صادر الإسرائيليون التلال وبنوا مستوطنات يهودية على أخصب الأراضي. اقتَلعوا الأغاني الأصليَّة من جذورها، وزرعوا الأكاذيب في الأرض لكي تنمو حكاية جديدة مزيَّفة"[79]، ويتضح كذلك من خلال العمل الثالث للكاتبة ضد عالم بلا حُب، في إشارة إلى الوعي المتشكل لدى الذات الفلسطينية وأجيال الشتات، عن خطورة الرحيل الاختياري وانفصال أعداد هائلة عن المكان: "لقد علم الفلسطينيون للمرة الأولى عام 1948، أن المغادرة بهدف النجاة كان معناه فقد كل شئ وعدم التمكن من الرجوع"[80].

ينقسم الفضاء المكاني في "الأزرق بين السماء والماء" إلى قسمين: واقعي، وآخر خيالي والمتمثل في "الأزرق" المكان الذي ينفصل فيه خالد عن الواقع، بانتقاله في فترة مُتلازمة المنحبس إلى عالم من الأزرق،"وقف خالد حيث هو، عبر إلى ذلك المكان الذي تُسمِّيه أُمه

فإن موقعها الجغرافي يشكل أهمية في ربطها للقرية بالعديد من القُرى المجاورة مثل أسدود والسوافير الشمالية والشرقية والغربية وجولس والبطاني بشبكة من الدروب الترابية أعطت بيت دراس أهمية خاصة كتجمع سكاني ريفيّ مركزي. ولا عجب أن القرية كانت في عهد المماليك مركزا من مراكز البريد بين غزة ودمشق، وقد أقام الصليبيون فوق هذه التلَّة قلعة تتحكم في المسالك والدروب التي كانت تلتقي في بيت دراس. انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ص448-447-448.

[77] انظر: مجموعة مؤلفين وباحثين، **الموسوعة الفلسطينية**، ص448.

[78] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص124.

[79] المصدر نفسه، ص63.

[80] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p33.

نَوبة. سَعَت للحصول على عون الأطباء لكن دون جدوى. **كان ملاذا هادئا، داخل أعماق نفسه، مكانا من الأزرق**"[81]، وحيث تتعطل دورة الزمان الاعتيادية، ويمضي إلى فضاء بعيد يخلو من قيد الزمان والمكان:" لم يطل الوقت بي حتى مَضيتُ إلى الأزرق الهادئ، ذلك **المكان الذي لا زمن فيه**"، يجد فيه الماضي حيا، يلتقي بالأجداد الذين لم يعرفهم، والوطن الأول –قرية بيت دراس– كموطن ألفة، ومكان انتقال رحب : "يأتي جدُّو عطيَّة إلى هنا أيضا، وهو يعرف مريم جيِّدا، ولكن منظره يبدوا غريبا بلا ستِّي نظمية. الحب يملأ كُلَّ بُقعة هنا ولكنني أجد مشقة في فهم حقيقة الواقع، لأنني أتذكر أنهم غير أحياء. كيف أُخبر ماما عن هذه الحُريَّة؟ كيف أقول لها أن ثمة بيت دراس في فلسطين بلا جُنود وأن بإمكاننا جميعا الذهاب إليها"[82]، المساحة الخالية في غزة من حصار مَنافِذها الثلاثة، مساحة تخييلية تخلوا من الاحتلال وقسوة الحصار العازل للمدينة، سوى مساحات باطن الأرض التي أوجدها المقاومون، مساحة أشبه بتلك التي أشار إليها غاستون باشلار بأنه قد يهرب إليها للعثور على مأوى حقيقي [83] وأقرب إلى المكان الشعري الذي يحتمل أبعادا رمزية تُخفي المعاني المباشرة وتسمح لفكر المبدع أن يتسرب من خلاله، فقد يكون المكان تقنية مستقبلية يتجاوز بها المبدع مكانه وواقعه، يصعد من خلاله إلى السماء أو الفضاء، وقد ينزل إلى أعماق الأرض والبحار ليُثبت الرمز نفسه، حيث تتدخل الذات لتمد المكان بطاقة رمزية خاصة[84]، كما يروي خالد: "كثيرا ما أذهب إلى بيت دراس. أتوجه دائما إلى النهر، وهُناك أجلس مع مريم في فضاء لا حدود له من الأزرق. كتبنا أُغنية معا، أو ربما تذكَّرناها. لا ندري كيف وممن"[85]، وتتمثلها الأبيات التي يُعلِّمها لمريم حاضرا في خيالها أيام طفولتها:

"جِدْني
أنا في الأَزرق

---

[81] سوزان أبو الهوى، المصدر نفسه، ص158.

[82] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص184.

[83] انظر: غاستون باشلار، **جماليات المكان**، ص56.

[84] انظر: منال عبدالعزيز العيسى، **الذات المروية على لسان الأنا: دراسة في نماذج من الرواية العربية**، ص214.

[85] سوزان أبو الهوى، المصدر نفسه، ص183.

بين السماءِ والماء
حَيثُ **الزَّمان كلُّه الآن**
ونحنُ الأَبدِية
نَجري كنَهر"[86]

فالزمان مُمتد في الأزرق، يطول بلا حدود، يعبر إليه خالد ليعثر فيه على رفيقه ورفيق جدَّته الكبرى سليمان، ويجتمع في أحيان أخرى مع خالته مريم وفي العديد من أحيان ليظهروا جميعا في أحلام نور. حيث يلتقي الراحلون في حُريّة، خارج قيد المكان المحاصر في غزة: "**لا وجود للزمان هنا**. ليس من كان وسيكون، بل أكون الآن فقط. ولكنني عندما أكون مع سليمان لا أستطيع أن أكون مع ماما وريتشل وستّي نظمية. أترُك سليمان عندما أشعر بأمي"[87]، فالفضاء مكان انتقال مُتخيل، يجد فيها ملاذا عن تفاصيل الألم ومعاناة الحصار والحرمان في قطاع غزة، حيث يحرم من الحصول على العلاج كما تحرم والدته فيعود في مساحات الأزرق، لمكان أرحب. المتلازمة التي تحتمل الترميز لواقع الفلسطينيين في قطاع غزة فكما يمكن لخالد أن يسمع ويرى من حوله إلا أنه لا يتمكن من التواصل خارج حدود جسده، والطريقة الوحيدة هي بخروجه من نطاق المكان والزمان ليتمكن من إلقاء نظرة مختلفة على الأحداث[88].

وفي مفارقة زمانية يقف عندها الزمان، وتتباطؤ أمامها وتيرة السرد في مشهد فاجعة نظمية في ذاتها وأختها ووطنها، ككابوس يتعاقب في حضوره محطما نفسها البشرية بوحشية وبشاعة قاتلة للذات، مشهد محاصرة القرية واقتحامها، حرقها، وتدميرها، قتل أصحابها، والاعتداء الجماعي الوحشي على نظمية، وقتل أختها الصغيرة مريم أمام عينيها، كصدمات وحشية تتلاحق، تقف الذات أمامها مطولا في فضاء منزلهم ومكان ألفتهم الأول، منزل العائلة وقد استحال إلى مكان غير قابل للسكن، مكان رعب بيث تهديدا للبقاء، تقف وتيرة

---

[86] المصدر نفسه، ص33.

[87] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص164.

[88] انظر: لاوراأوفار ماير، **رواية الأزرق بين السماء والماء عن الحب والألم في غزة**، ترجمة: حامد سليمان، (مقال منشور على صفحة موقع قنطرة، تاريخ الاطلاع الأخير: 15-8-2021).

الزمان بعدها عن المضي في اعتياد: "عاد وهو يجُر مريم من شعرها، مثل دُمية عَرجاء دخلت وهي تضم صندوق أحلامها الخشبي إلى صدرها. التَقت أعين الأُختين **للحظَةٍ طَويلةٍ لا نِهايةَ لها**، غير أنها **لم تَتسِع ولو لِكلمةٍ واحدة** قبل أن تدوِّي الرصاصة التي اخترقت رأس مريم دَويا أبَديا. سَقط صندوقُ أحلامها الخَشبي وتبَعثَر ما فيه أرضا. انطلقت صرخَة وحشيَّة من أعماقِ نظمية، من صميم يقين الحَسرة بأن الشمس لن تُشرق مرة أُخرى في حياتها"[89] هي مشاهد مُستعادة من عمق زمان النكبة، وبمثابة نقل للقارئ للأحداث المأساوية المظلمة التي أخرجت بها العصابات الصهيونية أهالي البلدات والقُرى الفلسطينية من منازلهم والمجازر التي ارتُكبت في حق الذات الفلسطينية، هي لحظةٌ من تشظي الذات في الزمن، والصدمة التي لم تغادر الذات عن تاريخها.

الزمان الذي تتثاقل خطواته وسط الموت والدمار، وازداد ثقلا وتباطؤا، يُفقد فيه الإحساس ويُصبح بلا معنى: "قصفُ إسرائيل على غزة غيَّر أساس الوقت. **كأن الزمن أيضا أصيب وأخذ يحبو عبر الأيام**، يُعيق مروره رُكامٌ افتَرش الأرض. وبلغ من طول دقائقه أن أحسَّت الحجَّة نظمية بالشمس تزحف وتجرُّ **ثقل الساعات**. ثمَّة عملٌ كثير ينبغي إنجازه، ولكن لم يكن ثمَّة شئ يُعمل. تجمَّع الناس وهم لا يملكون ما يقولونه. وإن تكلموا، غُلِّفت كلماتهم بصمتٍ يُحدِّقُ في هوَّةٍ بينما هم يسحبون أمواتهم من بين الأنقاض ويدفنونهم. حتى الغَضَب وكلام الانتقام لم يُشفِ الغليل وأصبح لا معنى له"[90].

أما تسريع وتيرة السرد من خلال الخلاصة والحذف[91] فيبدوا حاضرا في العديد من المواضع منها ما يتمثل في بحث نظمية المتكرر والمتواصل عن ابنة أخيها المفقودة في أميركا، ومرور الأعوام في يأس من العثور عليها، فيسرد خالد عن اغتراب نور في أول دار رعاية تُأخذ إليه بعد فقد جدها وعائلتها، وبعد أعوام من الضياع والشتات في العديد من دور الأيتام في أميركا، وتمثل أماكن انتقال وعدم استقرار مليئة بالتجارب المسيئة والخبرات المؤلمة : "**سَتمُر خمسة عشر سنة** قبل أن تفتح نور ذلك الكتاب مرة أخرى، ستفتحه عندما ستُفتِّش في

---

[89] سوزان أبو الهوى، المصدر نفسه، ص42.

[90] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص160.

[91] انظر: محمد بوعزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص93-94.

ذاكرتها عن خالها سانتياغو، وعن جدِّها، وعن صبي اسمه خالد، له خطٌّ من الشعر الأبيض"[92]، وما تقابلها من محاولات جدته نظمية في غزة للوصول إلى نور، تنبؤات يستبقها خالد في سرده للقارئ، والصدفة التي ستأخذ نور إلى غزة حين عملها كطبيبة، وبفعل القدرات التي يمتلكها في تَنقُّله الحُر ومواصلته للظهور في أحلام أفراد العائلة : "لن تعرف ستِّي نظمية كل ما جَرى لنور **إلا بعد مرور أكثر من عشرين عاما**".[93]

وفي "ضد عالم بلا حب" يقف القارئ أيضا أمام تعدد تقنيات الزمان والمكان السردي، بدءا من فضاء زنزانة العزل الانفرادي في سجن –المكعب– حيث تُنقل شخصية نهر بعد اعتقالها الأخير. الفضاء الخاضع لسلطة الاحتلال، لإبقاء نهر تحت المراقبة المستمرة في محاولة للوصول لزوجها بلال، تتباطئ في المكعب وتيرة الزمان حتى تكاد تتوقف وتفقد طبيعة تعاقب الليل والنهار، ووتحيط بالشخصية ظُلمة دَامِسة: (سُرعان ما أدركت أن دورة النهار والليل في المكعب لا تتفق مع دورتها في العالم الخارجي، شعرت براحة بعد معرفة ذلك، لأن محاولة اللحاق بالحياة خارج المكعب كانت قد بدأت بإلقاء ثقلها علي. التخلي عن عبئ متابعة التقويم أعانني على فهم أنه ليس للوقت حقيقة هنا، وأنه يبقى مفتقدا للمنطق في غياب الأمل والتوقعات، وكما أن المكعب يخلو من الوقت، فإنه في المقابل يحمل امتدادا متثاقلا لشئ لا يُسمى، شيء ما دون حاضر أو مستقبل أو ماضي، أكتفي بملئه بحياة مُتخيلة أو مُتذكَرة)[94]، ففي لحظات تتعمق خواطر عزلتها عن العالم، راصدة خصائص الوقت في الزنزانة، فضاء إقامتها الجبريّ، حيث ينعدم الزمان، وتَضيق مساحة الزنزانة بعزلها عن المكان، وكما يقدم حسن بحراوي في دراسته تفصيلا لدلالة وأبعاد فضاء السجن، فهو فضاء موصد يجرَّد فيه الفرد من حريته، ويتم عزله لدفعه إلى الشعور بالعجز وتثبيته في ذات النزيل الذي يقاسي الوضع الجديد على نحو مضاعف بجسده وروحه معا، وهو ما يجعلها مخصصة كعقوبة مضاعفة بهدف عزلهم وكسر معنوياتهم، وتضييق الخناق عليهم[95]، فهناك اختلال

---

[92] سوزان أبو الهوى، المصدر نفسه، ص103.

[93] المصدر نفسه، ص103.

[94] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p22.

[95] انظر: حسن بحراوي، **بنية الشكل الروائي: الفضاء الزمن الشخصية**، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط1، 1990م)، ص61-62.

كامل يلحق بأبعاد المكان، بين الداخل والخارج، الرحابة والضيق، لذلك تنعكس محدودية المكان في السجن على النزيل وتقلص من قدرته على الانتقال داخل فضاء محدود، ويزداد هذا التضييق مع نزيل الزنزانة الانفرادية بتناهي الضيق وسوء التهوية واختزال حركة النزيل إلى درجة الصفر[96]، حيث يُضاعِف ضيق زنزانة العزل الانفرادي الحد الأقصى من الشعور بمحدودية المكان على الذات،[97]، وهو ما يترجم ردات الفعل الناتجة عن شخصية نهر تجاه ضيق الفضاء الذي يتحكم في تفاصيل إدارته سلطات الاحتلال، فهناك صافرات إنذار، تنطلق بدويٍّ عالٍ لا يهدأ حتى انغلاقها على معصمي نهر، والماء المحدود لفترات متقطعة، إضافة لدفعها إلى عُنف التحقيق والمحاكمة التي تكاد في العديد من اللحظات تنال من عزيمة نهر، إلا تحافظ في ثبات على مبدأ المقاومة أمام محاولات تحطيم ذاتها أو الحصول على أي اعتراف، في يقظة لنظريتها الخاصة بخلق الفوضى والاستمرار في إقلاق سلطة الاحتلال، وإعلان الرفض المتواصل، ومحاولات التخريب والإضرار بالزنزانة، والكتابة المستمرة على الجدران، وأغاني الثورة الفلسطينية، والثورة في وجه الحراس، العمل على سد فتحة مجرى المرحاض حتى تنجح في الحصول على أدنى المتطلبات، أدوات للكتابة وسرد الحكاية، فقد نجحت في المقاومة بأبسط الأفعال والطرق المتاحة للتغلب على عزلة المكان وكسر قيده: "أعتقد أن رغبتي بالتحكم ولو بالقليل من حياتي في هذا العالم الضئيل هو ما دفعني في محاولة لسد مجرى المرحاض لكي يفيض، لمجرد محاولة فعل شيء ما، لأتخذ قرارا، لأُعدَّ خطةً ما، لأُنفذها، وأتحمل العواقب"[98].

نهر التي تعتمد الكتابة جزءا من الفعل المقاوم، تتخذ من زوايا الزنزانة المتعددة مسردا لتدوين أهم الحقائق والذكريات عن حياتها الشخصية، وتملأ الجدارن بالكتابة في زاوياها، فهي أثناء سردها تارة في شمال الزنزانة وأخرى في جهة الجنوب منها، وفي حين آخر في شرق الزنزانة وغربها، وفي المساحة الخالية التي تفصلها عن السقف، لحفظ قصتها الحقيقية بمختلف فصولها، وبطولتها الخاصة بعد العودة، ولفضح جرائم الاحتلال فتعيد بناء الأحداث التاريخية

---

[96] المصدر نفسه، ص66-67.

[97] المصدر نفسه، ص67.

[98] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, P166.

وفرضها على محيط المكان، بإلصاق ثلاثة آلاف ورقة من تلك ذكريات على امتداد جدران الزنزانة، وتأكيدا على انتماء هويتها للمكان الأول، وبقاءه في تحدٍ لهذا الفضاء المفروض المصطنع، وتدفعها الإرادة الصلبة والإصرار الذاتي على كسر قيد الاحتلال، للثبات على مبدأ المقاومة أمام السجَّانين، كما تظهر مع شخصية زوجها بلال الذي يلتزم بالعمل المقاوم أثناء حريته، وخلال أيام الأسر في إضرابه معارضا ظلم الاعتقال الاداري، الأيام التي تتضاءل بوعي وصَلابة الذات المقاومة، وكما يحدث مع غالب نزلاء القضايا السياسية والوطنية، الذين يحوِّلون عادة فترة إقامتهم في السجن إلى فرصة للتعليم والتواصل والتعارف مع أسرى الآخرين؛ استكمالا للتجربة النضالية وبث المشاعر الوطنية[99]، وما يظهر في عودتهما المستمرة معا، وضمن الفريق للبحث ودراسة العمل المقاوم والتثقيف المتواصل للإعداد الجمعي للعمليات القادمة، رغم اعتقالهما المتكرر.

مع تعدد الأماكن التي استغرقت في استرجاعها ذاكرة الذات الذكريات التي تحمل أثرا عميقا تَصل الذاكرة بالماضي، وتعود بها إلى مكان النشأة الأول ووطن ومنزل العائلة المسلوب، تعود نهر عبر الخط الزماني والمكاني لتتبع حالة الشتات التي لحقت بهم، والذي مرت به عائلتها قسرا بعد إخراجهم من قرية حيفا ومخيم عين السلطان ونفيا إلى الخارج باتجاه الأردن والكويت، مكان الولادة والنشأة ال أشبه "بجيتو" مخصص للآجئين الفلسطينيين، المصطلح الذي يشير –رامي أبو شهاب– أنه يجد حضورا في العديد من الروايات الفلسطينية بهدف مجانسة الشتات الفلسطيني مع اختلاف تموضعه في أراض الشتات، فيبقى حاملا لملامح البيت الفلسطيني الأول وهويَّته على الرغم من اختلاف مكان الشتات وموقعه[100]، والمكان الذي يجمع تناقضات عدة في كونه موضعا يمثل الحيَّ الشعبي يقطنه العديد من اللاجئين الفلسطينيين وهو مكان إختياري إلا أن معالم الإقامة الإجبارية تتمثله في العديد من السمات التي تميزه، فيقاسي فيه اللاجئ التعب ويواجه النفور، كالبيت الذي يشتريه الفلسطيني في منفاه، ورغم اختياره الإقامة فيه إلا أنه يعد بمثابة إجراء قسري فرضه وجوده في

---

[99] انظر: حسن بحراوي، **بنية الشكل الروائي**، ص63-64.

[100] انظر: رامي أبو شهاب، **في الممرِّ الأخير: سرديَّة الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونياليّ**، ص180.

المنفى، وحمل معه تبعات من قلق البقاء والاستقرار المكاني[101]، وفي تحديده وتأطيره ضمن طبقة وفرص محدودة، أمام مستقبلهم، والبقاء في مرتبة أدنى، ورغم عدم الثبات في أراض المنافي، وإلقاء أولئك اللاجئين إلى حياة الهامش، محرومين من معالم أي انتماء، إلا أنه يبقى موطن أُلفة أول، وحنينها المحمول في الذاكرة وهي ترحل من منفى إلى آخر: (إنني أعلم اليوم أن التَنقُّل الدائم من مكان لآخر هو قَدرٌ يُلزم به المنفِيون. مهما كانت الأسباب، فالأرض تبقى غير مستقرة تحت أقدامنا)[102]، فهي المشكلة التي خَلّفها الاحتلال الصهيوني بشكل أساسي، بفرض حياة الشتات على الفلسطينيين بعد اقتلاعهم من وطنهم ونفيهم إلى الحدود والدول المجاورة، والتهجير الذي حاصرهم في فضاءات متناقضة بين حلم الوطن وحقيقة المنفى، أُجبرت فيه الذات على دفع أثمان باهضة مع ذاتها وأبناءها بانتزاع الحقوق، وعدم الانتماء إلى المكان، وعرقلة أية إجراءات ضمنت عودتهم إلى وطنهم.

ولم يكن العنف أخف ألما أو معاناة للذات الفلسطينية عن ما لاقته في الداخل، كما يظهر في زمان عودة نهر للتعرف على منزل عائلتها الأول في حيفا، وتجده في طريق الرحلة من مدينة الخليل إلى بيت والدتها في حيفا، حيث تقف وجها لوجه أمام تلك الصعوبات التي جذَّرها الاحتلال على كل مدخل وعلى طُرق العبور، متعمدا عرقلة حياة الذات الفلسطينية اليومية وفرضا لإحكام السيطرة على مداخلها ومخارجها وتضييقا لحركة المرور والعبور، كما تسرد نهر عن امتدادها بعد كل 5 كيلومترات، وإيقافها المتكرر ليتضاعف زمان الوصول من ساعتين إلى 4 عند حواجز التفتيش، فارضا لمعالم السيطرة على الذات في وطنها، وهي حقيقة الحصار الذي يَفرض التطفل على أدق شؤون حياتها اليومية من قبل سلطات الاحتلال، وحقيقة تحويلهم إلى شبه مُحاصرين في مُدنِهم وقُراهم، ممنوعين عن حرية الحركة في أرضهم المحتلة، فهناك شبكة مُحكمة من حَواجِز الطرق، تضُمُّ 58 حاجزا أو أكثر، تمنعهم من المرور، مثلا من شمال الضفَّة الغربية إلى جنوبها، لا سيما وأن تهويد القدس وحصارها حتى اليوم يحظر على العرب اجتياز حُدود المدينة التي اتسعت رقعة احتلالها اتساعا مهولا[103]،

---

[101] انظر: مصطفى عبد الغني، **المقاومة والمنفى في الرواية الفلسطينية**، ص24.

[102] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, P39.

[103] انظر: إدوارد سعيد، **أوسلو سلامٌ بلا أرض**، (القاهرة: دار المستقبل العربي، د.ط، 1995م)، ص169.

وكما تسرد عنها: "لقد صُدِمت بعدد الحواجز التي أوجدها الاحتلال من قرية إلى أخرى، ما بدا واضحا أن الفلسطينيين لا يُسمح لهم بالقيادة لأكثر من خمسة دقائق حتى يقفوا عند آخر"[104]، كذلك باتجاه بيت جدها القديم الذي ينهب من قِبل مستوطنة يهودية، تنفصل نهر بدخولها إلى ساحته عن الزمان الحاضر إلى زمان سرد والدتها وذاكرتها، وحيث تُفعِّل الكاتبة تقنية التعطيل للسرد بالوقفة، فيحضر حوار الذات مع الخواطر، والأعوام التي لاحقتهم بالاقتلاع عن المكان، المنزل الذي كان حقهم وإرثهم الشرعيّ، واللحظة الحاضرة التي تواجهها بمهاجمتها من قبل المستوطنة المستولية على المنزل، وتعتدي على نهر لطردها بدفع الثمار من يديها وسحبها من شعرها بعيدا عن المنزل، حين تتصدى لها نهر وتقف في مواجهتها بالمرصاد: (خطوت نحو المساحة الخصبة لغيابنا. كانت هذه الأشجار التي زرعها جدي الأكبر لأبناءه وأحفاده. كان ليزرع لي ولجهاد غيرها الكثير لو لم تُسرق أقدارنا منا. مشيت خلال هذه الأشجار بحثا عن النقوش التي حُفرت وأخبرتني أمي عنها. لم أجد لها أثرا. على الحافة البعيدة لحديقة المنزل وقفت شجرة التين العملاقة تتدلى من لحاءها ثمارها الحمراء، غير خضراء أو بنية كما تخيلتها، نظرت حولي قبل الارتفاع على جذعها لقطفها، كانت عطرة وحلوة المذاق أكثر من ثمار التين العادية، تسلقت أفضل ما أمكنني أقطف ملئ قبضتي، وأدسها في حقيبتي، وأنا أبحث عن دليل يؤكد أن هذه الأشجار كانت لأمي)، وهنا انفصال عن لحظة الحنين والذكرى وعودة إلى الواقع والحق المنهوب عن أبناء الوطن وأجيال الشتات باقتراب أصوات الضجيج من نهر: (الضجيج من الشارع ازداد علوا واقترابا قبل أن تتلاشى عن سمعي عبارات جدي الأكبر لأمي: رشيدة ابنة أبيها، رشيدة حبيبة والدها. كلمات خلقَت تقاربا بين جدي وأمي، كانت هذه شجرة التين الخاصة بها، وكانت هذه الشجرة فردا من أفراد عائلتي وأنا أنتمي إليها، كل أشجار الحديقة كانت عائلتي)[105]، وتعود تداعيات الشتات المتوارث الذي لاحقت أجيال المنفى في الداخل الفلسطيني وأراض الاغتراب لتظهر في ذات لحظات الطرد والإلقاء عى الهامش، وعدم القدرة والرغبة في الاندماج، فقد كان هذا المكان مُلكا لعائلتها ولايزال، لكن منع استعادته قائم، متمثل في

[104] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p136.
[105] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p139.

سرقة وعدوان المستوطنين اللصوص: (نظرت إلى وجه أمي، وقلبي يعتصر خلف صدري، وقد خطر في بالي أنها كانت في نفس عمري عندما تم دفعها لمغادرة منزلها في فلسطين. لقد عبرت يومها أيضا إلى حدود عَمَّان قبل رحيلها إلى الكويت مع أبي. بدا لي أن القَدر مُتوارث، كلَون العينين. تسائلت إن كانت قد شعرت بذات الضياع الذي يخيم على أيامي الحاضرة، إن كان كل ما مَرَّت به آن ذاك هو عدم القُدرة على تجاوز التشريد القسري المؤبد)[106]، وقد تكرر الاعتماد على ذاكرة الاسترجاع في بناء هويَّة لذاكرة الماضي واستعادة أحقيَّته ، فهي قصص ممتدة الآثار حتى الحاضر، وكثيرا ما استعادت الشخصيات —في المرويات السابقة– لحظة الانفصال والصدمة التي ينقطع فيها الزمان، ويختطفها الاستغراق في لحظات الفاجعة، ويوقفها زمن الإقتِياد القسري 1948م عبر تلك الدروب الموحشة للمنفى والشتات، والتي أفقدت الذات في العديد من الأزمنة اللاحقة قدرتها الحسية والجسدية على اكتمال الحضور، ذاهلة في لحظات المأساة والاغتراب عن الواقع، غارقةً في الحدث وامتداد آثاره على الذات الفلسطينية، كما تجلى من خلال الأعمال السابقة ما حظيت به سرديات الخروج والنفي المتصلة بأثر الاقتلاع والصدمة، بتشكيلها القائم على فعل الحكي المتصل بخطابات وظيفية حفظت قيم التواصل بين الأجيال، أو بوصفها خطابات مضادات للمروية الصهيونية[107]، وكما يجد القارئ من خلال الشخصيات الرئيسة واتصالها بتاريخ الزمان ومكان الماضي من خلال مرويات الأجداد والأجيال السابقة، ما يتمثل في شخصية أمال مع والدها حسن، وصديقتها هدى، وأبناء المخيم في استماعهم إلى حكايا الحاج سالم عن تاريخ قرية عين حوض وبداية تشكل الاستعمار البريطاني واسهامه في زرع الاحتلال الصهيوني على أرض فلسطين، وما يتمثل من خلال شخصية نور وحكايا جدها ممدوح، وحكايا والدة نهر وجدتها وصفية، وإعادة نهر لتدوين تلك المرويات، وما تحمله من حنين، ومعالم التشبث بالوطن، يشمل قصة الخروج، والحرب واللجوء والمخيمات والحياة في أوطان الآخرين، فهي ثيمات تحظى بموقع متقدم في أدب الشتات بتصويرها لرحلة الخروج الفلسطيني كثيمة مركزية، ونهوضها على فعل التأمل الذي يتبدى على شكل محاولات لإدراك حقائق

---

[106] المصدر نفسه، ص108.

[107] انظر: رامي أبو شهاب، **في الممرّ الأخير سرديَّة الشتات الفلسطيني منظور م بعد كولونيالي**، ص202.

عدة حقائق منها: فقدان الوطن بتكوينه الأولي، ومن ثم الوطن باعتباره فضاءا مُعاشا وموطنا لحفظ الكرامة، الفعل الذي تعرض للقهر، وجاء خارجا عن إرادة وطبيعة الذات[108].

وكنتيجة لتفرد الوضع الفلسطيني فقد نهض خطابه الروائي برمته على الإحساس المؤلم بالفضاء، واحتل الفضاء الجغرافي منه على وجه الخصوص مكانة مميزة في الأدب الفلسطيني، حيث ينهض مفهوم الفضاء على أساس التناقض بين ما كان، وما هو كائن، يكبل أحلام الفلسطينيين، ويحاصرهم بواقع الحرمان والشتات، مع قلق الوجود والاستقرار في المنفى، كما يُصبح طقس الولادة والموت، فاضحا عن قلق مكاني، والمنفى وصورته ضرورة من ضرورات الأدب الفلسطيني.[109]

المبحث الثالث: الشخصيات

يمثل مفهوم الشخصية عنصرا محوريا في كل عمل سرديّ، فلا يمكن تصور أي عمل من غير شخصيات[110]، وبالنظر إلى تاريخ الرواية فقد تعددت المفاهيم المقدمة حول الشخصية واختلفت باختلاف النظريات والمجالات التي تناولت دراستها فمنها: النظريات السيكولوجية والاجتماعية وأنواع التحليل البنيوي والنقدي والأدبي[111]، واختلفت كذلك أشكال تقديم الرُواة لشخصياتهم، حيث تخضع هذه الأشكال لمنطق التحول الإبداعي من فترة لأخرى، وترتبط باختيارات الكتاب الفنية والجمالية، فمن الكُتاب من يحرص على إبراز شخصياته بأدق تفاصيلها كما يبرز في الرواية الواقعية والاجتماعية، ومنهم من يعمد إلى الإيجاز والاختصار، ومنهم من يضعها في أوضاع غامضة كما يوجد في بعض من أشكال الرواية الحديثة، وأمام تعدد المشاكل التي يطرحها تقديم الشخصية وتحديد البطل في الرواية من حيث التنوع والاختلاف يمكن العودة إلى مقياسيين، هما: المقياس الكمَّي: ويُنظر من خلاله إلى كمية المعلومات المتواترة المعطاة صراحة عن الشخصية، ووفرة هذه المعلومات والعلامات والإشارات مقارنة مع الشخصيات الأخرى، والمقياس النوعي: ويُنظر من خلاله إلى مصدر

---

[108] انظر: المصدر نفسه، ص203.

[109] انظر: مصطفى عبدالغني، **المقاومة والمنفى في الرواية الفلسطينية**، ص24.

[110] انظر: محمد بوعزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص39.

[111] انظر: المرجع نفسه، ص39-42.

المعلومات حول الشخصية، وطريقة بناءها وتقديمها في الخطاب السردي[112]، فعادة ما يختار الكاتب شخوصه بالعودة إلى الماضي أو الحاضر أو تخيله لمستقبل ما، وقد يُعيد رسم الشخصية باضافة صفات خيالية، وقد يُكثف من سلوكها لتظهر على حقيقة مُعيَّنة، وهو إذ يُقدِّم شخصيته يكون حريصا على أن يعرضها واضحة الأبعاد: أبعادا جسمية، واجتماعية، ونفسية، وهو ما ركزت عليه الرواية القديمة باهتمامها بإبراز هذه الأبعاد الثلاثة، إلا أن الرواية الحديثة بدأت بالتخلص من هذا المسار ولم تعد تعير جوانبها تلك الأهمية إلا بمقدار ما يخدم العمل، مُركزة على تناول الشخصية من الداخل بعيدا عن قشورها الظاهرة، فلم يعد بطل القصة مثاليا في سلوكه وقُدرته على تخطي الصعاب، ورفضت بعض المذاهب فكرة البطل من الأساس، وأحلَّت محلها أنماطا للشخصية هي غاية في البراعة والتأثير، قد يأتي البطل فيها من الطبقة المتوسطة أو الفقيرة كما ظهر في كتابات نجيب محفوظ وقصص غسان كنفاني الذي صوَّر شَخصياتٍ فلسطينية في ظروف قاسية، وهو ما يهتم به النقاد اليوم من طريقة رسم الشخصية وتكوينها، وكيف يمكن للقارئ أن يكشف عن أكبر قدر ممكن من خصائصها.[113]

تأتي شخصية "البطل" مساوية للفكرة الأساسية للعمل، أما سرديًّا فهو البطل الذي يروي القصة، ويمكن للبطل أن يكون هو السارد، كما يمكن لهذا الأخير أن يكون هو الكاتب[114]، ويَرى بعض الكُتَّاب أن الشخصيات تُصنع أو تُخلق، في حين يرى آخرون أنها موجودة سَلفًا، وكل ما على القارئ فعله هو أن يعثر عليها، وفي كلتا الحالتين فإن عملية كتابة الشخصية هي صيرورة، وليست أمرا متحققا بشكل مسبق، وهي تنكشف تدريجيًّا، صفحة بعد صفحة[115]، وهي الطريقة التي اعتمدها الكاتبة في إعداد أعمالها، فبعد أن تستمد شخصياتها من مَرجعية تاريخية، وتحيل العديد من ظروف حياتها لتلك الشخصيات

---

[112] انظر: المرجع نفسه، ص42-43-49-50.

[113] انظر:عبدالقادر أبو شريفة، حسين لافي قزق، **مدخل إلى تحليل النص الأدبي**، (الأردن: دار الفكر ناشرون وموزعون، ط5، 2016م)، ص135-136.

[114] انظر: سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المُعاصرة**، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط1، 1985م)، ص50.

[115] انظر: بثينة العيسى، **الحقيقة والكتابة**، ص91.

وبعضها من الخيال، تاركة لها حرية النمو وحرية الانطلاق بالحديث عن قصصها بمُفردها، مع تشكل مُجريات الأحداث، مُركِّزة على أهمية المصداقية في تقديمها لهذه الشخصيات[116]،وصياغتها للقُرَّاء بمَنأى عن الأحكام والتوقعات، لتتحول إلى شخصيات حقيقية مع إعادة الكتابة، وهو ما يجعلها أكثر واقعية وأقرب إلى الشخصيات حقيقية، أما في حال صياغتها ضمن قوالب محددة وإيقافها عند شروط وقواعد محددة من أجل غرض ما، أو استماة للقارئ، فإنها في أغلب الأحيان قد لا تنجح[117].

فمن خلال أعمالها شكلت سوزان أبوالهوى شخصيات ذات أدوار متنوعة، قَدَّمَت وأَخَّرَت منها ما يوافق رؤيتها السردية وما يسهم بتعريف القارئ على المجتمع الفلسطيني وتاريخه ومأساته وهمومه وتطلعاته عن قرب، وتعكس أدوار الشخصيات تنوعا في الحضور بحسب ما تقتضيه فكرة العمل، فمن خلال العملين الأول والثالث تبرز آمال ونهر كشخصيات رئيسية، وهُن الصوت السارد في رواية قصصهن وذكرياتهن للقارئ، الأمر المماثل لما تتضمنه روايات السيرة الذاتية حيث البطل هو الشخصية الوحيدة التي تتطابق مع ضمير المتكلم[118]، فجميعها شخصيات خيالية استمدتها الكاتبة من خيالها واستنادا إلى شهادات شفوية أخرى، وأسقطتها على حياتها الخاصة.

الشخصيات ومع كونها خيالية إلا أنها مستمدة من التاريخ الفلسطيني كما يظهر في "بينما ينام العالم"، فتدور الأحداث حول أربعة أجيال أصولها التاريخية تعود إلى عائلة حقيقية، عائلة "أبو الهيجا" ذات الأصول التاريخية الممتدة والمعروفة بقِدم حضورها في التاريخ الفلسطيني، وكما تَواتر عن أحاديث أهل قرية عين حوض الأثرية فهم المؤسسون الأوائل للقرية، فأبو الهيجا أحد أشهر القادة الذين جاؤوا مع حملة صلاح الدين الأيوبي لاستعادة الأراضي المقدسة من أيدي الصليبيين، وامتازت القُرى التابعة لآل أبو الهيجا والتي بُنيت على

---

[116] Qabaha, Ahmad. "“Owning one's story is as important as the ownership of physical space”: An Interview with Susan Abulhawa." *Bethlehem University Journal* (2019). https://www.scienceopen.com/hosted-document?doi=10.13169/bethunivj.36.2019.0133

[117] تابع: لقاء مع الكاتبة سوزان أبو الهوى، على قناة UCP، تاريخ الاطلاع الأخير: 3-2-2023، 9:19 PM. https://www.youtube.com/watch?v=-iMxDVAudBI

[118] انظر:محمد بوعزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص54.

هذه المواقع فيما بعد بكونها أماكن حصينة ومرتفعة، وأنها كما كتب أحد أبناء القرية تقع مواجهة لمواقع وقلاع صَليبية، وهي مُقابلة لموقع عتليت البحري الحصين، وكوكب أبو الهيجا مقابل لموقع عكا البحري، والحدثة وسيرين تقابلان كوكب أبو الهوى المطل على غور الأردن[119]، وفي أعمال الكاتبة اللاحقة أيضا يمتلئ الفضاء الروائي إستنادا على شخصيات حقيقية إلى جانب الخيالية منها، وقد تتعدد أدوارها وأنواعها كالآتي:

1. شخصيات رئيسية:

من الشخصيات الرئيسية التي تصدرت الأعمال الروائية لسوزان أبو الهوى شخصية آمال في روايتها: بينما ينام العالم، شخصية حملت القدر الأكبر من سيرة الكاتبة الشخصية وأجزاءا من رحلتها الخاصة في الحرب والنزوح والشتات، يمكن التعرف إليها كشخصية رئيسية من خلال المميزات التي تطرحها هذه الشخصية، متوافقة كذلك مع مواصفات الشخصية الرئيسة نهر في "ضد عالم بلا حب"، فهي شخصيات ذات حضور مستقل ومتواصل ، تظهر في بداية الأعمال وتمتلك الصوت السارد في باقي الفصول، تدور الأحداث والشخصيات الثانوية حولهن، فكما نلحظ في افتتاحها لسرد رواية: بينما ينام العالم مع ظهور شخصيتها من نقطة انتهاء العمل وقبل العودة من خلال الاسترجاع لذكريات الجيل الأول المهجر إبان أحداث النكبة، عام 1941م، ويتأخر ظهورها حتى نهاية الفصل الأول حتى ولادتها كحفيدة من الجيل الثالث، وابنة للاجئين في مخيم جنين عام 1955م، تتولى سرد الأحداث، ويتراجع حضور الشخصيات الأخرى إلى ثانوية أو تابعة تدور حول الشخصية الرئيسية آمال، كشخصية أمها داليا واخوتها يوسف وإسماعيل، ويتقدم حضورها لتصبح محور الأحداث في مجريات العمل. تحمل صورة المرأة الفلسطينية المقاومة بالثقافة مصرة على إتمام تعليمها، فتغادر الوطن بعد فقد عائلتها وانتقالها إلى دار الأيتام، في إصرار على المضي لتحقيق حلمها وحلم والدها حسن، تغادر إلى أميركا بعد التفوق في بعثة دراسية، رغم ما تحمله بداخلها من عالم النزوح والشتات المضطرب، والذي يتجلى من خلال السرد

---

[119] انظر: شريف كناعنة، بسَّام الكعبي، **القُرى الفلسطينية المُدمَّرة: قرية عين حوض**، (جامعة بيرزيت: مركز الوثائق والأبحاث، د.ط، د.ت)، ص7،8.

والحوارات الداخلية الذاتية للشخصية، منعكسا على حياتها عن ماض قاس من اليُتم واغتراب والدتها عن الواقع والحرب والعدوان في المخيم.

وتتمثل الشخصية الرئيسية كذلك شخصية نهر في العمل الثالث: "ضد عالم بلا حب"، ويمكن تتبعها من خلال العمل كشخصية رئيسية مع الخصائص التي ميزتها، وفي كونها الشخصية التي تحظى بغالب اهتمام الكاتبة وعليها يتوقف فهم التجربة المطروحة ومضمون العمل الروائي[120]، كما تمثل شخصية البطل، وهي محور الأحداث والشخصيات الأخرى، تتولَّى سرد دوافع أفعالها وتصرفاتها عن مختلف مراحل حياتها للقارئ، بدءا من نشأتها في حياة اللجوء بشخصية مضطربة غير مستقرة المشاعر بفعل الرفض القائم من العائلة والمجتمع، وعدم القدرة على الانتماء الحقيقي للمكان، ونشأتها يتيمة بعد وفاة والدها في أرض الاغتراب، كشخصية مهزوزة، مندفعة، سريعة الانفعال، تمر بالعديد من العقبات التي توضح للقارئ معالم شخصيتها في مختلف المراحل، من انتقالها من امرأة غير واثقة الخطى تنازلت عن ذاتها في مرحلة مُظلمة للعمل في الدعارة من أجل إنقاذ مستقبل العائلة، تُعَرضُّ للعُنف والاستغلال وتواجه تغييرات حاسمة في حياتها مع دخول غزو العراق للكويت واعتقال عائلتها واضطرارهم للرحيل إلى منفى آخر قبل التمكن من العودة المشروطة والمؤقتة إلى فلسطين، حيث يبدأ التحول الحقيقي مع شخصية نهر، والبحث عن الذات والمعنى في حياة النضال الوطني والعمل المقاوم، فهي شخصية ذات نمط معقد، متناقضة في بداياتها بأفعالها المتقلبة وعدم نجاح أعمالها البسيطة، والتمكن من الحياة الكريمة في الشتات، وخسارة للاحترام لذاتها بمرورها بالعلاقات العابرة، ومواجهتها لأم بُراق، والسقوط مجددا في طريق الضياع، مضحية بنفسها لأجل إنقاذ العائلة، أمام قسوة الظروف التي تُفرض عليهم، وتبني لذاتها احتقارا ورغبة أكبر لإيذاء الذات، والمنظومات التي تظهر علنا بشكل مثالي، وتعمل في الخفاء للدفع بعجلة أعمال الدعارة إلى الأمام، مشاركةً وتواطؤاً، تلاحقها الأزمات حتى مرحلة الانحدار التام والنفي، إلا أنها تعود للنهوض، مع اكتمال بناء الوعي الشخصيّ، يتبعه نمو اجتماعي وسياسي، تمضي به لتغيير مجرى حياتها بعد مواجهتها ومعرفة عدوها الأول: الاحتلال

[120] انظر: محمد بو عزة، **تحليل النص السردي**، ص57.

وعدوانه على شعبهابعد العودة إلى الوطن، معلَّقة بالانخراط في العمل المقاوم الذي يمنحها قيمة حقيقة، وتعمل فيه بإصرار وتجد ذاتها على طريق الانتماء للرفقة الصادقة وزوجها المحب بلال، لتجد ذاتها في النهاية على طريق الثورة والمقاومة.

2. شخصيات ثانوية:

هي شخصيات ذات أدوار محدودة حين تُقارن بأدوار الشخصية الرئيسية، فقد تكون صديقة للشخصية الرئيسية أو إحدى الشخصيات التي تظهر في المشهد بين الحين والآخر، وقد تقوم بدور تكميلي مُساعد للبطل أو مُعيق له، وقد تظهر في سياق أحداث أو مشاهد لا أهمية لها في الحكي، وهي بصفة عامَّة أقل تعقيدا وعُمقا من الشخصيات الرئيسية، تُرسم على نحو سطحي، لا تحظى باهتمام السارد في شكل بناءها السردي، غالبا ما تقدم جانبا واحدا من جوانب التجربة الانسانية[121]، إحدى هذه الشخصيات التي وظفتها الكاتبة في دور ثانوي، ويمكن للقارئ تتبعها من خلال العمل الأول بينما ينام العالم هي شخصية هدى الصديقة الوفية للشخصية الرئيسية، فهي شخصية تظهر مع نهاية الفصل الأول من العمل، ترافق الشخصية منذ الصغر، وتنشآن معا وسط مخيم جنين، تشهدان حرب أيام النكسة واجتياح مخيم جنين والمجزرة. هدى الطفلة الأقل حظا من آمال تنتقل للعيش في منزلها، ويقدم حسن رعايته لهدى بعد أن أخذ وصايتها من عائلة تلحق بها الأذى البالغ، شخصية هدى ترافق آمال حتى مرحلة المراهقة في دور جانبي يدعم حضور شخصية آمال شخصية هادئة ساكنة، تابعة للشخصية الرئيسية، لها حضور متفاوت معها على فترات متقطعة غير مستمرة في أحداث القصة، تلازمها حتى المرحلة الانتقالية من حياتها، وينتهي حضورها مع الشخصية وفي العمل عند مغادرة آمال إلى دار الأيتام في القدس، وانتقالها إلى أميركا، واغتراب الشخصية الرئيسية آمال لثلاثين عاما، تعود للظهور مع عودة آمال إلى فلسطين والمخيم في نهاية العمل، تقدِّم صورة الأم الفلسطينية المناضلة بصبرها البالغ وفقدها العظيم المتواصل،

[121] انظر: محمد بوعزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص57.

يُعتقل زوجها ويُقتل ابنها ويعتقل آخر، ويخرج الأخير فداءا للمُقاومة وثأرا لعائلته ودم أخيه المهدر، ينتهي دور شخصية هدى مع نهاية الفصل الأخير ومقتل الشخصية الرئيسية آمال.

3. شخصيات نامية:

هي الشخصيات التي تنكشف بتدرج لقارئ القصة وتتطور نتيجة لتفاعلها المستمر مع الأحداث[122]، وتسمى أيضا بالشخصية الدائرية أو المتطورة فهي تنمو وتتطور وتتغير سلبا أو إيجابا حسب الأحداث ولا تتوقف هذه العملية حتى نهاية القصة[123]، ومع وجود رابط بين تطور الأحداث وتطور الشخصيات وتفاعلها معا ينتج التأثير الفني للقصة ويقدمها القاص على نحو مقنع فنيا، فتبدو متكافئة مع نفسها منطقية في تصرفاتها، وقد يظهرها معقدة فتظهر في سلوك غير منطقي، والشخصية النامية تبدأ بتطور بطيئ في البداية ثم لا تلبث أن تتقدم وتكشف عن جوانبها الثرية كلما تطورت الحكاية، فهي شخصية حافة بالعواطف المعقدة والتغيرات المفاجئة وتتميز بطبعها الدرامي فهي تشكل الاستثناء الدائم لأنها تحطم العادة أو تتحطم من أجلها فهي تكشف حقيقة ذاتها، وتحيل طبيعتها الحقيقية إلى دراما[124].

تتعدد الشخصيات النامية التي تتضمنها الأعمال الروائية للكاتبة، منها شخصية حسن بشخصيته المنفتحة على عدة أبعاد، شخصية قيادية تحمل مبدأ المقاومة إلى المخيم، حسن الذي يدخّر مخزنا للأسلحة: الأمل المخبأ للغد والسبيل الوحيد للخلاص وإيقاف العدوان، إلى جانب ما تكتسبه شخصيته منأهمية في الحضور كمرجع هام لأهالي القرية، مع الاهتمام بشؤونهم الخاصة، والتثقيف الذاتي، والعمل المتعدد: كحارس للمدرسة، ومُدرسا للمجتمع وأبناءه، وفي عدة أعمال تكسب شخصيته دورا قياديا في المجتمع، باعتماد أهالي

---

[122] انظر: محمد أيوب، **الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة 1967-1993**، (رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، بحث منشور بصيغة مجلد وورد)، ص79.

[123] انظر: عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي قزق، **مدخل إلى تحليل النص الأدبي**، (الأردن: دار الفكر ناشرون وموزعون، ط5، 2016م)، ص137.

[124] انظر: محمد أيوب، **الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة 1967-1993**، ص79-80.

القرية عليه، أحب العلم في صغره ورافق آري في رحلة التعليم مُصرا رغم ظروف الفقر والحرمان في المخيم على أن يكمل ابناؤه يوسف وآمال التعليم كجزء من رعايته وهدفا للخروج بهما لواقع مستقبل أفضل، وهو في الوقت ذاته مقاوم ذو مبدأ واضح يحافظ على مبدأ إنساني تجاه صديقه آري.

تتبعه كشخصية نامية ذات تأثير مهم في الأحداث شخصية ابنه يوسف، شخصية الأخ الأكبر للشخصية الرئيسية، والحاضرة معها حتى الفصول الأخيرة من العمل، شخصيَّة يوسف تمثل صورة الذات المقاومة من الجيل الثالث لعائلة أبو الهيجا، والصوت السارد للفصول التي يتصدر فيها دوره. ابتدعتها الكاتبة لاستمرارية الأحداث التي تربط بين أفراد العائلة، ودلالة على استمرارية المضي في دروب المقاومة من خلال الأجيال القادمة، وقد نشأ يوسف وسط المآسي التي لحقت بوطنه وعائلته، وفاجعة الطرد من القرية، وفقد العائلة، ومقتل جديه وأبيه، ذهول والدته عنه بعد اختطاف أخيه، ومواجهة عدوان الاحتلال في مجزرة جنين، وتعذيبه في المعتقل، لتبتدئ معالم الاغتراب، ملازمة لشخصيته إلى جانب المآسي التي تمر بها، وتحمل مميزات الشخصية النامية من كثافة سيكولوجية وحالات درامية معقدة[125] في طور متقدم من أحداث العمل، ومع ما تحدثه الحرب من صَدعٍ يسهم في تدمير النسيج الاجتماعي وتشتيت العوائل والأسر، تظهر معها الأضرار النفسية بالغة الأثر على جميع الشخصيات. ومع عثور يوسف على أخيه الأصغر منتميا لقوات الاحتلال، تتركز ملامح الاغتراب في شخصيته وانفصاله عن أفراد العائلة والوطن، واحتفاظه بسر انضمام إسماعيل إلى صفوف الجيش الإسرائيلي، ليخرج يوسف إلى صورة البطل الوطني في مُضيه لأخذ الثأر وعلى درب المقاومة، ويحقق انتصارات عدة إلى جانب رفاقه في كل مواجهة لعدوهم، وفي مُلاحقتهم والتصدي له في المنافي المجاورة، حتى تصفية عائلته في مجزرة صبرا وشاتيلا في لبنان، تمر عندها الشخصية بحالة التحطم الذاتي بمرور فاجعة مقتل العائلة وتبقى الشخصية في جمود وعجز رغم تحقيق الانتصار، ورفض التطرف في الرد والحفاظ على المبدأ الانساني، مع بقاء

[125] انظر: محمد بو عزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص57.

الثأر قائما، دالا في نهايته على استمراريته أمام الأجيال القادمة وأمام شخصية يوسف وهي ترحل إلى منفى آخر.

4. الشخصيات المسطحة:

هي شخصية تعكس فكرة ثابتة للمؤلفها[126]، وتسمى أيضا بالجامدة أو الجاهزة أو النمطية، تفيد جميعها بكون الشخصية ثابتة، لا تتطور أو تتغير نتيجة للأحداث، بل تبقى ذات سلوك وفكر واحد، أو ذات مشاعر وتصرفات واحدة، والتغيير الذي يجري غالبا هو خارجها كتغير علاقتها مع باقي الشخوص، وهو نوع أيسر تصويرا وأضعف فنا، لأن تفاعلها مع الأحداث قائم على أساس بسيط، لا يكشف كثيرا عن الأعماق النفسية لها[127].

تتعدد الشخصيات المسطحة التي يصادفها القارئ من خلال الأعمال، كما تتعدد الشخصيات التي تمثلها، فمنها شخصية الجار أبو سميح الذي يقتصر حضوره على مشهد واحد يمر خلال أيام حرب النكسة. الجار المضطهد الذي يُرافق عائلة أبوالهيجا في رحلة اللجوء ويُقتل والده وأربعة من اخوته في رحلة الوصول إلى حياة المخيم، ومع اقتحام القوات الصهيونية لمخيم جنين، يقف متصديا لهم بمسدسه البسيط، وقد أخذه قهر حياة اللجوء والفقد إلى طريق المقاومة، لهذه الشخصية فكرة أحادية الجانب ثابتة، مختصرة وسريعة الحضور، ومع اعتماد الكاتبة في عملَيها بينما ينام العالم وضد عالم بلا حب صياغة شخصيات ذات أدوار رئيسية تؤطر فكرة العمل، إلا أن القارئ يجد تنوعا في حضور نمط آخر حداثي من خلال العمل الثاني الأزرق بين السماء والماء، فالفكرة لا تحفل ببطل واحد أو شخصية رئيسية واحدة للعمل، بل تصبح الفكرة والمأساة المحيطة بالحياة في قطاع غزة واضطرار الشتات هي الغاية من السرد[128]، فما يقُصده المؤلف هو جوهر الرواية وسبب

---

[126] انظر: محمد بوعزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص57.

[127] المرجع نفسه، ص58.

[128] انظر: منال عبدالعزيز العيسى، **الذات المروية على لسان الأنا دراسة في نماذج من الرواية العربية**، ص71.

وجودها[129]، وتظهر شخصيات متكافئة في الحضور تُكوِّن بطلا مُضاعفا يصعب معه تحديد هويَّة بطل واحد، وتختلف مكانة الشخصية وأهميتها من حدث لآخر[130]، ويتفاوت حضورها خلال الفصول وبين مكان الشتات في الخارج والداخل، فهي قصة نساء تحدين معا قسوة الحياة رغم إجرام الاحتلال وحِصاره وإذلاله، ومَضين معا رغم قسوة الظروف وانعدام أسباب العيش التي تضاعفت أعباءها على حياتهن بعد الطرد القسري من قريتهن في بيت دراس وانتقالهن إلى حياة اللجوء بعد الفرارا بذواتهن وعوائلهن، وشكلن الحياة لمجتمعاتهن التي صنعهنها وحمينها بين أنقاض المخيم في كل حرب، فيظهر التكافؤ في الحضور بين شخصيتين مُتزامتين، كما يظهر مع الشخصيات المتزامنة في ظهورها، مثل نظمية من الجيل الثاني وابنتها ألوان في حياة المخيم في غزة، والحفيدة نور ابنة الجيل الثالث في أرض الشتات في أميركا.

ظهور شخصية نظمية يأتي سابقا لكونها تتمثل الجيل الثاني من أبناء الأهالي الذين شهدوا أحداث النكبة الفلسطينية والفرار الجماعي للعائلة، ورغم من ما يلحق شخصيتها من تحطيم نفسي وجسدي، بقتل عائلتها، والاعتداء الجماعي الوحشي، وحملها بفعل الاغتصاب بطريقة غير شرعية رغبة في إذلالها، وكسر المجتمع الفلسطيني الذي تنتمي إليه، إلا أنها تحتفظ بشخصية قوية صامدة، تفرض حضورا طاغيا في وجه المجتمع الذي يحتقر من أصولها المتواضعة، واحتفاظها بابنها الغير شرعي من حادثة الاعتداء، وتنهض بروح عنيدة مُصرَّة على مواجهة الاحتلال والحياة، وتشكل الداعم الأكبر للعائلة والنساء من حولها، ودعما لأمهات الأسرى في رحلاتهن المتواصلة المليئة بمواقف التحقير والإذلال من القوات الصهيونية أثناء رحلاتهن البعيدة للقاء أبناءهن وأزواجهن من الأسرى في المعتقلات، ودعمها وبحثها المتواصل عن شخصية نور، ويتعاقب ظهور الشخصيات التي تجتمع بعودة نور إلى الداخل الفلسطيني في مخيم النصيرات في غزة، وتجد الطريق إلى جذور عائلتها الأولى.

وهناك التقابل الذي يجمع عدّة شخصيات في الأعمال الثلاثة، فتقابل شخصية دافيد في بينما ينام العالم شخصية مازن في الأزرق بين السماء والماء، ففي حين يتم اختطاف

---

[129] انظر: محمد أيوب، **الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة 1967–1993**، ص60.

[130] انظر: محمد بوعزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص49.

دافيد من عائلة فلسطينية أصيلة يولد مازن من صلب صهيوني إلا أن كليهما يعود إلى هويته الأولى، والتي تشكل انتصارا لهويَّة الذات الفلسطينية التي تعود للانتماء لأصلها الأول، فيجد دافيد ذاته بعودته إلى هويته الأولى ويفرض مازن انتماءه لصلب والدته نظمية بالانضمام والقتال في صفوف المقاومة الفلسطينية وتحقيقه وزملاءه النجاح في عملية نسفهم للعدد من خطوط الغاز التي تعمل على تغذية المستعمرات اليهودية.

5. شخصيات مرجعية:

تباينت شخصيات الذات المقاومة في الظهور وهي الشخصيات التي تحيل إلى دلالات وأدوار وأفكار محددة سلفا في الثقافة والمجتمع، ويأتي إدراك القارئ لمضامينها ودلالاتها الرمزية مرتبطا بدرجة استيعابه لهذه الثقافة، وهي تعمل على ربط القصة بمرجع ثقافي أو تاريخي.[131] وقد تضمنت الأعمال الروائية الثلاثة للكاتبة ثراءا في عرض الأنماط الشخصية، تضمنت كذلك شخصيات ذات مرجعية، تركت آثارها في التاريخ المجتمعي والنضالي للشعب الفلسطيني، أعادت الكاتبة إحياء وجودها وتصوير أهميتها إلى ذهن القارئ. من تلك الشخصيات المرجعية:

– شخصيات تاريخية:

من خلال العمل الأول بينما ينام العالم، تحيل الكاتبة إلى أحد أقدم دور الأيتام في القدس، دار الطفل العربي، الذي يحكي قصة مؤسِسته، السيدة النبيلة هند الحسيني، كانت ابنة لعائلة من وجهاء القدس –عائلة الحسيني– تركت حياة المال والثراء، مُسخِّرة حياتها وأملاكها الخاصة لرعاية أبناء الحرب من الأيتام المشردين في أعقاب المجزرة في قرية دير ياسين الذين

[131] انظر: محمد بوعزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص62، 63.

فقدوا أهاليهم ونزحوا باتجاه القدس الشرقية هائمين، القرية التي ذبحت عصابات اليهود فيها أكثر من مائتي مواطن فلسطيني من الرجال والنساء والأطفال.[132]

- **شخصيات مُعاصرة:**

وتبرز من خلال العمل الثالث للكاتبة "ضد عالم بلا حب"، في حضور الشخصية البطولية للقناص الفلسطيني المحترف "ثائر حمَّاد" الذي أربك الاحتلال بدقة تصويبه في بداية مرحلة الانتفاضة الفلسطينية الثانية، تعلم البراعة في القنص ورفع بندقيته البسيطة التي كانت بالكاد تصلح لعملية صيد في وجه الاحتلال أمام حامية الحاجز العسكري الإسرائيلي بين مدينتي رام الله ونابلس في منطقة وادي الحرامية في الضفة الغربية المحتلة عام 2002م، تمكن –منفردا– في عمليته البطولية من قتل 11 جنديا إسرائيليا، وجرح 6 آخرين، وإلحاق العار بالاحتلال الذي لاحقه لمدة عامين ونصف قبل أن يتمكن من الوصول إليه واعتقاله، وتصبح شخصية ثائر حماد رمزا شعبيا ثوريا[133].

تحضر كذلك شخصية الناقد والمفكر الفلسطيني إدوارد سعيد في العمل، مناهضا لتوقيع اتفاقية أوسلوا، ونصوص أخرى للمناضل الأميريكي جيمس بالدوين الثائر لحرية الشعوب والمناهض للعُنصرية.

كما تظهر في أحداث العمل الثاني "الأزرق بين السماء والماء" شخصية المناضلة الأميركية ريتشل كوري، التي انضمت لحركة التضامن العالمية مع غزة وغادرت إليها للوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني الذي لم تعرفه من قبل، وانضمت إليه لتشاركه معاناته وتكتب للعالم عن وحشية الاحتلال الإسرائيلي، والأضرار البالغة التي خلَّفها على المجتمع الأصلي وعلى الصغار والأطفال، وعن مصير اللاجئين والإبادة الجماعية الخبيثة التي مارستها الحكومة الإسرائيلئة المتطرفة، والتي تجعل البقاء بالنسبة لهذه الفئات الضعيفة أمرا مستحيلا تقريبا،

---

[132] انظر: صفحة الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية، شخصيات مقدسية: هند الحسيني، تاريخ الاطلاع الأخير 30-10-2022م، https://www.palquest.org/ar/biography/14220/%D9%87%D9%86%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86%D9%8A

[133] لقاء مع الأسير القائد ثائر حمَّاد، معتقل نفحة، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، ص129 2022.

قُتلت راشيل كوري في ال16 من آذار بواسطة بلدوزر إسرائيلي دهسا وهي تحاول ببسالة حماية منزل فلسطيني في رفح من التدمير[134] وتخلد ذكراها بتسمية العديد من العائلات لبناتها باسم راشيل تيمنا بها، كما تفعل عائلة بركة بتسمية حفيدتها الأصغر بريتشل.

لقد أعطت الكاتبة من خلال أعمالها الشخصيات النسائية حقها في الصدارة والظهور، ودورها البارز في التاريخ والحاضر في العمل المقاومة ودعم المجتمع ومساندته، وتوظيف شخصيات نسائية تاريخية كشخصيات مرجعية للنهوض بالعمل، مع منحها الصدارة في أعمالها وللفئات المهمَّشة منهن، قصص نساء عبرن الجحيم الذي خلَّفه الاحتلال، وأودَى إليه الشتات، ورغم مرارة الحياة واصلن طريقهن متشبثات بحب العائلة والوطن، ورغم قسوة الحياة التي قهرتهن كلاجئات، وحاملات لهويَّات ومعتقدات مغايرة، تم رفضهن ورفض إنسانيتهن وحقوقهن في مختلف أنحاء العالم، إلا أنهن مضين في مواجهة قسوة الحرب، وقسوة العالم الذي احتفى بهن أكثر دَفعاً باتجاه الخطيئة، وشققن طريقهن في صبر وإرادة أملا في التحرير وفي غد أفضل. لقد أطلق سعيد يقطين على مثل هذه الأعمال: "رواية الأطروحة النسائية"، ويرى أن من أهم أسسها أن تنطلق من "المرأة" باعتبارها ذاتا وموضوعا للكتابة، أما الرواية التي لا يتحقق فيها هذا الأساس فيمكن التعاطي معها خارج نطاق "رواية الأطروحة النسائية"، فالعديد من الروايات التي كتبها الرجال يمكن أن تتواجد فيها خصوصيات الكتابة الأنثوية، وتستدعي الاختلافات البحث في خصائص الكتابة النسائية [135]، وهو ما ظهر في الساحة الروائية مؤخرا مع ظهور الكتابة النسوية التي بدأت بأخذ أهميتها في الكتابة ما بعد الكولونيالية، بعد مفهوم القُوة في سياق الهيمنة الذكورية، ومن جهة أخرى فالمرأة مظهر من مظاهر الاقتلاع، تضاعفت أزمتها وفرضت عليها تحديات أقسى وأكبر[136]، من ذلك يمكن القول أن سوزان أبو الهوى قد قدمت نموذجا يتمثل هذا

---

[134] انظر: ادوارد سعيد، **خيانة المثقفين النصوص الأخيرة**، ترجمة: أسعد الحسين، (دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، د.ط،1432هـ/2011م)، ص209-210.

[135] انظر: سعيد يقطين، **قضايا الرواية العربية الجديدة الوجود والحدود**، (القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2010م)، ص297.

[136] انظر: رامي أبو شهاب، **في الممرّ الأخير: سردية الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونياليّ**، ص169.

الأساس، فالغلبة في أعمالها الروائية والدور البطولي للنساء، وتركيزها على أهمية الدور الذي قدمته المرأة الفلسطينية للمقاومة، وكيف شكلت دُعامة في أساس لمجتمعها، وهو ما تميل إليه في بحثها المتواصل عن قصص النساء اللواتي تعرضن للتهميش والاستغلال وتم تصنيفهن كفئات أدنى منزلة، والبحث في عوالمهن التي لا يمكن للعائلات والمجتمعات أن تكتمل في النهوض بدونها، رغم ذلك لم تظهر أصواتهن بوضوح كافٍ للعالم، والعالم الروائي بعد.[137]

المبحث الرابع: الحبكة الفنية

هو نظام تتابع فيه مجموعة من الأحداث داخل القصة، وتطلق الحَبكة أو العُقدة على تتابع حوادث تُفضي إلى نتيجة قصصية، تخضع لصِراع ما، وتعمل على شدِّ القارئ المتوهم إليها، وهي لحظة الاحتداد في القصة، حيث يصِل التأزُم أقصاه قبل النهاية. وأوجّ الحبكة هي اللحظة التي تبلغ فيها الحَبكة أو العقدة قوتها، وتأتي كإعلان عن فاجعة أو نهايتها، ويطلق أوج الحبكة على أقصى درجات التأزم في العمل القصصي، كإعلان عن نهاية غير معلنة.[138] وهي سرد للأحداث في تسلسل زمني مع التوكيد على علاقة السببية التي تجمع بين الأحداث[139]، في حين يرى بول ريكور أن موضوع الحبكة ينقسم إلى قسمين الأول هو أن الحبكة هي تركيب بين عناصر مُتنافِرة وهي الأحداث والعَوارِض المتعددة، وبين القصة الواحدة المكتملة؛ فتقوم الحبكة بوظيفة إيجاد قصة واحدة من أحداث متعددة أو بمعنى أن تحوِّل الأحداث العَرضية الكثيرة إلى قصة واحدة، ومن هذه الناحية فإن الحَدث ليس مجرد شئ عابر، فهو يسهم في مجرى عملية السرد مثلما يسهم في بدايتها ونهايتها.

وفي وجهة نظر ثانية يشير إلى أنها أيضا ما ينظم تركيب المكونات التي لا تَقلُّ تَنافرا عن الظروف غير المقصودة، والكشوف التي تؤدي الأفعال، والتي تفتقر إليها، والمصادفات أو

---

[137] تابع: لقاء مع الكاتبة سوزان أبو الهوى على منصة اليوتيوب، قناة PhilaAthenaeum، تاريخ الاطلاع الأخير 10-9-2022م: https://www.youtube.com/watch?v=dbfCEyGG2Ak

[138] انظر: سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة عرض وتقديم وترجمة**، ص64.

[139] محمد بو عزة، **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**، ص74.

المواجهات المخطط لها، واشتباكات الفاعلين ابتداء من الصراع وانتهاء بالتعاون، والوسائل المعدَّة إعدادا متقنا أو بائسا للوصول إلى الغايات، وأخيرا النتائج غير المقصودة.

أما جاري بروفوست فيرى أنها سلسلةُ الأحداث التي تقع في حياة الشخصية وما يُكوِّن القِصَّة، وهي ليست جميع ما يقع للشخصيَّة ما بين أول يوم من القصَّة وآخر يوم فيها، إنما الأحداث المفصَليَّة والأحداث المؤثرة في القِصَّة"[140] ويُقسِّم جاري العمل الروائي إلى قسمين: حبكة رئيسية وحبكة فرعية[141] وما يميز الحبكة الفرعيَّة أن أحداثها تقع ضمن الفترة الزمنية للحبكة الرئيسية وتكون مرتبطة بها، وقد تكون ذات أثرٍ على الحبكة الرئيسية، وملاحظة أن لا تكون تجميعا عشوائيا للأحداث بل طريقة محددة للأحداث التي تروي القصة[142]، كما يرى جاري أن العدد الأمثل للحبكة الرئيسية أن تكون واحدة، أما الفرعية فليس هناك قيود على عدد الحبكات فيها، إلا أنه يُستحسن للكاتب الجديد أن يقلل من عدد الحبكات حتى لايُضعِف من عمله ويربك القارئ.[143]

من خلال الأعمال الثلاثة للكاتبة سوزان يمكن تتبع ذلك، فيأتي اعتمادها الغالب في التأسيس لحبكات أعمالها الروائية مُستندا إلى أحداث تدور حول النكبة الفلسطينية، وتمتد الحبكات الفرعية كنتائج لهذا الحدث، حدث النكبة، فالعُقدة الرئيسية في بينما ينام العالم تتشكل إثر خروج عائلة يحيى أبو الهيجا فرارا من قرية عين حوض وتعرض إسماعيل للاختطاف من قبل القائد الإسرائيلي موشيه، وهي الحبكة المماثلة لحبكة الرواية عائد إلى حيفا كونها مستلهمة من العمل ذاته، وتخدم فكرة النص الأساسي حيث يفقد أب وأم في رواية عائد إلى حيفا ابنهم خلال التهجير القسري أثناء النكبة الفلسطينية، وتكشف الرواية أيضا بشكل مماثل عن نشئة الابن وسط عائلة إسرائيلية[144]، وما ترمز الكاتبة إليه من خلال

---

[140] انظر: جاري بروفوست: **شُركاء الحبكة**، مقال منشور في كتاب: **تقنيات الكتابة في فَنِّ القصَّة والرِواية**، لمجموعة من المؤلفين، ترجمة: رعد عبدالجليل جواد، (سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط3، 2011م)، ص43.

[141] المرجع نفسه، ص41.

[142] المرجع نفسه، ص45.

[143] المرجع نفسه، ص45.

[144] Rachel Gregory Fox and Ahmed Qabaha and Others.., *Post- Millennial Palestine Literature, Memory, Resistance*, (Liverpool University Press, 2021), p136.

حادثة الاختطاف كما أشارت وداد عبدالفتاح هي قضية الذبيح التي ينسبها اليهود إلى موروثهم الديني، فسَرقة إسماعيل وتغيير هويَّته وتاريخه إلى دافيد إبرام، وإنجابه بعد زواجه لابنين: يعقوب ويوري تحمل أسماء ذات دلالات خاصة من الموروث الفكري اليهودي[145].

وفي دراسة أخرى يرى أيمن أبو شومر أن توظيف الكاتبة لحادثة اختطاف اسماعيل يأتي كرمز مجازي لاستيلاء اليهود على أرض فلسطين من أبناءها، وفَقد إسماعيل يأتي موافقا لمعنى فقد الوطن ومحاولة انتزاعه من أبناء شعبه، وهي انعكاس للمأساة الواقعة على حياة الذات الفلسطينية كما تمثلت من خلال شخصية داليا، وحيث يُمضي الأفراد بقية حياتهم على حدود أوطانهم بحثا عن ما فقدوه[146]، وهو ما يوافق كذلك تهويد الأرض وأسماءها ومعالمها بعد نهبها[147]. وفي حال التفصيل بالعودة إلى العمل الروائي الأول بينما ينام العالم، وإلى مراحل تشكل الحبكة الأولى، أثناء عمليات التهجير القسري والتدمير الذي تتعرض له قرية عين حوض واختطاف إسماعيل أثناء الفرار من القرية، تتشكل العقدة الأساسية باختطافه من قبل موشيه، كنتيجة لحَدث الغزو والتهجير عن القُرى، ومن خلالها تمتد الحبكات الفرعية في توالٍ، فضياع إسماعيل يمثل الصدمة الأكبر لأمه داليا ووالده حسن، وتبقى بفعلها داليا هائمة حتى السنوات اللاحقة ونهاية عمرها، في بحث عنه، وبفعلها وبفعل مقتل واله يحيى، ينظم حسن مُقاومة مسلَّحة مع اجتياح الاحتلال لمخيم جنين، والحبكة الفرعية تمثلت في شتات الأبناء بفقد العائلة، واختفاء حسن ووفاة داليا وشتات الأبناء بانتقال يوسف الأول إلى الأردن، ومُغادرة آمال للدراسة في أميركا، وكما يشير جاري بروفوست فإن بطل الحَبكة الرئيسية يُمكن أن يكون بطلا للفرعية أيضا، ويتمثل ذلك من خلال شخصية إسماعيل الذي تعتمد على اختفائه حبكة العمل، إلا أن ظهوره يأتي كشخصية ثانوية في الحبكة الفرعية بحضور شقيقته آمال في اللقاء الأول الذي يجمعهما معا

---

[145] انظر: وداد عبدالفتاح خليفة، **التراجيديا الانسانية في روايتي قصة عن الحب والظلام لعاموس عوز وبينما ينام العالم**، المصدر نفسه، ص854.

[146] Abu-Shomar, Ayman. "Unreconciled Strivings of 'Exilic Consciousness': Critical Praxis of Resistance in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin." *Journal of Holy Land and Palestine Studies* 18.1 (2019): 101-120. P17..

[147] Raslan, Iman El Sayed. "Trauma and resistance in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin." *International Journal of Arabic-English Studies* 17.1 (2017): 183-202. P7.

في أميركا وعودتهما معا إلى فلسطين، كما يشير جاري والعكس كما يشير يصح أيضا، فالشخصية الفرعية في الحبكة الرئيسية يمكن أن تكون شخصية رئيسية في الحبكة الفرعية، كما تظهر في الحدث الأساسي لصنع الحبكة شخصيات ثانوية يتنامى دورها مع الحدث كشخصية داليا التي يبرز دورها بوضوح في الحبكة الرئيسية كونها الأم والذات التي تتعرض للصدمة في الحادثة بشكل أعمق وأبلغ ضررا باختفاءه، وتبدأ رحلة اغترابها والانفصال عن الواقع وتمتد آثارها حتى وفاتها في الفصل الرابع من العمل، وكحبكة فرعية أخرى التغيير الذي يطرأ على شخصية حسن والصدمة التي تلحقه أيضا جراء اختطاف ابنه إلا أن عزلته وميله إلى القراءة والاطلاع والثقافة المقاومة الفكرية تدفعه في أول صراع بعد اختطاف اسماعيل إلى المواجهة المسلحة، كما تحضر كذلك بشكل فرعي شخصية يوسف لحظة الحدث – الاختطاف– وتنعكس على دوره وحَمله للإرث المقاوم بعد مقتل جده البطولي واختفاء والده، وحتى نهاية العمل في تسلسل متقن، جميعها شخصيات حاضرة مع صياغة سلسة للحبكة الرئيسية وعلى اتصال معها.

إن الشائع كما يشير جاري هو أن يبدأ ظهور الحَبكة مبكرا في الرواية مع حدثٍ تحفيزي، وكما يتمثل من خلال العمل في الفصل الأول من الرواية، فإنها تتكون بوجود الحدث التحفيزي للقارئ: بمداهمة قرية عين حوض بالقصف والإخراج القسري من القرية واضطراب الأوضاع وفرار الأهالي، الأمر الذي يشير جاري أنه يعود إلى تشكيل اهتمام مبدأيّ ومعرفة أولية لدى القارئ حول عالم وخلفيات الشخصيات لجذبه لمواصلة القراءة، ويستمر بأحداثٍ فرعية، ذلك النسيج المكون من الحبكة الرئيسية والفرعية هو مايُكسب الرواية توازنا وبراعة محببة.

وبفعل ترابط الأحداث وتسلسلها في تتابع وتفاعل منطقي[148]، وهو المعيار الذي يشير عبدالقادر وحسين لافي أنه يحكم بالنجاح على العمل الروائي، فيمكن التوصل إلى أن غالبية الحبكات التي أنتجتها سوزان في أعمالها الروائية تُعدّ حبكات مُتماسكة، متسلسلة

[148] عبدالقادر أبو شريفة، حسين لافي قزق، **مدخل إلى تحليل النصّ الأدبي**، (الأردن: دار الفكر ناشرون وموزعون، ط5، 2016م)، ص130.

غنية بمشاهد وأحداث عن التاريخ الفلسطيني المقاوم، فكل حدث فيها يؤدي إلى آخر على خط زمني يمضي حتى نهاية العمل[149].

وتتمثل من خلال العمل الثاني في ولادة نور وشتاتها في أرض الاغتراب بعد فقد عائلتها الصغرى في أميركا وعائلتها الممتدة في فلسطين، وهي الفكرة الرابطة للأحداث في العمل، ومعاناة العائلة التي تولَّدت بعد مرحلة التهجير القسري وإخراج الأهالي من قرية بيت دراس ولجوئهم إلى غزة وأرض الاغتراب، وبدء تشكل مراحل المعاناة التي تواجه الشخصية الرئيسية نور، بوفاة والدها وجدها في عمر صغير وانتقالها إلى دور رعاية الأيتام، تأتي بسلسلة من الحبكات الفرعية والتي تتوجه للأخطار والمصاعب التي تواجهها في هذه الدور، وهو كذلك تداعٍ للحدث الأبرز: النكبة الفلسطينية التي دفعت بممدوح بعد إصابته للهجرة، ومن حيث أنماط الحبكة وأنواعها يجد القارئ للأعمال الروائية تنوعا مثريا لهذه الأنماط في كل عمل، حيث أجادت سوزان أبو الهوى ومن خلال أعمالها الروائية الثلاثة التسلسل في حبك الأحداث والعقد المصاحبة، جمعها الهمّ الفلسطيني ورغبة التحرير.

فنجد حبكة متوازنة كما يظهر في "بينما ينام العالم" الذي يفتتح على العام 1941م والحياة الريفية الطبيعية التي يعيشها الفلاح الفلسطيني وعائلته قبل وقوع النكبة التي تجر معها الدمار للأرياف والقرى وحياة الأفراد، وتمتد حتى منتصف الفصل الأول من العمل. حيث تتشكل الأحداث دون الوصول، أو أن توحي بالنتيجة، فتكون وسطا بين الغموض والوضوح، وتتضح بمقدار ما تُبيِّن الخيوط الأساسية التي تمهد لتكوين العقدة وهي غامضة بمقدار ما يدع القارئ متشوقا لمتابعة الحوادث ومعرفة النهاية[150]، فتأتي على التعريف بالشخصيات ومحيطها الداخلي والخارجي وتصوير علاقته بالمجتمع وعاداته، وتعريفا بالتفاصيل الحيَّة بالزمان والمكان، وتصنع تقاربا مع عوالم الذات الفلسطينية الداخلية والخارجية وأطباعها وعلاقاتها، ومراحل التغيير الجذري الذي تطرأ على هذه الحياة بقدوم الغزو وتدميره للبنية الاجتماعية ونسف معالم الأرض الطبيعية. مع ولادة شخصية يوسف في وقت مقارب ووضع الندبة كإشارة مهمة في تكوين الحدث والنهاية، تكوينها أقرب إلى حبكة متوازنة اعتمد على

---

[149] انظر: المرجع نفسه، ص130.

[150] انظر: عبدالقادر أبو شريفة، حسين لافي قزق، **مدخل إلى تحليل النصّ الأدبي**، ص131.

ثلاثة عناصر: الحدث الصاعد، الأزمة: العقدة، الحدث النازل[151]، معها يعرُج القارئ إلى معالم تمكن الكاتِبة من تقنيات صناعة الحبكة وتفاصيلها، حيث يتشكل الحدث الصاعد بالانتقال من العرض إلى أسباب الخلاف أو الأزمة[152]مع تقدم الزمان وتطور مراحل العقدة بتركيز خلال أحداث الفصل الأول، مع اجتياح الجنود لقرية عين حوض وقصفها وفرار أهالي القرية، والعقدة التي تتكون بتتابع مشاهد تدافع أهالي القرية للفرار، واندفاع موشيه بين الحشود ولحظة اختطاف إسماعيل، وهي لحظة تكثيف وانفعال في المشهد ونقطة التحول للأحداث اللاحقة.

الوصول إلى الحدث النازل وهو حَلُّ العقدة أو فكُّ الحبكة، ويسجل حصيلة الصراع الفكري أو العاطفي أو الديني وحالة الإدراك أو الوعي الذي تصل إليه الشخصية بغض النظر عن عمق الإدراك أو مدى دوامه أو استمراره[153]، ويصل إليه العمل في تسلسل للأحداث وانتقال الشخصيات من مرحلة إلى أخرى، مع انكشاف السر والشك الذي يحيط بعائلة موشيه، والشك الذي يداخل شخصية إسماعيل –دافيد– في عمر مبكر، ولقاءه المتكرر بأخيه يوسف، والتساؤلات التي تدفعه لطريق البحث عن حقيقة ماضيه وعائلته الأولى وقراره بالحياد بعيدا عن التطرف الصهيوني.

ومن ضمن أنواع الحبكة نجد الحبكة "الناجحة في النهاية"[154]، ونجدها متمثلة مع شخصية نهر وقد واجهت منذ نشأتها في الشتات العديد من العقبات والاخفاقات كلاجئة، واغترابها الذي أكسبها اندفاعا مضطربا، ترصدتها الشخصيات السيئة والدروب المنزلقة باتجاه الحضيض إلا أن معدنه الطيب يعيدها للنهوض بمرورها بتغيرات جذرية تعصف بحياتها حتى تعثر على ذاتها الواعية الواثقة في طريق العودة إلى فلسطين والانضمام إلى فريق الثورة والمقاومة.

---

[151] المرجع نفسه، ص131.

[152] عبدالقادر أبو شريفة، حسين لافي قزق، **مدخل إلى تحليل النصّ الأدبي**، ص131.

[153] انظر: المصدر نفسه، ص131-132.

[154] انظر: المصدر نفسه، ص132.

المبحث الخامس: الرؤية السردية

تتعلق الرؤية السردية بالكيفية التي يتم بها إدراك القصة من طرف السارد، ومن خلال تصور يقدمه محمد بوعزة عن نموذج تودوروف لمفهوم الرؤية السردية، يعتمد هذا النموذج الذي يميزه الوضوح النظري والتكثيف، ولإقامته حدودا تمييزية واضحة بين أشكال الرؤية السردية، ويقترح قرائن نصية ومؤشرات لسانية واضحة تمكن من ضبط وتعرف مظاهر كل شكل من أشكال الرؤية السردية، بخلاف تصورات أخرى تميزت بالتشعب، فهو يميز بين ثلاثة من أنواع الرؤية السردية: (الرؤية من الخلف، الرؤية مع، والرؤية من الخارج)، واستنادا على هذا النموذج ومن خلال تجربة سوزان أبو الهوى وتجربتها السردية في تصدير الرواية الفلسطينية الواقعية نجحت في تتصوير تفاصيل العالم الفلسطيني في الداخل وما يقابله من عالم الشتات والاغتراب في في الخارج، وعبر هذه التقنيات يمكن أن تتجلى تقنيات أنواع الرؤية السردية وتتبع أثرها في نتاج أعمالها وتتعدد أنواعها، ونقل القارئ إلى وجهة نظر الكاتبة لما يجري في أذهان تلك الشخصيات..

1. الرؤية من الخلف

في هذه الحالة يكون السارد أكثر معرفة من الشخصية الروائية الساردة، ويرى ما يجري خلف الجُدران، وما يجري خلف ذهن بطله وما يشعر به في نفسه، فليس لشخصياته الروائية أسرار، كما تتجلّى شمولية معرفة السارد في معرفته بالرغبات السرية لدى إحدى شخصيات الرواية التي قد تكون غير واعية برغباتها، أو في معرفته لأفكار شخصيات كثيرة في آن واحد، وذلك ما لا تستطيعه أي من هذه الشخصيات، وإما في سرد أحداث لا تدركها شخصيات روائية بمفردها، إنه سارد عالم بكل شيء وحاضر ف كل مكان[155].

يندر إعمال الكاتبة سوزان أبوالهوى لهذا النوع من الرؤية السردية فتفرد غالب مساحة سردها للشخصية الرئيسة أو الصوت السارد، عدا استلامها لصوت السارد في حالات، كالتقديم الأولي لظهور الشخصيات، طفولتها، حالات الشرود النفسي، مرور الشخصية

[155] انظر: محمد بوعزة، **تحليل النص السردي: تقنيات ومفاهيم**، ص77.

بحالات من الصدمة، أو لحظات الاغتراب عن الذات، غير أنها تتجلى في بعض المواضع، من ذلك ما يتضح من سرد الكاتبة لتفاصيل حول الأفكار المداخلة للشخصية الرئيسة والساردة "خالد" في الأزرق بين السماء والماء، فالكاتبة على علم بالمشاعر والأفكار والتصرفات التي تضمرها الشخصية، وتوقعاتها التي تتماشى مع تصورها تجاه البيئة المحيطة بها، وظروفها الخاصة، كشخصية خالد ومجتمعه المحاصر في محيط غزة: "لو لم يكُن لديه عملٌ لأغرته الأنفاق، فهي من الأعمال القليلة في غزة التي تُدرّ أجرا حسنا. كما أن أصحابها عادة ما يُشغِّلون الصبيان واليافعين، فأحجام هؤلاء صغيرة تناسب الزحف في الدهاليز الضيِّقة جيئة وذهابًا.. لم يطل الوقت حتى بدأ أصدقاء خالد يتخلون عن الدراسة للعمل في الأنفاق. كان أولهم توفيق.. رافقه خالد في اليوم الأول، وبينما سجَّل المعلَّمون غياب كل من توفيق وخالد، كان الصديقان جالسين مع خمسة ممن في سنَّهم في حصة التوجيه بقرية الأنفاق.. ذهب خالد إلى هناك وهو يعرف أن أمه وجدته ستتناوبان على ضربه إن علمتا بغيابه عن المدرسة.. لقد ذهب في ذلك اليوم وفاءً للصداقة، وكان توفيق متوترا واصفرَّ وجهه قبل الدخول إلى النفق"[156]، لقد عملت الكاتبة على توظيف ضمير الغائب في الحديث عن شخص خالد فهو سارد غائب يُحكى عنه، وتظهر شمولية المعرفة بالفضاء الزماني والمكاني من خلال رؤية الكاتبة، فتعرف ما يدور في ذهنه ونفسه، والتصرفات المتوقعة منه.

2. الرؤية مع:

هي الحالة التي يعرف فيها السارد بقدر ما تعرف شخصيته الروائية، فلا يُقدم للقارئ معلومات أو تفسيرات إلا بعد أن تكون الشخصية نفسها قد توصلت إليها، فتكون معرفته مساوية لمعرفة الشخصية، والشكل المهيمن المستخدم في هذه الرؤية هو ضمير المتكلم، حيث تقوم الشخصية بسرد الأحداث بنفسها كما نجد في السير الذاتية، وهنا تُنعت الشخصية بالشخصية الساردة.[157] وقد يستخدم السارد كذلك ضمير الغائب شرط أن تكون معرفة السارد مساوية للشخصية الروائية، بمعنى المحافظة على الانطباع الأول الذي يقضي بأن

---

[156] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء**، ص150.

[157] انظر: محمد بوعزة، **تحليل النص السردي: تقنيات ومفاهيم**، ص79.

الشخصية ليست جاهلة بما يعرفه الراوي، ولا الراوي جاهل بما تعرفه الشخصية، وهي تنتمي إلى نمط السرد الذاتي، كما أن السارد يكون مصاحبا للشخصية أو الشخصيات التي يتبادل معها المعرفة بصيرورة الأحداث، لذلك يطلق عليه البعض بالرؤية المصاحبة.[158]

يتجلى ذلك من خلال شخصية يوسف، حيث تمنحه الكاتبة مساحة السرد الخاصة بحياته، حيث يملك صوته الذاتي –صوت المقاومة– ويمضي في تدرجٍ لرواية مأساته الخاصة، والمآسي التي لاحقت أجيال عائلته، وخروجه من صدمة التهجير والمجازر والفقد، ومراحل انتقال شخصيته عبر الفصول من الإبن، إلى الرجل، وإلى بطل مقاوم.

كما يُحدث القارئ وهو يعود أثناء وقوع حرب النكسة إلى مشاعر الصدمة التي ترتدُّ إلى ذاكرة الحرب الأولى في عُمر الخامسة، وتعيد بث فاجعة النكبة وجرائمها: "الحرب! يا لها من كلمة ثقيلة تفجِّر حِملاً ثقيلا من الفَزع، حَملتُهُ على ظهري منذ أن كُنتُ في الخامسة. منذ عام 1948، عندما تعرَّفت إلى الحرب وتعرَّفت هي إليَّ"[159]، فالصوت السردي يمتثل لشخصية يوسف في عبئ المهام التي يحملها، ولحظة انفصاله عن كونه طفلا، وأخاً أكبر لم يتمكن من حماية ذاته وعائلته، فيكبر في نطاق الخوف، فاقدا أثره، وتبقى الذاكرة ذات إسهام في تكوينه كبطل مُقاوم: "أُختي مُتصلِّبة من الخوف وتلتصق بالجدار. لا تستطيع أن تراني، وأنا أريد أن أذهب إليها. أريد أن أتحدَّث إليها، أن أسحبها نحوي كي أسحب الخوف بعيدا عنها، لكنَّ أبي يسحبني بعيدا، ويُناولني سلاحا أخرجه من مخبأ المؤن الصغير في حفرة المطبخ، لكي نحمي أنفسنا من الغضب المطبق على الأرض. لأنَّني أحمل بُندقية لأول مرة في حياتي"[160] فهي انعكاس لما في ذاته من أحاسيس ساندت في صقل معدنه الأصيل وانتقاله إلى ذات مقاومة، لطالما مدَّت يدها للآخر بالتضحية والوفاء وتلمست طريق الإنسانية، إلا أنها لم تجِد من يذود عنها غير يديها والأسلحه، كما اتضح مع شخصية يوسف بولائه لرفيق الطفولة آري وحتى إنقاذه في شبابه.

---

[158] المرجع نفسه، ص79-80.

[159] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص147.

[160] المصدر نفسه، ص155.

3. الرؤية من الخارج

هو آخر أنواع الرؤية السردية ظهورا وقد برز مع تيار الرواية الجديدة في فرنسا. في هذه الحالة تكون معرفة السارد أقل من معرفة الشخصية الروائية (السارد، الشخصية)، فهو يصف ما يرى ويسمع، يروي ما يحدث في الخارج، لا يملك معرفة عما يدور في ذهن الشخصيات وما تفكر به أو تحسه من مشاعر، ويعرف ما هو ظاهر ومرئي من أصوات وحركات وألوان، ولا ينفذ إلى أعماق ودواخل ونفسيات الشخصيات[161]، من ذلك ما يتضح من خلال الوصف الذي تستغرق في تفصيله شخصية نهر في مساحة وزوايا زنزانة العزل الانفرادي التي تعتمدها الكاتبة مسردا لأحداث، فالأعوام التي تقضي زمانها المتخيل، تعود إليها بوصف دقيق مستغرق عن ذلك المكان، كوصف معالم الزنازنة التي تقضي نهر فيها أسيرة عن العالم لسنوات تسرد فيها، وتستفرد فيها بالذاكرة، كما تروي: "يتسلل الضوء من خلال نافذة الزجاجة الصغيرة ذات الكتلة الزجاجية العالية على الحائط، لا يتم الوصول إليها إلا من قبل الزواحف متعددة الأرجل، والتي تقيم هنا أيضا. معجبة أنا بالعناكب والنمل، التي استطاعت إقامة سِيادة منفصلة عني في كوننا ذي التسعة أمتار مربعة. أضواء العالم الخارجي: الشمس، القمر والنجوم، أو لعلها لمبات الفلورسنت المشعة، -لا يمكنني أن أجزم- تتسلل من خلال النافذة، وتهبط على الحائط بأنماط حمراء، صفراء، زرقاء وأرجوانية. ظلال أغصان الأشجار، الحيوانات العابرة، الحراس المسلحون، أو لعلهم سجناء آخرون ترتسم أحيانا مع تلك الأضواء"[162].فقد عمدت الكاتبة في أعمالها لتوظيف التاريخ، والأحداث الواقعية، وما أشار إليه سعيد يقطين ب"التخييل الذاتي" التي يلجأ الكاتب فيها لتحوير سيرته الذاتية الكلاسيكسية، أو التحول عنها بكتابة نوعية "هجينة" تم مزج الواقع الذاتي فيها بالتخييل الفني، فالذات الروائية تستخرج من واقع الذات، غير مقيدة بقوانين السية الذاتية وشروطها التي تتميز بها النصوص التي يُدرجها أصحابها في خانة هذا النوع[163]، ويأتي في إسقاط سوزان

---

[161] انظر: محمد بوعزة، **تحليل النص السردي**، ص82.

[162] Abulhawa, Susan**.** *Against the Loveless World*, p21.

[163] انظر: سعيد يقطين، **قضايا الرواية العربية الجديدة الوجود والحدود**، (القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2010م)، ص224.

العديد من أجزاء سيرتها الذاتية على رؤيتها السردية التي تعتمد في الغالب نوع: "الرؤية مع" كشخصية آمال، والشخصيات المحورية في الأعمال الأخرى نور ونهر، كما أشارت في العديد من اللقاءات: "لقد وضعت آمال في حياتي[164]، آمال ونور تكبران في دار أيتام ونظام رعاية اجتماعي وهو ما مرت به الكاتبة في صغرها أثناء الحرب في القدس ودخولها إلى دار أيتام في القدس، وقد نشأت في الكويت كما تسقط حياتها المماثلة في عدة أجزاء لقصة نهر، والشخصيات تنشأ في الشتات مغتربة حتى تجد ذواتها، كآمال وممدوح اللذان يستقران في أميركا كحال الكاتبة، فالإسقاطات التي تبنتها من خلال شخصية نهر هي جزء من ذاكرتها الشخصية، كما تسرد: "كل مكان التفت إليه في الأردن كان مذكِّرا لي بالخسارة والفَقد..، كنت بعيدة جدا عن تلك الشواطئ التي ضمَّت كل شئ عرفته في العالم..، الآن وقد تم سحب الأرض من تحت قدميّ، تذبذبت على تضاريس أرض غير مستقرة للاجئين، أكافح من أجل المضي قدما"[165]، الإشكالية التي ركزت عليها الكاتبة في جميعا أعمالها، والتي أُسقطت من واقعٍ ظل يلاحق الذات الفلسطينية في دول اللجوء والشتات، منها الكويت والأردن كما برز في "بينما ينام العالم" و"ضد عالم بلا حُب" باستضافتها لجزء كبير من اللاجئين، كمحطة من محطات التعبير عن مشاكل اللجوء الفلسطيني وهو ما وجد في العديد من العائلات التي تواجدت في الكويت بصورة شبه دائمة –كما نجد مع عائلة نهر–، ويحمل العديد منها جواز السفر الأردني، لهذا فلابد لها من المرور بالأردن لا بوصفها وطنا يمكن العودة إليه، ولكن بوصفه ذلك المكان الذي يحمل معظم الفلسطينيين وثائق سفره، ولهم أقارب فيه، فهو بمثابة وطن، إلا أنه وطن طارئ، وأقل من وطن حقيقي، فلا ذاكرة، ولا موروث وهو جزء من الشتات، وهو غالبا المكان الذي يضم العائلات الفلسطينية التي نشأت بوصفها تجمعات فلسطينية كبرى[166]، وهو ما أدى إلى سقوطهن في تلك المساحة الهاوية من

---

[164] شاهد: لقاء للكاتبة سوزان أبو الهوى على منصة اليوتيوب، **قناة afikra**، تاريخ الاطلاع الأخير: 2022/10/30م: https://www.youtube.com/watch?v=VrbDNE70pZY

[165] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, P109-110.

[166] انظر: رامي أبو شهاب، **رواية قبل أن تنام الملكة لحزامة حبايب: الشتات الفلسطيني الوعي المركَّب**، (مقال في جريدة القدس العربي، 10 يوليو 2018م)، ص4.

الاغتراب وعدم الانتماء، أو الرغبة في التمسك بالحياة وأسهمت تلك الضبابية في الحاضر والمستقبل في اتخاذهن للعديد من القرارات الخاطئة في عالم مادي، عرقي عنصري مستبد، ومع تركهن لذواتهن في المرحلة الاضطراب والاغتراب المظلمة لقرارات خاطئة كآمال وتنازلها في شرب الكحول للنسيان، وعدم الانتماء مع نور وإيذاءها لذاتها المتكرر، ونهر في العلاقات العابرة لجمع المال ولو باختيارات خاطئة ابتلعتها إلى ظلام آخر حتى وجدن طريق النجاة، هؤلاء النسوة اجتزن الجحيم من الهاوية مضحيات بأنفسهن، الذي تسبب به الاحتلال بشكل مباشر وغير مباشر لحياتهن، والأنظمة الاستبدادية العنصرية، فالاغتراب والشتات هي النتيجة الحتمية لأحداث النكبة والاقتلاع القسري وما تأثرت به حيات الشخصيات وغيّرتها من الداخل، حتى صعدن معا من أجل العائلة والنجاة بها كنظمية وألوان ونور، نهر وأمها وجدتها، رغم ما ميزهن من ذكاء وتفاني في العمل: "رغم ما تمتَّعت به من أمنٍ وفُرص؛ رغم كلِّ التعليم والعلامات العالية؛ رغم ما أحرزته من تفوق في مجالات عديدة، كانت هي أكثر شَخصٍ محطَّمٍ عَرفناه. لم يَكُن لها في العالم من مَكانٍ لتَكون"[167]، تلك التجارب التي وظفتها الكاتبة لتمضي الأحداث في سياق منتظم ومتسلسل من السرد، إلى جانب توظيفها لتقنيات أخرى حداثية متعددة كالمونولوج وتوظيف الفنتازيا، واهتمامها بعرض العادات والتقاليد الفلسطينية، التي سعت الرواية الصهيونية لإلغاء حقيقتها، فأعطت إهتماما ورؤية سردية تُعنى بوصف البيئة والعادات الفلسطينية تأريخا وحفظا للتراث والهويّة، والتعريف بها من أبسط العادات اليومية وحتى آخر آثارها من أسبوع القطافِ في موسم الحَصاد نهايةَ كل عام كممثل للحياة الريفية الفلسطينية، وكطقس يتكاتف به أفراد العائلة والمجتمع لجني المحاصيل الزراعية وهم يعمُرون ساعات الصباح الباكر، وهو ما يبرز من خلال العملين الأزرق بين السماء والماء، وضد عالم بلا حب، في خروج الأهالي لقطاف الزيتون والجهد المتفاني المبذول في العناية بالأرض ورعاية أدق تفاصيلها منذ الزراعة وحتى الحصاد، والذي يعكس مدى الارتباط بالأرض والتلاحم الاجتماعي للمجتمع الفلسطيني، ويبرز عن قرب وبوضوح من خلال العمل الأول والثالث للكاتبة، والذي تنشأ وتُربى عليه الأجيال الفلسطينية باهتمام بالغ،

[167] سوزان أبو الهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، ص105.

وتؤكد ارتباطه الوثيق المتصل بأرضه وعلى جهد أجيال متعاقبة أثمر النماء لهذه الأرض، رغم ما تواجهه من محاولات التصحير والتلويث والحرق من قبل المستوطنين وقوات الاحتلال بهدف ترحيلهم عن الأراضي، فمعالم الموسم واضحة ومقدسة كما هي في مقاربة الكاتبة للصور الحية عنها، ففي بينما ينام العالم، هو العرف الأهم الذي يترقبه الفلاحون في كل عام، ويعود يحيى إليها مواجها الموت، بحثا عن أشجاره التي أصبحت جزءا من روحه، ويضحي بحياته من أجل الاطمئنان عليها، وهو الموسم الذي تتعرف عليه نهر في عودتها إلى وطن عائلتها الأول عن قرب وتحيي معالمه برفقة الأهل والأصدقاء: (على الرغم من أن الحجَّة أم محمد لم تتمكن من المشي جيدا، إلا أنها أصرت على حضور التقليد السنوي إلى حقل الزيتون، وقد سمحت لبلال أن يأخذها في سيارته إلى أعلى التلّة، حيث أمكنها المشي لمسافات قصيرة والانضمام إلى كبار السن من الأقارب والأصدقاء لتصنيف ثمار الزيتون، للخبز، وتحضير الطعام)، (كان بلال قد مدَّ أقمشة القنَّب مع وصولنا إلى التلّ. بدأنا مباشرة بالعمل، نشق الطريق بجد بين فروع الأشجار العتيقة وقد تسللت أشعة الشمس ببطئ بين أغصانها. علَّمتني آمنة الطريقة الصحيحة لقطف الزيتون: بعض الأولاد الكسالى يقومون بهزِّ فروع الأشجار وضرب أغصانها ليسقط الزيتون على الأرض؛ لكنه أمر خاطئ، يقول أبي أنه من الخطأ ضرب شجرة تعطينا البركات، إفعليها هكذا، قالت آمنة وهي تقطف زيتونة في كل مرَّة بسرعة ومهارة بارعة بينما تتساقط الثمار على الأقمشة الممتدة أسفل الأشجار. أصوات الثمار وهي تتساقط دفعة واحدة من الأشجار من حولنا صنعت موسيقى أشبه بالمطر المتساقط من السماء الزرقاء الصافية)[168]، كذلك في تفصيلها عن الموسم: (في كل مرَّة يتسلق خمسة أو ستة أشخاص كل شجرة، نقطف أبعد ما أمكننا. البعض، مثل آمنة صعدوا السلالم وملؤوا الدلاء بالزيتون من الأغصان المرتفعة. البعض الآخر جلسوا على الأقمشة لتصنيف حبَّات الزيتون في السلال حسب اللون ودرجة النضج. الأطفال الأصغر عمرا نقلوا السلال باتجاه الأكوام المصفوفة بعيدا لعصرها)[169]، وحتى بعد قيام القوات بحرق الأرض وإحالتها إلى رماد، يظهر في إسراع نهر وجمانة والأصدقاء لمعالجة المحاصيل والمحروقات ومسح

[168] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p216.

[169] المصدر نفسه، ص217.

الرماد عنها، وتضميد أشجار اللوز والزيتون بأقمشة بيضاء تعكس أشعة الشمس إلى الداخل وتحتفظ بالرطوبة في الجذع لإعادة الحياة إليها، تمرير الرعي ومقدار الماء المناسب، تفاصيل لم تغفل سوزان عن إدراجها[170]، هذا الوصف المكثف يعيد القارئ إلى معالم الترابط الحقيقي بروح الأرض والحب العميق المتجذر في العناية بتفاصيلها، وكما في الإعداد الدقيق لبلال لاستعادة المياه وتمريرها باتجاه أشجار اللوز والزيتون وإعادة زراعتها في شكل هندسي منتظم يضمن الاستغلال الأمثل لموارد المياه الشحيحة التي أدت إلى تناقص أعداد الأشجار بشكل ملحوظ، رغم حاجتها القليلة للماء.

كما سعت لإبراز إرث العادات الفلسطينية في توالِ الأحداث اليومية البسيطة، وفي تعامل أفراد العائلة والعادات والتقاليد من: تمسك بالعادات والعبادات الدينية اليومية، لعب الطاولة بين يحيى وصديقه العجوز سالم -كما يلقبه-، وتناول أطباق الطعام التقليدية، وحمل الزيتون الذي يتم حصاده إلى المعصرة في اليوم ذاته، حتى لا يفسد مذاق الزيت[171] والوصول لفكرة الانتماء بالهدف والمعنى، كما يظهر مع والدة نهر في حرصها في الحفاظ على تفاصيل الثقافة الفلسطينية وتقديمها بإتقان في تطريز الأثواب تطريزا فلسطينيا تراثيا، وتطويرها بنماذج أكثر حداثة، والحفاظ على هويته كإرث ورمز للتراث، إلى جانب فستان الزفاف الذي تقدمه لنهر والممتلئ بتفاصيل أوراق أشجار الزيتون المرتبطة بالهويَّة والتاريخ والذاكرة، وتشكل والدة نهر كذلك مصدرا للهوية ووصلا لارتباط الجيل الثالث من الأبناء والتعالق مع الوطن، تحمل إرث الماضي كالصندوق المخصص لصور من ماضي ما قبل النكبة، والهويَّات الفلسطينية، ومفتاح منزلها في حيفا، وذكرياته وقصصا تسردها لابنتها، من ماض الأمجاد قبل 2000 عام عن قريتهم في عين السلطان.

من ضمن الأساليب السردية التي لجأت الكاتبة لإعمالها هي: الفنتازيا. وهو مصطلح غربي النشأة مأخوذ عن الكلمة اليونانية "Fantasticos" وتعني كل ما له علاقة بالمخيلة. وتأخذ المعاجم الفرنسية مصطلح "Fantasticos" كمرادف للمُدهش تارة، وللخارق والخارج

---

[170] المصدر نفسه، ص223.

[171] سوزان أبوالهوى، **بينما ينام العالم**، ص21.

عن العادة ترة أخرى،أو كل ما يحمل صلة بالخيالي والوهمي والأسطورة[172]، ويسمى أيضا بالعجائبي، والبُعد العجائبي ويتم من خلاله الانتقال من المركز إلى المحيط، ومن الأليف إلى الغريب، ومن الواقعي إلى العجائبي، وعجائبية المكان تبدأ من غرائبيته، وعندما يكون هناك تفسير فوق طبيعي نكون في الغرائبي، والمتلقي يواجه عالما يختلف عن واقعه من حيث الدلالة، لذلك يراه عالما غير طبيعي من حيث شخوصه وأحداثه وحركته، ورغم ذلك يقبله عندما نلزم بقبول ما هو فوق طبيعي نكون في العجائبي[173]، تتجسد الفنتازيا حاضرة في العملين: "الأزرق بين السماء والماء" و"ضد عالم بلا حب"، فالأرملة أم ممدوح المتهمة غالبا بالجنون، والتي شكلت حاجز خوف لدى أهالي قرية بيت دراس لارتباطها بالجني "سليمان" الذي يتلبسها في العديد من الأحيان، تعمل على توظيفه لحماية أهالي قرية بيت دراس، ومهاجمة جنود الاحتلال المعتدين، فيظهر أمرا خارقا للعادة، تستحضره نظمية وأهالي القرية، كما يحضر خالد مع الجيل الثاني في العمل كطيف وصديق خيالي لابنتها مريم، وهو الحفيد الذي لم يقدم إلى العائلة بعد، يتصل بمريم قبل ولادته ويتجلى لمريم ليعلمها القراءة والكتابة عند ضفاف النهر، ويترائى لنور في أحلامها لتبقى على ارتباط خفي بجذورها الفلسطينية وتعثر عليه في رحلتها الأخيرة إلى غزة، وأثناء دخوله في متلازمة المنحبس، يغادر إلى عالم الأزرق، متنقلا بين الماضي والحاضر، الذي يخلوا من التاريخ والحرب وينعدم فيه الزمن ويعود إليه الأحباب بعد وفاتهم، فهي المنطقة الوحيدة التي يُسمح له فيها بالعبور وجمع الشتات القائم بين الماضي والحاضر، بعد حرمانه من الوصول إلى علاج لجسده، في واقع الحياة الذي يطوقه قسوة الحصار في غزة الفضاء الذي يخلو من التحريم والتجريم وعنصرية وتنكيل الآخر الصهيوني، فيأتي انتقال خالد عبر الأزمنة من مكانه، وأثناء دخوله في نوبة متلازمة المنحبس وانضمامه الى الجني سليمان في الأزرق الذي يخلو من الزمان.

مريم الشخصية الثانوية التي تُقتل وهي طِفلةً على يد جنود الصهيونية، تحمل قدرات تفردت بها من بين العائلة: من وجود صديق خيالي، ورؤية هالات الناس ومعرفة نواياهم،

---

[172] انظر: نورا وريا عزالدين، **الفنتازيا في رواية استراحة مفيستو لبرهان شاوي**، (العراق: جامعة صلاح الدين، كلية التربية، مقال منشور في مجلة "تسليم سردي"، المجلد الخامس، العددان 9-10، 2019م)، ص543.

[173] انظر: منال العيسى، **الذات المروية على لسان الأنا**، ص203

وامتلاك عينيين متضاربتيّ اللون، وبعد مقتلها تترائى مريم لاختها نظمية وتمضي معها كدليل، ودرع يحميها من المخاطر عبر الطريق العودة إلى غزة وخلال أيام الحرب الستة أيام النكسة حين يعتقل زوج نظمية وبعض أبنائهم الكبار تندفع نظمية لمهاجمة الجندي حين تمنعها قوة خفية عن السير وتمنعها عن السير" لم يكن لدى نظمية، وقد صارت في الأربعين شك في أن الجندي كان سيُرديها قتيلة لا محالة لولا تدخل مريم لإنقاذها".

على الرغم من تمكنها التام في اللغة الانجليزية إلا أن سوزان احفظت بمعجم خاص بالمصطلحات العربية الفصيحة واللهجة الفلسطينية الدارجة التي لا تزال تتقنها، وتبرز هويتها العربية الأصيلة فيلحظ من خلال النسخة الأصلية للأعمال إبقاءها للألفاظ من اللهجة العربية العامة اللتي يصعب إحالتها إلى المعجم الأجنبي كما يلحظ في العمل الأخير لها ضد عالم غير محب، والذي يحمل فهرسا لترجمة للألفاظ العربية، مُدرجة في سياق وشرح أجنبي، ما يقارب الستين مصطلحا، والتي قد يصعب فهمها لدى الجمهور والقارئ الغربي للعمل[174]، وتأتي صياغة العنوان للعمل الأخير اقتباسا يخدم النص السردي بمضمونه، ضمنته الكاتبة مقتطفا من رسالة لجيمس بالدوين المناضل الأمريكي من أصل أفريقي ضد العنصرية الموجهة لأصحاب البشرة السوداء، لابن أخيه وضرورة تغلبه على عنصرية المجتمع الأبيض ضد السود والنجاة من عالم غير مُحب، "أن تصبح أقوى ضد عالم بلا حب"[175] والهدف الأساسي الذي أطلقته الكاتبة من خلال نضال نهر ضد العنصرية الموجهة للمهمشين واللاجئين، وأهمية النضال الفكري الفلسفي "أن تبقى ملتزما هو أن تبقى في خطر" (وهناك كُنت يا بني، أن تتغلب بإصرار، لتُحَبَّ أكثر، دفعة واحدة وللأبد، أن تصبح أقوى ضد عالم غير مُحب)[176]، النجاة بالقناعة والفكرة الذاتية والعمل، بحب الأسلاف وتاريخ نضالهم، ومواجهة العالم بالحب والتحرر والصمود أمام وجه الكراهية والعنصرية، أن لا يسمح بوصول قناعة التحقير والتهميش إلى ذاته (لا يمكن أن يتم تدميرك إلا في حال تصديقك لما يطلق عليه العالم

[174] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p: 9-19.

[175] المصدر نفسه، ص244.

[176] المصدر نفسه، ص244.

الأبيض العنصريّ بالزنجيّ)[177]، وهنا تبرز أهمية العودة إلى النضال الفكري في مواجهة الفكر الاستعماري وللحفاظ على الروح المحبَّة للخير دون أحكام مسبقة، محبة الأخلاق والمبادئ النابعة عنها، والصمود في وجه قسوة العالم وعدم السماح للذات بالتحول إلى قسوة مماثلة عند مواجهة العنف والحصار والشر، بل مجاوزتها بالقدرة على تقديم التسامح والعطف تجاه العالقين وغير القادرين على التحرر من إسار الفكر العنصريّ القاتم (يجب أن تتقبلهم، أن تتقبلهم بمحبة. حيث لم يتمكن هؤلاء الأفراد من العثور على الأمل، وهم تحت تأثير في أسر ماضٍ غير قادرين على فهمه، وحتى يفهموه لن يتمكنوا من التحرر منه. لقد اضطروا إلى الإيمان لسنوات، ولأسباب لا تعد، أن السود أدنى مرتبة من البيض، العديد منهم يعلم، لكن كما يتضح فالصعوبة تكمن في العمل بما يعلمه المرء، أن تعمل هو أن تلتزم، وأن تلتزم معناه أن تكون في خطر)[178]، لقد تعدد أمكنة الشتات والاغتراب التي أبقت الذات الفلسطينية المولودة في الشتات متذبذبة المشاعر، غير قادرة على الإستقرار، وهو ما انعكس من خلفية سوزان أبوالهوى وليدة الاغتراب إلى شخصياتها الروائية، والتي واجهت اهتزازا في القيمة الحقيقية لثيمة ومعنى الوطن، والصورة الحقيقية عنه، وعن معناه المتجذر الذي أبقى هذه الشخصيات على الهامش. كونت شخصيات مشوَّهة غير قادرة على الانتماء الحقيقي منفصلة عن أي مكان، مشتَّتة كالواقع الذي تلبسها، حيث تبقى هويَّتها في الأوطان الأولى التي تعالقت معها بحب فطري مُقابلةً بالرفض والتشكيك أو التهميش الغالب، في حين يبقى الوطن المغيَّب عنها ذكرى حقيقية تختص بماضي الآباء والعائلة، وتبقى هذه الشخصيات حاضرة في المنتصف في اللامكان. وهو ما يتجلى أيضا بشكل واضح من خلال الشخصيات وليدة الشتات في أرض الاغتراب، كما يتمثَّل في شخصية نور المولودة في أميركا، كما يسرد عنها حفيد العائلة خالد: "لقد كان القَدرُ قاسيا عندما أخَذ واحدةً منا ونسجَ مصيرها من الوِحدة والغُربة والهَجر والشوق ثم أعادها إلى بيتها، لكن غَريبة"[179]، "كانت كنَبتةٍ هجينة لم تضرب جذورها في أيِّ أرض، عواطفها فجّة وضياعُها أكيد"، وما يتضح مع شخصية نهر

---

[177] المصدر نفسه، ص244.

[178] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World*, p: 244, 245.

[179] سوزان أبوالهوى، **الأزرق بين السماء والماء**، المصدر نفسه، ص202.

المولودة في الكويت والمتعثرة في عبور المنافي حتى وصولها إلى فلسطين ويبقى كذلك مشوها غير قادر على الاكتمال، رغم الاندماج والعثور على الرفقة والوطن، لتحكي نهر عن مشاعر غربتها: (تواصل العادات والتقاليد ساعد في تكوين جسر يصل المسافة بين الاقتلاع والوطن الذي كان حقا لولادتي، لكني أعلم الآن أني لن أكون قادرة على الاكتمال في مكان واحد. هذا ما كان يعنيه أن تكون منفيا، محروما من إرثك، مُبعدا بالحدود المغلقة، غير مكتمل في أي مكان. والبقاء في مكان واحد كان أشبه بخلع عضو عن آخر)[180].

مضامين فكرية أشارت إليها الكاتبة:

من ذلك فالفكرة الأساسية التي سعت الكاتبة لتسليط الضوء عليها، هي صياغة فكر تحرري يصوغ المعنى، بتحقيق التحرر التام للذات أولا، ولمواجهة الفكر الاستعماري العنصري الذي يسلب الإنسان كرامته ومكانته ويهمشه في منزلة أو عرق أدنى ثانيا، فتحرير الإنسان من أسر الثقافة الاستعمارية وانعتاقه من التبعية جزء من توجهات السرد التحرري، كفعل مقاوم، كما تتبدى الكتابة في بعض المستويات الخاصة نمطا، أو شكلا من العلاج الذاتي، للتخلص من آثار الاستعمار، ولكن في الحالة الفلسطينية فإن التذكر والكتابة يعدان شكلا من أشكال مقاومة التلاشي والذوبان، لهذا فعلى المرويات الفلسطينية استعادة هذه الأحداث بين الحين والآخر وعدم تجاوزها إلى الإغفال، فالتوقف عن التذكر، والاستكانة لمجريات التاريخ يؤدي إلى بناء جدار أو عزل للمأساة الفلسطينية وإقلالا من حضورها وحجم تأثيرها[181]، فقد برز منذ نهاية القرن التاسع عشر ودعت إليه الأحزاب القومية وأحزاب الاستقلال في أرجاء العالم الثالث لطرحها كثقافة حداثية متجددة، تأتي بمثابة رد قوي على سيطرة الغرب الثقافية والسياسية حيث التزمت والعديد من الأحزاب الإفريقية والآسيوية والعربية لا بتحقيق الاستقلال عبر الوعي السياسي وحسب بل بتلبية الحاجة إلى معنى جديد ومتجدد ومعمق للهوية الثقافية المستقلة، والتي حققت العديد منها مكانة في الثقافة العالمية لتلك الهويَّات الثقافية الجديدة التي قُمعَت وأقصيت في السابق. لكن مع الحذر في التمييز بين التحرر من

[180] Abulhawa, Susan. *Against the Loveless World: A Novel*. p214.

[181] انظر: رامي أبو شهاب، **في الممر الأخير: سرديّة الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي**، ص103.

جهة ومن الوقوع في فخ العنصرية المعكوسة أو التحول إلى الفكر المحلي أو الفكر الانعزالي العنيف، فما فرضته الإمبريالية على من سيطرت عليهم من تجارب تاريخية حملت فكر الإخضاع والإقصاء، لذا كان القصد من المقاومة الوطنية وإزالة الاستعمار كتجربة تاريخية أن تحقق التحرر والتئام الشمل.[182]

- **التركيز على أهمية العملية التعليمية للنهوض بالانسان وكطريق لتحرره الفكري والذاتي**

تبرز أهمية المثقف الفلسطيني كمقاوم بتقديمه لأهمية العملية التعليمية في التحرير وتشكيل وعي مقاوم، ويظهر من خلال النماذج المقدمة في الدراسة ومن خلال الأعمال الروائية لسوزان أبوالهوى، فتظهر أهمية التعلم كقيمة للحصول على مستقبل وخلق واقع أفضل، بالتزام الشخصيات بالبحث عنه وايجاده في أصعب الظروف وتقديمه رغم الفقر والحرب للأبناء، والبحث عنه كقيمة حقيقية تسهم في تغيير واقع الإنسان وصنع غد أفضل والتحرر من الحرب الاستعمارية والفكرية، والتحرر من الاستعمار المهيمن على المجال العلمي الذي يسعى لإضعاف الجانب التعليمي والثقافي الفلسطيني كذلك محاولة طمس الحقائق التاريخية والعلمية وتغييب فكرة التحرر بإبعادها عن المناهج ونطاقها لإخراج جيل يسهل بإضعافه علميا استعماره وإبعاده عن التفكير الناقد، الانتاج والنجاح والتقدم في مختلف الجوانب العلمية، لما له من أهمية في مقاومة الغزو بأنواعه، ولا يكتفي بذلك بل تسعى إلى زرع ثقافة ضحلة وحقنها بسموم الثقافة الهجينة والتفاهة التي تهدف إلى إفقادهم الثقة بقيمة ثقافتهم الأصيلة ولبحث عن آفاقها وجذورها، وهي القيمة التي ركز عليها غسان كنفاني كضرورة لمواجهة الغزو الثقافي الذي بات مجتاحا في الأراضي الفلسطينية، ويشكل تهديدا حقيقيا في مواجهة الغزو الصهيوني المضاد وسياسة التجهيل المتعمد كسِمة بارزة ضمن نطاق الاضطهاد الثقافي الصهيوني لعرب الأرض المحتلة، حيث تبرز مسألة التعليم وانخفاض مستواه في الوسط العربي

[182] انظر: إدوارد سعيد، **تأملات حول المنفى ومقالات أخرى**، ترجمة: ثائر ديب، (بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، ط2، 2007م)، ص33-34.

كموضوع أساسي، إضافة إلى ما يلاقيه الفلسطينيون من فصل واعتقال تعسفي للمعلمين الأكفاء وتعيين مُعلمين أنهوا المدارس الابتدائية فقط أماكنهم، وهي خطة تجهيل متعمد تهدف لإرساء استعمار من نوع قمعيّ اقتلاعي، حيث يشكِّل المعلمون القُدامى في الواقع جسرا بالغ الأهميَّة في الحياة الثقافية العربية في فلسطين المحتلة، فهم ضمانة استمرار ذلك التيار من الوعي العربي والاطلاع على مناهج التعليم قبل الاحتلال الاسرائيلي، وحيث يضطر العديد من الأطفال والشباب نظرا لصعوبة الأوضاع المعيشية والتعليمية إلى التخلي عن آمالهم الدراسية[183]. أشارت لذلك سوزان أبو الهوى بتقديم شخصية حسن الذي يعي في عمر مبكرة أهمية العلم عن طريق عائلة صديقه آري، ويصر على تعليم أبناءه يوسف وأمال بعد حرمانه منه، وتمسك الأبناء به مع وعي الأهمية، آمال التي تستمر في التمسك بالتعليم وتواصل الحصول على مراكز متقدمة، نور التي تسعى في سبيل إرضاء جدها ممدوح الذي يُلقنها في عمر صغير حب القراءة والكتابة، فتحرز مراكز متقدمة، وجهاد الذي يحصل على مركز متقدم ضمن الطلبة المتفوقين إلا أنه يُقصى نتيجة للتمييز العنصري، بلال الذي يشغل أوقاته بالقراءة والتخطيط يتفوقون على صعيد الخارج والداخل، فعلى الرغم من التفوق الذي تملكه الشخصيات إلا أنها تُهدر في أرض الاغتراب وعلى صعيد الداخل. تتعثر بالحياة المطاردة المستمرة في ظل وجود الاحتلال.

- **أهمية القيمة الحقيقية للمبادئ وحياة الإنسان على هيمنة قيمة المادة**

في مضامين أخرى أبعد من ذلك، تتعمق سوزان في الإحاطة بعدة مجتمعات خبرتها وخبرت العديد من دوافع النفس الإنسانية بفعل مجالها الوظيفي، وطرحها لأضرار دفع المجتمعات الرأسمالية المادية باللاجئ والفقير إلى مرتبة وهوامش أدنى، تحط من قيمته الحقيقية كإنسان ومن كرامته، إن لم يقدم مصلحةً في المقابل، فالوحشية التي يعامل بها اللاجئ في وطن غير وطنه، تقذفه إلى حياة محدودة تستكثر عليه تحصيل أبسط حقوقه من أمن معيشي أو ثقافي أو غذائي، أو السعي في فرص الحياة الكريمة.

---

[183] انظر: غسان كنفاني، **الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968**، ص19-23.

الخاتمة

وقد توسع الخطاب الفلسطيني في دراسة المجتمع وأحواله، من بعد زمان النكبة باعتبارها لحظة مفصلية في تاريخ القضية الفلسطينية، والفعل الممنهج في محاولة إلغاء وجوده، فلا جرم أن يعدها العديد من الكتاب النقطة أو الحدث الأساسي لكونها وعيا تاريخيا، وخرجت منها المفارقة التي تتمثل بأن وعي الوجود قد انبثق مع تهديد الوجود[184]. وكانت البداية العلنية لظلم انتزاع الجغرافيا الفلسطينية عن أصحابها، وتقديمها لكيان الاحتلال المارق ليستولي ويضطهد ويعذب ويذيق الويل لأصحابها الأصليين حتى يومنا الحاضر.

إلا أن روح المقاومة ظلت حاضرة شامخة في نفوس لا تفارق موطنها، وظلت تنموا بوعي تجاه الظلم القائم يؤرق المثقف الفلسطيني حتى تجلت واضحة في نتاج الأدب الفلسطيني بشكل عام وفي النتاج المقاوم بشكل خاص، وقد سعى كتاب السردية الفلسطينية من خلال أعمالهم لتدوين رسالتهم للتاريخ والأحرار من الشعوب، فأنتجوا من مآسيهم الخاصة أعمال الأدب الفلسطيني وشخصياته المقاومة التي حظيت بالصدارة والفخر في العديد من الأعمال، ليسردوا للقارئ تفاصيل النضال الحُر وتاريخ هذه البطولات، وإعادة تصويرها كحِقب زمنية تمت محاولة تغييبها وتزييف وإخفاء حقائقها، ومواجهة للرواية الصهيونية ، والأهم وقوفا عند تاريخ المقاومة الفلسطينية بتحديتها وثباتها رغم الصعاب واستمرار نضالها المتواصل بتعاقب الأجيال وحملها بإخلاص لأمانة العمل المقاوم عن أبائها، والتحامها حول الشخصيات المرجعية الكبرى في العمل المقاوم، ممثلة الإرث والذاكرة التي تجلت في الشخصيات المقاومة التي أوجدها الكتّاب.

وقد أضافت الأعمال السردية المطروحة في الدراسة امتيازا ثقافيا أدبيا إلى ساحة الأدب الفلسطيني، والأدب الفلسطيني المقاوِم، بإعادة إحياء الموروث التاريخي والثقافي للزمان والمكان وما حفلت به من شخصيات مرجعية ذات أثر بالغ الأهمية في الأدب الفلسطيني المقاوم والمسلح، بأعمال سردية متماسكة البناء، قوية الأثر، فكانت أقرب إلى المدونة التاريخية بإعادة إحياء تلك الأعلام والأسماء ووضعها سياقها الزماني والمكاني المناسب.

---

[184] انظر: رامي أبوشهاب، **النكبة في رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله: المتخيل والوعي التاريخي**، ص258.

النتائج:

انطلاقا مما خلصت إليه الخاتمة من تصور عام لطبيعة الذات المقاومة في أدب الاغتراب في الرواية الفلسطينية الحديثة، ونصل إلى النتائج الآتية، كخلاصة للتحليل النصي والفني للنماذج السردية المدروسة:

- برزت الذات الفلسطينية في الرواية الفلسطينية الحديثة رغم المآسي التي أحاطت بواقعها كذات فاعلة في ميدان المقاومة، اتخذت من الذاكرة، والتشبث بالمكان، والحفاظ على الهويَّة أدوات في مواجهة الاغتراب والاقتلاع، ليتجلى ذلك بوضوح في نماذج ما قبل النكبة وما بعدها.
- تجاوز الاغتراب في الرواية الفلسطينية الحديثة، الاغتراب المكاني ليشمل الاغتراب النفسي والوجودي حيث تعاني الشخصيات من تشظي العلاقة مع الزمان والمكان والذات، غير أن هذا الاغتراب يتحول في كثير من النصوص إلى دافع للمقاومة وإعادة بناء الهويَّة.
- أعاد السرد الفلسطيني المقاوم في مرحلة ما قبل النكبة إحياء تاريخ الكفاح الشعبي والمقاومة المسلحة وأهم مراحله وشخصياته المرجعية المرتبطة بالأرض والثورة، وتمثلت في الثورة الفلسطينية الكُبرى وأهم قاداتها كالشيخ الشهيد عزالدين القسام، والقائد عبدالقادر الحسيني، المرحلة التي أوشكت فيها الذات الفلسطينية الفردية والجمعية من تحقيق نصر مطلق، فتكرر اعتماد كُتاب الأدب المقاوم على استحضاره كما برز في "زمن الخيول البيضاء" و"أنين القصب" والأهمية التي شكلها حضوره في تاريخ العمل والكتابة المقاومة.
- مثلت الذات المقاومة في سرديات ما قبل النكبة كزمن الخيول البيضاء وأنين القصب صورا لصمود الفرد والجماعة أمام الاحتلال ومحاولات التهجير القسري إلى جانب التركيز على البطولة الثورية والمقاومة المباشرة، أما في سرديات ما بعد

حرب النكسة فقد تمثلت المقاومة بصورة أكثر تعقيدا ركزت على الصمود النفسي والاجتماعي في ظل الغُربة والاغتراب.

- رسخت الكتابة والسردية المقاومة قناعات في ذوات الكُتَّاب، وجماهير قراءهم بأهمية الثبات على العقيدة المقاومة لظلم الاحتلال، ووحدت الجماهير في دعم الحراك الفلسطيني المقاوم.
- حظيت الأعمال المطروحة للدراسة بصدارة عالمية لدى جماهير القراء والمثقفين، فشكلت في وعيهم أداة تفنيد لسردية الآخر الصهيوني، وحفظا لأحقيتها في تراثها وأرضها الفلسطينية التاريخية.
- أسقط العديد من الكتاب قصص حياتهم الذاتية، وقصصا عن شهود أحياء، في إنتاج أعمالهم وسيرهم الذاتية، وكشفت عن تفاصيل المراحل التاريخية والسياسة وتأثيرها المرتبط بحياة الذات الفلسطينية والذات المقاومة.
- حققت الأعمال المقدمة في الدراسة عدة أبعاد ومنها البعد الإنساني بطرحها لهموم وآلام المجتمع، وطرح بعض منها صورة الآخر في حياد وتفصيل تاريخي.
- كباقي الكتاب اعتمدت سوزان أبو الهوى في إنتاج أعمالها على تقديم المواضيع المرتبطة بمأساة شعبها والعمل المقاوم، والتي كانت حاضرة في العديد منها، كحضورها بعد أحداث مجزرة جنين في المخيم، قبل صياغتها لأحداث "بينما ينام العالم"، متصلة بحياتها الشخصية وآلآمها الذاتية، فقدمت نماذج متقدمة في تجسيد الذات المقاومة في أدب الاغتراب، حيث تداخلت الذاكرة الفردية بالتاريخ الجمعي، وأعادت بناء الهويّة الفلسطينية من خلال سرد إنساني عابر للحدود، يجمع بين الألم والمقاومة والحبّ بوصفه فعل بقاء.
- تعددت المواضيع التي اهتمت الكاتبة بطرحها من خلال أعمالها الروائية ونقلها للقارئ، برز من خلالها حسها الإنساني المرهف، بانتصارها للحراك الفلسطيني المقاوم، وتقديم أصوات المظلومين والمهمشين، واللاجئين وهمومهم، والنساء اللاتي تعرضن للاضطهاد والاستغلال.

- سعت سوزان أبوالهوى ومن خلال أعمالها لإعطاء المرأة الفلسطينية حقها في الظهور وانخراطها في العمل المقاوم، وقد برز هذا الصوت واضحا في الأعمال السردية عند سحر خليفة، وهو حاضر في العمل السردي المقاوم، حيث شاركت الرجال في التصدي لعدوان الاحتلال، وحفرت الأنفاق وقدمت الدعم والمساندة والرعاية الكاملة للمقاومين في العديد من الأحيان، إلى جانب حماية العائلة والأبناء، وتقديمهم شهداء في سبيل الله وتحرير الوطن، وكانت جزءا أساسيا في دعم المجتمع في حياتها اليومية، إلى جانب تفوقها في الجانب العلمي، وعلى الرغم من عدم بروزه بشكل جلي في الأعمال الفلسطينية المقاومة إلا أنه بات في تقدم، لدعم أصوات النساء وتسليط الضوء على معاناتهن بشكل خاص والتحديات التي وضعها الاحتلال أمامهن وأمام اللاجئات واستهدافهن بالإيذاء الجسدي والنفسي رغبة في التنكيل بالمجتمع وكسر إرادته وإذلاله، إلى جانب التحديات التي واجهنها في الاغتراب والمنفى.
- من خلال أعمال الكاتبة سوزان أبو الهوى برزت التحديات التي واجهتها الذات المقاومة أمام الظلم السياسي والاجتماعي، وقد تجاوزت حدود المقاومة الوطنية لتشمل مقاومة الواقع النفسي والشخصي.
- أكسب الكاتبة سكنها لأعوام طويلة في الغرب نظرة متسعة الأفق في فهم طبيعة مجتمعه، وضرورة إيجاد صوت مدافع عن القضية والحراك المقاوم بلغته، وللأجيال الفلسطينية المولودة في دول الشتات، إلى جانب النظرة الحيادية والإنسانية تمتعت بها الكاتبة والتي برزت من خلال أعمالها، والتوظيف الواعي للزمان والمكان التاريخيين، إلى جانب تعدد الأصوات السردية، وبناء شخصيات تحمل أبعادا رمزية وإنسانية بما يخدم الرؤية السردية القائمة على استعادة الذاكرة ومقاومة النسيان.
- تضمنت أعمال الكاتبة نوعا من الجرأة في الطرح، والمبالغة في وصف العلاقات في السياقات الحميمة، وهو ما يشكل تعارضا مع ما عرفت به طبيعة البيئة الفلسطينية بكونها محافظة.

- تمثل نماذج المقاومة المسلحة إلى جانب الكتابات الأدبية المقاومة خط مساندة في تحقيق حلم العودة الفلسطيني، ومواجهة فكرية داعمة لحق استردادا الأراضي الفلسطينية المحتلة.
- لقد أعادت الذات الفلسطينية، رغم الاغتراب والانكسار الذي لاحقها في العديد من الأحيان تشكيل مقاومتها سرديا، وانتقلت من الفعل الجماعي إلى الوعي، ومن المواجهة المباشرة إلى مقاومة اندثار الذاكرة والهويَّة، ومواجهة السردية الصهيونية.

في الختام فإن التجربة البحثية تبقى نتاج جهد بشري متواضع، لا يدَّعي الإحاطة الكاملة بالموضوع، وقد يسهو معها عن الأخطاء، في محاولة علمية قابلة للتطوير والبناء، وفتح آفاق لدراسة مستقبلية أكثر عمقا في هذا المجال، وتقوى في غدها باستمرار التعلُّم الذاتي وطرق أبواب المعرفة، فإن أحسنت فمن الله، وإن قصرت فمن نفسي والشيطان، والحمد لله رب العالمين..

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الكتب

القرآن الكريم.

ابن منظور. (1416هـ/1995م). **لسان العرب**. (ط1). بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي.

ابن منظور. (1423هـ/2003م). **لسان العرب**. القاهرة: دار الحديث.

أبو أصبع، صالح خليل. (2001م). **الرواية الفلسطينية والمنفى: الجزيرة العربية مكانا، دراسة في التجربة الروائية الفلسطينية**. (ط1). الإمارات العربية المتحدة: إتحاد كتاب وأدباء الإمارات.

أبو الهوى، سوزان. (2012م). **بينما ينام العالم**. (ط1). ترجمة: سامية شنان تميمي، قطر: دار بلومزبري- مؤسسة قطر للنشر.

أبو سته، سلمان حسين. (2011م). **أطلس فلسطين 1917-1966**. (ط1). لندن: هيئة أرض فلسطين.

أبو شريفة عبد القادر؛ وحسين لافي قزق. (2016م). **مدخل إلى تحليل النص الأدبي**. (ط5). الأردن: دار الفكر ناشرون وموزعون.

أبو شريفة، عبدالقادر؛ حسين لافي قزق. (2016م). **مدخل إلى تحليل النص الأدبي**. (ط5). الأردن: دار الفكر ناشرون وموزعون.

أبو شهاب، رامي. (2017م). **في الممر الأخير: سردية الشتات الفلسطيني منظور ما بعد كولونيالي**. (ط1). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

أبو منّة، بشير. (2020م). **الرواية الفلسطينية من سنة 1948 حتى الحاضر**. (ط1). بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

أبوالهوى، سوزان. (2018م). **الأزرق بين السماء والماء**. (ط1). ترجمة: محمد عصفور، الدوحة: دار جامعة حمد بن خليفة للنشر.

الأسطة، عادل. (1429هـ/2008م). **أدب المقاومة من تفاؤل البدايات إلى خيبة النهايات**. (ط2). دمشق: مؤسسة فلسطين للثقافة.

باشلار، غاستون. (1984م). **جماليات المكان**. (ط2). ترجمة: غالب هلسا، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

بحراوي، حسن. (1990م). **بُنية الشكل الروائي: الفضاء–الزمن– الشخصية**. (ط1). بيروت: المركز الثقافي العربي.

بروفوست، جاري. (2011م). **شُركاء الحبكة**، مقال منشور في كتاب: **تقنيات الكتابة في فَنِّ القصَّة والرِواية**، لمجموعة من المؤلفين. (ط3). ترجمة: رعد عبدالجليل جواد، سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

بو عزة، محمد. (2010م). **تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم**. (ط1). بيروت: دار العربية للعلوم ناشرون.

تاجا، وحيد. (د.ت). **الرواية الفلسطينية حوارات نقدية**. لقاء مع الكاتب حسن حميد، (د.ط). دار الجندي للنشر والتوزيع.

تاجا، وحيد. (د.ت). **الرواية الفلسطينية: حوارات نقدية**. حوار مع الكاتبة سحر خليفة، (د.ط). دار الجندي للنشر والتوزيع.

ترّوش، حسين. (2018م). **تمفصلات الذات وعلاقتها بالآخر في خطاب محمود درويش الشعري**. (ط1). الأردن: مركز الكتاب الأكاديمي.

الجرجاني، علي بن محمد السيد الشريف. (د.ت). **معجم التعريفات، قاموس لمصطلحات وتعريفات علم الفقه واللغة والفلسفة والمنطق والتصوف والنحو والصرف والعروض والبلاغة**. (د.ط). تحقيق: محمد صديق المنشاوي، القاهرة: دار الفضيلة.

حميد، حسن. (2013م). **أنين القصب**. (ط1). دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة.

الخالدي، وليد. (1987م). **قبل الشتات: التاريخ المصور للشعب الفلسطيني 1876–1948**. (ط1). بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

الخالدي، وليد. (2001م). **كي لا ننسى: قُرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة 1948 وأسماء شُهدائها**، (ط3). بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

الخطيب، حسام. (2013م). **النقد الأدبي في الوطن الفلسطيني في الشتات**. (ط2). فلسطين: مركز الأبحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية.

خلة، كامل محمود. (1982م). **فلسطين والإنتداب البريطاني 1922–1939**. (ط2). ليبيا: طرابلس، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان.

خليفة، سحر. (2013م). **الصبَّار**. (ط3). بيروت: دار الآداب.

الدباغ، مصطفى مراد. (1991م). **بلادنا فلسطين**. (د.ط). كفرقرع: دار الهدى.

دراج مقدمة فيصل لرواية. (2013م). **أنين القصب** لحسن حميد. (ط1). دمشق: وزارة الثقافة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب.

ريكور، بول. (2005م). **الذات عينها كآخر**. (ط1). ترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية.

سعيد، إدوارد. (1432هـ/2011م). **خيانة المثقفين النصوص الأخيرة**. (د.ط). ترجمة: أسعد الحسين، دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.

سعيد، إدوارد. (1995م). **أوسلو2: سلام بلا أرض**. (د.ط). القاهرة: دار المستقبل العربي.

سعيد، إدوارد. (1998م). **القلم والسيف، حوارات مع دافيد بارساميان**. (ط1). ترجمة: توفيق الأسدي، دمشق: دار كنعان للنشر.

سعيد، إدوارد. (2007م). **الثقافة والمقاومة**. (ط1). حوار: ديفيد بارساميان، ترجمة: علاء الدين أبو زينة، بيروت: دار الآداب.

سعيد، إدوارد. (2007م). **تأملات حول المنفى ومقالات أخرى**. (ط2). ترجمة: ثائر أديب، بيروت: دار الآداب.

سعيد، إدوارد. (د.ت). **صور المثقف، محاضرات ريث سنة 1993م**. (د.ط). ترجمة: غسَّان غصن، بيروت: دار النهار للنشر.

سعيد، مقدمة إدوارد لرواية مريد البرغوثي. (2011م). **رأيت رام الله**. (ط4). بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

السنوار، يحيى. (2004م). **الشوك والقرنفل**. (د.ط). العمل الروائي منشور بصيغة مجلد pdf، د.م: د.ن.

السوافيري، كامل. (د.ت). **الأدب العربي المعاصر في فلسطين من سن 1860-1960م**. (د.ط). القاهرة: دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية.

سويدان، طارق. (د.ت). **فلسطين التاريخ المصور**. (د.ط). الكويت: شركة الإبداع الفكري.

السيوفي، مصطفى. (2008م). **تاريخ الأدب العربي الحديث**. (ط1). القاهرة: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية.

الشامي، حسان رشاد. (1998م). **المرأة في الرواية الفلسطينية 1965-1985**. دراسة منشورة بصيغة مجلد Word، (د.ط). دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

الشامي، رشاد عبدالله. (1986م). **الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، سلسلة شهرية ثقافية، العدد 102.

الشحّات، محمد. (2006م). **سرديات المنفى: الرواية العربية بعد عام 1967م**. (ط1). عمّان: دار أزمنة للنشر والتوزيع.

شريعتي، علي. (1425هـ/2005م). **بناء الذات الثورية**. (ط1). ترجمة: إبراهيم دسوقي شتا، مراجعة: حسين علي شعيب، بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم، مجموعة الآثار الكاملة 12.

شكري، غالي. (1970م). **أدب المقاومة**. (د.ط). القاهرة: دار المعارف.

صايغ، روزماري. (2009م). **تجسيدات الهوية لدى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين رؤية جديدة للمحلي والوطني**. (ط1). فلسطين: بيت لحم، مركز بديل، المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين.

طودوروف، تزفيطان. (2007م). **الأدب في خطر**. (ط1). المغرب: دار توبقال للنشر.

عبدالغني، مصطفى. (2003م). **الغيم والمطر: الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة**، (د.ط). القاهرة: دار جهاد للنشر والتوزيع.

عبدالكريم، إبراهيم. (2001م). **تهويد الأرض وأسماء المعالم الفلسطينية دراسة ودليل**. دمشق: منشورات اتحاد الكتّاب العرب.

العبدالله، يحيى. (2005م). **الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلّون الروائية**. (ط1). بيروت: دار الفارس للنشر والتوزيع.

عصفور، جابر. (2015م). **المقاومة بالكتابة**. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.

العقاد، عباس محمود. (د.ت). **الله، كتاب في نشأة العقيدة الإلهية**. (ط9). القاهرة: دار المعارف.

علوش، سعيد. (1985م). **معجم المصطلحات الأدبية المُعاصرة**. (ط1). بيروت: دار الكتاب اللبناني، الدار.

علي، لونيس. (2018م). **إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية – كيف نؤسس للوعي النقدي– دراسة نقدية**. (ط1). الجزائر: دار ميم للنشر.

العيسى، بثينة. (2018م). **الحقيقة والكتابة**. (ط2). الكويت: منشورات تكوين، توزيع: الدار العربية للعلوم ناشرون.

الغَورِي، سيّد عبدالماجد. (1428هـ/2007م). **ديوان محمد إقبال**. (ط3). بيروت: دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع.

الفارسي، سعيدة خاطر. (1424هـ/2003م). **سعاد الصباح بين الاستلاب والاغتراب**. (ط1). القاهرة: مكتبة الآداب.

الفارسي، سعيدة خاطر. (1424هـ/2003م). **سوسنة المنافي حمدة خميس وتحولات الاغتراب السياسي**. (ط1). القاهرة: مكتبة الآداب.

الفارسي، سعيدة خاطر. (2004م). **"على شفا حفرة" دراسة في الاغتراب الصوفي لدى زكية مال الله**. (ط1). القاهرة: مركز الحضارة العربية.

فانون، فرانز. (2015م). **معذبو الأرض**. (ط2). القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (د.ت). **كتاب العين**. (د.ط). تحقيق: هادي حسن حمودي، صف الكمبيوتر والإخراج الفني والطباعة.

فنكلستين، نورمن. (2008م). **إسرائيل، فلسطين، لبنان: رحلة أمريكي يهودي بحثا عن الحقيقة والعدالة**. ترجمة: سماح إدريس. (ط1). بيروت، دار الآداب.

القصيري، فيصل صالح. (2011م). **جماليات النصّ الأدبي أدوات التشكيل وسيمياء التعبير**. (ط1). سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

قطب، محمد. (1989م). **جاهلية القرن العشرين**. (د.ط). القاهرة: دار الشروق.

كامل، رياض. (2017م). **دراسات في الأدب الفلسطيني**. (ط1). مكتبة الرمحي أحمد، مكتبة كل شيء.

كناعنة، شريف؛ بسَّام الكعبي. (1987م). **القُرى الفلسطينية المُدمَّرة: قرية عين حوض**. (د.ط). جامعة بيرزيت: مركز الوثائق والأبحاث.

كنفاني، غسان. (1968م). **الأدب الفلسطيني المُقاوم تحت الاحتلال 1948–1968**. (ط1). بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

كنفاني، غسان. (2015م). **أدب المقاومة في فلسطين المحتلة عام 1948 – 1966م**. (ط1). بيروت: دار منشورات الرمال، مؤسسة غسان كنفاني الثقافية.

كنفاني، غسان. (2016م). **ثورة 36–39 في فلسطين: خلفيات وتفاصيل وتحليل**. (ط1). جمهورية مصر العربية: دار الوطن للطبع والنشر والتوزيع.

كنفاني، غسان. (2016م). **في الأدب الصهيوني**. (ط1). جمهورية مصر العربية: القليوبية، دار الوطن للطبع والنشر والتوزيع.

الكيالي، عبد الوهاب. (1990م). **تاريخ فلسطين الحديث**. (ط10). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ماركس، كارل. (د.ت). **مخطوطات كارل ماركس لعام 1844**. (د.ط). ترجمة: محمد مستجير مصطفى، القاهرة: دار الثقافة الجديدة.

المرعشلي، أحمد عبدالهادي هاشم، أنيس الصايغ، وآخرون. (1984م). **الموسوعة الفلسطينية**. (ط1). دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية.

موريس، بيني. (2013م). **مولد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين**. (د.ط). ترجمة: عماد عواد، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 406.

النخيلي، آمال. (2011م). **الذات الرائية في شعر الزهد ديوان أبي العتاهية نموذجا**. (ط1). سورية: دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع.

نصرالله، إبراهيم. (2012م). **زمن الخيول البيضاء**. (ط6). بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف.

هيجل، غِيُورْغْ فِلْهِلْم فريدريش. (2006م). **فينومينولوجيا الروح**. (ط1). ترجمة وتقديم: ناجي العوْنلّي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية.

يقطين، سعيد. (2010م). **قضايا الرواية العربية الجديدة الوجود والحدود**. (ط1). القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع.

يوسف، أحمد محمد أحمد أبوعيسى. (1991م). **شيخ الانتفاضة: العالم الجليل الشيخ أحمد ياسين**. (ط2). دبي: دار الأمة للنشر والتوزيع.

ثانيا: أطروحات الدكتوراه

الخطيب، جهينة عمر. (د.ت). **تطور الرواية العربية في فلسطين 1948-2009م**، رسالة دكتوراه، من الموقع الإلكتروني تاريخ الدخول: 2019/7/5م: https://www.researchgate.net/publication/327477459

عدوان، عدوان نمر. (2005م). **المكان في الرواية الفلسطينية بعد أوسلو1993**. أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا.

ثالثا: رسائل الماجستير

أبو سالم، أحمد فائق. (2013م). **الهَويَّة والاغتراب في روايات حسن حميد**. فلسطين: جامعة القدس المفتوحة، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها.

أوغرب، عبدالله. (د.ت). **الذات والآخر الغربي في روايتي الغربة واليتيم لعبدالله العروي**، رسالة ماجستير في اللغة العربية، جامعة أبوبكر بلقايد- تلمسان-، الجمهورية الجزائرية الديموقراطية.

أيوب، محمد. (1996م). **الشخصية في الرواية الفلسطينية المعاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة 1967-1993**. رسالة ماجستير، نابلس: جامعة النجاح الوطنية.

بشارات، أحلام محمد سليمان. (2005م). **البطل في الرواية الفلسطينية في فلسطين من عام 1993-2002** رسالة ماجستير، نابلس: جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا.

حويل، جمال مصطفى عيسى. (2012م). **معركة مخيم جنين التشكيل والأسطورة نيسان 2002**. رسالة ماجستير في الدراسات العربية المعاصرة، جامعة بيرزيت.

ربيحة، بوطيبة. (2017م/1438هـ). **بنية الخطاب الروائي عند إبراهيم نصرالله: زمن الخيول البيضاء أنموذجا**. رسالة ماجستير، الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية، جامعة زيان عاشور، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها.

زياد، محمود موسى محمود. (2006). **الأدب الفلسطيني في سجون الاحتلال الاسرائيلي 1987–2000**. رسالة ماجستير في الدراسات العربية المعاصرة، فلسطين: جامعة بيرزيت.

سويطي، بلقيس. (2021م). **رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله دراسة سيميائيّة**. رسالة ماجستير، جامعة الخليل.

شحات، وائل حسن. (2013م). **الأرض والهوية في شعر محمود درويش: دراسة فنية**، رسالة ماجستير، جامعة جنوب الوادي، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، مصر.

الصليبي، حسين محمد حسين. (2018م). **الرواية الفلسطينية وتجلياتها الفنية والموضوعية في الأرض المحتلة بعد اتفاقية أوسلو 1992م**. رسالة ماجستير، فلسطين، غزة: الجامعة الاسلامية.

عبد اللطيف، سهيلة. (2018م). **واقع الشخصية المركزية في الأدب: مقارنة بين الرواية الفلسطينية والرواية البرازيلية**. رسالة ماجستير، فلسطين: جامعة بيرزيت.

عبدربه، ليانة عبدالرحيم كمال. (2012م). **المكان وتحولات الهويّة عند محمود درويش**. رسالة ماجستير في الدراسات العربية المعاصرة، فلسطين: جامعة بيرزيت، كلية الآداب.

العيسى، منال. (2010م). **الذات المروية على لسان الأنا دراسة في نماذج من الرواية العربية**. رسالة ماجستير في اللغة العربية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية.

قوس، سليمان. (2006). **المقاومة والإرهاب رؤية تاريخية للحالة الفلسطينية**. رسالة ماجستير في الدراسات الدولية، جامعة بيرزيت.

المشهداني، مروة أسامة. (2022م). **تماثُل البنى الدالة وتجليات الوعي الذاتي في (السيرواية) (رأيت رام الله) لمريد البرغوثي نموذجا**. رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، جامعة قطر.

نصر، كريمة زكي أحمد. (2015م). **الاتجاه الاجتماعي في روايات الكاتبة سحر خليفة**. رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، غزة: جامعة الأزهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

رابعا: المقالات العلمية والمراجع الإلكترونية

أكرم روشنفكر، **الأدب العربي المقاوم بين القومية والإسلامية**، بحث مقدم ضمن أوراق المؤتمر الثالث للّغة العربية وآدابها الاتجاهات الحديثة في الدراسات اللغوية والأدبية، ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، (ط1. 2011م).

باسم النبريص، من حال الشوك إلى حال القرنفل، مقال منشور على موقع العربي الجديد، بتاريخ 2023/12/17م، رابط الصفحة: https://www.alaraby.co.uk/culture

بلال رمضان، **"بينما ينام العالم" رواية تتبع رحلة أربعة أجيال فلسطينية**، موقع صفحة اليوم السابع، بلال رمضان، الأحد 19 أغسطس 2012، تاريخ الدخول: 2019/7/5م: https://www.youm7.com/story/2012/8/19/بينما-ينام-العالم-رواية-تتبع-رحلة-أربعة-أجيال-فلسطينية/761102

حسن حميد، الكتابة حقل القلق والمخاوف وأي نص أدبي لا يوفر المتعة هو نصٌّ شكاء، لقاء مع الكاتب حسن حميد، حوار: بسّام جميدة، الصفحة الإلكترونية لجريدة عُمان، السبت، 29/ جمادى الأولى/ 1444هـ، 24/ ديسمبر/ 2022م، رابط الصفحة:

https://www.omandaily.om/%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9/na/%D8%AF-%D8%AD%D8%B3%D9%86-%D8%AD%D9%85%D9%8A%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8%D8%A9-%D8%AD%D9%82%D9%84-%D9%84%D9%84%D9%82%D9%84%D9%82-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AE%D8%A7%D9%88%D9%81-%D9%88%D8%A3%D9%8A-%D9%86%D8%B5-%D8%A3%D8%AF%D8%A8%D9%8A-%D9%84%D8%A7-%D9%8A%D9%88%D9%81%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D8%B9%D8%A9-%D9%87%D9%88-%D9%86%D8%B5-%D8%B4%D9%83%D8%A7%D8%A1

حسن حنفي، **الحوار مع الذات، بحث مقدم ضمن أوراق المؤتمر العلمي الثامن 28– 30 تموز –يوليو– 2003م**، تحرير ومراجعة: صالح أبو أصبع، عزالدين المناصرة، محمد عبيد الله، عمّان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، جامعة فيلاديلفيا، كلية العلوم والآداب.

رامي أبو شهاب: **رواية "قبل أن تنام الملكة" لحزامة حبايب الشتات الفلسطيني.. الوعي المركب**، مقال في موقع القدس العربي، 10 يوليو 2018م، https://www.alquds.co.uk تاريخ الدخول: 2019/7/6م

رامي أبو شهاب، النكبة في رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله: المتخيل والوعي التاريخي، جامعة الكويت: **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، مجلس النشر العلمي، العدد151، (2020م).

رامي أبو شهاب، **رواية قبل أن تنام الملكة لحزامة حبايب: الشتات الفلسطيني الوعي المركّب**، مقال في جريدة القدس العربي، (10 يوليو 2018م).

رامي أبوشهاب، **فلسطين كما يراها مريد البرغوثي: من يجرؤ على تجريدها الآن وقد تجلّت جسدا أما الحواس**، مقال منشور على موقع القدس العربي بتاريخ (19– فبراير–2021).

رامي أبوشهاب، **متشائل إيميل حبيبي: نتاج الصدمة، خطاب متشكك محموم**، مقال منشور على موقع القدس العربي بتاريخ (19-فبراير-2017).

زين العابدين محمود العواودة، البُنية الدلالية لخِطاب السيرة الروائية الفلسطينية المنجز بعد أوسلو: سردية رأيت رام الله وولدت هناك ولدت هنا للأديب مريد البرغوثي نموذجا، فلسطين: جامعة بيت لحم، **مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية**، المجلد العشرين، العدد1، (2012م).

سمير حاج، **"بينما ينام العالم" لسوزان أبو الهوى: رواية المنفى الفلسطينيّ في عيون جيل ما بعد النكبة**، موقع القدس العربي، مقال نشر بتاريخ 21 ابريل 2017م، موقع القدس العربي، موقع إلكتروني تاريخ الدخول: 2019/7/24م: https://www.alquds.co.uk/بينما-ينام-العالم-لسوزان-أبو-الهوى،

السيد نجم، **سرد المنفى في الرواية الفلسطينية، فدوى فؤاد نموذجا: قراءة في رواية غواية الحرب**، موقع نقطة وأول السطر ثقافي سياسي فكري، موقع إلكتروني: https://noqta.info/page-118216-ar.html، بتاريخ 2019/7/24م.

الشوك والقرنفل: قراءة في رواية يحي السنوار، مقال منشور على صفحة موقع بنفسج، رابط الصفحة: https://bnfsj.net/post/2064/-

صفحة الموسوعة التفاعلية للقضية الفلسطينية، شخصيات مقدسية، هند الحسيني، تاريخ الاطلاع الأخير 30-10-2022م:
https://www.palquest.org/ar/biography/14220/%D9%87%D9%86%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86%D9%8A

فخري صالح، **النكبة والرواية وتبلور الهويَّة الوطنية الفلسطينية**، مقال منشور في الصفحة الإلكترونية لمجلة الجديد، رابط الصفحة: https://www.aljadeedmagazine.com/%D8%A7%D9%84%

كفاح طافش، **رمز الحصان في رواية زمن الخيول البيضاء**، مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي.

لاورا أوفار ماير، **رواية الأزرق بين السماء والماء عن الحب والألم في غزة**، ترجمة: حامد سليمان، مقال منشور على صفحة موقع قنطرة، تاريخ الاطلاع الأخير: 15-8-2021.

لقاء سوزان أبو الهوى على منصة اليوتيوب، **قناة SOAS University of London**، تاريخ الاطلاع الأخير 2022/10/30م: https://www.youtube.com/watch?v=elSDU0chdmU

لقاء للكاتبة سوزان أبو الهوى على منصة اليوتيوب، **قناة afikra**، تاريخ الاطلاع الأخير: 2022/10/30م: https://www.youtube.com/watch?v=VrbDNE70pZY

لقاء للكاتبة سوزان أبوالهوى على منصة اليوتيوب، تاريخ الاطلاع الأخير: 20-4-2022م، https://www.youtube.com/watch?v=SD3yR_C9nYQ

لقاء مع الأسير القائد ثائر حمَّاد بصيغة Pdf، معتقل نفحة، **مجلة الدراسات الفلسطينية**، العدد129، (2022م).

لقاء مع الكاتبة سوزان أبو الهوى على منصة اليوتيوب، **قناة PhilaAthenaeum**، تاريخ الاطلاع الأخير 10-9-2022م: https://www.youtube.com/watch?v=dbfCEyGG2Ak

لقاء مع الكاتبة سوزان أبو الهوى، على **قناة UCP**، تاريخ الاطلاع الأخير: 3-2-2023، 9:19 PM . https://www.youtube.com/watch?v=-iMxDVAudBI

محمد المجتبى عبدالعزيز عثمان: **المقاومة بين الذاتية والموضوعية، ثقافة المُقاومة**: أعمال الندوة الفلسفية السادسة عشر التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية بجامعة القاهرة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، (ط1. 2007م).

مريم جبر فريحات، "الحس الاغترابي في أعمال روائية لغسان كنفاني"، **مجلة جامعة دمشق**، الأردن: كلية إربد الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، العدد 3+4، المجلد26، (2010م).

نادي ساري الديك، المقاومة المسلحة أعادت الأمل ونهضت بالأدب، **مجلة الحياة الجديدة الثقافية**، (العدد 6110، 2012/11/8م)، مقال منشور بصيغة PDF.

نورا وريا عزالدين، الفنتازيا في رواية استراحة مفيستو لبرهان شاوي، العراق: جامعة صلاح الدين، كلية التربية، مقال منشور في **مجلة "تسليم سردي"**، المجلد الخامس، العددان 9-10، (2019م).

هُدى أبوغنيمة، **الحوار مع الذات**، بحث مقدم ضمن أوراق المؤتمر العلمي الثامن 28-30 تموز –يوليو- 2003م، تحرير ومراجعة: صالح أبو أصبع، عزالدين المناصرة، محمد عبيد الله، عمّان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، جامعة فيلاديلفيا، كلية العلوم والآداب.

وداد عبدالفتاح خليفة، **التراجيديا الانسانية في روايتي قصة عن الحب والظلام لعاموس عوز وبينما ينام العالم لسوزان أبو الهوى: دراسة مقارنة**، (القاهرة: جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإنسانية).

وسام حسين عبدالرزاق، حركة الشيخ عزالدين القسَّام وأثرها على الحركة الوطنية الفلسطينية حتى عام 1936م، (**مجلة مداد الآداب**، العدد4، الجامعة العراقية، كلية الآداب، د.ط، د.س).

وفاء عوني الخضراء، تبادل الأدوار بين الإنسان والحيوان في رواية زمن الخيول البيضاء، **مجلة دراسات، للعلوم الإنسانية والإجتماعية** المجلد 37، العدد3، (2010م).

وليام العوطة، **مفهوم الاغتراب في الماركسية**، مقال منشور بصيغة PDF، ص2، على موقع أكاديميا للأبحاث الالكترونية، الاطلاع الأخير بتاريخ: 24-3-2021: https://www.academia.edu/3842790/

خامسا: المراجع الأجنبية

Abulhawa, Susan. (2020). *Against the Loveless World: A Novel*. Simon and Schuster.

Abulhawa, Susan. (2010). *Mornings in Jenin*. Bloomsbury Publishing.

Abu-Shomar, Ayman M. "Diasporic Reconciliations of Politics, Love and Trauma: Susan Abulhawa's Quest for Identity in "Mornings in Jenin". "*Advances in Language and Literary Studies* 6.2 (2015): 127-136. https://files.eric.ed.gov/fulltext/EJ1128246.pdf

Abu-Shomar, Ayman. "Unreconciled Strivings of 'Exilic Consciousness': Critical Praxis of Resistance in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin. "*Journal of Holy Land and Palestine Studies* 18.1 (2019): 101-120.

https://www.researchgate.net/profile/Ayman-Abu-Shomar/publication/332794075_Unreconciled_Strivings_of_'Exilic_Consciousness'_Critical_Praxis_of_Resistance_in_Susan_Abulhawa's_Mornings_in_Jenin/links/5e23b9aa299bf1e1fabd44a6/Unreconciled-Strivings-of-Exilic-Consciousness-Critical-Praxis-of-Resistance-in-Susan-Abulhawas-Mornings-in-Jenin.pdf?_sg%5B0%5D=started_experiment_milestone&origin=journalDetail

Ahmad, Farhan. Gender Roles and Perceptions: The Refugee Experience and Political Agency in Susan Abulhawa's The Blue Between Sky and Water and Against the Loveless World. *Journal of arts & humanities*, 53. https://iafor.org/journal/iafor-journal-of-arts-and-humanities/volume-9-issue-1/article-4/

Al-Ma'amari, Abdulrahman, Noraini Md Yusof, and Ravichandran Vengadasamy. "Strangers in My Home The Quest for Identity in Mornings in Jenin". *Procedia Social and Behavioral Sciences* 118 (2014): 29-36. https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S1877042814015341

Andresen, Helle Marie. *'Someone Stole My Story': Home and Trauma in two Palestinian Novels*. MS thesis. University of Agder, 2018. https://uia.brage.unit.no/uia-xmlui/bitstream/handle/11250/2562924/Andresen%2C%20Helle%20Marie.pdf?sequence=1

Badwan, Noora. "Waging War on the Womb: Women's Bodies as Nationalist Symbols and Strategic Victims of Violence in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin." (2018). https://scholarship.shu.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=3660&context=dissertations

Bibi, Khadija, Abdul Rashid, and Unaiza Khudai. "Palestinian Woman's Identity Shift from Implicit-Being to Explicit-Becoming: A Review of Susan Abulhawa's Against the Loveless World." *sjesr* 5.3 (2022): 90-98. https://ojs.sjesr.org.pk/index.php/ojs/article/view/857

Curry, Brianna Nicole. *Nationalism and Postcolonial Feminism: A literary approach to Palestinian women's resistance*. Diss. Wichita State University, 2021. https://soar.wichita.edu/bitstream/handle/10057/21587/t21009_Curry.pdf?sequence=1

Lessen, Klara Gesine Van. *Negotiating Contested Identities: Palestinian American Identity in Poems by Lisa Suhair Majaj, Naomi Shihab Nye, and Susan Abulhawa*. 2019. Master's Thesis. The University of Bergen. https://bora.uib.no/bora-xmlui/handle/1956/20306

Naguib, Assmaa Mohamed. Representations of 'Home' from the Setting of 'Exile': Novels by Arab Migrant Writers. 2011. https://ore.exeter.ac.uk/repository/handle/10036/3839

Naveed, Wardah, et al. "Cultural Trauma In The Blue Between Sky And Water." *Webology (ISSN: 1735-188X)* 18.3 (2021). https://www.researchgate.net/profile/Farhan-Ali-28/publication/358355859_Cultural_Trauma_In_The_Blue_Between_Sky_And_Water/links/61fd5c9011a1090a79d16599/Cultural-Trauma-In-The-Blue-Between-Sky-And-Water.pdf

Osamnia, Soumia, and Yasmina Djafri. "Trauma Survival and the Use of Scriptotherapy as a Medium of Healing in Susan Abulhawa the Blue between Sky and Water (2015) And Sapphire's Precious (1996)." *Altralang Journal* 2.02 (2020): 241-260. https://www.univ-oran2.dz/revuealtralang/index.php/altralang/article/download/87/78

Praba, I. Felicita Mary. "A Critique of Susan Abulhawa's: The Blue Between Sky and Water Based on Elaine Showalter's Cultural Model of Gynocriticism" *Literary Endeavour*: 31. https://literaryendeavour.org/special-issues/SE-Jan-2019-3.pdf#page=43

Qabaha, Ahmad. "Owning One's Story is as Important as the Ownership of Physical Space": An Interview with Susan Abulhawa." *Bethlehem University Journal* (2019).

https://www.scienceopen.com/hosted-document?doi=10.13169/bethunivj.36.2019.0133

Raslan, Iman. "Trauma and Resistance in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin." *International Journal of Arabic-English Studies* 17.1 (2017): 183-202. https://www.researchgate.net/profile/Iman-Raslan-3/publication/366157733_Trauma_and_Resistance_in_Susan_Abulhawa's_Mornings_in_Jenin/links/639375eae42faa7e75ad0255/Trauma-and-Resistance-in-Susan-Abulhawas-Mornings-in-Jenin.pdf

Shehzadi, Kanwal, et al. "A Post-Colonial Study of Dislocation in Susan Abulhawa's:'The Blue Between Sky and Water'." *PalArch's Journal of Archaeology of Egypt/Egyptology* 18.08 (2021): 5142-5149. https://archives.palarch.nl/index.php/jae/article/view/10402

Silem, Nachida, and Naima Hafsa. "The Struggle for Identity in Susan Abulhawa's Mornings in Jenin (2010)." (2017).

http://bib.univ-oeb.dz:8080/jspui/bitstream/123456789/3765/1/The%20Struggle%20for%20Identity%20in%20Susan%20Abulhawa%E2%80%99s%20Mornings%20in.pdf